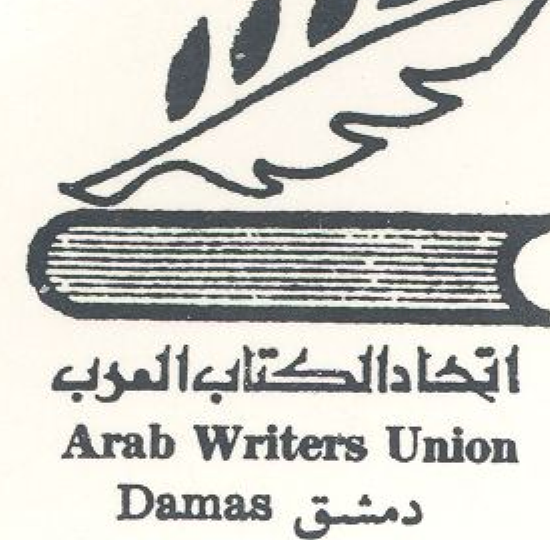
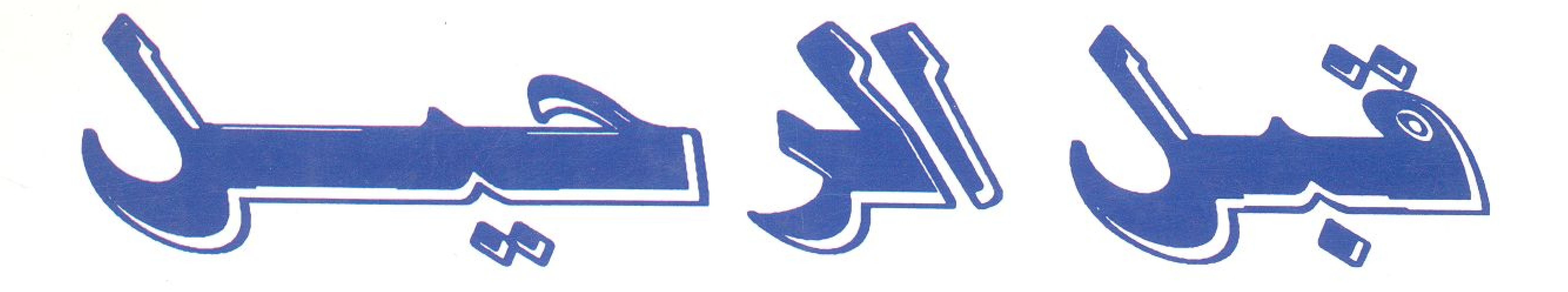


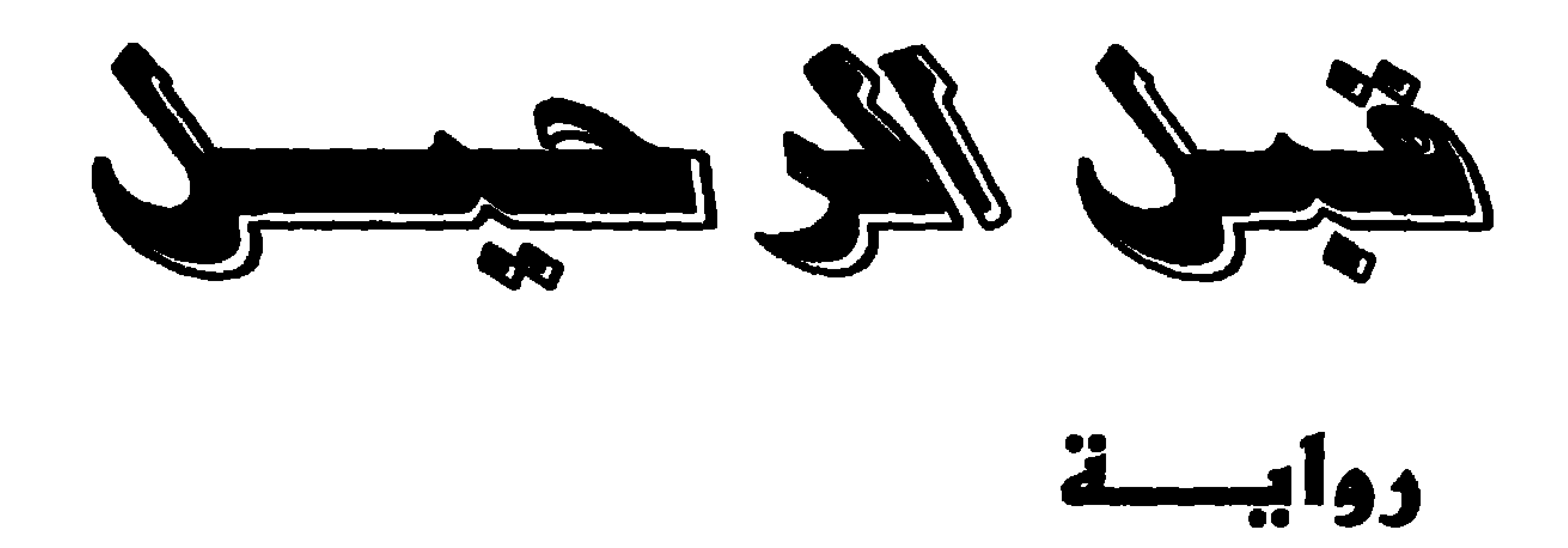
يوسف جاد الحق



قبل الرحيل

رواية

يوسف جاد الحق



رواية

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٧

تصميم الغلاف للفنان : أنور رجا

اهـــداء

إليكما :

أمي وأبي

تنعمان بالرقاد وتحت ثراها

أشواقي تناديني ..

بأن آوي إلى جواركما ..

فثراها منيتي ..

إليكم :

أبنائي

وائل، هنادي، زياد

ريم، ثناء، أحمد، نور

ليكن يقينكم على المدى

بأنكم عائدون إليها ..

ولسوف تعرفون يوماً

كيفَ الطريق إليها..

يوسف

- ١ -

تقع قريتنا فوق رابية تتوسط سهلاً فسيح الأرجاء، يحيط بها من كل جانب، يكتظ بالكروم وبيارات البرتقال، كما تنتشر في بعض جنباته حقول القمح وبساتين الفاكهه من كل نوع ولون.

وقد اختلفت فيها آراء أهلها قبل غيرهم. فمنهم من يقول إنها ليست سوى هضبة عادية، أوجدتها الطبيعة، فيما يقول آخرون انها تقوم على أنقاض مدينة رومانية غابرة. أما من زارها من اليهود القاطنين في مستعمرة (رخبوت) القريبة، أو (ريشون)، عيون قارة، الأبعد قليلاً، فقد زعموا أنها بنيت فوق أنقاض بلدة يهودية من عهد داوود وسليمان.

تشغل المباني، متباينة الأشكال، سفوح الرابية، فتبدو للرائي، عن بعد، كأنها أهرامات الفراعنة القدماء. وعند القمة يقوم مسجد القرية الأثري، الذي يرجع تاريخ بنائه الى أوائل الفتح الأسلامي لهذه الديار، قبل نيف وثلاثة عشر قرناً. وتكتنف المسجد ساحة فسيحة يتجمع فيها، معظم النهار وشطراً من الليل، لفيف من الباعة الذين لا يفتأون يعلنون عن بضاعتهم بأصوات تملأ المكان ضجيجاً : عرقسوس.. فلافل..ملبس..كرابيج حلبية... مع أن هذه لم تكن (كرابيج)و لا هي من حلب، كما تبين لي فيما بعد، الأمر الذي أكد لي كم يخدع الكبار الصغار دون أن يرف لهم جفن..!

تتشعب أزقة القرية الضيقة المتعرجة بين بيوت عتيقة، شيد بعضها من القش واللبن، وبعضها الآخر من الحجارة المقامة على غير انتظام، تكاد تتلاصق شرفاتها ونوافذها. عدد قليل منها بدا أكثر حداثة، وتلك هي منازل العائلات الثرية القليلة التي تمتلك الأراضي وبساتين البرتقال. من بين هذه المنازل دار فخمة ذات طابقين فسيحين، تملكها عائلة (الجمل)، تقع بجوار منزلنا الصغير الذي حاولوا شراءه من والدي مراراً دون أن يفلحوا، مع أنهم كانوا يملكون أكبر بيارات القرية، فضلاً عن أراضي شاسعة. وهم التجار الوحيدون للحمضيات فيها. حيث كانوا يتعهدون بيارات قريتنا والقرى المجاورة، بالضمان، ويستخدمون الكثير من أهلها طوال فصل الشتاء في موسم البرتقال، لقطفه

وتغليفه، ثم نقله إلى مرفأ يافا، لكي يشحن، من ثم، الى مرافئ أوروبا، وقد رسمت على صناديقه العلامة التجارية التي طبقت شهرتها الآفاق : "برتقال يافا Jaffa oranges".

على الرغم من كل شيء كانت (يبنا) تبدو لوحة فنية، ارتجلتها الطبيعة على غير نسق أو نظام، فصنعت من ذلك المزيج المتنافر جمالاً أخاذاً.

ولئن كانت قريتنا صغيرة تكاد تنعدم فيها الخدمات العامة، لإهمال السلطات لها - ولم يكن ذلك استثناء لها على أية حال - إلا أن الحياة فيها لم تكن على قدرٍ كبير من السوء، فهي ذات مناخ جميل، وطقس معتدل ومناظر طبيعية خلابة. كما أنها تتمتع، بسبب موقعها، بعدد من المزايا التي لا يستهان بها، إذ يمر عبر أطرافها الشرقية خط السكة الحديدية القادم من محطة اللد شمالاً، والمتجه جنوباً نحو غزة ورفح، ثم العريش فالقنطرة في الأراضي المصرية. وتقوم على جانبيه أشجار الكينا الباسقة، ملقية بظلالها الوارفة على امتداده، باعثة مع تماوج الرياح، أنساماً عليلة يتفيؤها المارة من فلاحين وعمال، في غدوّهم ورواحهم. كما يمتد عبر الأطراف الغربية للقرية طريق عريض معبد يتجه شمالاً إلى يافا، ماراً بقرى عربية عديدة، غرست بينها بعض المستعمرات اليهودية، بمعرفة حكومةُ الانتداب البريطاني وحمايتها. وبمحاذاة هذا الطريق، غرباً، تقع الساحة الرئيسية للقرية والتي تقام فيها، عادة، سوق الثلاثاء الشهيرة، التي يؤمها العديد من أهالي القرى المجاورة، حيث تتوافر فيها كل الأشياء، بدءاً من الخضار والفواكه، حتى الدواب والدواجن والغلال.

وعند الزاوية الشمالية لهذه الساحة شيدت المدرسة الابتدائية الوحيدة فيها، من حجر أبيض يميزها عما حولها. وبجوارها تماماً تقع المقبرة التي لم تكن توحي بالوحشة، بل كانت أشبه بمنتزه عام لما يتخللها من أشجار ظليلة تحتضن رمالها الذهبية، يخترقها طريق يفضي إلى البحر عبر الكثبان الرملية، الحافلة بكروم العنب وأشجار التين والجميز، تتماوج على سفوحها وبين جنباتها في اتساق رائع بفوضاه وعدم انتظامه. وعلى مرتفع يحف بهذا الطريق ينتصب مقام - سيدنا أبي هريرة - كما كانوا يطلقون عليه، في غير قليل من الاجلال والتعظيم، والذي اعتاد الناس أن يتخذوه مزاراً، ومكاناً للوفاء بنذورهم. كما ألفوا أن يقيموا هنالك، وتحت ظلال أشجار الكينا العتيقة التي تكتنفه، سباق الخيل في مناسبات الأعياد والأعراس مع عزف الأرغول ودقات الطبول، وحلقات الدبكة.

جو قريتنا أخاذ ساحر. ففي الصيف تنساب النسائم الرقيقة، القادمة من

البحر خلال البساتين والكروم، فترطب أجواء أزقتها الضيقة ومنازلها الوادعة. وفي الشتاء تكسو سماءها الغيوم، وتهطل الأمطار بوفرة مبشرة بقدوم الخير والخصب. يحلو لنا، عندئذ، أن ندلف خارج منازلنا تحت وابل المطر الغزير، على الرغم من تقريع أمهاتنا لنا، كيما نستمتع بمرأى الماء المتدفق منحدراً من أعالي القرية، خلال قنواتها الصخرية المتعرجة، مرسلاً خريراً صاخباً، بلونه القرميدي الداكن، الذي اكتسبه في رحلته عبر أسطحة المنازل وجدرانها الطينية، ومن تربة الأرض الحمراء. نغوص وسط مجرى مائي، كثيراً ما نسيء تقدير قوته، فلا تلبث المياه أن تسحب أحدنا، فنهرع إليه صائحين مهللين، في مزيج من الفزع والفرح. وكلما لاح لنا أن الخطر الذي يتهدد زميلنا أكبر كانت بهجتنا أوفر..!

يقع منزلنا على الطريق الرئيسي، عند منتصف السفح صعوداً وهذا الطريق هو صلة الوصل بين أعلى القرية وأدناها. كما أنه يشرف على البيوت الواقعة أسفل بيتنا، والمقاهي والدكاكين البادية عن بعد بمعروضاتها متباينة الألوان والأنواع، والمضاءة ليلاً بمصابيح الغاز.

ولقد كنا نحظى، ونحن جلوس على الشرفة (الليوان) وبفضل موقعنا هذا، بسماع الأغاني ونشرات الأخبار المنطلقة من جهاز الراديو في مقهى (حامد القاضي) عن كثب، فيما تتماوج أمام أبصارنا أشجار البرتقال، مترامية حتى الأفق.

لم يكن الراديو شيئاً مألوفاً بعد في تلك الأيام. لم يكن في القرية كلها سوى عدد منها لا يبلغ أصابع اليد الواحدة، يملكها سراة القوم، وفي طليعتهم المختار، وقد كان هذا خالاً لأمي. كان الناس يحارون في تفسير تلك الظاهرة العجيبة. حسب بعضهم أن ذلك الجهاز يحتوي رجلاً بداخله يصدح بالغناء، وهو نفسه يتلو القرآن، ويأتيهم بأنباء المشرق والمغرب أيضاً، واخبار الأولين والأخرين. كل أولئك وهو قاعد في مكانه لا يريم. إذن هذه احدى علامات الساعة واقتراب يوم القيامة بلا ريب ..!

عزز هذا اليقين، حجم الجهاز الذي كان يقارب المتر مربعاً أو مكعباً على أقل تقدير، مما يتيح للرجل الجلوس داخله في راحة تامة...!

في أمسيات الصيف، كنا نمضي سهرتنا في تلك الشرفة، أبواي، وأخواي، الأكبر والأصغر سعيد وأحمد. وكانت أمسياتنا أكثر ما تكون بهجة، وجمالاً أيام الانتصاف من الشهر القمري، حين يطل البدر قرصاً مستديراً ناصعاً من وراء

الأفق، نرقبه فيما هو يمضي صعداً نحو قبة السماء، مضفياً على الكون والأشياء نوراً وبهاء، يغمر نفوسنا بالطمأنينة والسلام. ثم لا نلبث أن نعمد إلى اختراع الحكايا، وترديد ما يختلقه أو يرويه الوالدان من أساطير عنه، فيما تتناهى إلى أسماعنا أغنية من بعيد. وتبلغ سعادة أمي أوجها إذا كانت (أم كلثوم) تردد أغنيتها الأثيرة لديها :

.... على بلدي المحبوب وديني ... زاد وجدي والبعد كاويني.

تتجاوب أصداؤها في كل الأرجاء برنينها الساحر، تثير الشجن والحنين إلى شيء غامض مجهول.

- ٢ -

كان أبي سيد البيت المطاع. كلمته نافذة، ورأيه لا يناقش. شأنه في ذلك شأن سائر الرجال. وكانت أمي، بدورها، كغالبية النساء الريفيات، تجلُّ أبي وتوقره. لا تجادله في أمر، ولا ترد له مطلباً، إيماناً منها بالحكمة المأثورة القائلة بأن الزوج هو "الرب الأصغر" وأن غضبه "من غضب الخالق" جلَّ شأنه.

ولم يغير من هذا الوضع عشرتهما الطويلة الأمد تحت سقف واحد. فهي لم تكن تجد في نفسها الشجاعة الكافية لمفاتحته في شأن من الشؤون العامة أو الخاصة، دون أن تقدم لذلك بشيء من التسويغ او الاعتذار المسبق.

من هنا كانت مهمتها حرجة في ذلك الصباح، مما جعلها تقدم طعام الأفطار وهي في حالة من الاضطراب، مع أن المسألة لم تكن على تلك الدرجة من الخطورة. كان عليها أن تطلب اليه - أو على الأصح أن ترجوه - بأن يصطحبني إلى المدرسة، إذ كنت قد تأخرت في اليوم السابق بضع دقائق عن بدء الدرس الأول، وطلب إليَّ الأستاذ (عبد الخالق) أن أحضر في اليوم التالي بصحبة ولي أمري. ترددت والدتي قليلاً قبل أن تخبره بذلك، خشية أن يصبَّ جام غضبه علينا جميعاً، ممثلين في شخصها. أو أن يوجه لها عاصفة من اللوم على تقصيرها في رعاية شؤون أولادها..!

كنت إذاك في أواخر السنة الثامنة من عمري. وفي الصف الثالث الابتدائي على وجه التحديد. ولم أكن قد مررت بالصفين الأول والثاني شأن من هم في مثل سني. إذ كنت قد أمضيت عامين في كتّاب الشيخ (عبد الكريم كرّيم) قبل أن أنتقل إلى المدرسة الأميرية، وفي أواخر السنة الدراسية أيضاً. وكان ذلك بسبب مشاجرة وقعت بيني وبين طفل آخر من أترابي، لطمني على أثرها معاونه الشيخ أسعد - وهو كهل ضرير - على وجهي، فخرجت للتو مهرولاً إلى دارنا القريبة، حتى دون أن أنتظر ساعة الانصراف.

لم تكن الدراسة في ذلك الكتّاب تنتظم التلاميذ صفوفاً أو فصولاً، بل كنا نجلس، كيفما اتفق، في فناء الدار المظللة بعريش من العنب. ثم نأخذ في ترديد آيات من القرآن الكريم، وراء الشيخ بأصواتنا الرنانة، التي كثيراً ما أقلقت راحة سكان الحي بأكمله. أو نعمد إلى كتابة وظيفة (الخط) طوال النهار حتى يصيبنا

الملل بالدوار. وكان ذلك الدرس مجرد نسخ للسور الصغيرة على ألواح من الأجر، دون أن نفقه لما نكتب أو نقرأ معنى. أما في فصل الشتاء فكنا نقبع على حصير في قاعة فسيحة الأرجاء، ارتفع سقفها أمتاراً عديدة كي يزيد من برودتها. ليس لها سوى نافذة واحدة تطل على فناء الدار. وتردد بيننا انها كانت تستخدم من قبل مخزناً للتبن و الغلال، وفي فترة من الفترات كانت اسطبلاً يؤوي عدداً من البغال كان يملكها أصحاب الدار فيما سلف..!

كان أبي - كغيره من الناس في ذلك الوقت - يؤمن بما كان سائداً من نظريات وأفكار بين أهل القرى، تجمع في مجملها على أن التعليم الحق وقف على الكتاب دون غيره. وأن المدارس الحكومية التي أنشأها الانكليز لا تعلم غير البدع والضلال ..عن القط والفأر والثعلب.. وراس روس.. هذا بدلاً عن تحفيظهم القرآن الكريم..! لهذا كان عسيراً إقناعه بجدوى دخولي المدرسة الحكومية لولا تلك الحادثة. من هنا يمكنك أن تدرك مدى حرج والدتي وهي تحاول مفاتحته في ذلك الشأن.

بيد أن والدي - وهذه كانت مفاجأة لأمي لم تتوقعها - استشاط غضباً. لعن الكتّاب وأصحابه. أمسك بيدي، وانطلق بي إلى دار الشيخ عبد الكريم، ليصب هنالك، وعلى رأس الشيخ أسعد (معاونه) سيلاً من عبارات التأنيب والتنديد. بل وليعلن على الملأ بأن ولده هذا لن يبقى في ذلك الكتّاب بعد ذلك اليوم. وأن هذا الولد "خسارة فيكم بالله العظيم.. ". فأمثاله من النابهين لا ينبغي لمثل هذا المكان أن يحظى بهم. وهكذا خسر الشيخ عبد الكريم، بسبب الشيخ أسعد، أرغفة الخبز، وأعداداً من البيض المسلوق، ومواد غذائية أخرى كان يتقاضاها أجراً، بمثابة رسوم تعليم..!

لم يكن أبي قاسياً تماماً، لكنه كان حازماً، فما أن غادرنا الكتّاب، في ذلك الصباح، ثم يممنا شطر المدرسة الحكومية، استجابة لرجاء أمي، حتى أخذ يحادثني، لكأنما يحاول التسرية عني، أو إشعاري برضاه علي، لا أدري. مررنا بدكان البقالة لصاحبها (أبو العبد الرملاوي) الذي سرعان ما هب واقفاً، ليرد تحية الصباح بحفاوة واضحة، داعياً أبي لمشاركته تناول القهوة. ثم مررنا أمام دكان الحلاق (أحمد الجمل). وكان هذا منهمكاً برش الرصيف أمام دكانه بالماء، وذلك على الرغم من مطر الليلة المنصرمة. انعطفنا يميناً لنطل على الطريق العام. سألني عن موعد الامتحانات المقبلة في المدرسة. ثم ربت على كتفي، وهو يشدني بيده من كتفي البعيد عنه، كي التصق به، وهو يقول:

- اذا كان ترتيبك جيداً فلسوف أشتري لك حذاء جديداً..!

لم تكن فرحتي، عند ذاك بالهدية الموعودة بقدر ما كانت من أجل انفراج أسارير أبي.

واصلنا سيرنا المتعرج تبعاً لانعطافات الطريق. رائحة التربة المبللة بمطر الليلة الماضية تنبعث نقية نفاذة، وهدير البحر خافتاً يأتي من بعيد، وغيوم تباينت ألوانها ما بين بنفسجي رقيق، ورمادي داكن تتراكم عند الأفق الغربي. كنت أرقب السحب وهي تسبح من فوقنا، فأنشغل بها لحظات، عن الطريق والمدرسة. أتصورها أشكالاً خرافية عجيبة كتلك التي تتراءى لنا في الأحلام.

تنبهت إلى جلبة وصياح، سرعان ما تبينت مصدرهما. كنا قد بلغنا الطريق العام، نوشك أن نقطعه إلى الطرف الآخر، حيث السوق ثم المدرسة. الناس يتحركون في ذعر. سيارات عسكرية تعبر الطريق مسرعة، ثم تنتشر في اتجاهات مختلفة. بعضها يتوقف، وبعض يتابع السير فيما الجنود يقفزون منها في كل اتجاه. انطلقوا يصيحون بالمارة وبمن هم في المقاهي مشرعين بنادقهم وحراباً لامعة في مقدماتها تثير الرعب. توقف أبي عن السير. بدا عليه القلق. تمتم بصوت خفيض:

- الانكليز.. يافتاح يا عليم.. نعود يا بني إلى البيت.. لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم..!

وعلى حين غرة أخذوا يطلقون الرصاص في مختلف الأنحاء. اجتاحني الذعر. اقتربت من أبي ألوذ به.. سمعت عنهم في المدرسة، وفي كل مكان لكنني لم أرهم رأى العين في مثل هذه الحال قبل ذلك.

صرخت في فزع:

- نعود يا أبي ..

وفي ذات اللحظة رأيته يضع يده على صدره، تجحظ عيناه.. يرتجف.. الدماء تنبثق من صدره.. تفلت يدي من قبضته.. يترنح.. يتهاوى.. يسقط.. يعقد الذهول لساني.. يا إلهي.. هذه اللحظة كنت أسمع صوته.. ارتميت فوق صدره ..أضمه.. ألتصق به - أغمره بالدموع.. أصرخ بجنون:

.. يابا.. يابا ..

وجرس المدرسة يدق وسط زخات الرصاص آتياً من مكان سحيق.

وقفت أمي قرب باب الدار مع من تجمع من الجارات إثر سماعهن أصوات الرصاص، وصياح الصبية الذين اندفعوا يتراكضون خلال الأزقة. أدركن للتو أنها عملية انكليزية أخرى. استوقفن واحداً من الغلمان، فأنبأهن بأن الانكليز قد أطلقوا الرصاص على الناس في المقاهي والطرقات والسوق.. إنهم يطلقون الرصاص في كل مكان.. أخذن يتساءلن في توجس وقلق عن السبب الذي دعا هؤلاء إلى اقتراف جرائم جديدة في قريتهم في هذا اليوم، خمنت إحداهن قائلة:

– ربما كان ذلك بسبب نسف الثوار للخط الحديدي بالأمس على مقربة من القرية .

عقبت أخرى بسخرية:

– ومتى كان هؤلاء ينتظرون سبباً يبرر ارتكاب الجريمة التي يريدون يا حبيبتي ..

تدخلت ثالثة :

– إذا كان الأمر كذلك يا أم مريم فلسوف تأتي اليوم الانذارات بالعقوبات الجماعية التي ابتكروها.. سيفرضون علينا عقوبات فادحة هذه المرة غرامات وجزاءات أيضاً..

قالت أم مريم باستنكار :

– وهل بقي لدينا ما نقدمه يا فاطمة ؟

– من قال لك، يا حبيبتي أن (إنسانيتهم) سوف تجعلهم يقدرون ظروفنا ..؟

– ولكن أليس هذا هو الظلم بعينه؟ الفاعل واحد أو اثنان أو ثلاثة، فما معنى أن يؤاخذ الجميع..؟ هذا إن كان ما فعلوه جريمة حقاً ..!

قالت (أم سعيد) وقد ظلت صامتة طوال الوقت :

– تتحدثن عن الظلم والظالمين، يا نور عيني، ووجودهم هنا، هو منتهى الظلم. بأي حق هم هنا أصلاً ..؟

سادت لحظات صمت. مضت كل واحدة منهن تضرب أخماساً في أسداس، بينها وبين نفسها، إلى أن عبرّت أم مريم عما كان يساورها من قلق:

ترى من هي المسكينة التي حلت بها المصيبة في هذا النهار ؟

ردت أم عدنان في صوت خافت تشوبه نغمة حزن طال بها العهد:

- كما ترين. نربي أبناءنا الأيام والسنين.. نفني أعمارنا في تنشئتهم يوماً بيوم، ساعة بساعة.. نبني عليهم آمالنا العريضة.. نود لو نفديهم بأرواحنا إذا أصابهم مكروه.. ثم نفقدهم في طرفة عين.. يد غريبة تجيئ من أقصى الأرض، تضغط على الزناد، وينتهي كل ما بيننا..! أطرقت النسوة إجلالاً لأم عدنان التي سبق لها أن فقدت ولدها عدنان في ظرف مماثل منذ شهور قليلة ومابرحت تتشح بالسواد .

- إنهم.. هكذا.. ببساطة متناهية يسلبوننا حق الحياة، ولا يحاسبهم أحد.

- من أجل ذلك قامت الثورة يا عزيزتي. هي التي ستأخذ على عاتقها أمر حسابهم .

قالت أم سعيد، لنفسها وهي تستمع إلى رفيقاتها، أنها سوف تطلب إلى (أبو سعيد) فور عودته، أن يقلل من خروجه منذ اليوم، ما دامت الاستهانة بأرواح الناس قد بلغت هذا الحد.

لكن خوفاً غامضاً يسري في أعماقها. بل إنها تحس بذلك الشيء المبهم يلم بها منذ أيام، دون أن تعرف كنهه أو تجد له تفسيراً. حتى أحلامها كانت في الأيام الأخيرة كوابيس مرعبة. وهي من ثم، تلعن الشيطان تارة، وتعوذ بالرحمن، تارة أخرى، مؤملة ألا يكون مبعث ذلك الانقباض سوى كآبة عارضة لن تلبث أن تزول، أو بسبب مرض خفي يلم بها لم تتبين ما هيته. آه ليت الأمر يكون كذلك..! أو هي تلك الأحداث التي تسود البلاد فتقبض النفس.

تحاول التخلص من ذلك الشعور الممض بالجنوح إلى التفكير في المستقبل، وبما يمكنها أن تتخذ من أسباب الحيطة - في نطاق صلاحياتها المحدودة - بما يضمن سلامة أبنائها، وأبيهم .

أصوات هادرة تترامى عن بعد. تقترب رويداً.. تتعالى.. تتضح معالمها أكثر فأكثر، إلى أن تتحول إلى هدير مرعد. جمهور غفير تبدو طلائعه عند ناصية الشارع. يهرع الأطفال من البيوت المجاورة على جانبي الطريق، يرفدون الموكب بانضمامهم إليه، فيكبر، ثم يكبر، حتى يضيق بهم الزقاق. همت

عائشة (أم سعيد) بأن تنادي أحدهم كي تسأله عن ذلك الشهيد المحمول على الأكف والأكتاف. غير أنها أمسكت حين رأت غلاماً يهرول نحوهن، وهو يصيح بأعلى صوته، وكأنه يعلن بشارة سوف ينال عليها مكافأة :

- الانكليز.. قتلوا عم سليم.. أبو سعيد ..!

شق الفضاء صراخها المروع فيما هي تندفع نحو الجموع، والنسوة اللائي ذهلن للحظة، أمسكن بها لمنعها من اقتحام الموكب، وهي في حالة تشبه فقدان الوعي. يخرج من بين الجمهور شقيقها (رمضان) متصدياً لها، محيطاً إياها بذراعيه، زاجراً ومناشداً :

- قضاء الله الذي لا مفر منه.. إنه شهيد يا أختاه.. هنيئاً له.. كفى.. كفى بالله عليك.. أنت عاقلة ياعائشة.. إنه قدره.. !

تصرخ في التياع :

- المجرمون.. قتلك المجرمون.. ويلهم من الله.. أين ولدي.. أين أمين ؟

هتف رمضان كي يُسمعها.. وربما ليسكتها :

- أمين بخير.. أقسم لك أنه بخير..

كنت في تلك اللحظة أهرع إليها.. أرتمي في حضنها.. يهزني النشيج هزاً، كأني ألتمس في حضنها عودة أبي للحياة.. شعرت كأني غبت عنها دهراً.. وها أنذا أعود. طفقت تضمني إليها بعنف.. تقبلني بجنون، كأنها لا تصدق أني بين يديها. غمرت وجهي دموعها.. اختلطت دموعنا معاً، وهي تغمغم بكلمات تضيع بصوتها المبحوح بين البكاء وأصوات الجموع الغاضبة .

تبين أن عدد قتلى ذلك الصباح خمسة، والجرحى ضعف هذا العدد. شيعوا جميعاً في جنازة واحدة، تحولت إلى مظاهرة تندد بالجناة، وتطالب بالاستقلال وسقوط بلفور..! حال بعضهم بيني وبين مشاهدة القبر ساعة الدفن. دعينا مع حشد من الناس إلى الغداء في بيارة أبو جبريل النجار، حيث ذبحت الخراف، وقدم طعام كثير للجميع. في (بواطي) ملأى بالأرز واللحم والرجال لا يكفون عن الحديث حول الحادث وحوادث أخرى كثيرة سبقته في قريتنا، كما في غيرها.

في دارنا واصلت النساء إحضار الطعام، ومواد أخرى كالسكر والقهوة والأرز. ولا يزيد ذلك أمي إلا حزناً وألماً وبكاءً. طفقن يعزينها بكلام كثير. يضربن الأمثال، ويرددن الحكايا من حوادث الأيام الغابرة والراهنة .

صبيحة اليوم التالي لتشييع جثمان أبي، وضعت لنا أمي على (الطبلية) فطوراً من البيض المسلوق والزيتون وخبز الطابون، وصحناً من العسل. هذا الأخير كان مما جاءت به الجارات. لم يكن العسل طعاماً مألوفاً لدينا في وجباتنا المعتادة. دار الجمل يتناولونه، ودار ابو عون وغيرهم من اثرياء القرية، أما نحن..؟

أُحسُّ بفراغ يحتلُّ مكان أبي، حيث كان يجلس بيننا، ونحن من حوله.. لكن ها هو ذا أمامي في مكانه المعتاد. صغيرتنا علياء تقبع في حجره. يضحك لها.. يضمها إليه.. يمسِّد شعرها.. يضع اللقمة في فمها بعد أن يغمسها بالعسل.. تسمَّرت يدي في مكانها قبل أن تبلغ الطبق. انفجرت بغتة باكياً، بصوت ارتاعت له أمي الجالسة قريباً منا مع جاراتها، فأقبلت مسرعة، تاركة النسوة اللواتي ملأن المكان صخباً. تبعنها سراعاً. واحتضنتني أمي وبصوت مبحوح : " مالك يمّة.. " انفجرت علياء أيضاً تنشج بصوت عال. بادرت خالتي الى حملها.. تلصقها بصدرها.. تهدهدها.. تقبلها وهي تردد بصوت يخنقه البكاء .

".. مالك يا حبيبتي.. اسم الله عليك.. الله يجازي أولاد الحرام.. أبوك مسافر بكره ييجي ياحبيبتي ...

أبي يرمقنا بعينين حزينتين.. يمضي بعيداً يتلاشى في الغمام المائل مابين عينيَّ والسماء..

ران على المنزل سكون حزين. أقيم فيه الحداد. ارتدت أمي ملابس سوداء أضفت عليها مزيداً من الجلال والمهابة. أنظر إليها فأكاد لا أعرفها لفرط تغيرها. فقد علا وجهها شحوب ينم عن حزن كظيم. ذبلت عيناها، وفارقتها ابتسامتها العذبة، وتوارث خصلات شعرها الفاحم التي كانت تزيد من نضارة محياها، تحت منديل أسود، قلما تزيحه عن رأسها .

اعتكفت في بيتها لا تبرحه. وبدت منطوية على نفسها تبثها الحزن والشجن. زاهدة في لقاء الناس أو التحدث إلى أحد. لقد أمست أرملة، وهي لما تزل في ريعان صباها.

" أرملة..! يا لها من كلمة كئيبة. لم تحسب يوماً أنها سوف تحملها لقباً أبدياً. ولكن ها هي ذي منذ اليوم سوف تحمل من هموم الحياة وأعبائها ما لم يكن يخطر لها على بال. كان سليم يملأ عليها حياتها، بشخصيته القوية الآسرة. تشعر في كنفه بالحماية والأمن. لقد ذهب الآن، تاركاً إياها منكسرة القلب والجناح، مع أطفالها الأربعة، لكأن الأرض لم تعد ثابتة تحت قدميها كعهدها بها فيما سلف. بل إن الكون كله يبدو الآن موحشاً مخيفاً، وكأنه قد خلا من كل شيء" .

لم يترك لنا الشيء الكثير، اللهم إلا هذا المنزل العتيق. لم يكن سيئاً، على أية حال. غرفتان تمتد أمامهما شرفة. هي في الواقع مصطبة مرتفعة مدت بالأسمنت الأسود. وقد بني البيت من الحجر الرملي، المتوافر في محاجر القرية مجاناً لمن يشاء. أما السقف فمن القرميد الرمادي. وقد ارتفعت أرضها جميعاً عن سائر فناء الدار، فبدت منها أزقة القرية المنخفضة عن مستواها، والمنازل القديمة المفضية إلى البيادر، التي تبدو عن بعد وسط نطاق أخضر من بيارات البرتقال. وقد اعتاد الفلاحون جمع محاصيلهم من القمح والذرة في تلك البيادر، حيث يدرسونها بواسطة الدواب، فيما تتردد أصواتهم بأهازيجهم ومواويلهم، يقطعونها بين آونة وأخرى، لينتهروا دوابهم ويحثونها على مواصلة السعي.

فضلاً عن هذا كان بيتنا ينطوي على شيء غير قليل من العلل. من ذلك أن بعض قرميده قد تشقق أو تكسر منذ زمن، مما يتيح لقطرات المطر التسرب إلى داخله. أما جدرانه فمتآكلة، ذهب طلاؤها وبعض طينها. كما أن فناءه حافل بالحفر. صحيح أن أبي كان يزمع ترميمه منذ سنين، إلا أنه كان يرجئ ذلك من الشتاء إلى الصيف، عاماً بعد عام، منتظراً أن يأتيه الله برزق يوسع عليه بعض الشيء، يمكنه من إصلاحه مرة واحدة. بيد أن توقيت الأجل كان الأسبق. كما نملك أيضاً قطعة أرض صغيرة، في منطقة (أم الذهب) وقد أسموها كذلك - فيما يروى - لخصوبتها ووفرة محصولها. كانت تزرع قمحاً في عام وذرة في العام الذي يليه، تبعاً لتقاليد الفلاحين المرعية في هذا الشأن.

ليس معنى هذا أننا كنا نحسب في عداد الفلاحين أو الملاكين الموسرين. بيد أنها كانت تقينا الحاجة و العوز. ولم يكن أمر تعهد الأرض بالأمر الهين، لا سيما أن والدي لم يكن يمارس مهنة الفلاحة بنفسه. كان يعهد بها إلى (مرابع) هو العم عبد الغني، لقاء حصة من نتاجها. أما عمل أبي فقد كان موسمياً، شأنه شأن الكثيرين، في فصل الشتاء، موسم قطاف البرتقال .

كانت أمي في ذلك الصباح منشغلة البال. فلقد خلت إلى نفسها تماماً، لأول مرة، عقب انقضاء أيام العزاء بضجتها و زحمتها. أحست كمن يهبط من قطار بعد رحلة طويلة مضنية، والطنين لا يزال يصم أذنيه. انصرف الناس - بمن فيهم الأقارب - كل إلى شأنه. لا ريب أنهم سوف يذكرون محاسن الفقيد من آن لآخر، لاسيما في المناسبات العامة، كالأعياد مثلاً، إلا أنهم سوف ينسونه، بالتأكيد، على مر الأيام. أما هي فاليوم تبدأ مأساتها الحقيقية. وهي التي لن تنسى قط. بل إن مرور الأيام لن يزيدها إلا حنيناً وشجى لذكريات عزيزة خلت، امتزجت بدمها وروحها، وأضحت جزءاً من حياتها وكيانها. من ثم، فهي سوف تتمثلها بحجمها الحقيقي في كل لحظة منذ الآن، وتعيشها في أحلام يقظتها على الدوام. أفاقت من هذه الدوامة على واقعها المرير، الذي لا علاج له، حتى ولا بالصبر الذي كانت الجارات يتحذ لقن فيوصينها به. على الرغم من ذلك حاولت أن تصرف نفسها عن أحزانها - ولو إلى حين - كيما تفكر فيما سوف يؤول إليه أمر بنيها من بعد. قفزت إلى ذهنها صورة أكبرهم (سعيد) لكنها ما أن تذكرته حتى أصابها القنوط. قطبت جبينها، واكفهر وجهها، وألمت بها مشاعر الأسى من جديد :

".. صحيح أنه قد بلغ الثالثة عشرة من عمره، وأنه يمكن أن يعمل عند

بقال، أو حلاق، أو فران - لكنني لا أنتظر منه خيراً كثيراً.. ولد شقي منذ طفولته.. أدخلناه المدرسة فهرب منها وأذاقنا الويل.. أجل كان يهرب من المدرسة، ليقضي سحابة نهاره بين الحقول مع مثيل له من رفاقه الملاعين.. يكسّر أغصان الأشجار.. يسرق البرتقال من بيارة العطار لكي يتخذ من حباته كرة يلعب بها.. يتسلل عبر السياج فيأتيني بثيابه ممزقة.. يتعلق بالسيارات العابرة التي أو شكت إحداها أن تدوسه ذات مرة في طريقها من يافا إلى غزة..!

".. تصورنا أول الأمر انها مجرد نزوة عابرة.. (ولدنة).. وأن الأيام كفيلة بإصلاحه .و لكن الأيام لم تزده إلا شقوة كلما شب ونما. ".. أخرجناه من المدرسة ليعمل عند (ابو درويش) الوافد من يافا، ليفتح دكاناً للحلوى عند السوق، قائلين أن (الصنعة) خير وأبقى له من دراسة لا يرغب فيها ومن أجل مستقبله قلنا (صنعة في اليد أمان من الفقر). ولكن شكاوي الرجل بدأت تصلنا تباعاً. كان آخرها قبل أيام، وهي بمثابة إنذار بالفصل، إذا ما وجده يعود للعب الورق مع بعض أترابه، في عقر حانوته أثناء غيابه عن الدكان.. ".. فإذا كان هذا شأن سعيد، يوم كان الأب الصارم فوق رأسه، فكيف به اليوم وقد غدا بغير حسيب و لا رقيب ..! خطر لها ثاني أبنائها أمين. الولد العاقل المتزن - كما كانت تدعوه - هادئ وديع. حتى ليبدو أكبر من سنه التي لم تجاوز الثامنة. وهي راضية عن سلوكه. إذ هو على النقيض من أخيه الأكبر تماماً. ولربما كان الفضل في هذا لذلك الأخ نفسه - وإن يكن عن غير قصد -. كان يؤلم أمين أن يرى ما يحيق بأبويه من كدر بسبب أخيه، فجاءت تصرفاته مختلفة عنه. وكان في ثناء أبويه الدائم عليه، فضلاً عن إطراء الجيران له ما يدفعه إلى العمل على إرضائهما .

لم يكن هذا - على أية حال - مدعاة لتخفيف آلام عائشة، وإنما كان سبباً آخر يضيف إلى أحزانها الشيء الكثير. إنها حزينة من أجله لأنه كذلك. ولما يعنيه فقد أبيه في سنه المبكرة هذه من تغيير في مسار حياته المقبلة، في اتجاه مستقبله برمته. لقد خطت الرصاصات المجرمة بالدم النازف طريق مستقبلهم جميعاً .

" أما أحمد فما الذي ينتظره هو الآخر..! كان ممكناً أن يشب في أحضان أبويه، شأنه شأن أي طفل في هذا العالم. كان ذلك ممكناً تماماً، لو لم تبتلنا الأقدار بهؤلاء الانكليز.. ولكن ما ذنبه هو؟ وأيُّ يدٍ أو خيارٍ له في هذا الذي يجري من حولنا ..؟

".. وعلياء الأثيرة عند أبيها، ربما لأنها الوحيدة بينهم، فضلاً عن أنها

أصغرهم. من يأتيها، بعد اليوم (بحلاوة) أبو درويش، (وملبَّس) أبو العبد الرملاوي في المساء؟ تهرول عندما تراه قادماً عند ناصية الزقاق، فتلقي بنفسها بين أحضانه، وهو يجلس القرفصاء في انتظار وصولها إليه. تناغيه بكلمات غير مفهومه.. لكنها حلوة.. كالعسل.. كما يقول ...!

" وهي تعرف دالتها عليه، فتصر على الجلوس في حجره، تعبث بأطراف عباءته، أو تخطف مسبحته، وتدخلها كالقلادة في رأسها، وعندما تعلق بشعرها الكستنائي الغزير تشرع في الصراخ، فيما هو يضحك جذلاً، لأنها تكرر ذلك كل يوم دون أن ترعوي ...!

دلف أمين إلى المنزل في تلك اللحظة، متأبطاً كتبه ودفاتره. تجلدت. أمسكت دموعها التي أوشكت أن تنهمر. وتكلفت ابتسامة تواري بها مشاعرها. لكن مسحة الحزن على وجهها الممتقع، وفي عينيها الذابلتين، لم تفلح في إخفاء مكنونات صدرها .قالت أخيراً بصوت خافت مبحوح :

– وكِّلت أمري إليك يارب.. على رأي الحاجة : العبد في التفكير والرب في التدبير.. وكلت أمري إليك.. أنت حسبي ونعم الوكيل .

السابعة صباحاً. والشمس قد ارتفعت في الأفق تنبئ عن نهار قائظ. تحلق أفراد الأسرة الصغيرة حول (الطبلية) يفطرون. أرغفة الطابون، جبن وزيتون وزعتر في (زبادي) من الفخار. وإبريق صيني أزرق يتعالى بخاره، حاملاً رائحة الشاي والميرمية.

بدت والدتي عابسة الوجه مقطبة الجبين، وإن كان واضحاً أنها تتصنّع التجهم، في محاولة منها لتهيئة جو ملائم من أجل إبداء ملاحظات زاجرة، المقصود بها - قطعاً - أخي سعيد. ولما كان ذلك يتكرر منها بين حين وآخر، فقد بتنا قادرين تماماً على التمييز بين جدّها المصطنع، وجدّها الحقيقي، حينما ترى هي ضرورة لذلك .

وفيما نحن ينظر أحدنا إلى الآخر، نحاول جاهدين أن نكتم ضحكاتنا التي توشك أن تنفجر، وقبل أن تبدأ تقريعها، طرق باب الدار على نحو يوحي بأن الطارق في عجلة من أمره. ذهب سعيد ليرى من بالباب، ثم عاد ومعه فوزي ابن خالتنا، ورفيقي في المدرسة. بدا فوزي على غير ما اعتدنا أن نراه : محتقن الوجه، منكوش الشعر، في عينيه آثار بكاء، تشير ثيابه إلى أنه ارتداها على عجل. بادرته والدتي بالسؤال ملهوفة وقد توجست، بحسها الفطري، لهذه الزيارة في هذا الوقت المبكر :

- ماذا يا فوزي؟ خير إن شا الله يا خالتي ..؟

أطرق هذا إلى الأرض. وبدا كأنه يوشك أن يجهش بالبكاء. ولما لم يحر جواباً، نهضت إليه، واقتربت منه، تحتضنه في حنو قائلة وقد ألم بها الوجل :

- ماذا هناك يا فوزي.. لماذا لا تتكلم يا خالتي .؟ هل حدث شيء عندكم؟

رد فوزي بكلمات متقطعة يخنقها البكاء الخافت :

- محمد.. خطيب أختي فاطمة.. أحضروه الآن مقتولاً ..!

- مقتولاً.؟ تقول مقتولا..؟ ومن قتله؟

- يقولون انه كان في الليلة الماضية مع الثوار الذين هاجموا محطة

رخبوت.

انطلقت أمي مسرعة إلى الغرفة المجاورة تبحث عن شالها وجواربها، فيما هي تصب اللعنات، على الانكليز، ويوم الانكليز. فيما اسئلتها المرتبكة تتلاحق بغير انقطاع دون أن تنتظر رداً عليها. ذهبت مع فوزي بعد أن أوصتنا بعدم الخروج من المنزل أثناء غيبتها .

تحايلت على سعيد ومضيت في إثرهما. وحين رأتني لم تقل شيئاً. تسللت بين جمع غفير من النساء اللواتي انتظمتهن حلقات في منزل خالتي (نعمة). انخرطن في البكاء، ولكن في حذر واضح، خشية أن ترتفع أصواتهن فتبلغ الشارع. وقد أغلقت نوافذ المنزل وبوابته، حتى تلك المفضية إلى الحاكورة، كيلا ينكشف أمر الشهيد، وانتماؤه لهذه الأسرة، من قبل الدوريات الانكليزية التي ما فتئت تجوب الطرقات منذ الصباح الباكر. ذلك أن آثار الدماء والكلاب البوليسية قادتهم إلى مشارف "يبنا"، ثم ما لبثت أن اختفت قبل التعرف إلى مستقر صاحبها، من ثم لم يعرفوا هويته. وما من أحد يعلم، ما هي الاجراءات الانتقامية التي سوف يعمدون إليها هذه المرة. انتقلت إليّ عدوى الشعور بالحزن.

تذكرت (محمد المغاري) ذلك الشاب الذيَ كان يداعبني، بل ويمنحني قرشاً كلما التقيته في منزل خالتي. كان طويل القامة، مهيباً، أسمر الوجه، له شاربان دقيقان، وقد عقفا إلى أعلى، كذيل العقرب، عند طرفيهما. عيناه حادتان كعيني صقر. يرتدي كوفية بيضاء يطوقها عقال أسود. يمشي منتصب القامة شامخ الرأس، وهو يضم أطراف عباءته السوداء، فيبدو كأمير شرقي في حكايا ألف ليلة وليلة. هل مات هو الآخر ..؟ إنهم يقتلون أحباءنا وأهلنا دائماً ..!

الدار تغص بالنساء. لغط يختلط بالبكاء هنا والعويل هناك. كلام كثير غير مفهوم تتبادله النسوة. وعديد من الأطفال والغلمان ينسل بينهن كالسهام في إثر بعضهم بعضاً. فرصة لابأس بها للعب..! صبيَّة بيضاء، مكتنزة الجسم ترتدي ثوباً أسود مطرزاً بخيوط حريرية ملونة على الصدر، يغلب عليها اللون الأحمر. وعلى رأسها شال أبيض ينسدل حتى منتصف ظهرها. قالت رداً على تساؤل رفيقتها النحيلة السمراء، التي تختلف عنها في كل شيء تقريباً، عدا ثوبها :

- ... في مستعمرة رخبوت ..

ردت الأخرى، مصححة :

- يقولون في المحطة، وليس في المستعمرة ذاتها .

- لا أدري.. ولكن ما الفرق؟ المهم أنه استشهد.. رحمة الله عليه ..

يقولون ان شاباً آخر من القبيبة استشهد معه.. تنهدت الفتاة وهي تضرب كفاً بكف، مرددة بلهجة يمتزج فيها الاستنكار بالأسى:

- يا خسارتك يا محمد المغاري ..!

- لم يفرح بشبابه بعد ..

- وهل ترك لنا الانكليز أفراحاً ؟

- والمسكينة فاطمة. انظري إليها هناك.. يا لحظها التعس ..

- ألا تعلمين أنها مجنونة بحبه ..؟

- أعرف ذلك. لقد سبق أن خطبها كثيرون قبله، لكنها رفضتهم جميعاً.

- تعنين أنها كانت تحبه حتى قبل أن يقرأوا فاتحتها ..؟

- هل هذا وقته يا سهام ؟

- أنا لا أقصد، لكن صدق من قال (إجت الحزينة تفرح ما لقيت لها مطرح) ..!

- ماذا تقصدين إذن ..؟ ثم لم لا تحبه؟ إنه شاب ممتاز في كل شيء. وهو شجاع لدرجة المخاطرة بحياته.. وها أنت ترين ..

- كان الله في عون أمه ..

- وفاطمة ..؟

- فاطمة تنسى مع الأيام. وهي جميله لن تعدم من يتقدم لطلب يدها غداً ..!

تعالت في الخارج أصوات، وقامت جلبة. توجهت نحو باب الدار مستطلعاً. كان هناك عدد من الجنود الانكليز يدفعون برجال من أهل القرية أمامهم، وقد سددوا بنادقهم إلى ظهورهم، يصيحون برطانتهم العجيبة، وكان واضحاً أنهم يكيلون الشتائم ويطلقون التهديد والوعيد ..!

ذلك (أبو حسين الشرقاوي) بينهم. وهذا (أحمد الجمل)، وذاك (ابو داود) صاحب مقهى (الاستقلال الوطني). ولأن هذا الأخير يمت لوالدتي بصلة قربى، كنت أعرف أنه من الثوار. لقد كانت لهؤلاء الرجال صورة مثالية من البطولة والهيبة في مخيلتي. أحس أن شرخاً أصابها ..! تساءلت في حيرة :

.. لم لا ينقضُّون على أولئك الجنود الذين لا تبدو عليهم امارات شجاعة خارقة؟ بل إن مظهرهم لا يوحي بالبطولة و لا بالشجاعة أو حتى بالرجولة. الخوف بادٍ على وجوههم بجلاء، على الرغم من البنادق التي في أيديهم. لا أعرف أسباب هذا الذي يجري ودواعيه. لماذا يجب أن يعاني الناس هكذا؟ أن

يموتوا؟ أن يهانوا؟ أن يفقد الأطفال آباءهم ...؟

أولئك هم يبلغون الطريق العام، حيث وقف رتل من السيارات العسكرية على جانبي الطريق. يأمرونهم بالصعود إليها في خشونة وعنف فيصعدون. ترى إلى أين يمضون ..؟ بل ماذا سيصنعون بهم؟ ولأني كنت أفكر بصوت مسموع، فسرعان ما سمعت الرد يأتيني من رفيق لي كان قريباً مني:

- سينقلونهم إلى المحطة.. وهناك يقتلونهم ..! يوقفونهم على الجدار ويطلقون عليهم الرصاص ..!

- كيف؟ ولماذا ؟

لا أدري.. ولكنهم هكذا فعلوا منذ ايام في قرية "عاقر". هذا ما سمعته من أبي وهو يتحدث إلى جارنا (ابو شاكر).

- وهل يقتلون، كل هؤلاء الناس ..؟ هكذا ببساطة ..؟

لم يحر رفيقي جواباً. ولكنه عاد بعد قليل ليقول، وكأنه يزف بشرى سارة :

- أسمعت؟ قيل انهم وضعوا علامات على بعض المنازل والدكاكين والمقاهي لكي يقوموا بنسفها بعد أيام.. ربما غداً.. لا تدع تلك الفرجة تفوتك ..!

دوت أصوات المحركات في هدير مخيف زاد الجو المكفهر كآبة، شعرت بالحزن والأسى والمهانة معاً، فيما كانت السيارات تنطلق، إلى أن اختفت وراء سحابة من الدخان الكثيف .

مرضت علياء في ذلك المساء. عزت (الحاجة خضرة) سبب مرضها إلى افتقادها لأبيها .

قالت أم مريم بعد أن وضعت كفها على جبين علياء :

- البنت (سخنانة) يا جماعة.. حرام عليكم خذوها للحكيم .

غمغمت أمي كمن يتحدث عن مستحيل :

- حكيم ..؟ أي حكيم ..؟

أنفقنا أياماً ثلاثة، كما لو كنا في حالة طوارئ. وحالة علياء تزداد سوءاً. تصف كل من الجارات، شيئاً مختلفاً، مؤكدة أن وصفتها هي (الشافية) بإذن الله. تنفذ أمي نصائحهن جميعاً أملاً في وقوع معجزة. وهي لا تكف عن الدعاء وتلاوة ما تحفظ من آيات القرآن الكريم .

أمضيت معظم أيام العطلة الصيفية، في ذلك العام، في اللهو مع أترابي حيث نقضي سحابة نهارنا نلعب في ساحة (سيدنا وهب) الكرة، و الدحل، و الاستغماية. أو نصنع طائرات الورق الملونة، أو في تلبية طلبات أمي التي لا تنتهي. ولقد عجبت كيف كانت تؤديها كلها بنفسها أثناء وجودنا في المدرسة. فهي توفدني إلى الجارة " أم ماهر" لأحضر لها مقلاة، أو إلى "أم على" كيما أنقل إليها رسالة شفوية، أو إلى دكان " ابو العبد" لشراء رطل ملح أو علبة كبريت أو استعارة قدر من بيت الحاجة خضرة ..! ظل الحال هكذا إلى أن وقع لي حادث غيَّر مجرى تلك الحياة الرتيبة .

لا بد لي - بهذه المناسبة - أن أسجل أن ترتيبي في المدرسة كان الثاني، قريباً مما أراد أبي. فملأني الزهو، وأحسست أنه (أي أبي) يبتسم لي من عالم الأبدية. وزادت نسبة مشاجراتي مع أبناء الحي بعد أن شعرت - أو شعروا هم - بتفوقي عليهم ..! وحين تذكرت أبي ذلك المساء وفرحه بنجاحي لو كان حياً. بكيت بحرقة، وغطيت رأسي بالفراش كيلا تلحظ ذلك أمي جاءني من بعيد، وئيد الخطا مشرق المحيا، ابتسم لي وهو يضمني إلى صدره. ربت على ظهري، مسح رأسي بكلتا يديه، أمعن النظر في وجهي. قبلني. ثم استدار ليمضي عني، أصيح بصوت لايخرج من حنجرتي ضارعاً اليه أن يعود. لكنه يمضي متوارياً بين أشجار كثيفة عالية تلامس صفحة السماء ... !

خرجت يومئذ لقضاء شأن من تلك الشؤون التي كانت تكلفني بها والدتي. وبدلاً من أن أعود في غضون خمس دقائق، هي الوقت الذي يقتضيه ذلك الشأن، عدت بعد انقضاء خمس ساعات كاملة. لم تدع مكاناً دون أن تبحث عني فيه. سألت كل الجارات، والمارة. أرسلت في أثري رفيقي "صالح" الذي لم يمنعه من القيام بذلك الواجب مشاجرتي معه البارحة. ذهبت بنفسها إلى محل "ابو درويش" الحلواني. لعل سعيداً يعرف شيئاً عني. بل أوشكت - حين بلغ بها القلق مداه - أن تبحث عن (المنادي) كيما يعلن في الحارات القريبة والبعيدة عن (الولد الضائع). غير أنها فكرت - كآخر سهم في جعبتها - بأن تذهب إلى منزل

خالتي نعمة عند " سوق الجميزة". وما أن رأتها شقيقتها حتى أقسمت عليها أن تتناول الغداء عندها، مطمئنة إياها بأن " الولد " لن يلبث طويلاً حتى يعود من تلقاء نفسه. ولكن أمي الملتاعة ردت بحنق ظاهر :

-(بالك فاضي وعيشك راضي يا نعمة.. أقعد عندك أتغدى والولد ضايع؟)

ردت خالتي بصوت ممطوط، لا يوحي بعظيم أكتراثها - كما ينبغي - لغياب ابن شقيقتها الأثير، مما أثار المزيد من حنق أمي حين قالت :

- لا بد أنه يلعب الآن مع أمثاله الشياطين، وأنت هنا تتقلبين على جمر ..! استهدي بالله يا شيخه ..! صدق من قال قلبي على ولدي وقلب ولدي على حجر..!

- لا إله إلا الله. يا حبيبتي يمكن يغيب الولد ساعة زمن أما خـ ـن ساعات.. تصوري يا نعمة خمس ساعات. لا بد أنه صار له شي...!).

استبد بها القلق إلى حد أنها لم تتمالك نفسها من البكاء، ثم راحت تغلظ الأيمان بأنها سوف (تأكلني بأسنانها) حين أعود -كان هذا هو قسمها المفضل - ولكن المهم أن يعود أولاً..!

كانت المهمة التي خرجت من أجلها صبيحة ذلك اليوم ولم أعد حتى العشاء، هي شراء بطيخة أولاً. ثم أمر ببيت خالتي أطلب إليها موافاة أمي في الغد، كي تساعدها على صنع ((المفتول)). رأيت الباعة وراء أكياس البصل، واكداس من سلال العنب، وسلال التين، (وسحاحير) البندورة والفلفل والباذنجان، وأكوام البطيخ الأخضر، والأصفر .

وعلى الرغم من أن بضاعتهم جميعاً كانت بادية للعيان، ملفتة لكل الأنظار، وبوضوح تام، إلا أنهم كانوا يملأون المكان صياحاً بنداءاتهم، التي بدا لي أنه يغلب عليها طابع التضليل، فالكوسا تتحول - بقدرة قادر - إلى أصابع موز ريحاوي ..! و العنب إلى حبات ماس نادر، والبندورة إلى تفاح أمريكي أو شامي. مع أن أحداً لم يقل أن التفاح أكثر ضرورة من البندورة أو الخيار البلدي..!

جمهور كبير يتجمع تحت الجميزة العتيقة التي قيل أنها عاصرت (سيدنا عيسى) عليه السلام. كان ظلها يمتد على مساحة شاسعة من الأرض، أتخذ منها الباعة مكاناً لسوقهم. اقتربت من ذلك الجمع. أحدهم يتحدث منفعلاً. أخذ صوته يعلو ثم يعلو حتى تحول إلى صراخ، ما لبث أن أعقبه هياج بين الحاضرين،

الذين انطلقوا بغتة متجهين جنوباً على طريق الاسفلت، وهم يرددون هتافات وشعارات تندد بالاستعمار، والانتداب، واليهود، والهجرة اليهودية، ووعد بلفور، والمستر (دل)، ولجنة (بل) ..! لم أشعر إلا وقد وجدتني بينهم، وسط سهل فسيح يمتد حتى الأفق. عندئذ فقط أدركت أننا مشينا طويلاً حتى بلغنا هذا المكان .

بدأ الخوف ينتابني. بيد أني أنشغلت عن خوفي حين رأيتهم يتعرضون لقافلة من الجمال، يوقفونها، ثم ينزلون حمولتها من سلال العنب، فيما صيحاتهم الغاضبة تتردد في جنبات السهل، أخذوا يدوسون محتويات السلال بالأقدام، في حين عمدت أنا وأمثالي من الغلمان إلى تخاطف عناقيد العنب الماسية، كحبات الكهرمان في السبحة التي كان يداعب جدي حباتها كلما أتى لزيارتنا...!

طفق أصحاب الجمال يتوسلون، مقسمين بانهم كانوا في طريقهم إلى قرية (اسدود)، وليس إلى مستعمرة يهودية كما حسبوا. ولكن الجمهور الغاضب واصل تحطيم السلال، دون أن يلقي بالاً إلى توسلاتهم. بل إن بعضهم راح يكيل لهم اللكمات والصفعات، منددا بهم، متهماً اياهم بخيانة الوطن والقضية، ما داموا لم ينصاعوا لقرارات اللجنة الوطنية القاضية بالامتناع عن التعامل مع اليهود، منذ أوائل الثورة عام ١٩٣٦. مذكرين إياهم بالإضراب العظيم الذي امتد شهوراً ستة آنذاك، وأن إنهاء الاضراب لا يعني العودة الآن إلى التعامل مع اليهود .

استغرق ذلك بعض الوقت. ولم أنتبه إلى حقيقة وضعي، وإلى مدى ابتعادي عن القرية، وأمي التي لا بد أنها أقامت الدنيا وأقعدتها إلا حين انتهت المعركة. أخذت أجيل بصري فيما حولي فلا أرى إلا سهولاً شاسعة ممتدة حتى الأفق في كل اتجاه، والشمس تسطع مرسلة شواظاً من نار، بعد أن انحدرت نحو المغيب، وطيوراً تحوم فوق رؤوسنا فرادى ورفوفاً، أو فوق عناقيد العنب المتناثرة على رقعة واسعة من الأرض، تنقض عليها ثم تطير محلقة في البعيد. خوف شديد يعتريني.. أين أنا ..؟ أين القرية؟ ما من أثر يبدو لها على مرمى البصر. وحشة قاتلة تكتنفني تماماً. وفجأة انتابني البكاء، لمحني أحدهم. اقترب مني. كان شاباً طويل القامة، مهدل الشعر، محتقن الوجه إثر الجهد الذي بذله مشاركاً في العملية التي تمت للتو. توسمت في عينيه عطفاً، وهو يربت على كتفي برفق قبل أن يسألني :

- مالك يا شاطر ..؟

قلت بلهفة و وجل :

أين نحن يا عم ؟

لا تخف.. نحن لسنا بعيدين جداً عن البلد. ولكن قل لي لماذا أتيت إلى هنا؟

- لا أعرف ..!

- لابأس.. لابأس.. سوف أوصلك إلى أهلك.. ابن من أنت ؟

- ابن سليم جابر .

- سليم جابر ..؟ رحمة الله عليه.. أعرف المرحوم والدك.. قتله الملاعين.. الله يجازيهم..

شعرت باطمئنان لذلك الشاب، وكأني نجوت من الهلاك.. بدت الشمس من بعيد أكثر اصفراراً فيما هي تنحدر نحو المغيب، حتى لامست أطراف الرمال الممتدة تلالاً وكثباناً في شريط يحاذي الأفق. ثم انكسرت حافة قرصها وهي تغوص إلى الأعماق، وبسرعة متلاحقة راحت تختفي إلى أن توارت تماماً، مخلفة في السماء شفقاً وردياً ما لبث أن استحال إلي دكنة خفيفة، ثم إلى ظلام يزحف على الكون، فيما كان صدري يزداد انقباضاً كلما تكاثف الظلام .

مضينا نغذ السير في جماعات متفرقة، والشاب لايني يحاول التسرية عني، إلى أن لاحت عن بعد أضواء خافتة، فبشرني صاحبي بأنها أضواء القرية.

كغريق تلامس الشاطئ قدماه، غمرني إحساس بالارتياح. رائحة أشجار البرتقال الأليفة، تعبق الجو من حولنا، في طريق خلال البيارات، وسياج أشجار الغيلان الذي بدا في الظلمة فاحماً .

الأضواء تكبر، رغم خفوتها، فيما نحن نقترب. معالم القرية تتبدى أكثر وضوحاً. بلغنا مشارفها حين تناهى إلينا صوت المؤذن لصلاة العشاء يتردد في الأرجاء جميعاً، موحياً إليَّ بالطمأنينة والسكينه ...، ومشيعاً في نفسي السلام .

- ٧ -

رأت أمي – إثر تلك الحادثة التاريخية – أن تجد لي عملاً مناسباً، أقضي فيه ما تبقى من عطلة الصيف. وبعد جهد غير يسير، تمكنت من أن توفر لي ذلك العمل، بتوسط من الحاجة سكينة، لدى زوج شقيقتها أحمد الجمل، صاحب دكان الحلاقة قريباً من ساحة سوق الثلاثاء .

ابتهجت والدتي لنجاح مسعاها إذ كانت تأمل أن يتحقق لها، من وراء ذلك، هدف آخر، هو أن أكتسب (صنعة في اليد) تكون لي وللأسرة جميعاً (أماناً من الفقر) في مقبل الأيام ..! ولربما حالفني الحظ فغدوت حلاقاً مرموقاً. (وما ذلك على الله بكثير..!)

كان عملاً شيقاً لصبي مثلي. فعلي أن أكنس الدكان، وأرش الرصيف، ومساحة لابأس بها من الشارع أمام المحل، كل صباح وعند العصر، كيما يلطف الجو إذا ما هبت النسمات الغربية الآتية من البحر، عبر الكروم والرمال وبساتين البرتقال. ولاشيء – عدا ذلك – سوى مراقبة (العم أحمد) وهو منهمك في قص شعر زبون، أو تلطيخ وجه آخر بالصابون، فيما هو لا يكف عن الكلام أثناء ذلك. ولربما كلفني بطلب فنجان من القهوة أو كوب من الشاي الثقيل، للمعلم – وللزبون أحياناً إذا كان يستحق ذلك – من مقهى عم ياسين (ابو داود) المجاور. وحين لا يكون لدي ما أعمله أجلس فوق ذلك الكرسي العتيق، ذي الصرير المثير، على الرصيف، أمام الدكان أرقب السابلة، والسيارات العابرة، مفاضلاً بين ألوانها، أو محاولاً تخمين ماركاتها، وهي تتجه جنوباً إلى المجدل، وغزة، أو شمالاً نحو يافا واللد والرملة، فيما يساورني شعور بالحسد إزاء ركابها الذين سوف يرون تلك البلاد. كان العم أحمد الجمل يباهي بأنه الأمهر وأنه لذلك يجمع ما يزيد على القنطار من القمح والذرة في كل موسم. إذ يتقاضى صاعاً أو أكثر حسب اريحية الزبون لقاء قيامه بالحلاقة للرجل الواحد وأولاده في العام هذا فضلاً عما يتقاضاه لقاء خلع ضرس لزبون، أو فصدجبين، أو أخذ (كاسات هوا) لآخر..! حتى الدواب يأتونه بها لكي يعالجها من أمراضها ..!

لم ألبث طويلاً حتى أكتسبت ثقة عم أحمد الجمل الحلاق الذي أخذ يكل إليَّ مهمة وضع الصابون على وجه الزبون، مؤكداً لي أن هذا الامتياز لم يمنح لصبي قبلي من أولئك الذين عملوا عنده، الأمر الذي كان يفعم قلبي - فضلاً عن قلب والدتي - غبطة وحبوراً. ابتهج لمرأى الصابون، وهو يشكل فقاعات شفافة أرقبها في شغف وهي تنتفخ ثم تنطفئ تماماً هنا وهناك على سطح وجه الرجل. بل إن طموحي أخذ يمتد إلى أبعد من ذلك. أن أغدو قادراً، في وقت ليس ببعيد، على القيام بتلك الحركات العديدة، التي أجمل ما فيها أنها لا لزوم لها البتة، فأطقطق بالمقص حول الرأس والعنق، وأجري النصل اللامع على وجه الرجل، دون أن أثخنه بالجراح تماماً كما يفعل العم أحمد الجمل، حتى دون أن يعيقه ذلك عن مواصلة الكلام طوال الوقت عن الانكليز والأفراح والمآتم وموسم البرتقال .

كان العم أحمد الحلاق يمنحني (شلناً) كاملاً كل أسبوع. وهو أمر آخر أعلن إزاءه أن أحداً غيري لم يحظ به من قبل. وفي يوم الثلاثاء تحديداً - وهو يوم السوق الأسبوعي لقريتنا وما جاورها - يدفع لي أجري، فأبادر للتو، وقبل عمل أي شيء آخر إلى شراء (شوكولاته بحليب) بتعريفة من دكان عثمان أبو حسين المجاورة. انصرفت في ذلك المساء قبل الغروب بقليل، نزولاً عند إرادة والدتي التي أوصت العم أحمد بألا يعمل على تأخيري إلى ما بعد حلول الظلام. عرجت في طريقي على ساحة سيدنا وهب المفضلة للعب في حيِّنا، والتي يقع في زاويتها الجنوبية ضريح ولي الله، محوطاً بسور من الحجارة المزينة بزخارف عربية قديمة. وتكتنف الساحة بيوت عتيقة ذات أقواس مشرعة. وأمام الأبواب مصاطب مرتفعة يتخذ منها أصحابها مجالس لهم منذ العصر إلى ما قبيل آذان العشاء. حيث يتبادلون الحديث عن شؤونهم من زواج، ومواليد، ومواسم زرع، غزارة الامطار أو شحها في ذلك العام، الحصاد وخصب المواسم، البرتقال وأوان قطفه، الثورة، والمهاجرين اليهود، ووعود الانكليز بحل القضية، الكتاب الأبيض واللجان البريطانية، والراديو ذلك الاختراع العجيب ..! إبان ذلك تدور عليهم فناجين القهوة المرة، و أكواب الشاي بالقرفة والزنجبيل، فيما صخب الصبية يرافق ذلك كله كايقاع موسيقي لا ينقطع. لم يكن في الساحة غير عدد قليل من الغلمان، من بينهم (نعيم ابو جلالة) الذي ما إن رآني حتى انطلق يعدو نحوي هاتفاً:

- أين أنت يا أمين ..؟ حمداً لله على السلامة ..

فرحت بلقائه إذ اعتزمت أن أنقل إليه أنباء عملي لدى أحمد الحلاق، فقلت متباهياً :

– ها أنذا عائد للتو من الدكان ..

– وهل اصبحت حلاقاً ماهراً ؟

– طبعاً ..

– وتحلق للرجل ذقنه بالموس دون أن تجرحه ؟

– حتى دون أن أخدشه ..

– وهل تستطيع أن تقص لي شعري ..؟

– ولسانك أيضا ..!

ضحك، وانقض علي يضربني على صدري، ثم يجذبني من يدي، فنعدو معاً، وهو يقول :

– تعال، انظر ماذا صنعنا.. لقد أصبحنا من كبار المخترعين ..!

وحين اقتربنا من الرفاق، ألفيتهم متحلقين حول شيء وضعوه على الأرض والدخان يتصاعد من حوله. لقد قاموا فعلاً بصنع القاطرة البخارية، التي قررنا ذات مرة، أن نقوم بصنعها – على غرار ما قرأه أولئك الرفاق الذين يسبقوننا بصفين أو ثلاثة عن كيفية اكتشاف البخار – قائلين : ولماذا يكون هذا ال (جيمس واط) أذكى أو أبرع منا.. !؟) خامرني شعور بالأسف، إذ لم اشارك، منذ البداية، في هذا العمل الجليل ..! ساد الصمت حين رأينا العلبة المعدنية التي ملأوها ماء، وأحكموا إغلاقها، وثبتوا بها عدداً من العجلات الصغيرة، تأخذ في الاهتزاز، ثم تتحرك قليلاً، إلى الخلف وقليلاً إلى الأمام، وصوت الماء يغلي بداخلها، بفعل النار المتأججة من حولها. ارتسمت الفرحة على وجوه الأطفال والغلمان وتبادلت أعينهم النظرات القلقة المتسائلة، ولكن في سعادة طاغية. وفي اللحظة التي انطلقنا نهتف احتفالاً بالنجاح الذي تحقق، فها نحن قد تمكنا من صنع قاطرة حقيقية – تماماً كذلك الانكليزي اللعين – في تلك اللحظة تماماً دوى انفجار، وتطاير في الجو رذاذ الماء، ثم تساقط ليغمر وجوهنا، فيما تحول الهتاف إلى صيحات فزع واستنكار، ولعنات تنصب على رأس (جيمس واط) وآله أجمعين ..!

كنت أشعر بالحرج امام رفاقي، إذ لم أكن قادراً على مجاراتهم. أولاد الهمص، اسماعيل العطار، أولاد الجمل، أهلهم أغنياء، يلبون لهم حاجاتهم. يرتدون ملابس جديدة في المناسبات، ولديهم أحذية جديدة أيضاً، وثياب مختلفة في ألوانها وأنواعها. كما أنهم لا يفتأون يشترون الشوكلاته والملبس من الدكاكين، أو يحضرونها معهم. كانوا يعرضون عليّ شيئاً منها فأمتنع، حين أتذكر وصايا أمي. كانت تدعوني إلى الظهور أمامهم مكتفياً لا أفتقر إلى شيء، رغم أن ملابسي لا تكاد تتغير من بداية العام الدراسي حتى نهايته. وحين يبلى حذائي أصلحه عند الكندرجي (أبو مصطفى) بقرش .(يركب) للحذاء نصف نعل،. ثم يلمّعه قبل أن يناولنيه مؤكداً لي أنه قد عاد جديداً ..!

في طريقي إلى البيت التقيت مريم عائدة من دكان البقال. تنحينا عن الطريق قليلاً، حيث وقفنا تحت شجرة النخيل القائمة عند ناصية الشارع. نسمات خريفية تداعب شعرها الأشقر، المرسل على كتفيها، يتماوج على جانبي وجهها الدقيق التقاطيع، فتعيده إلى الوراء بحركة رشيقة من جيدها، لا تكلف فيها، تضفي عليها مزيداً من الفتنة. أخذت تتلفت حولها في قلق ظاهر، فيما تضرج محياها الأبيض حمرة وردية، تثير في النفس حنيناً مبهماً نود معه عناق الكون. وحين سألتها لماذا لم أرها خلال الأيام القليلة الماضية، أجابت وابتسامتها الحلوة ترف على شفتيها، وتطل من عينيها الزرقاوين، قائلة بأن والدتها أخذت تضيق عليها الخناق مؤخراً، بحجة أنها لم تعد صغيرة، وأن عليها منذ الآن أن تكون اكثر تحفظاً مع أولاد الحي، كي لا تلوك الألسنة سمعتها..!

لم يدر بخلدي حتى تلك اللحظة سوى أننا أصدقاء.. أبناء جيران. للمرة الأولى تخطر لي أفكار حول الذكر والأنثى، في شخصي وشخصها. والفرق بين الولد و البنت، لم يكن سهلاً أن أقنعها باللقاء خلسة من حين لآخر. بل إنني لم أكن أرغب في ذلك. لم التخفي وكأننا نقترف خطيئة أو نرتكب ذنباً ..؟ ولكنني أريد أن أراها، فلا تنقطع عني.. أن أتحدث إليها بغير موانع أو تحفظات. ومن ذا الذي له الحق في أن يحرمنا لقاء اتنا البريئة.. بل لماذا تفكر الأم بهذه الطريقة السخيفة ..؟

ودّعت مريم وانصرفت واجماً، أفكر فيما سمعت منها .

دخلت المنزل فألفيت جدي و أحد أخوالي وابن عم لأمي يجلسون على مراتب فوق حصير من القش، مما يوحي بقدر من الحفاوة أبدته أمي حيالهم. وإبريق من الشاي أمامهم وأكواب فارغة، وصحن امتلأ بأعقاب السجاير، فيما كان جدي يلف واحدة جديدة منها ببراعة كنت دوماً أغبطه عليها. ما إن لمحت وجه والدتي الممتقع حتى أدركت لفوري أن هناك أمراً غير سار، وغير عادي أيضاً، يجتمعون من أجله. ازداد شعوري بالانقباض. ساد الصمت لحظات، ريثما سلمت عليهم، فيما هم يرددون واحداً إثر الآخر :

الله يرضى عليك.. ما شاء الله.. أصبحت شاباً.. من خلّف ما مات..

ثم استأنفوا حديثهم دون أن يكترثوا كثيراً لحضوري بعد ذلك .

صعقني، بادئ الأمر، قول الخال مواصلاً حديثاً كان قطعه دخولي غير المنتظر :

– صبية ترّملت، لا بد لها أن تتزوج.. حتى لو كان لديها أولاد.. ليس الأولاد بالشيء المهم. وإنما المهم هو الشرف.. السمعة.. القيل و القال.. كلام الناس يا أختي ..!

وسرعان ما أمّن على قوله هذا ابن عمها بحماس :

– صبية لم تبلغ الثلاثين.. لا يصح ولا يجوز أن تظل بغير زواج ..!

أضاف الخال :

– بل ماذا سيحدث للأولاد؟ ليبقوا مع أمهم أو ليتكفل بهم أي واحد من أهلهم..!

تذكرت مريم وما نقلته إلي عن أمها.. ازددت أسى.. قال جدي بوقاره المعهود :

– الستر هو المهم يا ابنتي ..!

أعقب ذلك صمت ثقيل، مبعثه كلمات جدي التي لا بد من شيء من الصمت إثرها كي يتم استيعابها. إلى أن قطع ذلك الصمت خالي الذي بدا متحمساً للفكرة، مصراً عليها فقال في زهو من يلقي بحكمة نادرة، موجهاً كلامه إليها :

– حتى لو كنت في طهارة بنات النبي، فالناس سوف يتكلمون يا أم سعيد..!

ردت أمي على الفور بحنق وألم واضحين، إذ هي تستطيع الرد عليه هو.. أما والدها فلا، احتراماً له وتوقيراً ..

– يتكلمون عن ماذا يا رمضان ..؟

قال خالي وقد أربكته المفاجأة بعض الشيء :

– عن أي شيء.. ليس ضرورياً أن يكون هناك ما يتكلم عنه الناس بالفعل.. هم يتكلمون والسلام..!

– إذن فيم يهمنا كلامهم (مادام كلام والسلام .؟)

– ما شاء الله.. ما شاء الله.. ما الذي يهمنا إذن ..؟

تدخل جدي :

- يا ابنتي.. هداك الله.. نحن لا نحب لك إلا الخير.. ولا نعرض عليك إلا ما هو في مصلحتك ..!

ردت ساخطة :

- هل مصلحتي هي أن أدع أولادي يعيشون يتماً مزدوجاً ؟

حاول الجد أن يحافظ على هدوئه، وهو يعود للقول ؟

- الأولاد يا ابنتي يعيشون كما يعيش غيرهم. الأولاد، شأنهم شأن المخلوقات الأخرى، من الحشرة حتى الأنسان، كلها تعيش بفضل الله وعونه .!. ها نحن قد زوجنا شقيقتك نعمة بعد مقتل زوجها، هي الأخرى، على أيدي هؤلاء الأوغاد، فماذا جرى لأولادها؟ هل ماتوا مثلاً ..!؟ أولئك هم يعيشون في أمان الله ..!

هزت أمي رأسها وأطرقت تهمس في ألم، كمن تحدث نفسها :

- ماذا جرى لهم؟ لم يموتوا حقاً.. وهكذا يكفي ..!

وتدخل ابن عمها مشجعاً :

- ونحن، سوف نعمل على أن يبقى الأولاد معك يا ابنة العم، فماذا بربك تريدين أكثر من ذلك ..!؟ ويساعدك ذلك أيضاً على هذا الحمل الثقيل. بيقول المثل (الحمل اذا توزع بينشال) ..!

استبدت بي مشاعر الأسى والضياع. لو كان سعيد حاضراً لتمكنا معاً أن نقول شيئاً، أي شيء نشد به أزر المسكينة، التي بدا عليها من الجزع والألم ما لم اشهد عليها مثله إلا يوم مصرع أبي. أحسست بغير قليل من الحقد على جدي، و أخوالي جميعاً، لاسيما ابن عمها هذا. إنهم يعملون على انتزاعها منا؟ لماذا يريدون أن يدمروا حياتنا.. لم لا يتركوننا وشأننا.. ما لهم ومالنا ألا يكفينا ما أصابنا ..! تنبهت إلى حركة جدي وهو ينهض متثاقلاً ممسكاً بعصاه التي يتوكأ عليها - ولكم سرني ذلك - فيما يهم الآخران بالوقوف :

- سوف نتركك يا ابنتي تفكرين في الأمر الليلة ونهار الغد.. وعلى بركة الله ..

قال الآخران معاً، وهما ينحنيان لالتقاط حذاءيهما :

- الله يجيب اللي فيه الخير.. آمين ..

لم تـذق طعـم النـوم فـي تلـك الليلـة. حـاولت جـاهدة أن تتمـالك نفسـها، أول الأمر، وأن تتظاهر بالهدوء وعدم الاكتراث، كيلا تثير فزعنا، إلا انها أخفقت في اخفاء مشاعرها كل الوقت .

كان الذي عرض عليها يعني شيئاً واحداً. كارثة محققـة تحيـق بهـذا البيـت. فاذا ما تم الزواج المقترح، فما الذي سيحدث لهم. هـل يبقـون معهـا كمـا يقولـون ..؟ وفي هـذه الحـال كيـف ستكون معاملـة (العـم) لهـم : هـل سـيعاملهم بـالمودة والحسنى؟ ومن ناحيتهم هم، هل سيبادلونه المودة، اللهم إن وجدت لديه؟ واذا مـا حدث العكس، فلم يرتح إليهم ولا هم اطمأنوا إليـه، بـل ربمـا كـان قاسـياً عليهـم. فماذا سيكون الحال عندئذ، وهي لا تملك من أمرها شيئاً ..؟ أيـن يذهبـون إذا مـا ساءت العلاقات بين الزوج والأبناء؟ ومن يقوم على تربيتهم ورعايتهم؟ الضيـاع مصيرهم. وأهلي هؤلاء ماذا سيفعلون ؟.. ينسونهم.. وهذه هي الدنيـا (كـل ميـن يارب أسألك نفسي)..! .

تلوذ بالبكاء في صمت.. والليل يمضي بطيئاً رتيباً. ترنو إليهم، ينامون فـي وداعة الواحد إلى جوار الآخـر (لا يدركـون مـاذا تخبـئ لهـم الأيـام).. تـتراقص علـى أجسـادهم الغضـة، وعلـى جدران الغرفـة الشـاحبة ظـلال ضـوء السـراج المتأرجحة التي تزيدها وحشة وحزناً. تذكرتـه.. الرصاصـات الغـادرة.. والأيـام الخالية في رعايته وتحت جناحه. غمغمت والدموع تنساب على وجنتيها :

.. إلهي.. ألم يكف الأقدار ما صنعت بنا حتى الآن ...؟

لأن الانكليز لم يعلنوا عن موعد بعينه من أجل تنفيذ عملية النسف للمباني التي وضعوا عليها علامات (×) يوم مقتل محمد المغاري، ولأن بعض الوقت انقضى منذ ذلك الحين دون أن تقع حوادث ذات شأن في قرية يبنا وما جاورها، فقد بدا للكثيرين أنهم ربما ضربوا صفحاً عن هذه العملية، أو صرفوا النظر عنها لسبب ما. بل حدا هذا الاعتقاد بأحد المخاتير أن يزعم بأن العملية ألغيت نتيجة لتوسطه لدى السلطة، هادفاً من وراء هذا الزعم كسب المزيد من الشعبية لدى أهل القرية. ولم يكن ذلك في الواقع إلا منزلقاً أوقع نفسه فيه بيده، استغله مختار آخر للغمز من قناته، بدعوى أن من تقبل شفاعته لدى الانكليز لا بد أنه موال لهم. ولم يستطع الأول (الحاج عوض الله) أن يدفع التهمة عن نفسه إلا يوم جاء الانكليز عصر ذلك اليوم ليبطلوا دعواه عملياً، وبالتالي تبرئة ساحته، وإن يكن علىحساب تسجيل موقف كاذب عليه. وهذا خير له علىأية حال، كما رأى هو في نهاية المطاف .

في العصاري من كل يوم، أسراب الصبايا تتوافد على (حاووز)بيارة المختار (الحاج علي الهمص)، الواقع خلف مقهى مجاور لسوق الجميزة، يملأن جرارهن، ثم يمضين في الطريق الترابي المحاذي لمقهى (أبو سالم) فيقطعن الطريق العام المعبد إلى بيوتهن عبر الأزقة المتفرعة، وقد ارتدين ثياباً سوداء، مطرزة على الصدر والجانبين، وتوشحن بملاءات بيضاء، والجرار فوق رؤوسهن لها وضع خاص، يعتبر في حد ذاته، مقياساً لبراعة واحدتهن وتفوقها على لداتها، فالأكثر مهارة هي التي تميل الجرة بمقدار أكبر، بحيث يخيل للرائي أنها توشك على السقوط، لكنها تظل ثابتة، لا تتأثر بمشية الفتاة أيّاً كان نصيبها من الثقة بالنفس و الاعتداد بالذات .

كان مقهى (أبو سالم) هو الأكثر رواداً بسبب موقعه هذا. فالشباب يجلسون هناك عصراً كي يمتعوا أبصارهم بالغاديات الرائحات على مقربة منهم، وقد رش عمال المقهى الأرض الترابية الحمراء بالماء من أمامه وحوله، تحت الكراسي والمناضد، فتطايرت مع الغبار رائحة التراب الرطبة تحملها نسمات

الصيف الرقيقة، فيما تتعالى النداءات :.. شاي ثقيل.. قهوة سكر قليل.. سكر زيادة.. فيما يصدح صوت المذياع بأغاني أم كلثوم أو عبد الوهاب الجديدة.. افرح يا قلبي لك نصيب تبلغ مناك ويا الحبيب ..

يا وابور قل لي رايح على فين ...ياوابور قل لي وسافرت منين ..

يادنيا يا غرامي.. يادمعي يا ابتسامي.. قلبي يحبك يادنيا ..!

يا جارة الوادي طربتُ..! .وعادني مايشبه الأحلام من ذكراك ..

ولربما كان هذا هو المكان الأمثل لانتقاء عروس، حيث يمكن للشاب هنا أن يرى، بغير وساطة الامهات والأخوات والعمّات، من يمكن أن يقع اختياره عليها شكلاً ومظهراً. أما عن الأسرة و السمعة والسلوك، فتلك أمور يعرفها الجميع عن الجميع. مجتمع صغير.. كتاب مفتوح.. وليس في وسعك، من ثم، أن تظهر بغير ما أنت عليه. ويأتي بعد ذلك دور الأم والأخوات لاستقصاء (الموضوع) من جوانبه الأخرى، قبل أن يلتقي الرجال لقراءة الفاتحة، والبت في أمر الخطبة وعقد القران. والخطبة لا تعني لقاءات ولا زيارات، هي ارتباط ليس إلا، حتى يحين أوان الزواج .

اسراب الصبايا تعبر الطريق. الشبان على المقهى يمرحون ويتبادلون الأحاديث.. السيارات العابرة من حين لحين يقطع دويها حديثهم.. أصوات الباعة، تحت ظلال الجميزة الهرمة تتردد بغير انقطاع.. جرس المدرسة يدق مؤذناً بالانصراف. صخب التلاميذ متجهين إلى بيوتهم سوف يملأ الطرقات عما قليل ..

على غير توقع أو انتظار أطلت قافلة المصفحات الخضراء، التي لم يعد مرآها غريباً على أهل القرية، وقد علت أبراجها رشاشات (متراليوز). توزعت بسرعة فائقة في انحاء الساحة، وعند مداخل الطرقات .

– إذن لقد جاؤوا أخيراً. لقد بروا بوعدهم ..! لم يخيبوا الظن ولم ينسوا واجبهم المقدس في تدميرنا وتخريب بيوتنا ..!

قال ذلك شاب غاضب. عقب آخر :

– والحاج عوض الله لم يثنهم عن قرارهم.. كاذب؟ نعم.. لكنه ليس موالياً لهم .

أحاطوا بالمنطقة تماماً. ترجل عدد منهم بتقدمهم كبيرهم، ومن حوله ضباط تلمع النجوم على أكتافهم والنياشين على صدورهم، راحوا يصدرون أوامرهم

لمن في المقهى، ومن في السوق والطرقات، بالاتجاه إلى باحة ضريح أبي هريرة القريبة، مهددين من يتباطأ بسوء المصير. يلوحون بالمسدسات، واشارات الأيدي مصحوبة بالصراخ والصياح. يستجيب بعض، ويتلكأ بعض، والحقد في نظراتهم صوب أولئك، مما يثير حنق الضابط الكبير فيرغي ويزبد، ويكيل الشتائم بكلمات سوقية عربية مكسرة، مكرراً أوامره بالتحرك سريعاً إلى حيث يشير .

خلت الحوانيت والمقاهي من روادها واصحابها. بعض التلاميذ في هذه الاثناء استطاع تجاوز نطاق الجنود و التوجه إلى دورهم، فيما كان نصيبنا نحن .- عدد من الصبية - أن تعرَّض لنا عدد منهم، ودفعوا بنا إلى حيث تجمع الآخرون، قرب الضريح وبين القبور .

بدأ الرصاص يئز فوق رؤوسنا ومن حولنا في كل اتجاه. جندي ضخم الجثة، أحمر الوجه يتحرك أمامنا جيئة وذهاباً، رشاشه في يده مسدد، تمنطق بأمشاط الرصاص حول خصره، دائرة كاملة إلا من مطرة ماء على الجانب الأيمن، وعلى رأسه خوذة حديدية. أقول الحق أعجبني مظهره، وتمنيت لو كنت مكانه، و جمهور من الانكليز أو اليهود أمامي في مكاننا. وجهه محتقن يطفح عرقاً. عيناه الزرقاوان تقذفان بنظرات يصعب تحديد كنهها : حقد.. قلق.. كراهية.. ريبة.. أو كل ذلك معاً، ولكنهما تتبئان بأنه على استعداد للإجهاز علينا جميعاً إذا لزم الأمر. وكلما تحرك غلام ،أو تحدث رجل، أو همست امرأة استشاط غضباً، وصاح بنا (Shutup) .فضلاً عن سيل دافق من الكلمات الغاضبة، غير المفهومة، وإن يكن واضحاً أنها ليست تحيات موجهة إلينا. هذا فيما سيمفونية الرصاص ما برحت تعزف ألحانها المخيفة .!

لم يمض وقت طويل قبل أن يدوي أول انفجار هز أرجاء القرية، ثم يتبعه ثان، فثالث. ومع كل منها تتوالى أصوات انهيار، وتتصاعد سحب غبار تملأ الفضاء، أخذنا نرقبها وهي تسبح باتجاهنا مع الريح. امتقعت الوجوه، وتبادل الحضور نظرات ملؤها الغيظ والألم، فيما لمحت انفراج أسارير ذلك الجندي المكلف بحراستنا، إذ راح هذا يتبختر مزهواً بمشيته العسكرية العنيفة، كأنما يقول:(انظروا كم نحن أقوياء..!) غمغمت أمرأة بصوت مسموع :

(الله أقوى منكم يا شيخ.. روحوا الله لا يكسِّبكم).

ولكي تكون الحملة ذات أثر مهيب لا ينسى، وتبقى نتائجها الماساوية إلى أن يشاء الله بعد ذلك في الأفراد، بل وفي حياة أهل القرية جميعاً، وليس في

المباني وحدها، تعمدوا أن يصيب رصاصهم عدداً من الناس. أن يقتلوا بغير تعيين.. أيّ ناس و السلام. المهم أن يصنعوا المآسي في هذا اليوم لكي يصبح تاريخاً..!

كانت محصلة ذلك اليوم أحد عشر شهيداً. من بينهم رفيقنا (اسماعيل الحملاوي) الذي اخترع قطاراً منذ أيام. كان عائداً من الفرن ساعة وصول الحملة، وعلى رأسه طبق الخبز. ولم تكن رصاصات طائشة تلك التي أردته قتيلاً، بل هادفة متعمدة، فقد انتهره أحد الجنود وهو على قيد خطوات من باب منزلهم. ولكنه بسبب خوفه انطلق يعدو والأرغفة تتطاير من فوق رأسه، فبادره ذاك برصاصة اخترقت ظهره. تدحرج بضعة أمتار حتى استقر جسده عند عتبة الدار تماماً.

خالته، زوجة أبيه، كانت هي التي أرسلته إلى الفرن. طلقها الرجل بعدئذ ناسباً إليها سبب موت اسماعيل. و آه يا صديقنا المخترع إسماعيل.. تضيع حياتك أنت أيضاً حتى قبل أن تتفتح عيناك عليها برصاصة جبان أحمق ممن ابتلتنا بهم المقادير.. أصابك ما أصاب أبي.. وقافلة الشهداء المجهولين بلا عدد .

كما أصيبت فتاتان عند حاووز الماء، حملهما شابان إلى دار قريبة، بترت ساق إحداهما فيما بعد، وتوفيت الثانية بسبب النزيف الذي لم ينقطع طوال ساعات الحملة. التجول ممنوع. وليس في القرية طبيب أيضاً الأطباء في يافا والرملة والمدن فقط.. أنت أيضاً تذهبين رغماً عنك.. وكان لك أن تعيشي حياة مديدة لولا الدخلاء الغرباء هؤلاء ..!

قبيل الغروب بدأت القوة البريطانية في الأنسحاب، بعد أن أمرت الجمهور المرتهن بعدم التحرك قبل أن تبرح القرية. وألقت بين الناس كميات من النشرات المطبوعة على قصاصات من ورق ملون، تشبه تلك التي ألقتها الطائرات فوق القرية في مناسبات مختلفة، من ارتفاع منخفض تكاد تلامس أسطحة المنازل. وهي تضع اللوم على الثوار وتدعو الشعب إلى التخلي عنهم، بل و تسليمهم للسلطات المختصة. ومنها ما ينص على مكافأة سخية، لمن يقدم معلومات عن (محمد طه النجار) و(أسعد الرنتيسي)، زاعمة أن الثوار بقيادة هذين الرجلين، هم الذين يجلبون على (الأهالي) هذه المتاعب ،(ولولاهما لعاش الناس في سلام وأمان إلى يوم الدين ..!) .

وما أن ابتعدت آخر مصفحة، حتى انطلقنا نستطلع ما جرى للأهل والمباني إبان فترة احتجازنا، وقد بدا لنا أن الوقت الذي مضى كان طويلاً جداً ..

لم أصدق ما رأت عيناي. جابهني فراغ امتد بعيداً مكان المباني، التي كانت قائمة قبل قليل تحجب النظر عما وراءها حتى الأفق. لم يعد هناك سوى حطام.. أكوام من الحجارة والحطام والأتربة. مقهى أبو سالم والدكاكين المجاورة أمست ركاماً. شظايا زجاج محطم.. بقايا أباريق وكراسي وأطباق مبعثرة.. أخشاب محترقة.. وسحب غبار خانق ما زالت تملأ الفضاء، فتكتم الأنفاس.

لم يبق قائماً في المكان سوى (حاووز) ماء الحاج علي الهمص العائد لبيارته والمطحنة المجاورة التي يملكها. بدا كنصب تذكاري شاهد على ما جرى وما كان. غير أن جدرانه تصدعت، وانبعث الماء يتدفق منها كشلال من الدموع.. والجميزة شامخة في مكانها، تتحدى في كبرياء جريح صامت، وقد غطى الغبار والقتام أوراقها و أغصانها .

اجتمع عدد من كبار رجال القرية ضحى اليوم التالي في مضافة المختار الحاج عوض الله. نددوا واستنكروا طويلاً، ثم قرروا في نهاية الأمر، أن يجمعوا من المال ما يكفي لإعادة بناء ما تهدم،لكي لا يتحمل الخسارة أصحابه وحدهم إذ ليسوا هم المستهدفين بحد ذاتهم، وإنما هي عقوبة جماعية يلجأ إليها الانكليز كلما فشلوا في الكشف عن الثوار. كما أنها إحدى وسائلهم لإرهاب الأهالي الذين هم جميعاً هدف تلك العقوبة. ولسوف يسهم في جمع المال أهل القرية، كل في حدود قدرته، وربما أهالي القرى المجاورة.

عند عصر ذلك اليوم شهدت القرية جنازة شهداء الأمس. لم يتخلف أحد من الرجال والنساء والغلمان، بكيت شأني شأن الآخرين. الأحد عشر نعشاً محمولة على الأكتاف الموكب يسير الهوينا في صمت حتى المقبرة. دفن الشهداء، الذين لم تغسل أجسادهم ولم يكفنوا. ووريت أجسادهم التراب والناس بين منتحب وغاضب ومندد. تذكرت جنازة أبي، وحزن أمي .أحسست كأننا نواريه التراب اليوم.

عاد الناس بعد الدفن متفرقين، فغصت بهم الأزقة والطرقات أمام الحوانيت والمقاهي المغرقة في صمت مهيب. أما الأبنية التي نسفت بالأمس فكان شبان كثر يقومون بإزالة أنقاضها، أو جمعها في كومة كبيرة. وحين خلت مساحة من الأرض من الأنقاض بعد ساعات، شرعوا في إقامة سرادق كبير علقت في جوانبه و أنحاء منه المصابيح التي أضيئت فور تعليقها، مع أن الشمس لم تكن قد غربت بعد. وضعت الكراسي والمقاعد التي تطوع بتقديمها عدد من الناس.

عقب الغروب أخذ شيخ معمم ضرير، جيء به من يافا، في تلاوة القرآن الكريم. وعلى الرغم من برودة الجو واشتداد الريح، وقتامة السحب التي تنذر بمطر قد ينهمر في أية لحظة. واصل الناس سهرهم حتى ساعة متأخرة من الليل. حيناً في الاستماع إلى التلاوة، وحيناً إلى متحدث من بينهم (كالشيخ محمد طافش) أو زميله الشيخ (محمد ابو العينين) عن مآثر الشهداء، أو في رواية قصة من تاريخ الأمة في الشهادة والجهاد .

وعلى مدى أيام ثلاثة تابع الأهالي سهرهم وتقديم التعازي أو تقبلها، فلم يكن هناك فارق بين أهل الشهداء وغيرهم فالخسارة ألمت بالجميع، والذين فقدوا هم أبناء القرية ،وليسوا أبناء أسرهم وحدها. كما أن أحداً لم يتوان عن تقديم الطعام في قدور كبيرة على مدى الأيام الثلاثة، في السرادق، كما في منازل ذوي الشهداء .

- ١٠ -

كان عسيراً علينا أن نفهم لماذا يجب أن يقتل آباؤنا وأحباؤنا على أيدي لانكليز. أن يتيتم الأطفال وترمل النساء، أن تدمر المباني، وتحرق المزارع والحقول، فيعم الخراب، وينتشر الحزن في كل مكان ..! ثم من هم هؤلاء؟ ما سبب عدائهم لنا؟ من أين أتوا ..؟

قرأنا في مقرر الجغرافيا أنهم جاؤا من جزر نائية، وراء البحار، على مبعدة آلاف الأميال من ديارنا، وأن بلادهم تلك، باردة ماطرة طوال العام.. وو.. إذن مالنا وما لهم؟ ولماذا وبأي حق يصرون على اقتحام حياتنا، هكذا عنوة واقتداراً وتطفلاً؟

هل مجرد كونهم (انكليزاً) ومحض كوننا (عرباً) يمكن أن يكون سبباً وجيهاً لهذا العدوان؟ أم ترى مبعث ذلك اختلاف ألواننا؟ أم لأنهم يتكلمون تلك الرطانة العجيبة التي لا نفهم ..؟

ويجيب أهلنا على تساؤلاتنا الكثيرة الحائرة، بأنها الثورة. وكأن هذه الأجابة المقتضبة تكفي لأن نفهم كل شيء، أو تفسّر لنا أياً من تلك التساؤلات. بيد أن هذه الأحداث أمست جزءاً من حياتنا اليومية، فأصبحت من ثم، تحظى بغير قليل من اهتمامنا، بل وتشكل هماً حقيقياً لنا، فباتت شغلنا الشاغل. فما أن نلتقي في الفسحة، بين الدروس أو في الملعب، أو في الطريق حتى نبادر إلى تداول الحكايا عن بطولات ثوارنا الخارقة التي كنا نسمع عنها. ثم غدونا ننقسم إلى جماعات تتحزب كل منها لواحد من قادة الثورة البارزين، مضفية عليه هالات من البطولة، ناسجة حوله فيضاً من الأساطير والخوارق، تفاخر به الجماعات الأخرى، لكأنما تلك البطولات من صنعها هي ..!

نسمع عن فوزي القاوقجي :

صهيوني دبر حالك /نفدوا الثوار../ معهم فوزي القاوقجي / بطل الأحرار..

الشيخ عز الدين القسام أبو الثورة الأول القادم من سوريا ليستشهد في

أحراش يعبد .وهو الذي عمل على قيام الثورة عام ١٩٣٦، وكان جهاده نبراساً للثوار والأحرار.

القائد حسن سلامة.. عبد الرحيم الحاج محمد - أبو كمال -.. عبد القادر الحسيني.. الحاج أمين الحسيني :

حاج أمين يا منصور..! بسيفك هدينا السور ... (حتى دون أن ندري عن أي سور يتحدثون. !! سيف الدين الحاج أمين ..!

كنت من أنصار القائد عبد الرحيم. منذ ذلك اليوم الذي سمعت فيه أن هذا القائد يملك قدرات خارقة على مجابهة الانكليز، والإفلات من شراكهم وكمائنهم، ثم الظهور بغتة في أي مكان ليهاجم دورية، أوينسف مركزاً للبوليس، ويختفي بعد ذلك، في طرفة عين، ليظهر من جديد في مكانٍ آخر.. وأن أعماله هذه قد أعيت قوات الاحتلال حتى أنها كرست عدداً غفيراً من جنودها، كما رصدت مبالغ طائلة من أجل القاء القبض عليه حياً أو ميتاً ..!

أرسم له في مخيلتي صورة مثالية تتناسب وما أكنُّ له من إعجاب و إكبار. ولم يكن رفاقي أقل حماسة في تصوراتهم عن أبطالهم المفضلين. وكم تمنى واحدنا لو يشب عن الطوق فجأة ليغدو واحداً من هؤلاء كي يصبح ذكره - مثلهم - على كل لسان ...!

اتفقت مع الرفاق على التوجه بأسئلتنا هذه إلى أحد معلمينا. وقع اختيارنا على الأستاذ (عبد الخالق) مدير المدرسة. فهو خير من يمكن أن يستمع إلينا بسعة صدر، خلافاً للشيخ (محمد أبو العينين) العابس مكفهر الوجه على الدوام، أو الأستاذ (أبو مهدي) الذي يعتقد أننا صغار.. (عفاريت) لا نستحق عناء الحديث إلينا في قضايا كهذه ..!

قرع جرس الصباح. انتظمنا صفوفاً أمام بناء المدرسة، ومن خلفنا حديقتها الحافلة بالأشجار والأزهار. الأرض مفروشة بالرمل الأصفر، وحصى مجلوب من الشاطئ، مصقول أملس. أشجار الكينا العالية والسرو والصنوبر تحيط بالمدرسة من شتى أرجائها، يسمع حفيفها الهادئ فيدخل إلى نفوسنا البهجة والطمأنينة منذ بداية النهار. أشار الأستاذ للصفوف، فشرعنا ننشد :

بلاد العرب أوطاني/ من الشام لبغدان/ ومن نجد إلى يمن/ إلى مصر فتطوان

فلا حد يباعدنا / ولا دين يفرقنا / لسان الضاد يجمعنا / بغسان وعدنان

كف الأولاد عن صخبهم فور دخول الأستاذ عبد الخالق. ساد الصمت. قبع الجميع في أماكنهم، إذ كان أستاذنا هذا يخطرنا بأنه إذا ما دخل غرفة الصف، فيجب أن يسمع صوت الأبرة إذا ما وقعت على الأرض ...! بادر نعيم إلى رفع يده، حين كان الأستاذ عبد الخالق يتفحص دفاتر وأوراقاً بين يديه. تنبه له بعد لأي. تساءل في غير أكتراث :

-ماذا يا نعيم ..؟

قال هذا مرتبكاً :

- أستاذ.. سؤال من فضلك ..

- تفضل.. هات ما عندك ..يا فتّاح يا عليم.. !

- سؤال عن الانكليز.. أعني الثورة

وجم الأستاذ برهة. ثم قال، وعلامات الدهشة بادية على وجهه النحيل، وفي عينيه الضيقتين الحادتين كعيني صقر:

- ماذا تقصد يا ولد ..؟ مالك أنت والثورة ..؟

- نريد أن نفهم لماذا يقتل الانكليز أهلنا؟ لماذا يعتدون علينا؟ هؤلاء الذين استشهدوا بالأمس.. وهذه المباني التي نسفوها.. لماذا يفعلون هذا بنا ؟

ثقل الصمت إلا من صوت حفيف الأشجار عبر النوافذ، فيما أخذ الأستاذ عبد الخالق يذرع الغرفة، جيئة وذهاباً، ويداه معقودتان وراء ظهره، تماماً كما كان يفعل نابليون قبيل دخول المعركة (هكذا قيل لنا أنه كان يفعل)..!

بعد لحظات سادها الترقب المشحون بالتوتر، اتجه الاستاذ إلى باب الغرفة فأغلقه، ثم عاد ليقف بمحاذاة أول صف من المقاعد. بدا عليه اهتمام غير عادي، يوحي بأن ما يعتزم قوله شيء ليس من قبيل (الثور الأسود الذي أكل يوم أكل الثور الأبيض)، أو الثعلب الذي احتال على الحمار فأكله في قلب الغابة.. لأنه حمار ..! أو ليلى التي أكل الذئب جدتها ..! قال بصوت خفيض النبرات :

.. ما سأقوله لكم يا أبنائي، يجب عليكم أن تعوه جيداً. وليكن هذا هو موضوع درسنا اليوم. لكنه درس للحفظ في قلوبكم. امتحانكم فيه عندما تصبحون شباناً. والممتحن آنذاك هو الوطن.. فلسطين أمكم ..!

نظر بعضنا إلى بعض في دهشة ممزوجة بغير قليل من الخيلاء. تخيلنا للحظات أننا سنصبح ثواراً.. نحمل البنادق.. نتبادل المطاردة مع جنود الاحتلال

من الانكليز. أعادتنا إلى الانتباه متابعة الأستاذ لكلامه بعد هنيهة صمت :

- الانكليز احتلوا بلادنا منذ نيّف وعشرين سنة... غايتهم الاساسية من وراء ذلك أن يجلبوا إليها يهوداً من وراء البحار.. من كل أرجاء الدنيا ..

هب أحد التلاميذ ليسأل :

- ولكن لماذا يترك هؤلاء بلادهم ويأتون إلى بلادنا نحن ؟

أجاب الأستاذ موضحاً :

- يريدون أن يقيموا لأنفسهم ((وطناً قومياً)) يجتمع فيه يهود العالم. هذا ما وعدهم به وزير بريطاني اسمه ((آرثر بلفور)) في أوائل عهد الاحتلال، وبالتحديد في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧ أي قبل أن تخلقوا أنتم بزمن طويل. أي أنه قرر مصيركم حتى قبل أن تولدوا هل تفهمون؟ ويبدو أن ذلك كان أكبر من أن تستطيع فهمه مداركنا، فهب تلميذ آخر لكي يسأل :

- ومن هو بلفور هذا حتى يعدهم بذلك ..؟ وهل يملك هذا البلفور البريطاني أرضنا حتى يهبهم إياها وهو القاطن في تلك الجزر النائية ..؟

قال الأستاذ عبد الخالق مبتهجاً لهذا الوعي المبكر في تلاميذه النجباء ..!

هاه.. من أجل هذا قامت الثورات

تشجع تلميذ آخر، فقال :

- لكن لماذا بلادنا بالذات ..؟

- لأنهم يزعمون بأنها أرضهم الموعودة .

- وما معنى الموعودة يا أستاذ؟ وممن ؟

- يزعمون أيضاً أنهم أقاموا في هذه الديار قبل آلاف السنين، وأنه كانت لهم فيها دولة، اندثرت فيما بعد. وأن كتابهم - التوراة - يعدهم بالعودة إليها، ولو في آخر الزمان أي في هذه الأيام..! ليقيموا دولتهم من جديد ..!

- ونحن أصحاب البلاد ،الحقيقيين.. منذ آلاف السنين حتى الآن، كما شرح لنا أستاذ التاريخ. ما شأننا ؟

- يبدو أن أحداً لم يفكر في ذلك يا بني .

- ولكن من يعترف اليوم بملكية أحد لشيء قبل آلاف السنين ..!

- من أين تأتي بهذا الكلام الكبير يا ولد ؟

- في السرادق - يوم الشهداء - هكذا سمعناهم يقولون .

- حسناً.. حسناً.. هو أمر مضحك بالفعل يا أبنائي.. ولكن حتى الأمور المضحكة تصبح جدية حين تدعمها القوة. حاول الانكليز واليهود معاً أن يفرضوا علينا هذا المنطق وهذا الواقع بالقوة التي يملكونها. ونحن، من ناحيتنا نرفض ذلك ونثور عليه. ها نحن نطالب الانكليز بالجلاء عن بلادنا وبالاستقلال والحرية لشعبنا. قال أحد التلاميذ، إذ تحول الحديث إلى حوار ودي بيننا وبين أستاذنا :

- ولماذا يساعد الانكليز اليهود ضدنا، مع أننا نحن الذين على حق ..؟

- هذا لو كانوا قضاة يا بني.. لكنهم ليسوا قضاة.. الانكليز واليهود متفقون على عداوتنا لأسباب تاريخية، لا أريد الخوض فيها الآن. أذكركم فقط بشيء منها. قرأتم في دروس التاريخ عن الحروب الصليبية.. أليس كذلك؟ ليس هذا وقته على أية حال .

نظر إلى الساعة في معصمه، ثم أردف قائلاً :

-.. ولكني أكتفي بالقول الآن، لكي تكتمل الصورة في أذهانكم، بأن لكلا الطرفين أطماع في ثروات بلادنا، كما في موقعها الجغرافي. وستعرفون هذا في المستقبل أيضاً، في الصفوف الأعلى .

صمت من جديد برهة من الوقت، ثم قال، وهو يركز بصره علينا:

- لا تنسوا درسكم هذا. تذكروه دائماً إلى أن تكبروا وتصبحوا بدوركم ثواراً ..!

غادرنا قاعة الصف.. انطلقنا إلى بيوتنا، بمرح وحماسة نردد في الطرقات:

نحن الشباب لنا الغد / ومجده المخلد / نحن الشباب ..

- ١١ -

غربت شمس ذلك النهار، وانتشرت طلائع الظلمة تغشى الكون، إلى أن شرع القمر يتوغل صعداً في سماء صافية الأديم، مرسلاً شلالات دافقة من ضيائه الباهر، تغمر السطوح والقباب، فتلقي هذه على الأرض ظلالاً فاحمة تنبسط من أمامها في أشكال مختلفة. ثم لا تلبث الظلال أن تتقاصر شيئاً فشيئاً، كلما ارتقى البدر قبة السماء، ليغمر الضوء كل المرئيات، مثيراً في النفس أحاسيس مبهمة، هي مزيج من الشعور بالجلال والوحشة، والأحساس بالضآلة والتناهي في الصغر، في لجة هذا الكون السحيق الأبعاد بغير ما نهاية.

خلت الساحة والأزقة. فخفتت الضوضاء، فيما تحلق على المصاطب القائمة أمام البيوت رجال ونساء، لاسيما اولئك الذين تجاوزوا مرحلة الشباب، وتقدمت بهم السنون. بقايا غبار ما زالت تعبق في الجو خلفتها قطعان الماشية العائدة، مع الغروب، إلى حظائرها، او منازل أصحابها الذين غالباً ما يشاطرونها العيش تحت سقف واحد. يقدمون لها قمحهم وشعيرهم، وتمنحهم هي حليبها ..! مزيج من رائحة التراب والقطعان، ورائحة دخان الطوابين والخبز ..مزيج غريب منعش.. أخاذ. هدوء المساء يعم كل شيء. يقطعه ما بين اونة وأخرى ثغاء شاة، او خوار بقرة.. نباح كلب، او صرير بوابة يدلف منها كهل، يتقدمه سعاله المتقطع.. صوت امرأة تستحث جارتها على الخروج للانضمام إلى زمرة السُمّار التي تتكون أمام بيتها .

بعد أن اطمأنت والدتي إلى أن أحمداً وعلياء قد أخلدا إلى النوم، أذنت لي بمرافقتها، عقب توصية مشددة، مشفوعة بالتهديد بأن تكون هذه هي آخر المرات التي تصطحبني فيها، إن لم الزم الصمت - كلاماً وحركة - في حضرة (الكبار). وكما في كل مرة قبلت تعهدي الذي لم يحدث قط أن تقيدت به فيما سلف ..!

أكثر الجالسات أهمية ومكانة كانت الحاجة (أم سانحة)، التي تتصدر الجلسة، عادة، فتضفي عليها هيبة و وقاراً. سبحة طويلة بين أناملها، تداعب حباتها بأناة، لكأنها حركات محسوبة. وشاح أبيض على رأسها يبدي عند أطرافه خصلات من شعرها المصبوغ بالحناء .ملامح وجهها نضرة، لما تزل، على

الرغم من تجاوزها الستين، إلا من خطين دقيقين على جانبي فمها. أما عيناها فقد احتفظتا ببريق حاد، حتى يكاد المرء أن يتجنبهما إذا ما حدقتا فيه بإمعان .

ابنتها (خضرة) التي تناهز الأربعين لا تشبهها في قليل أو كثير. سمراء حنطية ممتلئة، لا تبدو عليها حدة ذكاء والدتها. عيناها عسليتان خاملتان. شعرها فاحم تظهر منه خصلات نافرة، تعيدها إلى مكانها باستمرار، تحت خمارها الأزرق، بحركة باتت آلية، لتكرارها على الدوام. القلق بادٍ في عينيها وحركات يديها العصبية. وهي لا تكف عن الكلام إلا إذا استولى على دفة الحديث من يستطيع إرغامها على الصمت ..!

حديث الحاجة المفضل يدور، في أغلب الأحيان، حول الولادات المتعسرة التي صادفتها في حياتها، والتي يحلولها أن ترويها، من جديد، كلما أتيح لها ذلك. تملؤها الثقة والاعتداد بما صنعت يداها على مر السنين، شأن ضابط خاض معارك عديدة انتصر فيها جميعاً. لا أدري لماذا كانت ولادتي أيضاً واحدة من تلك الولادات المتعسرة، التي هي في الواقع - وكما كانت تحاول الحاجة أن تؤكد - من علامات التفوق، وسمات العبقرية في المستقبل غير المنظور. وما دامت حالات غير عادية فهي متميزة، مما حدا بها إلى أن تمنَّ عليَّ دوماً بأنها هي التي جاءت بي إلى هذا العالم. وكأنما المجيء إليه - في ذاته - إنجاز عظيم يفوق كافة المكتسبات والإنجازات. كما لا يفوتها أن تؤكد - من ناحية ثانية - بأن هذا العالم قمين بأن يسعد بوجودي فيه قطعاً، وإلا فلماذا لم أهلك في ذلك اليوم التاريخي الحافل؟ وما معنى أن تخوض - هي - معركة شرسة مع الموت تنتصر فيها أخيراً، لولا أن لله في ذلك حكمة بالغة وخافية نجهلها نحن البشر ..!؟ أبتهج عندئذ لحديثها.. ويعتريني الزهو و الغرور ..!

من هنا حق لها أن تأمرني فأطيع، وأن أقدم لها طاعتي العمياء وخدماتي المبصرة، بنفس راضية. كأن أحضر لها إبريق الماء للوضوء ..أستعير لها خميرة من إحدى الجارات.. أذهب إلى دكان (أبو العبد الرملاوي) لشراء (حصلبان) أو يانسون. هذا دون أن أنال على شيء من ذلك جزاء أو شكوراً ..! لم لا؟ ألست مديناً لها بوجودي على ظهر هذا الكوكب ؟

أما الخالة (خضرة) فلم تكن تستمرئ حديثاً كالحديث عن الجان والمردة والعفاريت التي تظهر للناس ليلاً. لا سيما للغلمان واليافعين، ومن هم في مثل سني ..!

أبو علي الجمال ظهر له عفريت ضخم عند مقام أبي هريرة، هدده -

العفريت وليس أبو هريرة - بالقتل إذا هو لم يذبح كبشاً أبيض، ويوزعه على الفقراء والمعوزين. أم أحمد العتال تبدّى لها شبح، قيل أنه كان يرتدي (أبيض في أبيض) وطلب منها طعاماً، لعله البامية على وجه التحديد ..!

وتختلف الخالة خضرة، أحياناً، مع إحدى المستمعات حول ماهية ذلك الشبح، أهو جني حقاً أم هو أحد أولياء الله الصالحين. وتصر عندئذ، على موقفها وكأن بين يديها وثائق دامغة تثبت ما تراه هي في هذه القضية ..! روت لنا ذات مرة، كيف رأى (أبو خليل النجار) ما رداً ضخماً يمتد جسده عمودياً ما بين الأرض والسماء، فيما هو عائد من عرس (دار الحملاوي) في الهزيع الأخير من الليل، وذلك هو الوقت المفضل لدى الأشباح والأرواح لمداعبة بني البشر، وكيف أوشك المارد أن يكتم أنفاسه لولا أن قافلة جمال أدركته في اللحظة المناسبة ..!

كنت حريصاً على الاستماع لهذه الأحاديث في لهفة بالغة وفضول شديد. إلا أنها ما لبثت أن ملأتني رعباً، فغدوت أرى أبطال قصص الخالة خضرة في وضح النهار، ناهيك عما حفلت به مخيلتي ليلاً من صور هذه الأشياح في صحوي ومنامي على حد سواء. من ثم فقد أمسيت لا أجرؤ على الابتعاد عن المنزل إثر حلول الظلام. وإذا ما حدث أن كلفتني والدتي بالذهاب إلى مكان، أو أداء مهمة، عمدت إلى انتحال المعاذير المختلفة، متذرعاً بأي سبب يعنُّ لي، خلا السبب الحقيقي، خشية أن اوصم بالجبن. ولما لم تكن كل أعذاري مقبولة لديها، فقد كان يتفق لي أن أخرج مكرهاً، وعندئذ، تتدفع إلى مخيلتي كالسيل حكايا الخالة خضرة دفعة واحدة، مضخمة مجسمة ..! أحث الخطا ..أهرول.. أعدو وكأن يداً من خلفي تحاول أن تقبض على مؤخرة رأسي. تصطدم قدمي بحجر. أو عتبة باب. آه.. هذا هو الجني المتربص متقمصاً هيئة حجر. تقفز من فوق الجدار قطة ..آه.. هذه هي إحدى العاشقات من بنات الجان، في صورة قطة.

وفي ذات أمسية ظهر لي ذلك المارد اللعين. خرجت عقب العشاء بقليل، وأصرت والدتي أن أتلفع بكوفية حول رأسي وعنقي اتقاء البرد. لم تفلح كل المعاذير التي قدمتها. وما أن بلغت الطريق المحاذي للمقبرة حتى بدأ الهلع يجتاحني. نظرت إلى أعلى فإذا بمارد أمامي.. ذعرت، أغمضت عيني، أطرقت إلى اسفل.. ما زال أمامي. إنه المارد إذن بغير جدال.. يا إلهي.. يا إلهي.. لقد وقعت بين يديه أخيراً. انطلقت أعدو بجنون عائداً من حيث أتيت. ولم ينصرف المارد إلا حين اندفعت إلى داخل البيت كالسهم، وخلعت الكوفية. ألقيتها جانباً

كي أمسح العرق المتصبب من جبيني، فيما أمي تنظر إليّ بارتياع. متسائلة عما حدث لي، ولماذا أنا على تلك الحال . تبين عندئذ، وبعد أن هّدأت من روعي، أن خيطاً من العقال قد تدلى أمام عيني فحسبته مارداً ..!

لم يجر الحديث في تلك الأمسية حول الجان، و لا عن الولادات المتعسرة. قضية (عبد السحوة) زوج الخالة خضرة، هي التي استأثرت بالاهتمام دون سواها، لا سيما وأن الأحداث الماضية ما برحت ماثلة في الأذهان.

قالت الحاجة تطمئن ابنتها :

- لسوف يفرجون عنه قريباً فلا تقلقي. وكّلي أمرك لله يا ابنتي .

- ولكنهم لا يتقون الله يمّه.. ألم يشنقوا كثيرين غيره ..؟

ورغم أن الحاجة تعرف أن كلام ابنتها كان صحيحاً، إلا أنها لا تملك إلا أن تمضي في طمأنتها، حتى لو لم تكن هناك أسباب وجيهة لذلك الاطمئنان. فقالت:

- أولئك قبض عليهم وهم يقتحمون مستعمرات اليهود، أو يهاجمون قوات الانكليز .

قالت أم مريم، بعد أن تململت قليلاً، وهي تشير بيديها، كعادتها كلما تحدثت:

- ألم يقولوا أنهم لم يجدوا مع (العبد اسم الله عليه، ويجيبه بالسلامة) سوى رصاصات فارغة..؟

- هذه هي المشكلة. إنهم يشنقون الرجل من أجل رصاصة فارغة ..!

- أصلحه الله.. لماذا يحتفظ بها وهو يعلم انها ستجلب له مصيبة ؟

- ومن أدراه أنه سوف يتعرض لتفتيش مباغت كالذي حصل ؟

- كان عليه أن يتوخى الحذر. ألا ترين أن قريتنا تحظى باهتمام خاص هذه الأيام ؟

أما جارتنا (عدلة) الشامية، التي كانت تقطن خلف بيتنا من الناحية الجنوبية، والتي ظلت تستمع طوال الوقت، منقلة نظراتها بين المتحدثات في شيء من الاستغراب فقد قررت أن تقول شيئاً، آخر الأمر، كي تؤكد أنها تشارك في الهموم، وتسهم في الرأي، فقالت وهي تلملم خصلات شعرها الذهبي :

- الانكليز يصنعون عندكم ما يصنع الفرنسيون عندنا تماماً .

رأت أمي أن تدلي بدلوها هي الأخرى، فقالت :

- يظهر أنهم متفقون جميعاً على هذا لمصلحة اليهود كما يقولون .

تململت خضرة، وقالت في شيء من الاستياء لابتعادهن عن موضوعها :

- المهم الآن (أبو نمر). ماذا يمكننا أن نصنع؟ نبحث عن وساطة؟ نتقدم بطلب استرحام للمندوب السامي ؟

قشعريرة تسري في جسدي.. أيشنقون رجلاً، بالفعل من أجل رصاصات فارغة كتلك التي كنا نلعب بها اليوم في باحة المدرسة ..؟؟

كان درس المحفوظات في ذلك الصباح بالذات، قصيدة عن ثلاثة من الثوار شنقوا عام ١٩٣٠. روى لنا الشيخ محمد قصتهم. وأن تلك القصيدة نظمها فيهم شاعر للثورة ويدعى ابراهيم طوقان. عنوانها (الثلاثاء الحمراء) وأسماؤهم التي علينا أن نحفظها : عطا الزير، ومحمد جمجوم، وفؤاد حجازي:

قسماً بروحك يا فؤاد / صعدت جوانحها زكية / عاشت نفوس في سبيل بلادها ذهبت ضحية .

قسماً بأمك عند موتك / وهي تهتف بالنشيد / ما نال من خدم البلاد / أجلُّ من أجر الشهيد

أصوات الجالسين على المصاطب الأخرى تصل إلينا دون أن نتبين فحوى شيء مما يقولون، إلا حين يعلو صوت منفعل، أو تنطلق ضحكة. رائحة الشاي بالقرفة آتية من مصطبة مجاورة. من هم على المصاطب الأكثر بعداً يبدون كالأشباح تحت ضوء القمر. الأصوات كدوي نحل. أغنية غير واضحة الكلمات تتردد متماوجة عن بعد. صوت المؤذن ينادي لصلاة العشاء فيعم السكون .

قامت والدتي، وأشارت إليّ. نهضت على غير رغبة مني. كنت أود الاستماع إلى مزيد.. اتضحت معالم الأغنية يحملها الريح من مقهى (القاضي) عند المنحدر القريب.. اسمهان.. (فرّق ما بيننا.. ليه الزمان ..ده العمر كله بعدك هو ان ..)

أشاحت والدتي بوجهها تخفي دموعاً ترقرقت في عينيها.

أحمد وعلياء يستلقيان على فراش من تحته حصير على أرض الغرفة. تمددت بجوارهما. سعيد لم يكن قد عاد بعد. ألقت أمي بلحاف علينا جميعاً، فيما هي تتلو آية الكرسي همساً. ذبالة السراج تتأرجح مرسلة ظلالاً قاتمة.. حفيف الأشجار يهمس في أذني.. نفخت أمي على السراج فانطفأ. جذبت الغطاء فوق رأسي.. أغمضت عيني.. ومضيت مسافراً بعيداً.. الأشباح.. المشانق.. الانكليز..!

لبثت زمناً طويلاً أحسب أن يـوم " الجمعـة الحزينـة " هـو ذلـك اليـوم الـذي جيء فيه إلى القرية بجثمان عبد السحوة. في ناحية من القرية خيم الوجوم وسـاد صمت حزين. وفي مكان آخر منها انفجر غضب عارم، وقامت مظـاهرة. وفـي السوق أغلقت الحوانيت. وفي المسـجد أقيمت الصـلاة علـى روح الشـهيد، وقـام الخطباء يندون بالانكليز، فكان يوماً مشهوداً. سيارة خضـراء مغلقـة اخـترقت الشارع، وانعطفت إلى الزقاق المؤدي إلى بيت السحوة، ثم توقفت أمـام المـنزل تماماً. صمت هدير محركها بعد أن عبق الجو بدخان قـاتم، ورائحـة (بـنزين) خانقـة. وجهاء القريـة ومخاتيرهـا وقفـوا قريبـاً من البـاب. النسـاء علـى النوافـذ وأبواب الدور. الصبية ملاوا الطرقات والزقاق في فضول مشوب بالخوف.

فتح باب السيارة الخلفـي، وأنـزل تـابوت حملـه الرجـال إلـى داخـل الـدار، فـانطلقت زغـرودة مـن حنجـرة ممزقـة، اقشـعرت لهـا الأبـدان. أعولـت النسـاء، وتهدجت أصوات الرجال، والتمع الغضب في عيونهم.

.. لقد فعلها الطغاة إذاً.. شهيدٌ آخر في قافلة الشهداء ..

.. شنق الرجل من أجل رصاصـة فارغـة.. يهـودي واحـد لـم يشـنق رغـم أكداس السلاح التي بحوزتهم ..!

خرج النعش، بعـد فـترة لـم تطـل كثيـراً، علـى أكتـاف الرجـال. تكـوّن للتـو موكب يمشـي وراءه فـي صمـت مهيـب. فيمـا انطلقت أصـوات النسـاء، فكـانت مزيجاً من العويل والزغاريد والصرخات المخنوقة. واحـدة تبتهـل إلـى اللـه بـأن (ينكـب الانكليـز). أخـرى تنعـي مـوت الفقيـد فـي عـز الشـباب، وخضـرة تنـدب (جملها) و(أبو اولادها..!). الموكـب يمضـي عـبر شـوارع القريـة غربـاً باتجـاه المقبرة. الغبار يتصـاعد فيخنـق الأنفـاس. العرق يغسـل الوجـوه المحتقنـة. حتـى الصغـار كفـوا عـن تسـاؤلاتهم.. وكـأنهم يعرفـون كـل شـيء، او لا يعرفـون أي شيء. كومة أنقاض المباني التي نسفت ما برحت في مكانهـا، زاد مرآهـا النـاس سخطاً. كل شيء يذكرهم بالانكليز. "هذا بلاء عام ..! من أين جاء..؟ لماذا نحـن

بـالذات دون سـائر خلـق اللـه؟ ولمـاذا بلادنـا بـالذات، دون غيرهـا، مطمـع الطامعين..؟"

تمكنت من التسلل بين القبور، ومن خلال ذلك العدد الهائل من الناس إلى أقرب مكان من الحفرة. رجلان يحملان الجثمان، ملفوفاً بـالعلم، ثم ينزلانـه إلـى تلك الحفرة المخيفة.. القبر ..!

يا إلهي هل يمكن أن يكون هـذا المكـان مقـراً دائمـاً للعم عبد السـحوة منـذ الآن؟ هل معنى هذا أننا لن نراه يمر أمام بيتنا بعد اليوم.. كأبي.. أبـي يقيـم الآن في ظلام كهذا مخيف.. لا يأكل.. لا يشرب.. لا يرى اولاده.. هنا يبقى في الليل والنهار.. في الصيف.. وفي الشتاء.. منذ الآن وعلى مدى الزمان.. كل ذلـك يـا عم عبد من أجل رصاصة فارغة.. ويا أبي من أجل لا شـيء علـى الاطـلاق..! ألا يملون الرقاد هنا؟ ألا يخافون العتمة؟ ألا يشتاقون لنا ؟

- إذا ما جاءك الملكان، ثم سألاك.. قل لهما ...

أي ملكين سيسألانه ..؟ كيف ..؟ وداخل القبر ..؟

صفٌ من الرجال وقفوا قرب القبر، بعد أن رشّ بالماء، وغرسـت للتـو فـي تربته الهشة أزهار وسعف نخيل. الناس يمّرون بهم الهوينـا، يصـافحونهم واحـداً واحداً، في صمت مطبق. وعندمـا هـم الجميـع بـالانصراف، وقفـت علـى مقربـة مجموعة من الفتيان، أخذت تنشد في نغم حزيـن، تلقائيـاً، ودون أن يطلـب إليهـم أحد ذلك :

يا ظلام السجن خيم / إننا نهوى الظلاما /

ليس بعد الليل إلا / فجر مجد يتسامى .

أقيم سرادق كبير في ساحة سيدنا وهب. علقت بداخلـه وخارجـه أعـداد مـن المصابيح - اللوكس - أضاءت أرجاء الساحة بنور باهر، أثار في نفوسنا، نحـن الصغار، فرحاً غامراً، بدد الحزن مـن نفوسـنا. بسـطت الحصـر، وجلـس النـاس على فرش من فوقها يستمعون إلى المقرئ الضرير الذي جيء به من يافا. شجيُ الصـوت، حزيـن النبرات. تسمع عنـد كـل مقطـع يقـف عنـده الشـيخ، آهـات الاستحسان لجمال الصوت، أو لجلال المعنى، مصحوبة بغمغمـات تدعـو للفقيـد، وتترحم عليه، طالبة من المولـى، عـز وجـل، أن يسـكنه فسـيح جناتـه، فالشـهداء (أحياء عند ربهم يرزقون).

كان ذلك، بالنسبة لنا، مهرجاناً مسـلياً، علـى الرغـم مـن كـل شـيء : نلعـب

على مقربة من السرادق.. نعدو.. نتشاجر. وربما نغني، ناسين الجو المكفهر المحيط بنا، مما يضطر بعضهم إلى انتهارنا، كيما نكف عن عبثنا الذي يفسد عليهم متعة الحزن والتفجع ..! ويدور أحدهم بفناجين القهوة، يصب قطرات من إبريق نحاسي عتيق لا تزيد على رشفة واحدة، سرعان ما تتلاشى بين شفتي الشارب، ثم يعيد هذا الفنجان مشفوعاً بحركة من يده متفق عليها عرفاً، تعني الأعادة أو الأكتفاء .

وفي ركن قصي من السرادق جلس (محمد طه النجار) ومن حوله عدد من رجاله، مكفهر الوجه، مقطب الجبين، لايني عن إلقاء نظراته الحادة هنا وهناك. شارباه معقوفان عند طرفيهما، مدببان كذيل عقرب. يعتمر كوفية وعقالاً , متسربلاً بعباءة سوداء، تخفي تحتها البندقية والحزام الجلدي المحيط بخصره الممتلئ بالرصاص (السلحلك)، فضلاً عن خنجر على جانبه الأيمن .

.. هذا هو الرجل الذي وضعوا مكافأة لمن يساعدهم على اعتقاله.. بل لمن يمكن أن يغتاله..!

كان فرحنا – أنا و نعيم وحامد السلال وآخرون من رفاقنا – لا حدود له. فلقد اتيح لنا أخيراً أن نرى أحد رجال الثورة البارزين، بسلاحه الكامل.. ها هو ذا أمامنا كما لو كنا نراه راي العين، يطارد الانكليز ويطاردونه.. يقتحم المستعمرات اليهودية مع رجاله ...!

في ظهيرة اليوم الثالث لعزاء (عبده السحوة)، عبرت سماء القرية طائرة منخفضة القت بكميات من المناشير تطايرت في كل الاتجاهات ،لم يأبه لها أحد من الكبار. ولكننا انطلقنا، وكنا قد خرجنا لتونا من المدرسة، نلتقطها، أو نختطفها وهي تتهادى قبل أن تبلغ الأرض. ربما فرحاً بألوانها المثيرة. قرأت في واحدة منها :

".. من الذي يخسر بسبب الأعمال الخارجة على القانون الآن؟ إن الرجل الغني يعيش مرتاحاً في المدينة. هو لا يعرّض أسباب معيشته للخطر، ولكنه يطلب إلى الرجل الفقير أن يفعل ذلك. إن الذي يخسر هو ذلك التاجر الصغير الذي أجبر على إغلاق دكانه. الذي تتلف بضاعته. هو ذلك الفلاح الذي لا يبيع محصوله في السوق. أليس صحيحاً أن الرجل الفقير هو الذي يخسر دائماً؟ ومع ذلك فإن هذه الأعمال لا طائل تحتها. إنكم لن تجنوا شيئاً من ورائها. فهي إنما تسبب المتاعب لكم ولقريتكم.. الزموا الهدوء والسكينة فذلك خير لكم .."

وفي منشور آخر :

"... إن قادة عصاباتكم، أمثال القاوقجي وعبد القادر الحسيني، وأبو درة، وحسن سلامة، وعبد الرحيم، لم يجلبوا لكم سوى الخراب.. فتخلوا عنهم ..."

قبيل الغروب بقليل من ذلك اليوم جيء بقصاع الطعام، فمدت اعداد وفيرة منها داخل السرادق وخارجه، على امتداد الساحة، كي يتسنى للجميع أن ينالوا نصيبهم منها. عبق الجو برائحة المفتول، واللحم، ومرق البصل ،والقرع. تحلق عدد من الرجال حول كل قصعة (باطية). وإذا ما اقترب منهم أحد الصغار أفسحوا له مكاناً، أو صرفوه عنهم ليجلس مع أمثاله، وما هي إلا دقائق قليلة حتى أتوا على ما في القصاع. وأخذ الناس يتفرقون، فيما عمد بعضهم إلى رفع الآنية الخاوية، تمهيداً لما بعد الغروب، حيث يقدم الناس إسهامهم العيني لأهل الفقيد. تأتي النساء وفوق رؤوسهن صواني ملأى بالأرز الجاف، مغروساً في وسطه قالب كبير أو اكثر من السكر، هرمي الشكل ملفوفاً بورق أزرق فضلاً عما يحمل الرجال من قراطيس ملأى بالشاي و البن. أما الموسرون، والأكثر قربى من تلك الأسرة، فيجلبون خروفاً، تماماً كما يفعلون في مناسبات الأفراح .

حين عدت ظهيرة اليوم التالي من المدرسة، ألفيت السرادق قد أزيل من مكانه، وليس في ذلك المكان سوى مخلفات من الورق والمسامير والقش والرماد. وغلمان يلعبون اتخذوا من تلك المخلفات أدوات للعبهم، كرات يتقاذفونها بأقدامهم، بعد أن وضعوا حقائبهم، وكتبهم أرضاً، والهواء يعصف بأوراقها. صخبهم يملأ المكان. لقد عاد كل شيء إلى ما كان عليه قبل أيام .

طرقت سمعي، حين عدت إلى دارنا، أصوات بكاء، ورأيت من خلال البوابة، المفتوحة على فناء دار السحوة، بعض النسوة بثيابهن السوداء الخالية من التطريز. وعلى رأسهن الحاجة أم سايحة والخالة خضرة .

دلفت إلى منزلنا فألفيت والدتي مطرقة يرتسم على محياها وجوم حزين.. قبلت يدها.. ضمتني إليها.. وانخرطت في بكاء صامت رغماً عنها .

أذن المؤذن للعشاء، وسعيد لم يعد إلى المنزل بعد. وآذان العشاء - لا سيما في تلك الأيام - إيذان للناس بانقضاء الحد الأقصى للسهر في أمسيتهم تلك. من ثم، كان على الذين لم يؤبوا إلى بيوتهم حتى تلك اللحظة أن يفعلوا ذلك قبل أن يوغل الليل .

أما بالنسبة لأمي فقد كان الآذان، بمواقيته الخمس، هو التوقيت الذي تعتمد عليه في تنظيم شؤون حياتها اليومية، خاصة بعد أن باعت المنبه الذي لحق بأشياء أخرى باعتها على التوالي، منذ ألمت بنا الفاجعة، لتغطية النفقات الضرورية : حذاء لعلياء، شورت لأمين، حسب تعليمات معلم الرياضة، دفاتر وأقلام. المهم ألا يعلم أحد بمدى الفاقة التي نعاني .

حين تذكرَّتْ أن أخي سعيد قد تأخر، نقّلت بصرها بيننا وبين موقد النار، تتوهج في أطرافه جمرات يغشى جوانبها رماد رقيق. وفي ركن منه إبريق معدني أزرق يتعالى البخار من فوهته مشبعاً برائحة الشاي والميرمية، شرابنا المفضل ..!

.. أتراه قد تأخر بسبب العمل عند (أبو درويش)؟ إذا كان الأمر كذلك فهو هيّن. لقد بات قلبها شديد التوجس في هذه الأيام. خطر لها أن ترسلني في اثره مستطلعاً. وعلى الرغم من أن هذه الفكرة قد راقتها إلا أنها لم تطمئن إليها كثيراً، إذ هي بنفس القدر تخشى عليَّ من مكروه يصيبني في ذهابي أو إيابي. زادها توترا وميض برق لمع في تلك اللحظة مخترقاً شقوق الباب والنافذة، تلاه هدير رعد ترددت اصداؤه في الأفق، وبدأت زخات المطر تقرع السقف والنوافذ. السقف يدلف من جديد. قامت لتضع عدداً من الاواني في الأماكن التي ينساب منها المطر. القطرات المتساقطة تطرق هنا وهناك مرسلة أصواتاً رتيبة مقلقة. شعرت بالحنق يملأ جوانحها. كم من مرة أوصيته - ذلك اللعين - بألا يتأخر عن آذان العشاء. (إنه لا يسمع لي كلاماً منذ وفاة ابيه.. الله يرضى عليك يا أمين ..!

الليل يتوغل، والظلام يتكاثف، والدوريات تبدأ جولاتها عما قليل، ولن يمنعها هذا الجو العاصف. لربما صادفته إحداها.. يا مصيبتي عندئذ ..! تسمع وقع أقدامهم كل ليلة، تسبقهم صيحاتهم المعربدة ورطانتهم المثيرة للفزع. وجدت نفسها تقول بعد تردد :

- قم يا بني.. اسأل عن أخيك عند (أبو درويش) لنشرب الشاي معاً حين تعودان. تحركت في غير حماسة، وقد سرت عدوى خوفها إلى نفسي، فالخوف، كالوباء تماماً، ينتقل بالعدوى. لكنه كان خوفاً من نوع آخر. إنه الخوف من الظلام.. والعفاريت ..!

المطر ينهمر.. الرعد يقصف.. تصفر الريح..وتتمايل الأشجار.جاء المطر مبكراً جداً هذا العام.

قفزت إلى مخيلتي، على الفور أحداث قصص الخالة خضرة، وأشباح القتلى أضحت كثيرة في هذه الأيام.. ربما في كل شارع.. ولا بد أن واحداً منها سوف يلقاني ..! أخرجتني من تصوراتي حركة أمي، وهي تنهض، وتمد يدها إلى السراج، تتناوله في رفق، محاذرة أن ينطفئ. ثم تمضي معي إلى باب الدار. تفتحه قليلاً بالقدر الذي يكفي لمروري، ولتسرب حزمة من الضوء تنير قليلاً باحة الدار. لم يبدد ذلك شيئاً من مخاوفي، إذ كانت باحة دارنا بالذات هي أكثر مكان أخافه. لا سيما تلك الزاوية التي يقع فيها الكهف الكفري المهجور، والذي لم يكن أحد يعرف كنهه أو ماهيته، وإن كانوا - الأهل والجوار - يجمعون على أنه مكان مرصود، وأنه السكن المفضل لعدد من الجان المغرمين بمداعبتنا، نحن - الأنس - وإقامة علاقات ودية.. وربما غرامية بين بعض منا وبينهم ..!

انطلقت في الطريق المتعرج، بحفره ونتوءاته. حالك الظلمة، خال مثل السابلة تماماً. تلفت في اتجاهات مختلفة.. في المنعطفات.. عند مداخل البيوت الموحشة.. أتلمس شيئاً من الطمأنينة في ومضة شعاع، أو نبرة صوت، تتسرب من فرجاتها.. أنظر إلى السماء الملبدة بالغيوم بحثاً عن بصيص ضياء يصدر عن نجم تائه بين السحب. الهواء يلفح وجهي.. حبات المطر الكبيرة تتساقط فوق رأسي. هذا دكان أبو العبد الرملاوي.. في الداخل كل الأشياء والحاجيات نائمة الآن.. السكاكر.. علب اللحمة والسردين.. رائحة العطارة.. هذا دكان أحمد الحلاق، يغرق في صمت لا يعرف مثله إبان النهار.. كأنه يدعوني للاحتماء به، فنحن متعارفان.. منزل خالتي نعمة، يطل النور من وراء النافذة، لعلها تعدُّ العشاء لفوزي وفتحي وفاطمة وبقية البنات. إنهم ينعمون بالدفء الآن. الأسفلت

الوحيد في قريتنا يلمع تحت المطر و وميض البرق الخاطف.. هنا تماماً سقط أبي في ذلك الصباح الأسود. أصرخ.. أنكب عليه باكياً.. الناس يتجمعون.. الموكب الثائر.. توشك الدموع أن تطفر من عيني.. لو كان حياً لما تجرأ سعيد على تأخره حتى هذا الوقت. وما كنت لأخرج الآن للبحث عنه.. .

لاحت الجميزة عن كثب. كتلة فاحمة تربض في الأفق، تملأ ما بين السماء والأرض. أخذ خوفي ينحسر بعض الشيء، إذ أصبحت على مقربة من محل (أبو درويش). لكنه مغلق. مقهى أبو داود المجاور، وحده يشع منه الضوء وصوت الراديو.

دلفت إلى الداخل. مسحت المكان بنظرة سريعة. ذاك أخي سعيد، مع آخرين، بالقرب من جهاز الراديوالضخم، ينصتون باهتمام واضح. وكأنما أزعجتهم حركتي المفاجئة حين اصطفق الباب لدى دخولي، إذ انصرف إليَّ شيء من انتباههم. أشارت أكثر من يد تطلب إليَّ الصمت. سعيد وحده أشار إليَّ بالاقتراب. توقفت حيث كنت. أصخت السمع بدوري، لهذا الشيء الذي يستمعون إليه من الراديو، والذي بلغ من أهميته ما جعلهم يلتصقون به التصاقاً حميماً كخلية نحل تحيط بملكتها ..!

".. وإن حكومة صاحب الجلالة تعد شعب فلسطين بمنحه الاستقلال في أقرب فرصة ممكنة بعد انتهاء الحرب مع المحور. وما على هذا الشعب الكريم سوى أن يخلد إلى الهدوء مطمئناً إلى هذا الوعد..."

ساد الوجوم. وأخذ الحضور يتبادلون النظرات، وفي عيونهم تساؤلات حائرة قبل أن ينفضوا من حول المذياع، وتعلو أصواتهم في تعليقات مختلفة. منهم من أصر على أن الانكليز لا يفون بوعد، وتاريخهم مع العرب منذ الحرب العالمية الاولى خير شاهد على ذلك. وعود بلا حصر.. الكتاب الأبيض.. اللجان المختلفة ..ثم لا شيء. وإبان ذلك كله تمضي الهجرة في تدفقها، ويمكنون لليهود في الأرض بشتى الوسائل و السبل. إنهم لا يرومون سوى الخديعة وصرفنا عن أهدافنا السامية.. كم شهيداً ذهب من قريتنا وحدها حتى الآن على أيديهم..؟ بل هل كفوا عن ملاحقة رجالنا كأسعد الرنتيسي ومحمد طه النجار؟ ألم يحكموا بالإعدام، ذات مرة، على واحد وعشرين مجاهداً دفعة واحدة بتهمة قتل شاويش، لا ندري أهو انكليزي أم يهودي ..!؟

بعض آخر رأى، أن يعطوا فرصة أخرى، فلعلهم يصدقون هذه المرة تحت ضغط الظروف المستجدة. ولن يخسر أحد شيئاً، إذ إن هناك احتمالات شتى

مرتقبة أسوؤها لهم هو في صالح العرب. من هذه الاحتمالات أن يمنوا بالهزيمة في الحرب، فنكون قد وفرنا على أنفسنا الكثير من الضحايا والجهود. أما اذا انتصر الحلفاء على المحور، لا سمح الله - قال أحدهم - فقد تصدق بريطانيا هذه في وعدها، وهو ما نأمل، وقد تنكث بعهدها، فنعود عندئذ إلى النضال ونحن أكثر قوة وأفضل عتاداً عن ذي قبل، لثورة طويلة المدى محققة النتائج، في الوقت الذي يكونون فيه قد خرجوا لتوهم من الحرب منهوكي القوى، مثخنين بالجراح، عاجزين من ثم، عن التصدي لثورتنا.

قال واحد من الحضور:

- أرأيتم؟ هذا أول مكسب لهم. هانحن نختلف من أجلهم وبسببهم. وهذه هي سياستهم المعتمدة في كل زمان ومكان "فرق تسد".

غادرنا مقهى (أبو داود) والناس ما زالوا في لغطهم حول ما سمعوا. مضينا نتحسس طريقنا في الظلام، وقد تجمعت مياه المطر فتحول الطريق إلى برك. وفي القنوات المنحدرة من أعالي القرية يتدفق الماء غزيراً، والمطر المنهمر تتبدى خيوطه لامعة ممتدة بين السماء والأرض كلما ومض البرق، مصحوباً بهدير رعود تجوب أرجاء الفضاء.

لم نكد ناوي إلى فراشنا - عقب تناولنا العشاء - في تلك الليلة العاصفة حتى طرقت أسماعنا أصوات طلقات من الرصاص، آتية من الناحية الشرقية. لم نأبه لذلك كثيراً، فقد توقفت الثورة، أو كادت، في الفترة الأخيرة. إلا أننا فوجئنا غداة اليوم التالي حين علمنا أن رصاصات الأمس تمخضت عن حدث هام، سرعان ما أفضى إلى تطورات، نجم عنها انقسام أهل القرية إلى فريقين متنابذين فيما بعد، ولأمد غير قصير.

حفلت ساحة القرية بعدد وفير من رجال البوليس، لا سيما الخيّالة (الصواري) ببزاتهم الزرقاء، تزين صدورهم لوحات صغيرة تحمل أرقاماً معدنية لامعة، تسهم في إضفاء غير قليل من المهابة عليهم. ضباط عرب وانكليز يتحركون في نشاط دائب، تحت وابل من المطر. ترشق سنابك جيادهم الماء المتجمع في الحفر والمنخفضات، وتثير بجلبتها جواً من الرهبة، فيما اتخذ بعضهم من دار المختار مقراً لعمليات الاستجواب.

(محمد يوسف أبو سالم) كان المستهدف بتلك الرصاصات التي أطلقت عليه في جوف الليل، فيما هو عائد إلى منزله مع عدد من رفاقه وحراسه. كان الرجل محسوباً على الانكليز إبان الثورة.ومن ثم فقد دأب هؤلاء على إحاطته برعايتهم،

وحمايتهم أيضاً. فأمام بيته وضع حرس خاص. وعلى سور ذلك البيت، الواسع الأرجاء، نصبت أضواء كشافة تمسح ما حوله، طوال الليل، اتقاء هجوم مباغت.وبات الرجل ذا نفوذ كبير لدى السلطات، وصاحب الكلمة الاولى، التي تتجاوز مخاتير القرية ووجهائها جميعاً. حتى إن من كانت له قضية مع تلك السلطات، ما عليه سوى أن يتوجه بها إلى محمد اليوسف- هكذا أصبح يعرف اختصاراً – وهو عندئذ كفيل بحلها على خير وجه. ولم يكن الثمن الذي يتقاضاه لقاء خدماته مالاً بأي حال، وإنما ولاء له، أو وجاهة يعزز بهما مكانته.

كان يمر من أمام بيتنا أحياناً. قصير القامة، ممتلئ الجسم، يرتدي بنطالاً من نوع "البريتشز" الانكليزي، منتفخاً عند الفخذين، ضيقاً عند الركبة وحول الساقين، داخل جزمة حمراء ذات أزرار نحاسية، وسترة عسكرية، بجيوب بارزة عند الصدر. وعلى رأسه كوفية وعقال، يطفح وجهه عافية وحيوية. عيناه واسعتان حادتان. في فكه الأعلى سنان ذهبيتان. له شاربان كثيفان معقوفان إلى أعلى. يبدو في مظهره عموماً، كطاووس يزهو بريشه، ولكنه، مع ذلك، يدفع بالمرء إلى تهيُّبه وخشيته.

قيل إن خصومته مع عائلة النجار ترجع إلى سبب وطني. ففيما كان هؤلاء ثواراً مقاتلين كان هو في جانب أعداء الثورة. وقيل إنها قضية شخصية، بينه وبين محمد طه النجار. وأن الرجلين كانا في وقت من الاوقات صديقين حميمين، إلى أن تزوج الأخير من مطلقة الاول، مما أوغر صدر هذا عليه. لا سيما وأن ما حدث قد أكد ما كان يشاع عن علاقة كانت قائمة بين المرأة ومحمد طه النجار قبل الطلاق. بلغ الأمر بمحمد اليوسف أن انضوى تحت لواء معارضي الثورة بزعامة (النشاشيبي) انتقاماً منه، وابتغاء الايقاع به إذا ما سنحت الفرصة لذلك. من هنا توجهت للفور أصابع الاتهام إلى عائلة النجار، وعاد البحث من جديد، ودون هوادة عن عميدها محمد طه.

لم يمت محمد اليوسف إثر إصابته، فالرصاصات لم تصب منه مقتلاً، وإنما استقرت في أمعائه. وهو الآن يرقد في مستشفى حكومي بمدينة الرملة، حيث تجري له عملية تترتب على آثارها نتائج جمة فيما يتعلق بالعائلتين المتخاصمتين، ومن ورائهما القرية بأسرها.

ما حدث لم يكن غريباً البتة، فالثورة في عاميها الأخيرين – حسب ما فهمنا من أهلنا ومن حولنا إذاك – كرست غير قليل من جهدها في تصفية مناوئيها. الشبهة – وحدها – كانت كافية لأصدار حكم بالموت. مما أدى، في

حالات غير نادرة ،إلى وقوع ضحايا بريئة لم تكن تستحق ما حدث لها.

خشي الناس أن يتطور ما حدث إلى نزاع دموي، يشمل سائر أهل القرية. فلقد كان سائداً بينهم أن بعض عائلات "يبنا" من أصل مصري، وفدوا إليها مع حملة ابراهيم باشا، ومنهم من جاء قبل ذلك او بعده، بحكم الجوار بين مصر وفلسطين. وقد أطلق على هؤلاء دوماً(المصريون). أما أبناء البلاد فقد عرفوا بـ(الفلاحين). كانت عائلة النجار من المصريين وعائلة أبو سالم من الفلاحين. والسلطات البريطانية، عززت هذا التصنيف. ولعلها كانت، بالتالي، أكثر الأطراف سعادة بما جرى، وإن هي تظاهرت بغير ذلك، ذراً للرماد في العيون. إذ كان هذا هو التطبيق الأمثل أيضاً لسياستها "فرق تسد" التي عكفت على اتباعها منذ وطئت أقدامها أرض هذه البلاد.

تم استجواب عديدٍ من الناس، في ديوان المختار، على مدى أيام أربعة، دون أن يسفر التحقيق عن تحديد هوية الفاعل. كما جرى تفتيش عدد من المنازل، ولكن بطريقة مختلفة، هذه المرة. فيما مضى كانوا يتلفون كل شيء تقع عليه أيديهم: يمزقون الأثاث بحرابهم. يدلقون الزيت على الطحين، والملح على السكر. يحطمون الاواني، يهشّمون الزجاج والنوافذ .لكأن مهمتهم تنحصر في إيقاع أكبر قدر ممكن من الأذى باولئك التعساء. هذه المرة كانوا على قدر، غير مألوف، من الدماثة والتهذيب. فهم لا يدخلون بيتاً إلا بإذن قاطنيه، وبرفقتهم المختار. إذا رفعوا شيئاً أعادوه إلى مكانه بحرص واضح. كل ذلك مشفوعاً بعبارات الأسف والإلحاح في طلب المعذرة.. حتى تساءل الكثيرون.. يا إلهي متى كان هؤلاء كذلك..؟ ومن أيِّ سماء هبطت عليهم هذه الطيبة..؟

لم يلبث الأمر طويلاً حتى تبين أن خطر الموت قد انحسر عن محمد اليوسف، وذلك بعد أن استوصلت الأجزاء المصابة من أمعائه .وإن يكن ذلك الخطر لما يزل ماثلاً في محاولات أخرى لاغتياله، قد تقع في أية لحظة عقب عودته المرتقبة. حزن أناس، وابتهج آخرون. الذين حزنوا ودُّوا لو قضى الرجل نحبه، جزاء وفاقاً لما فرطت يداه في حق أهله، والذين ابتهجوا إنما استبشروا خيراً بزوال سبب هام من أسباب الفتنة، في وقت هم فيه أحوج إلى التآزر ضد عدوهم المشترك.

ومهما يكن من أمر فقد لبث الجميع زمناً، ولا حديث لهم سوى أسطورة محمد اليوسف الذي نجا من الموت – بعد أن مزق الرصاص أحشاءه – لا لشيء إلا لأن (عمر الشقي بقي) ولأن الرجل يملك سبعة أرواح، إن لم يكن

أكثر...!

ابتهاجاً بنجاته أقيمت الأفراح، وشـعت أضـواء الكشـافات حـول دارة محمـد اليوسف. وانطلق الرصـاص من البنادق (مترليوز) الذي كان قائمـاً علـى أسـوار الدار. فيما شـاركت قـوة مـن رجـال البوليس فـي الحراسـة طيلـة أيـام الاحتفـال السبعة. مـا انفـك الحـاكي ذو البـوق الضـخم عندهـم يصـدح مالئـاً أجـواء القريـة بأغاني (أمير الطرب) فريد الأطرش.. يا ريتني طـير لأطـير حواليـك / مطـرح ماتروح عيوني عليك وأسمهان رجعت لـك يـا حبيبـي./ مـن بعد طـول الغيـاب. (مطرب الملوك) محمد عبد الوهاب.. هليّت يا ربيـع هـل هلالـك.. متعت الدنيـا بجمالك و(كوكب الشرق) ..افرح يا قلبي.. لك نصيب.. تبلغ مناك ويّا الحبيـب أما في الجانب الآخر من القرية فقد ساد الوجوم القلق والصمت المغلـف بالأسـى والألم.

- ١٤ -

ترك سعيد العمل عند الحلواني. ولما تعذر توفير عمل آخر له، لم تجد والدتي مناصاً من موافقته على فكرة بدأها من أجل تحقيق دخل يسهم في الإنفاق علي الأسرة، التي راحت متطلباتها تتزايد يوماً بعد يوم، وذلك بأن يمارس (عملاً حراً)، كيفما اتفق، وحسب الظروف المتاحة لمثله.كان أول عمل قام به هو إنشاء "بسطة" لبيع الفلافل، فاتخذ من الزاوية الخلاء الملاصقة لبيت خالتنا (نعمة) مكاناً مختاراً لممارسة مهنته الجديدة. وفي أيام الثلاثاء ينتقل إلى السوق نفسه ببسطته، قريباً من الجميزة. لأن يوم الثلاثاء هو يوم سوق القرية وما جاورها من القرى .

يوم (الافتتاح) كان يوماً مشهوداً. فقد أخذنا نصفُ الاواني الجديدة : موقد(بريموس).. مقلاة ..صحون.. تنكة زيت. ونرفع عقيرتنا بالنداء معلنين عن بضاعتنا الفاخرة. وقد تطوع عدد من رفاقي في المدرسة، فضلاً عن رفاق أخي، للمساعدة في هذا العمل الجليل. وكم كانت فرحتي غامرة حين أسند إليّ، منذ أول يوم، مهمة إعداد الأقراص للقلي، أو لفها بورق الجرائد القديمة للمشترين، مما أغراني القيام بمعاونته عصر كل يوم، عقب انصرافي من المدرسة.

منظر مبهج حقاً أن ترقب الأقراص وهي تقذف في المقلى، فيفور الزيت مشكلاً فقاعات تطفو على السطح. تسمع نشيشها، وتنطلق رائحتها تعبق الجو بنكهة التوابل الشهية، مما يسيل لعاب المارة، ويدفعهم من ثم، للأقبال على الشراء بحمية ورغبة واضحتين.

ذات مساء، وفيما كان العمل قائماً على قدم وساق، والزبائن يكتظون من حولنا، انقلب المقلى بمحتوياته جميعاً، دفعة واحدة. تناثرت الأقراص في كل اتجاه، واندلق الزيت على ثيابي ويدي. صرخت..أعولت.. بكيت.. قامت جلبة في المكان. أبدى المتجمهرون أسفهم، كما عبروا عن تعاطفهم بالدعوات والتوجيهات الملائمة:

- يا ساتر يا رب.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. احترقت يد المسكين..

ثم ما لبثت أن انهالت النصائح والاقتراحات العديدة حول كيفية معالجة الموقف. نصح أحدهم بكسر عدد من بيض الدجاج، وصب محتوياته فوق مكان الحرق. واقترحت عجوز استخدام زيت الكاز، فذلك هو العلاج الأمثل للحروق. وامرأة شابة ارتأت أن تغمس يدي في ماء الملح، مؤكدة أن ابنها لم يكتب له الشفاء إلا بهذه الوسيلة. هذا فيما أنا اواصل البكاء، دون أن يخفف ذلك شيئاً من آلامي المبرحة. يبدو أنهم عمدوا، آخر الأمر، للأخذ بكل الاقتراحات المطروحة معاً، ضماناً للشفاء وإيثاراً للسلامة. فلقد صب أحدهم الكاز على يدي من حنفية (البريموس)، فطار صوابي، وأخذت أقفز في مكاني. وجاء آخر ببيضتين، كسرهما على يدي، أما سعيد فقد عمد- بناء على توصية وردت أخيراً - إلى أقراص من (زهرة الغسيل) الزرقاء، حلها بالماء ثم دلقها فوق الحرق. إبان ذلك كان الخلاف محتدماً بينهم، إذ لم يكن هناك إجماع على صحة ما كانوا يفعلون، أو على وحدة في الرأي حول صواب التدابير التي اتخذوها..!

ما إن رأتناوالدتي، ونحن ندلف إلى المنزل، حتى أصابها الفزع. امتقع لونها، فأقبلت مهرولة نحونا، صائحة:

- مالك يمه ..؟ مال أخوك يا سعيد ..؟

- لا شيء.. لا شيء. حرق بسيط ..!

صاحت :

- حرق تقول أيها اللعين ..؟ كيف ..؟ قل لي ماذا جرى للولد ..؟

- اندلق الزيت على يده..

- وما الذي دلق الزيت على يده؟ آه أيها المنكوب ..!

- ولكن ماذا صنعت أنا ؟

- ماذا صنعت؟ وماذا كنت تريد أن تصنع أكثر من ذلك ..؟ ألست أنت سبب مصائبنا كلها؟ هذا ما كان ينقصنا ..(منين لك هم الله يبعت لك ..) ..(يا نيال من بات بهمه القديم..)

توافدت الجارات.. غصّ البيت بالأقارب والجيران في الأيام التي تلت لدرجة أشعرتني بأهميتي الفائقة، مما خفف عني شيئاً من تلك الآلام المبرحة. لا

سيما حين جاءت أم مريم تصحبها ابنتها التي بدا عليها التأثر أكثر من غيرها. تلك دموع في عينيها، ولكنها لا تجرؤ على التفوه بكلمة في حضور والدتها. تضاعف سروري عندما غدت تأتي كل صباح، تحمل وعاء مملوءاً بالحليب الطازج، إذ كانوا يملكون قطيعاً من الأغنام، وعدداً من الأبقار الحلوب.

مكثت في البيت أسبوعاً كاملاً أتاح لي أن ألمس عن كثب مقدار ما تعانيه والدتي في تنشئتنا. لم يكن ذلك خافياً علينا، على أية حال، بيد أنني أصبحت أشهد التفاصيل اليومية الصغيرة التي تمر بها، والتي تشكل في مجموعها عبئاً تنوء بحمله خمس نساء. تكنس باحة الدار المتربة ...تعجن، تمسح أرضية الغرف والمصطبة.. تقطف أوراق الملوخية ثم تفرمها. تطهو.. تغسل الثياب. ثم هي فضلاً عن كل ذلك تطعم الدجاج، وتراقب الأرانب التي كانت تربيها ،كيما توفر لنا مادة غذائية من إنتاج منزلي.! في محاولة منها لتحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي. حتى الخبز في (الطأبون) تصنعه في البيت. كما كانت تزرع الرقعة الصغيرة من الأرض (الحاكورة) المجاورة لبيت عدلة الشامية بالبقدونس والنعناع وشتلات من الفلفل والبندورة. علياء إبان ذلك تلعب او تبكي. ألاعبها، تثورأحياناً ،ولا تجدي كل محاولاتي لإسكاتها. ولكن ثورتها محببة. تنهمر دموعها مدراراً، وفي اللحظة ذاتها تقرقر الضحكة في حلقها. تريد شيئاً باستمرار ... أن يخرج بها أحد إلى الزقاق، أن تقبض على عنق دجاجة، أن تتناول بيضة خرجت لتوها إلى النور، لا تلبث أن تكسرها فوق ثيابها.. تطلب طعاماً.. لا يعجبها.. تسأل عن أبيها. وهنا يأتيها الجواب المعتاد:

" مسافر يا حبيبتي ..!

لم تعد تصدق.. تستأنف البكاء ملحة في طلبه. باتت الدموع لا تسعف والدتي كثيراً. وجهها يفصح عن ألم دفين لا حدود له وهي تهدهد علياء، ثم تمضي في متابعة أعمالها العديدة في وجوم لا يفارقها معظم الوقت. الشعور باليتم لا يضاهيه شعور آخر. نحن نحظى بعطف الآخرين، ولكن هذا في حد ذاته مدعاة لمزيد من آلامنا، إذ هو تأكيد على أن وضعنا ليس عادياً، وأننا موضع عطف. لكأني أعيش في فراغ أجوف. معلق في الفضاء، لا أرض تحت قدمي. أفتقد شيئاً استند إليه تماماً كن يقف على قدم واحدة كل الوقت موشكاً أن يسقط في أية لحظة..!

أخذتني والدتي إلى المستوصف الذي يؤمه طبيب يهودي، يدعى(إسحاق) مرتين في الأسبوع. كان يعالج كافة الأمراض و الإصابات. بدءاً من الإسعافات

الاولية، كما حدث لي، حتى الملاريا التي كانت تصيب الكثيرين، مروراً بالرمد الربيعي، والأمراض الجلدية والتيفوئيد والسل الرئـوي...! ومـا أن لحقنـي الـدور حتى كان موعد إغلاق المستوصف قد أزف. و(الخواجة) لا يتأخر عن موعد انصرافه لأي سبب. لكن إلحاف والدتي في الرجاء دفعه، كارهـاً، للموافقـة علـى معاينتي. فك الرباط.. مسح يـدي بـدواء أحسست حرقتـه تسري فـي كـل أنحـاء جسدي. ثم رشَّ مسحوقاً وربط يدي بلفافة من الشاش، فيما هو يستفسر - ولكـن بغير اكتراث - عن سبب الحرق، منددا بالطريقة التي عولجت بهـا، والتـي تنـم عـن تخلف فـي الوعـي الطبـي شـديد، مستخدماً العربيـة بلكنـة مكسرة. مـردداً باستمراركلمة " يا خبيبي .."

أحملق فيه غير مصدق وجوده في قريتنا. أهذا الدكتور يهودي ..؟ أهو مـن اولئك الذين يقولون عنهم بأنهم أتوا لكـي يستوطنوا بلادنـا..؟ كـان بدينـاً، مكتنـز الجسم. له ذقنان، السـفلى منهمـا تمتـد مـن الصـدغ حتـى الصـدغ الآخـر. ضـخم الأنـف محـدود بـه.. حليق الذقـن والشـاربين. أبيـض اللـون. يضـع علـى عينيـه نظارات مذهبة، زجاجها داكن - تمنيت لـو امتلـك واحـدة مثلهـا - لـم يبـق مـن شعره إلا القليل على جانبي رأسه، وقريباً من أذنيه. أخرجني من اسـتغراقي فـي التفرس بوجهه الغريب، حين ربت على ظهري قائلاً:

.. يا لله يا شاطر.. مع السلامة.. الأسبوع الجاي، مثل اليوم أشوفك ..!

لم تنقطع زيارات رفاقي، وعلى رأسهم نعيم الذي أخبرني أنه قد تقرر نقل مدير مدرستنا الأستاذ عبد الخالق، وأن المدير الجديد سوف يصـل هذين اليومين. كان ذلك مدعاة للدهشة. ذلك أن النقل لا يتم عادة في مثل هـذا الوقـت مـن العـام الدراسـي. ولكـن مـاذا فـي وسـعنا أن نصنـع نحـن الذيـن ليـس بيدنـا مـن الأمــر شيء..؟

تابع أخي سعيد عمله الجديد، على الرغم من اعتراض والدتي، خشية عليه هو أيضاً، وازداد إقبال الزبـائن عليـه، وبالتـالي تحسـن إيـراده منـه .كمـا تحسـن سلوكه إلى حد ما، فأصبح يعطي والدتنا الفائض من دخله، و لا يدخل المنزل إلا وهـو يحمـل معـه فواكـه او طعامـاً.. عنـب.. تفـاح.. علـب(بولبيـف) أو(طـون سردين).. وكم كانت فرحتي ذات صبـاح حيـن فتـح (الشـيخ محمـد) بـاب غرفـة الصف للطارق، لأرى سعيد (بشـرواله) الأبيـض وطـاقيتـه البيضـاء عنـد البـاب. تحدث إلى الأستاذ الذي نـاداني لكـي ينـاولني سـعيد دفـاتر وأقلامـاً ملونـة كثيرة ومسطرة وممحاة وزجاجة حبر. ثم أومـأ لـي مبتسـماً وهـو ينصـرف. غمرنـي

مزيج من الفرحة والحنو، والأحساس بأنه أخي، بل أبي.. حتى اوشكت أن تطفر من عيني الدموع .

أغلق الشيخ محمد الباب، ومضى يهز رأسه يميناً ويساراً فيما هو يعود إلى الطاولة بقامته النحيلة ورأسه المكشوف، فبدا أكثر طولاً ولكن أقل هيبة و وقاراً مما كان عليه اول دخوله غرفة الصف. وقبل أن يضع عمامته على الطاولة، ويعلق جبته السوداء على مشجب في الزاوية الواقعة ما بين الباب والسبورة. طلب إلينا مواصلة كتابة درس الانشاء ليواصل هو قراءة الجريدة التي في يده .

- ١٥ -

غداة ذلك اليوم انتظمنا صفوفاً في باحة المدرسة. بعد أن قرع الجرس، نمنا بالحركات الرياضية المألوفة. لبثنا صامتين في انتظار الإيعاز لنا بالتحرك ى الصفوف. تحيط بنا أزهار الحديقة وأشجار السرو والصنوبر على امتداد سياج تعصف بها رياح آذار. والرمل المبلل تحت أقدامنا إثر أمطار هطلت في ليلة الماضية. وسحب متقطعة تعبر السماء متجهة نحو المشرق، وعصافير دوري تتقافز هنا وهناك فوق الأشجار والأزهار، وبين عشب الحديقة الأخضر، ال وقوفنا، هذه المرة، أكثر من المعتاد .

ها هم الأساتذة يخرجون أخيراً، من غرفة الأدارة، يتقدمهم الأستاذ عبد لخالق. صعد عتبة الباب المرتفعة قليلاً عن سائر الفناء. فيما وقف الآخرون - من فيهم المدير الجديد.. قريباً منه.

بدا الرجل مكفهر الوجه، تلتمع عيناه ببريق حزين. أطرق قليلاً، قبل أن يتوجه إلينا بكلمته التي كان فحواها أنه شديد الأسف لفراقنا الذي لم يكن منتظراً في هذا الوقت. وهو إذ يفعل، على غير رضى منه، فإنه يخلف وراءه قلبه وروحه. غير أنه مطمئن لمستقبلنا إذ يتركنا بين أيد أمينة مخلصة، في مقدمتها الأستاذ شاكر - المدير الجديد - الذي لا ريب أننا سوف نجد فيه الأب قبل المعلم. كما أننا بدورنا، وبغير جدال سوف نكون الأبناء البررة المجدين ...أوَ لسنا عماد هذه الأمة، الذين عليهم تبنى آمالها في غدٍ باهر، ومستقبل زاهر...؟ نظر بعضنا إلى بعض خلسة، وكأننا نتساءل عما إذا كنا كذلك حقاً دون أن ندري..! ولماذا يخفون عنا هذه الحقيقة الجميلة ولا يصرحون بها إلا في مثل هذه المناسبة ..؟ ولولا انتقال الأستاذ عبد الخالق لما أتيح لنا الاطلاع على آرائهم السارة هذه فينا ..!

تنحى عن مكانه، مفسحاً للمدير الجديد، الذي داخلتنا الرهبة لمرآه منذ الوهلة الاولى. ربع القامة. شديد حمرة الوجه.. كالانكليز.. عيناه زرقاوان. يبدو تماماً كانكليزي مستعرب، يرتدي كوفية وعقالاً من قبيل المحاكاة لأهل البلاد، كما كان يفعل بعضهم. مهيب الطلعة، بادي الحضور بشخصيته الطاغية.

ساد صمت مشوب بغير قليل من الحذر، قبل أن يبدأ الرجل حديثه بصوت حاد النبرات ينم عن عصبية واضحة. أعلن هو الآخر عن أسفه إذ يرى مدى تاثرنا لرحيل (سلفه الصالح). أكد لنا أنه لن يألو جهداً في أن يكون الأب البديل، وأنه سوف يسير على خطا السلف. كما أنه لن يدخر وسعاً في أن يمنحنا فكره وعقله، ليصنع منا (رجال المستقبل) القادرين على خدمة الوطن، الذي يمر اليوم بظروف هي أخطر ما مر به حتى الآن، ومنذ انتهاء الحرب العالمية الاولى وانحسار الاستعمار العثماني عنها. فهو يتعرض الآن لغزوة تضافرت فيها قوى الاستعمار والصهيونية.. بريطانيا والوكالة اليهودية. وأن الثورة التي توقفت منذ أمد قصير، بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية، ولتدخل الزعماء العرب، سوف تعود من جديد، في الوقت المناسب إذا نكل الانكليز بوعودهم ثانية وهم أغلب الظن سيفعلون.

صمت الأستاذ شاكر قليلاً. أخذ يجفف عرقة بمنديل أبيض قبل أن ينبئنا بأن له ابنة سوف تكون معنا - في صفنا الخامس بالذات - لأن مدرستنا لا تضم بين جوانبها صفوفاً للبنات، موصياً إيانا بها خيراً، إذ هي بمثابة شقيقة لكل واحد منا، ثم نادى وهو يلتفت نحو غرفة الادارة :

-.. مي.. تعالي يا مي..

أطلت مي.. رائعة الجمال.. جاءت تقفز عدواً، فيما شعرها يتماوج حول عنقها وكتفيها، إلى أن بلغت مكان أبيها. وقفت إلى جواره. وضع راحة يده على كتفها. قال في زهو من يعرض جوهرة نفيسة يعرف قيمتها بحق:

- هذه مي ابنتي..

كوالدها، شقراء، زرقاء العينين، شعرها كشلال من خيوط الشمس الذهبية. ترتدي ثوباً بلون أوراق البرتقال. تناهز الحادية عشرة. تبدو شديدة الثقة بنفسها، والاعتداد بجمالها. لكن وجهها تضرج حمرة إذ وقفت أمام هذا العدد الكبير من التلاميذ وأساتذتهم. هذا فضلاً عن حشد من الفضوليين من أهل القرية، تجمعوا خلف السياج الخارجي. أخرجنا من دهشتنا وبهجتنا معاً - إذ كنا قد استغرقنا الموقف فأنسانا أنفسنا - قول الأستاذ شاكر بصوت انخفضت نبراته:

- والآن هلموا إلى صفوفكم يا أبنائي. ولا تنسوا اننا نقترب من الامتحان الذي يكرم المرء عنده، أو يهان..!

لبثنا بعض الوقت قبل أن يدلف الشيخ محمد إلى غرفة الصف، فكانت فرصة لتساؤلات عدد منا حول أسباب نقل الأستاذ عبد الخالق في مثل هذا الوقت من العام، فيما انهمك عدد آخر في الحديث عن ابنة المدير التي بهرتنا في كل شيء. منّينا أنفسنا بسعادة غامرة، غداً حين تكون بيننا. وبات كل منا أيضاً يمني نفسه بأن يكون نصيبه جلوسها إلى جانبه، حتى كدنا أن نتشاجر بسببها ..!

كما أخذ يطل هذا وذاك من النوافذ بحثاً عنها في الباحة، فهي لم تأت إلى الصف بعد، فيما كنا نحسب انها ستدخله معنا للتو. كانت تتناهى إلى أسماعنا، في هذه الأثناء، أصوات راديو، أو (الحاكي) من مقهى أو دكان في السوق القريبة يردد:

" ياللي زرعتوا البرتقال.. يا لله اجمعوه آن الاوان".. الأغنية التي حوّر الناس كلماتها طبقاً للظروف المستجدة إلى.. "يالله (اقلعوه) آن الاوان"، مع ما كان يرافق قولهم هذا من أسى ومرارة. بياراتهم العزيزة على قلوبهم.. يقطعون أشجارها وكأنما يقطعون أوردة دمائهم. ولكن ما حيلتهم، فالحكومة ضيقت عليهم سبل تصديره، واضطر الكثير منهم للاستدانة من البنوك بفوائد فادحة، مقابل رهونات بشروط مجحفة، كي يتمكنوا من الإنفاق على بياراتهم .متجاوزين تحذيرات الشيخ علي العطار، والشيخ محمد أبو العينين من عواقب ذلك دنيا وآخرة.." الفوائد ربا.. والربا حرام أيها الناس.. " يمحق الله آكله.." فيرد هؤلاء بأنهم لن يأكلوه.. لكنهم مضطرون إليه لانقاذ أشجارهم..وهم يدفعون أي يغرمون ..(وإذا كانت البيارات عبئاً علينا اليوم فإنها لن تلبث أن تعود علينا بالنفع والخير العميم في المستقبل، كما كانت فيما مضى..) وفيما بينهم يقولون مامعناه :

(من كانت يده في الماء ليس كمن يده يده في النار)..!

ويبتهجون بل يستبشرون خيراً حين تدغدغ أسماعهم وتمس شغاف قلوبهم أغنية محمد عبد الوهاب الجديدة.." ما احلاها عيشة الفلاح.. مطمئن قلبه مرتاح " فتثير فيهم أحاسيس من الشجن والحنين إلى الأرض والزرع والشجر والندى.. مع ذلك يتساءلون ضاحكين: كيف يكون قلب الفلاح مرتاحاً مع الديون والكساد.. ولا يمنعهم هذا من ترديدها في البيارات والحقول..!

كنا ندرك ذلك ربما بحدسنا وأحاسيسنا، نحن الصغار، أو بما كان يترامى إلى اسماعنا خلال أحاديثهم في البيوت، أو على المصاطب في العصاري، وما بين المغرب والعشاء. قلق عام ينتابهم، وهموم شاملة مقيمة، تبدو على الوجوه الواجمة، وفي العيون الذابلة، والضحكات الفاترة. لكنهم يعودون للتفاؤل، على

الرغم من كل شيء، وتترقرق في عيونهم الدموع وهم يتمتمون، محدثين أرضهم .." مين زيك عندي يا خضـرة.. فـي الرقـة يـا غصـن البـان.. مـا تجـودي علـيَّ بنظرة وأنا رايح عالميدان..".

دخل الشيخ محمد، فكف الصخب، وانقطع سيل الخواطر والتمنيات، وتقـافز التلاميذ سراعاً إلى مقاعدهم. حين ساد الصمت نظر إلينا، وفي عينيـه، وتقطيبـة جبينه مزيج من الحنق والعطف، ثم قال : لا فائدة منكم، شياطين ..(غـاب القـط العب يا فار) أيها الملاعين..! تنتظرون الفتاة مي.. أليس كذلك ..؟

كان مجيء (مي) إلى صفنا مدعاة لتغيرات جذرية في أوضاعه، بل إلى انقلاب شامل في نظامه وعلاقات أفراده. اسماعيل العطار يتودد إليها. سليمان أبو سليمان يسعى لأن يكون الأثير لديها. نعيم أبو جلاله يحاول أن يقدم لها خدماته المجانية، يحمل عنها حقيبة كتبها.. يعرض أن يبري لها قلم الرصاص.. يسعى لأن يهديها كراساً، أو مسطرة ..! كنا جميعاً ننظر إليها وكأنها صنعت من مادة أخرى غير تلك الطينة التي جبلنا نحن منها. كما أصبحنا أكثر تأدباً وأشد تهذيباً في سلوكنا وحديثنا. كل يبتغي رضاها، المتمثل في ابتسامة او نظرة استحسان تبعث السعادة في نفس من تمنحه إياها سحابة نهاره كله.. وربما امتدت آثارها إلى أحلامه في منامه ..!

لم يكن أثر الأستاذ شاكر بأقل من أثر ابنته في التغيرات الطارئة، وإن يكن على صعيد مختلف. لقد بعث الرجل في القرية الساكنة حركة ونشاطاً لم نعهدهما منذ زمن. كان يبغي تغيير كل شيء دفعة واحدة :.. عائلتا (النجار) و (أبو سالم) لا بد أن يتم الصلح بينهما.. المدرسة يجب أن ينشأ فيها صف سادس للعام المقبل، وسابع للذي يليه، على أن يتكفل أثرياء القرية بتأمين المال اللازم، الذي لن تقدمه لهم حكومة الانتداب بأية حال..

..ضرورة الاشتراك في الألعاب الرياضية الموسمية، التي تقام في مدينة الرملة، مركز القضاء. فضلاً عن إنشاء فريق لكرة القدم ..

.. الزراعة لا بد من تطويرها. وذلك باستخدام الآلات الحديثة والمبيدات الحشرية، بدلاً من الاعتماد على الدواب والوسائل البدائية .. البيارات أيضاً. وتصريف برتقالها.. لا بد لها من حل.

.. إيصال الماء إلى كل البيوت.. والكهرباء أيضا.. مركز للبريد.. تعبيد الطرقات العامة.. بل والأزقة الفرعية ..

القرية تفتقر لكل ذلك، وقد ألفت وضعها هذا حتى أنها لا تفكر في أن شيئاً ينقصها.

حيوية الأستاذ شاكر من نوع مبهر للغاية، أيقظت فيهم الأحساس بهذا الذي ينقصهم والرغبة في الحصول عليه. وقد اثار هذا حوله لغطاً شديداً، وفضولاً متزايداً. انقسم الناس إزاءه بين معجب بآرائه، ومناهض لها لا يرى فيها إلا تطرفاً غير محمود العاقبة على كل صعيد. بل إن العديد من كبراء القرية رأى فيه خطراً يتهدد مصالحهم، ومراكزهم.

فضلاً عن هذا كان الرجل مناوئاً للانكليز والحلفاء. مؤيداً شديد الحماسة للألمان، لا لشيء إلا لأن هؤلاء خصوم للانكليز. من ثم كان يقضي جل وقته في الاستماع إلى آخر الأنباء عن الحرب القائمة. ثم يأتي لينقلها إلى الأساتذة، مسهباً في تعداد الإنجازات التي تحققت للألمان في معاركهم على الجبهة البولندية.. الفرنسية.. البلجيكية.. ومدى الخسائر التي لحقت بالحلفاء، والانكليز بصورة خاصة..! مضيفاً من لدنه، ما يتفق وأمانيه ورغباته من أرقام و وقائع معظمها من صنع خياله وحده. ناهيك عن توقعاته للاحتمالات المنتظرة، والتي لا شك أن خسارة الانكليز وهزيمتهم فيها محققة وثابتة ثبوت سنن الكون التي لن تجد لها تحويلاً ولا تبديلاً ..! حتى نحن أيضاًلم يعفنا الأستاذ شاكر من تعليقاته عن الحرب، ونتائجها الحتمية التي سوف تجعل من هذا الكوكب – عقب انتهائها – جنة تشبه ذلك الفردوس الذي وعد به المتقون..!

أشرف العام الدراسي على الانتهاء. ولم ينجز الأستاذ شاكر شيئاً مما عرض من آراء ومشروعات، بسبب تلكؤ أهل القرية من جهة، ولقصر الوقت المتبقي من ذلك العام، من جهة ثانية.

حل موعد الامتحانات النهائية. ظهرت النتائج بعد أيام. جرى احتفال مقتضب لتسليم شهادات الانتقال .

ثم مضى الأستاذ شاكر وأسرته الصغيرة في إجازته الصيفية. وعندئذ رحنا نضرع إلى الله بقلوب مفعمة بالرجاء أن يعيده إلينا سالماً – ومن معه – في العام المقبل. كما غدونا ننتظر، بعد ذلك، او بته بصبر فارغ وبشوق يبزُّ شوقنا لأي (مدير) مضى من قبل ..!

كان صيفاً حافلاً. رفضت والدتي أن أعمل مع أخي سعيد "فما في كل مرة تسلم الجرة .." وأنا من جانبي لم أرغب في العودة إلى دكان الحلاق أحمد الجمل. لم يبق إذن سوى العمل في الحصاد او في سقي البيارات لكن هذا أكبر من سني وطاقتي .لهذا جَهد العم عبد الغني أن يسهّل عليَّ الأمر قدر استطاعته، فجعلني برفقة عامل يسقي له أرضه. كان يريدني أن "أتعلم". غيرأني تساءلت

أين هو العلم والتعلُّم في مثل هذا العمل. يجري الماء في القناة إلى أن يبلغ حفرة حول الشجرة.. ينتظر الرجل امتلاءها، ثم يضع كومة من التراب يجرفها بفأسه كي تسد مدخل الحفرة، فيجري الماء إلى الشجرة التي تليها. أرقب الماء ينساب في القناة، رقيقاً صافياً، فوق الحصى المتلألئ، إلى أن يتدفق حول الشجرة فتطفو الأوراق والأعشاب الجافة، فوق رغوة بيضاء، تفور على سطحه، محدثة خشخشة رهيفة، وحفيفاً هامساً، فيما تفوح رائحة التربة رطبة نفاذة. يفعل الرجل ذلك، فيما هو يصدح حيناً بموال أو عتابا، أو " يا ظريف الطول ما شي الواد الواد.. يا ربي تلطف بينا وبالبلاد..". ويأتي من بيارة قريبة صوت آخر، كأنه يحاوره "على دلعونا على دلعونا.. راحوا الحبايب ما ودعونا .."

ولأن النهار طويل، يزيد من طوله ذلك العمل الواني الرتيب، كان (دياب) لا يدع مطرباً دون أن يردد أغانيه، سليمة او مشوشة.. عبد الوهاب.. "موضة اليوم".. فريد الأطرش.. و شقيقته أسمهان. وأعجب لكثرة ما يحفظ من هذه الأغاني. ويزداد عجبي وإعجابي أكثر حين يحدثني عن أسماء الأفلام التي شاهدها، ورأى فيها هؤلاء المغنين أنفسهم ..إفي سينما الحمراء او سينما فاروق بيافا التي كان يزورها مرتين.. بل قل ثلاثاً في كل عام، مما أثار غبطتي وحسدي له. ومنيت نفسي بأن أصنع صنيعه عندما أصبح في مثل سنه..! والدتي..؟ سأقنعها حينئذ..!

لكنه كان عملاً شاقاً، على الرغم من كل شيء، فعدت أدراجي للعمل في دكان الحلاق أحمد الجمل، عملاً بقول والدتي "الرمد أهون من العمى يا بني..." أضع رغوة الصابون على وجه أبو حسين الشرقاوي.. أو أرش الماء أمام الدكان على الأرض الترابة، وجزء من الأسفلت عصر كل يوم، عندما تبدأ فتيات القرية غدوهن ورواحهن حاملات جرارهن. إذا كانت مريم بينهن أثار مرآها اضطرابي وازداد وجيب قلبي.. مريم التي بتُّ أعتقد أن أحداً ما يرقبني منددا او محذراً حين انظر إليها.

في أواخر الشتاء من ذلك العام نشب خلاف بين الخالة نعمة و أنسبائها آل المغاري، حول زواج ابنتها فاطمة. إذ رأى هؤلاء أن الأرملة الصغيرة أضحت إرثاً حلالاً لهم، من حقهم أن يستولوا عليه، شأنها شأن أي متاع خلّفه الفقيد. وما دام خطيبها قد مضى للقاء وجه ربه، فلم لا تكون من نصيب اخيه الأصغر. إلا أن فاطمة لم تكن راغبة في ذلك العريس الموروث ..! لقد هالها مجرد التفكير في ذلك. لم تستطع أن تتصور حدوثه. كيف يتزوج الأخ أرملة أخيه؟ ثم أنىَّ لها أن تستبدل هذا الفتى الغر (عاطف) بذلك الشاب مكتمل الرجولة، والذي أضفى عليه استشهاده سمات من البطولة الأسطورية ألهبت خيالها، وباتت تلازمها في صحوها ومنامها، إلى حد أنها كانت تتكر أحياناً أنه ذهب حقاً بغير رجوع.

الخالة نعمة، من ناحيتها، اتخذت موقفاً معاضداً لابنتها. أما زوجها (عبد الكريم الهندي)، الذي كان يعمل جزاراً في دكان في السوق، فقد آثر أن يلتزم الحياد. لا سيما وأنه غريب عن القرية، وليس من الحكمة في شيء، أن يزج بنفسه في أتون معركة (لا ناقة له فيها و لا جمل)..! لو كان مقيماً في المجدل، حيث الأهل والعشيرة لاختلف الامر. وهو من ثم، لن يجعل من نفسه "كبشاً" للفداء..!" كان شعاره (ابعد عن الشر وغني له) ..(والطاقة التي تأتي منها الريح سدها واستريح)..!

تفادياً لتطورات قد تستجد على ساحة الخلاف، ارتأت خالتي أن تبعث بابنتها كي تقيم بعض الوقت - ريثما تهدأ العاصفة - لدى أقرباء لها، في بيارتهم الواقعة في منتصف الطريق بين يبنا والمغار. ولكي تظل على صلة بابنتها، عمدت من حين لآخر، إلى إيفادي وابنها فوزي لزيارة فاطمة والاطمئنان عليها .

انطلقنا معاً عصر ذلك اليوم. حملت سلة تحوي أطعمة مختلفة ملوخية جافة وبامية وبرغل، فيما حمل فوزي على ظهره كيساً للملابس. كان الجو صحواً، بادئ الأمر. السماء زرقاء كصفحة، بحيرة هادئة، والشمس ساطعة تغمر أشعتها أرجاء السهول والبيارات المترامية الأطراف حتى الأفق. بغتة ومن غير مقدمات

اكفهر الجو، وتلبدت السماء بالغيوم. اختفت الشمس، وسادت عتمة غريبة في غير اوانها. وريح شمالية باردة عصفت بالزرع والأشجار. وما هي إلا دقائق قليلة، حتى انهمر المطر غزيراً. رحنا نعدو بكل سرعتنا حتى تقطعت أنفاسنا. نحاول اتقاء المطر باللجوء إلى السياج دون جدوى، لم يكن هناك بيت أوكوخ نأوي إليه. بلغنا الوادي الذي ما إن اجتزناه حتى تدفقت فيه السيول القادمة من الجنوب، مكتسحة ما في طريقها من حجارة وبقايا أشجار. قال فوزي بصوت لاهث يملؤه الخوف :

- ارأيت ..؟ لو لم نغادر الوادي في اللحظة المناسبة لابتلعنا الماء.
- ولكن المطر يغرقنا الآن يا ابن خالتي ..
- وماذا نفعل وليس لدينا ملابس للغيار..؟
- المهم أن نصل اولاً يا ابن خالتي .

وددت لو اقتطف شيئاً من أزهار النرجس ذات الأوراق الزاهية البياض ترصعها النقاط الذهبية المنثورة على ضفتي النهر، لكن المطر أرغمني على الجري وراء فوزي نحو بيارة العم أبو صابر .

يستقبلنا أهل الدار بترحاب وحفاوة، معربين عن أسفهم لما أصابنا في طريقنا إليهم. فاطمة تهرع إلينا، بادية اللهفة والقلق. تضمُّنا في حنان والدموع في عينيها، ومسحة من الحزن تكسو محياها الشاحب .تأخذنا إلى الداخل لتبديل ثيابنا، وتعلن أن لا سبيل لعودتنا إلى القرية هذا المساء في هذا الجو المخيف. لم يخطر ذلك ببالي من قبل. استهولت الفكرة بقدر ما أحببتها. ولكن ماذا تقول والدتي؟ لا شك أنها الآن جزعة، تصب جام غضبها على شقيقتها التي كانت السبب ..! ".. ما لنا نحن ومال نعمة وأولادها.. وهل يأتينا من ورائهم سوى وجع الرأس ..!"

قبعنا قريباً من الموقد، نلتمس الدفء ونرقب الجمر المتوهج. الدفء يعم القاعة. والسكينة تسود أرجاءها. ربة البيت، وبناتها الثلاث، داخلات خارجات في حركة دائبة، لكأنما غص البيت بالضيوف الذين يستحقون الاهتمام المبالغ فيه هذا .

(أبو صابر) يجلس متربعاً على مرتبة تتصدر القاعة. ينفث دخاناً كثيفاً من غليون عتيق، ذي قصبة طويلة. لا يفتأ يضغط محتوياته من التبغ بأنامله الصفراء، فيما هو يبدي رأياً، أو يصدر أمراً لواحدة أو أخرى من بناته. مهيب

الطلعة. شعره مزيج من الأسود والرمادي. فوق كتفيه عباءة صنعت من وبر الجمال. لا يتكلم إلا بمقدار، كأنه لا يرى في الحاضرين من يستحق التحدث إليه إلا إذا اقتضت الضرورة الملحة .

السقف عالٍ أقيم على جسور ضخمة من الخشب. الجدران مطلية بالكلس الأبيض. فتحة كبيرة بدت في منتصف الحائط المواجه للباب، تحوي ألحفة وفرشاً ذات ألوان بهيجة. وعلى الجدار المجاور رفوف خشبية، وضعت عليها جرار من الفخار، مليئة بالزيت والزيتون، واللحم المفروم، والسمن، إلى جانب علب معدنية للسكر والملح والبن والبهارات. تعبق الغرفة بمزيج من رائحة غير محددة المعالم.

العتمة شديدة في الخارج. هزيم الرعد، وعصف الرياح يتناهى إلينا، كأنما هي نذر السماء للبشر العاجزين عن صنع شيء حيالها. جلست فاطمة بجواري تسأل عن أمها وعن أحوال الأهل هناك. أضاءت صغرى البنات مصباحاً. انتشر الضوء يرافقه فحيح موحش. قام الرجل إلى الصلاة بعد أن أمر بإعداد العشاء. انطلق صوته الرخيم يرتل الآيات بصوت خاشع. داخلني شيء من الحزن. والدتي يعتريها القلق الآن. وهي لا تدري أني أحظى بكل هذه الرعاية في أمان وسلام، في كنف الحاج أبي صالح وأسرته. لا شك أنها تضرب الآن أخماساً في أسداس، لا سيما إذا كان (سعيد) قد تأخر عنها كعادته. ترمق أحمد وعلياء القابعين إلى جوارها بنظرات قلقة، يملؤها الشعور بالقنوط والغيظ والحزن معاً.. سأروي لها غداً ما حدث.

تحلقنا حول (الطبلية) وقد حفلت الغرفة برائحة زيت محترق، وباذنجان مقلي، وبطاطا وبصل، وخبز الطأبون الطازج. خيم الصمت أثناء تناول الطعام. زخات المطر ترشق النافذة. أصوات حفيف الأشجار يعلو وينخفض، تبعاً لقوة الريح المندفعة عبر أغصانها وأوراقها. حبات برد تقذف الزجاج بعنف. قفزت وفوزي، بغير تدبر إلى الباب فرحين، نحاول التقاط حبات البرد، لكنها سرعان ما تذوب في أيدينا .

قهقه أبو صابر بصوت مجلجل. ضحكت أم صابر ربما مسايرة له – وهي تقول بلهجة من اكتشف قارة جديدة :(الولد ولد لو نصّبوه قاضي بلد)..!

أمسك الرجل عن الضحك، فقد ذكّرته كلماتها بصابر، ابنهما الذي تطوع مع الجيش البريطاني. بدت على وجهه مسحة من ألم وحزن دفين، يشبه خيبة الأمل. تنبهت أم صابر إلى ذلك سريعاً، فأرادت أن تقول شيئاً تصلح به خطأها

غير المقصود، فإذا بها تزيد الطين بلة، كما تبين على الفور، حين قالت :

- غداً ينتصر الانكليز ويعود صابر بالسلامة ..

انفجر أبو صابر صائحاً:

- إذا كان شرط عودته انتصار الانكليز فلا أعاده الله ..

- استغفر ربك يا (أبو صابر)..!

- هذه على كل حال نتيجة تربيتك..!

- سامحه يا حاج في غربته. رضا الوالدين، وانت سيد العارفين..

- اسامحه ..؟ كأنك لا تعرفين أي عار جلب علينا في البلد. لم تعد لي عين أواجه بها الناس يا امرأة ..! صحيح (الولد الخايب بيجيب لأهله البهدلة..)

- سلامة مقامك يا (أبو صابر) انت سيد الكل. تاريخك ناصع ومعروف للجميع. وسمعتك بين الناس مثل (اليفت) الأبيض..!

- هذا بالذات هو ما يطير صوابي. أنا.. أبو صابر الذي أنفق عمره في الثورات، على الانكليز واليهود، يذهب ولده ليتطوع مع الانكليز، اولاد الكلب، ليحارب الألمان جنباً إلى جنب مع المتطوعين اليهود.. نعم مع الفيلق اليهودي.. عارفه شو يعني الفيلق اليهودي؟

- لعب بعقله ابن الحملاوي.. الله يجازيه..!

لم تجرؤ أم صابر على متابعة الجدل. كنا جميعاً - لا سيما البنات - نرقب المشهد متوجسين، نخشى أن تندلع الحرب بين الزوجين. أطرقت المرأة رأسها مستسلمة. وتشاغلت بصب الشاي في الفناجين الخزفية. مد الفراش، وأطفئ المصباح (اللوكس) ليحل مكانه سراج واهن الضوء يوشك أن ينطفيء كلما تسربت هبة ريح. أقفلت الأبواب، فأرسلت صريراً حاداً، والمطر ما برح في الخارج ينهمر مدراراً .

مضينا إلى النوم تكتنفنا، أنغام موسيقى رائعة، تعزفها أنامل الطبيعة المبدعة، محلقة بنا بعيداً مع أحلام لا حصر لها .

- ١٨ -

حين تقدم غازي الجمل يطلب يد فاطمة، كان ذلك بمثابة معجزة هبطت من السماء، كيما تنقذ الوضع بالنسبة لخالتي وابنتها. حتى وزوجها - رغم حياده المعلن - ولتضع حداً لتلك المعضلة الشائكة، التي بدت لوقت من الاوقات، بأنها لا تقل شأناً - في نظر أطرافها - عن قضية الهجرة اليهودية ..! اوَ ليست قضية مصير هي الأخرى..!؟ لم تتردد الخالة في القبول، فعائلة الجمل هي التي تستطيع أن تواجه التحدي، وأن تصمد أمام عائلة المغاري. إذ لا يفل الحديد إلا الحديد. "والقنطار يلزمه قنطارين" ولن يجرؤ هؤلاء على مناوأة آل الجمل بالذات، فهم الممسكون بزمام الوضع المعيشي في القرية على نحو ما. وأبناء المغاري أنفسهم قلما يجدون لهم عملاً لدى غير آل الجمل هؤلاء في مواسم قطف البرتقال، وفي ورشات تعبيد الطرق التي يتعهدونها لحساب الحكومة. لا سيما بعد أن نشبت الحرب، وراحت أعمال الأنشاء وتعمير الطرقات والجسور تجري على قدم وساق .

بسرعة فائقة أنجز كل شيء. الخطوبة تمت. الفاتحة قرئت. ذاع الخبر و انتشر. وما هي إلا أيام حتى أقيم سرادق كبير أمام دار الجمل، شمل جزءاً كبيراً من ساحة سيدنا وهب، ومن الشارع الرئيسي المحاذي لتلك الدار. وإمعاناً في التعبير عن جاههم وثرائهم استدعوا فرقة موسيقى (حسب الله) من يافا، لأول مرة في تاريخ القرية، الأمر الذي حدا بأهلها أن ينتظروا عرساً لم يسبق لهم أن شهدوا مثله، طوال الحقبة التاريخية الراهنة..!

كان من شأن ذلك أن يثير الحسد لدى أتراب فاطمة، فضلاً عن تنديدهن المبطّن بها، لكأنهن قد اكتشفن أخيراً - بل كيف فاتهن ذلك فيما مضى - أنها كانت سبب استشهاد خطيبها السابق. لماذا؟ لأن (قدمها نحسة) جلبت له هذا المصير.!.

.. ألم نقل أنها سوف تنسى الفتى بمجرد أن يتاح لها زواج مناسب..؟ وأي زواج كهذا الزواج ..؟

أنهيت معظم وظائفي المدرسية على عجل، دون أن أعي شيئاً مما قرأت او كتبت. أما وظيفة الحساب فسوف أنقلها عن الآنسة (مي) التي توطدت صداقتي معها في الآونة الاخيرة.

الساحة تغص بالصبية والأطفال. الأنوار الساطعة تغمر المكان، حتى كاد أن يتحول إلى نهار. مُدَّت الحصر والبسط المزركشة تحت سرادق عُلِّقت على جوانبه سجاجيد فاخرة. وتدلت من سقفه مصابيح باهرة الضوء. فرقة الموسيقى لم تحضر بعد. ونحن نتحرق شوقاً لمشاهدتها، ناهيك عن سماعها. أذن العشاء، وما عتم الكبار أن شرعوا يتوافدون فرادى وجماعات. والصبايا أخذن يتسللن خلال طريق جانبي إلى داخل الدار، في خفر وارتباك، يحملن على رؤوسهن الهدايا، وقد ارتدين الثياب المطرزة بالحرير متعدد الألوان. عدد من الشبان ينثرون السجائر أمام الجلوس، ويطوفون بأكواب الشاي الفواحة بعطر الزنجبيل، يملؤونها من أوانٍ ضخمة نصبت فوق مواقد الحطب، التي انبعث دخانها مشكلاً سحابة خانقة. بغتةً خفتت الأصوات، وكفت الضوضاء. أفراد التخت الموسيقي يدلفون إلى داخل السرادق. هبَّ الحضور وقوفاً، إجلالاً وتكريماً، مفسحين لهم في صدر المكان. انهالت عليهم التحايا بالقول والأشارة، من كل جانب. وضعت أمامهم منضدة كبيرة حفلت بباقات الزهور، وأكواب ماء الزهر والسكر الفضي، التي تمنيت لو نلت واحدة منها ..! فضلاً عن علب السجائر من مختلف الأنواع: مبروك، تتلي سرت، ماتوسيان، نجاح.. !

لم يلبثوا إلا قليلاً قبل أن يبدأ العزف، بعد أن مهدوا لذلك بغير قليل من الحركات غير المفهومة - لنا على الأقل - كل يضرب على آلته او يداعبها، مصيخاً سمعه إلى أوتارها، أو الصوت المنبعث منها. مشفعاً ذلك بنحنحة او همهمة. طبعاً نحن لا نعرف لهذه الحركات سبباً او مبرراً، لكن ذلك لم يمنعنا من الإحساس بفرح غامر. لكم شكرنا - بيننا وبين أنفسنا - آل الجمل على صنيعهم غير المسبوق هذا. حتى لقد اوشك الرفاق أن يقوموا بتظاهرة للهتاف بحياتهم ..!

بعد لأي توقف العازفون، فيما استمر وحده عازف العود يضرب بريشته، ويهز رأسه، ثم انطلق يشدو بمواويل وليال ،لم تثر كثيراً من إعجابنا، لاسيما حين كانت تبدو عليه علامات تشنج واضحة ومخيفة، إذ تنتفخ رقبته حتى نحسبها تكاد تنفجر. و تجحظ عيناه كلما ارتفعت طبقة صوته. وعندما أطلق لحنجرته العنان مردداً :

في البحر لم فتكم في البر فتوني ..! بالتبر لم بعتكم بالتبن بعتوني..!

انطلقت، عندئذ، من الكبار خاصة، الآهات والصيحات من كافة جنبات السرادق، مما أثار فزعنا واستهجاننا بادئ الأمر، إلا أننا ما لبثنا أن ألفناها، ثم سرت إلينا العدوى، فأخذنا نصفق مع المصفقين، ونهز رؤوسنا استحساناً أو تقليداً لما يفعلون ..! الزغاريد من الداخل تشق الفضاء. أغاني دلعونا.. وعتابا.. و(آمنت بالله..نور جمالك آية آيه من الله نور جمالك نور عجيب.. يطفي في القلب اللهيب ...)

عندئذ ترتفع أصوات الحاضرين : الله.. الله ... ياست لوردكاش. عقدت حلقة الدبكة. الشباب يضربون الأرض بأقدامهم.. يلوحون بمناديلهم. انتظم آخرون في صفين متقابلين، وشرعوا يرددون اغاني "السامر".

شعرت بالزهو أمام رفاقي، فالعروس ابنة خالتي. أنا إذاً من أصحاب الشأن في هذا العرس الخارق للعادة ..! حتى أن نعيم وسليمان واسماعيل كانوا يلجؤون إلي كلما أراد أحدهم كوباً إضافياً من الشاي.. بل إن سليمان جرب أن يختلس سيجارة عن طريقي وبمعرفتي كي يجرب التدخين ..!

الليل يمضي، والسمار يواصلون سهرهم، بغير تعب حتى الهزيع الأخير من الليل. ثم ينفض السامر ويتفرقون. بعضهم ينتظر خروج "الحريم" من الأهل. تضج شوارع القرية وأزقتها بالحركة بعض الوقت، ريثما يأوي الناس إلى بيوتهم، فيما يرتفع صياح الديكة، وخيوط الفجر الاولى تتسلل عند الأفق الشرقي، ونجمة الصباح المتلألئة ترمق الأرض، ومن عليها، من عليائها في كبد السماء. يسود الكون السكون، وتعم السكينة انتظاراً ليوم جديد.

حان موعد الزفاف. تجمع أهل القرية أصيل ذلك النهار على جانبي ساحة "أبي هريرة" ،حيث يجري سباق للخيل. باعة الحلوى والمثلجات – الواردة من يافا – ينادون على بضاعتهم. ابتعت قرطاساً من الفستق المغموس بالسكر، ضارباً عرض الحائط ببكاء (أحمد) الذي كان يفضل حبة (اسكيمو)، نشتريها من القرش الوحيد الذي كان في حوزتنا. لقد أضجرني وجوده معي منذ كلفتني والدتي برعايته وحراسته، فيما ذهبت هي إلى دار شقيقتها للأسهام في إعداد العروس.

أقبلت الجياد، وبدأ السباق، فتصاعد الغبار، وعلت الأصوات والصيحات، وصهيل الخيل المزينة بسروج مزركشة، وأوراق ملونة. وعند نهاية كل شوط تنطلق صيحات الجمهور، معبرة عن إعجابها بالفائز، وسخطها على الخاسر.

أفراد فرقة (حسب الله)يقرعون الطبول وينفخون في الأبواق، فيزداد حماس أنصار الفريقين، ونتراهن نحن الصغار على حبات من الفستق، او الدحل، بينما يراهن الكبار لقاء مشروب شاي أوقهوة عند أبي داوود.

مالت الشمس نحو المغيب، وحان موعد زفة العريس الذي بدا نحيلاً للغاية في (قمباز الروزه) الحريري، مكفهر الوجه لسبب لا أدريه. تحيط به جمهرة من الشبان، تردد بحماس أهازيج (السحجة) يرافقها ضرب منتظم بالأكف وقرع الطبول. يطوفون به في شوارع القرية الرئيسية، وهو يمشي الهوينا، وسط سحابة من الغبار توشك أن تكتم الأنفاس. العرق ينضح من الوجوه المحتقنة، وقد بدا عليها منتهى الجد. أجهزة الراديو والحاكي مفتوحة على آخرها في المقاهي المجاورة. تختلط الأغاني الصادرة عنها بتلاوة الأخبار عن الحرب.. بضجيج الزفة.. بالزغاريد.. بدوي سيارات الجيش البريطاني العابرة، محملة بالجنود الذين يدهشهم المشهد، فيهتفون ويصيحون بأعلى أصواتهم، وغالباً ما يكيلون الشتائم..!

تميزت الأمسية الأخيرة، بمفاجأة مثيرة. فلم تكد الموسيقى تبدأ وصلتها، والناس ما برحوا يتوافدون تباعاً، حتى شرع بعضهم يطلق الرصاص ابتهاجاً واحتفاء بالمناسبة الميمونة. تقدم(أبو ممدوح) عم العريس يطلب إليهم الكف عن ذلك، لا سيما وأن الانكليز، - وإن هم تغاضوا عن ملاحقة حملة السلاح في الآونة الأخيرة - إلا أنه لا يؤمن جانبهم، فالانكليز هم الانكليز، وقد يقلبون المناسبة السعيدة إلى نكد لا حد له، إذا هم شاؤوا ذلك. وها هي ذي سياراتهم غادية رائحة تشهد ما يجري. لم يستجب أحد لرجاء أبي ممدوح. بل إنهم ازدادوا حماساً بلغ حد التهور، تعبيراً عن تحديهم للانكليز أنفسهم من ناحية، وإصراراً على أن تبلغ أفراحهم مداها، من ناحية أخرى. من ثم فقد راحوا يطلقون الرصاص بغير حساب.

تكاثر الناس، وعلا الصخب، وانتقلت للجميع عدوى هذه العربدة، بما في ذلك النساء اللواتي تعالت أصواتهن بالزغاريد والغناء وضرب الصاجات والطبول، فيما ترقص واحدة منهن أو أكثر، على إيقاعها. بغتة انطلق صوت حاد طغى على كل الأصوات. للتو توقف الجميع، وساد سكون مخيف. ثم لم تلبث أن قامت جلبة على مبعدة أمتار قليلة غربي السرادق، تنم عن فزع مباغت.. ثم صيحات:

إسعاف.. إسعاف يا ناس ..لقد أصيب.. مات.. لا لا.. لم يمت.. من هو..؟

حاولت الاقتراب، وأنا أجرُّ أحمد مـن يـده، ولكـن بغير جدوى، فقد حـالت الأجساد المتراصـة دونـي. حملوا شـخصـاً إلـى السـيارة الصـغيرة الوحيـدة فـي القرية، والتي يملكها (رشيد الجمل) عمٌّ آخر للعريس. انطلقت السـيارة مسرعة، مخلفة وراءها رائحة بنزين وسحابة من الدخان، مخترقة الزحام، في طريقها إلى الشمال.. يافا.. الرملة.. الله أعلم ..! و ما هي إلا لحظات حتى بلغ النبأ مسـامع النساء في داخل الدار. (علي الرملاوي) اصيب برصاصة طائشة في خاصرته.. ربما تكون مميتة.

سرعان ما انقلب (الفرح) إلى مأتم، والزغـاريد إلـى عويـل. انتشـرت علـى الفـور تعليقـات وتخرصـات شـتى. وفـي غضـون دقـائق قليلـة رويـت عشـرات القصص المختلفة عن الحادث نفسه ..!

مضيت بأحمد إلى المنزل. لم تكن والدتي قد عادت بعد. أما سعيد فلا أدري أين هو في هذه الساعة. لم أره في العـرس ايضـاً. بت متلهفاً لحضورهمـا كـي أروي لهما ما حدث في عرس دار الجمل، لـم يسـعنا إلا أن ننتظـر وحيدين فـي جو تكتنفه الرهبة.

ها هي ذي تجيء أخيراً تسحب علياء بيدها. وقد علا الشحوب وجهها. إذن لقد عرفت ما حدث. وقبل أن أتفوه بكلمة أخذت تردد، فيما هـي تـروح وتجـيء، تحمل وعاء أو ترفع وسادة، أو كوباً فارغاً :

(.. يا بختك الأسود يا فاطمة.. حسدوكِ يا حبة عيني ..!)

تأجل إتمام الزفاف ريثما ينجلي الموقف، وتتحدد حالة المصاب، فضلاً عـن نتيجة التحقيق – هذا ما عرفناه في اليوم التالي –. ذلـك أن علـي الرمـلاوي هـو أحد أقرباء العريس، وصديقه الأثير. أجل لابد من الانتظار.

- ١٩ -

أقبل الصيف، وجاء موسم الحصاد.

قطعة الأرض التي نملكها زرعت قمحاً هذا العام. أتى المزارع (عم عبد الغني) لكي يبلغ والدتي عزمه على حصاد الزرع الذي أينع، مبشراً بموسم خصيب. ولسوف يبدأ ذلك منذ الغد .

انتابتني فرحة غامرة حين وافقت والدتي - بعد إلحاح شديد - على ذهابي مع عم عبد الغني إلى (الأرض في أم الذهب). هناك سوف أقطف السنابل. أمسك بالفراشات. أرشق العصافير بالمقلاع. أشتري بطيخة بالمقايضة على غمر من القمح. ما يهمني الآن اكثر من أي شيء آخر هو : متى يأتي ذلك الغد ..؟

صحوت عند الفجر. تناولت ملابسي من قرب وسادتي. عكفت أمي على إعداد (زوادة) صغيرة. قدمت لي كوباً من الشاي، ثم مكثنا ننتظر مقدم العم عبد الغني. يخيم السكون على الكون، لا يقطعه سوى صياح الديكة، و صوت رجل يسري في طريقه إلى المسجد، مردداً تسبيحة او تكبيرة، أو موحداً الله الواحد القهار. وصوت آخر يحث دابته على السير ميمماً شطر الحقول. رددت والدتي بصوت واهن وهي تتثاءب. أصبح الصباح والملك لله.. فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم. تثاءب سعيد، تمطى، أخذ يندد بالمتسبب في إزعاجه باكراً ..! صوت المؤذن يردد:

- الصلاة خير من النوم.

يعلق سعيد متعمداً المماحكة :

- والنوم خير من الحصاد ..!

ترد والدتي حانقة :

- (هدا اللي انت شاطر فيه)..!

يحسم النقاش بجذب اللحاف فوق رأسه. ثم يعود إلى النوم.

طرق الباب. جاء العم عبد الغني أخيراً. ما لبث أن أردفني وراءه، على حماره الأسود. وانطلق بنا هذا الأخير عبر الأزقة. حوافره تطرق الحجارة

الصلدة فتثير أصواتاً حادة. وشخير مزعج يطلقه من أنفه بين الفينة و الأخرى. نسمات الصباح تصافح وجهي وصدري، مفعمة بأريج التربة والزرع والبرتقال. وكلما اوغلنا في الأرض الخلاء، أو خلال البيارات ازدادت تلك الرائحة قوة ونفاذاً، تتداخل معها رائحة الكروم المنتشرة على السفوح الغربية وكثبان الرمال. زقزقة العصافير العابرة من فوقنا في كل اتجاه. الشمس أطلت لتوها، فبدت قرصاً أحمر متوهجاً عند الأفق، ترسل أشعة أرجوانية تغمر كل الأشياء، وتصنع من خلال الأشجار ظلالاً رائعة. تساورني الرغبة في أن أتمدد في ظل تلك الجميزة، أو أن أتسلق شجرة التوت هذه، أو أن أجذب غصن شجرة التين مؤملاً العثور على حبة نضجت قبل اوانها. يقطع عم عبد الغني عليّ تصوراتي، بين حين وآخر، لكي يبادرني بسؤال أحس أنه لا ينتظر عليه جواباً. وأياً كان ردي فهو يتقبله بصمت، أويتبعه بسؤال آخر:

.. كيف تجد المدرسة؟ ماذا كان ترتيبك هذا العام؟ هل تحب المدرسة يا أمين؟ أخوك أحمد في أي صف ؟.

كان بادي العطف نحوي، ربما لأنه لم يرزق بولد، على الرغم من زواجه مرتين، ومنذ ما ينوف عل ربع قرن من الزمان. حركة مفاجئة صدرت عن الحمار، أخلت بتوازني فكدت أسقط لولا أنني بادرت للتشبث، بحركة لا إرادية، بخاصرتيْ العم عبد الغني، والالتصاق بظهره. أدركت بعد لحظة، أن الحمار تنكب الطريق المعبّد إلى الأرض الزراعية. تساءلت:

– هل بقي علينا كثير حتى نصل أرضنا يا عم ..؟

– ليس كثيراً، انظر إلى تلك الأشجار العالية، هناك تقع المحطة، والأرض بالقرب منها تماماً .

– ولكن لماذا لم نواصل سيرنا على الطريق العام المعبد إذاً؟

صمت الرجل قليلاً قبل أن يجيب:

– بحكم العادة يا بني .

– اية عادة يا عم. أتذكّر أننا مررنا قبلاً من ذلك الطريق، فلماذا لم نتعوده؟

– ألم تسمع بضابط المحطة؟

– بلى. كيف لم أسمع به؟ ولكنه لم يعد هناك منذ زمن بعيد، كما يقولون .

– هذا صحيح. ولكننا أصبحنا بحكم العادة – كما قلت لك – نتحاشى المرور بطريق المحطة. حتى حماري هذا تعود هذا الطريق، وبات يتجه إليه من

تلقاء نفسه. وهو الذي قادنا إلى حيث نحن الآن ..!

- هو حمار ذكي إذن يا عم ..!

ضحك العم.

حسبته يضحك مما قلت، فأردفت مؤكداً :

- حقاً هو كذلك، فهو يعرف ما يريد - رغم أنه حمار - بل ما تريده أنت حتى دون أن تقول له ذلك ..!

- يبدو أن الأمر هكذا يا بني .

ثم أتبع كمن يحدث نفسه (رغم أن كثيراً من البشر لا يعرفون ما يريدون..!)

بعد أن عاد الصمت وحوافر الحمار تدب على الأرض المزروعة، تذكرت الروايات العديدة التي كنا نسمعها عن الضابط البريطاني، الكولونيل وينجت، الذي كان مجرد ذكر اسمه يثير الفزع. لقد دأب هذاعلى التفنن في أساليب اقترافه لجرائمه، لكأنه يقوم بعمل يحبه ويتعشقه. وتتراوح جرائمه ما بين الاعتداء على الناس، بالضرب والشتيمة، وسرقة ما يلقاه في حوزتهم، وبين القتل العمد رمياً بالرصاص أو طعناً بالحراب. كان سادياً يجد لذته في تعذيب ضحاياه حتى الموت. وليس شرطاً أن يكون هؤلاء ثواراً، أو حتى مجرد رجال راشدين. بل كثيراً ما عمد إلى قتل غلمان، أو مزارعين يلقاهم في الطرقات، أو في أي مكان بين البيارات والحقول او على رمال الشاطئ.

هكذا تناقلت الروايات سيرته. حاول أهل القرية اغتياله في أكثر من مناسبة، دون أن يفلحوا، مما أضفى على غريمهم هذا هالة أسطورية من الرهبة. لكن محاولاتهم ما كانت لتذهب بغير عقاب يوقعه بهم، تمثل في صور عديدة مختلفة. منها العقوبات الجماعية، يفرضها عليهم، اعتباطاً ومن تلقاء نفسه .وكأنه دولة قائمة بذاتها، لا يُسأل عما يفعل. ومنها اللجوء إلى قتل مجموعات من الناس كيفما اتفق، ربما صادفها في طريقه، أو عمد إلى جمعها من المزارعين، أو من بين روّاد المقاهي وأصحاب الحوانيت، أو المارة. أما أهون تلك العقوبات فقد كان حجز أعداد غفيرة من أهل القرية في ساحتها العامة، لساعات طويلة تحت أشعة الشمس اللاهبة، أو المطر المنهمر، تبعاً للفصل الراهن حينئذ بل هم مازالوا يذكرون في قهر وأسى كيف ألقى هذا الانكليزي - اليهودي فجر ذات يوم بخليل السلال وولده ابراهيم من فوق الجسر الى لجة الوادي، ليلقيا حتفهما

دون أن تشفع لهما توسلاتهما وضراعتهما شيئاً. عنَّ لي سؤال أقطع به الصمت المهيب فقلت :

– ولكن لماذا لم تطلبوا نقله أو تقدموا الشكاوى عن أفعاله للحكومة ؟

قهقه عم عبده قبل أن يقول، وفي صوته نبرة تهكم :

– لقد فعلنا ذلك تماماً يا بني ..وتلك كانت خطيئتنا الكبرى..!

– لم افهم شيئاً يا عم ..

– هذا مافعلناه، ولكن ذلك كان لصالحه دون أن ندري. فما دام هذا يلحق الأذى بنا إلى درجة تدفعنا للعمل على إبعاده، فمعنى ذلك أنه يقوم بواجبه على أفضل وجه حسب سياستهم. ومن ثم فنحن لم نجن من محاولاتنا وشكاوانا سوى إيغار صدره علينا أكثر فأكثر، والإمعان، من ثم، في الانتقام منا.

– ألا يكون يهودياً ذلك الضابط يا عم عبد الغني؟

– هو يهودي يا بني .

– من حسن حظنا إذن أن الثورة انتهت وأنه نقل من هذا المكان إلى غير رجعة إن شاء الله .

– الثورة لم تنته يا أمين. ولسوف تعود في الوقت المناسب .

– ولكن الانجليز سوف يخرجون من بلادنا عند ما تنتهي الحرب. كما يقولون .

– من قال لك ذلك..؟

– سمعته من الراديو في مقهى العم أبو داود .

– وهل تصدق كل ما تسمعه من الراديو؟ اسمع يا أمين أنت ما زلت صغيراً يا بني ..

– أنا لست صغيراً يا عم. عمري الآن ١١ او ١٢ سنة لا أعرف تماماً .

ضحك الرجل وقال :

– أعرف، أعرف. ولقد حملتك رضيعاً بين يدي هاتين .وباركت لأبويك يوم مولدك. ولكني أقصد أن من هم في سنك لا يستطيعون إدراك معنى الأحداث الجارية على حقيقتها. أنت لا تعرف مثلاً أن الانكليز لا يصدقون في وعد أبداً. وهم لن يمنحونا استقلالنا بعد الحرب أيضاً.

- ماذا سيحدث عندئذ ..؟

- سوف تقوم القيامة هنا. اليهود من ناحيتهم، سوف يطالبون بتنفيذ ما وعدهم به بلفورهم.. وطن قومي. هجرة بغير قيود و لا حدود.. امتلاك الأراضي بلا حدود أيضاً. إلى آخر ما هنالك من أطماعهم. ونحن، من ناحيتنا، سوف نعارض ذلك. بل ونطالب بما هو عكسه تماماً: الاستقلال ... الحرية في إقامة دولة لنا ... الوحدة العربية.. أما الانكليز، فعليهم لعنة الله الأبدية، فما من أحد يعرف ماذا يريدون، وما هي حقيقة نواياهم .

بغتة أوقف العم عبد الغني حماره. كنا قد بلغنا شجرة توت ضخمة، بسطت ظلالها على رقعة واسعة من الأرض. خيم صمت مشحون بالتوتر. سرح بصره بعيداً. أجال بصره في الأفق العريض من حولنا قبل أن يرسل ضحكة مجلجلة، أجفلت منها، إذ صدرت عنه بغتة ولم تكن لها مناسبة واضحة. لم أجرؤ على سؤاله عما أضحكه. لزمت الصمت إلى أن التقط أنفاسه. ثم توكلت على الله، وقررت المغامرة بسؤاله:

- خير يا عم؟

- تريد أن تسالني عماأضحكني يا أمين أليس كذلك؟

- ليس هذا تماماً يا عم.. ولكن ..

- اسمع هذه الحكاية يا بني : هنا، في هذه البقعة قتل أحدهم ..!

- قتل أحدهم ؟

-.. وكنت شاهداً على ذلك.. كان خائناً استحق القتل. أذكر ذلك كما لو أنه يحدث الآن..

- حقاً. ولو لا أنه كان كذلك لما قتلوه ..! لا بد أنه تعاون مع الانكليز .

لم يعلق على ملاحظتي. أطرق قليلاً، ثم شرع يروي الحكاية بصوت منخفض. ونبرات هادئة، كأنما يحدث نفسه:

... جاء الرجل يوماً إلى القرية. أخذ يتصل بوجهائها وملاكي الأراضي و البيارات فيها، ويقيم معهم علاقات صداقة وطيدة. بدت طبيعيه أول الأمر، لكنها ما لبثت أن تكشفت عن أغراض خفية كان يرمي إليها. زعم أنه أحب قريتنا الهادئة الوادعة. ادعى أنها المكان الذي قضى نصف عمره في البحث عنه، إلى

أن منّ الله عليه فهداه إليه أخيراً. من ثم فهو يود الإقامة فيها ما تبقى له من عمر في هذه الحياة الفانية ..! وما عليه الآن سوى أن يجد ذلك الإنسان الذي يوافق على بيعه قطعة أرض يقيم عليها منزلاً صغيراً، تكتنفه بيارة برتقال متواضعة.

وجد ضالته أخيراً في قطعة صغيرة بمنطقة "أم الذهب"، تلك التي عن يميننا الآن. تمكن من إقناع أحد الفلاحين، بثمن مغرٍ، لم يكن مألوفاً آنذاك. لكن هذا المالك (حسن العبسي) فوجئ، يوم التوقيع على عقد البيع، بأن الرجل يحمل توكيلاً عن يهودي من مستعمرة (ريشون ليتزيون) عيون قارة، وأن هذا الأخير ليس إلا وسيطاً (للكرن كايمت)، المتخصصة في شراء الأراضي من الحكومة المنتدبة، وبعض من تستطيع التغرير بهم، لصالح الوكالة اليهودية. لم يشأ حسن العبسي أن يثير ضجة، أو أن يلفت انتباه الرجل إلى شكوكه حوله، رغم استغباء هذا الأخير له، لتصوره أنه مجرد "فلاح أبله" سوف "يبصم" على العقد دون أن يعرف مضمونه ..! أبلغ العبسي القصة لقائد الفصيل في المنطقة، الذي تحرى الواقعة، فوجد أن الرجل لبناني، سبق له أن أسهم في عمليات البيع لمساحات من الأراضي اللبنانية، الواقعة في شمال فلسطين، وسهل مرج ابن عامر، لا سيما عائلات سرسق وسلام والخوري الإقطاعية المعروفة، هي ليست معروفة بالنسبة لك، ولكن من هم أكبر منك سناً يعرفونها جيداً.

صمت العم عبد الغني وكأنه مضى بعيداً في استحضار الذكرى. لا يسمع سوى وقع الحوافر تنغرس في التربة الهشة، وحفيف السنابل المتماوجة. ثم ما لبث، بعد لأي أن قال :

.. كنت أحد ثلاثة وقع عليهم الاختيار للقيام بالمهمة.

قاطعته في توجس من يستفظع صورة القتل التي عبرت ذهني للحظات مرعبة :

– ألم تكن هناك طريقة أخرى تحول دون إتمام الصفقة، بدلاً من قتله ..؟ كالامتناع عن البيع مثلاً.. كطرده من المنطقة.. وكفى..!

رد بحدة ظاهرة :

– لا يا أمين. ليست القضية هي بيع هذه القطعة تحديداً. كما أن ذلك لن يمنعه من التوجه إلى أماكن أخرى لتنفيذ المشروع الذي كان وراء العملية. كانوا ينوون إقامة مستعمرة يهودية هنا.. في هذا المكان. تصور لو حدث ذلك، يا

ولدي، أي كارثة كانت ستحيق بقريتنا؟ اليهود يقيمون هنا، بجوار بيوتنا وعلى مرأى منا. أرضكم هذه كانت ستؤول إليهم أيضاً..

كان علينا استدراجه عن طريق العبسي، الذي أبلغه استعداده للتوقيع على العقد بغير إبطاء. مقترحاً أن يتم ذلك في موقع الأرض ذاتها، بعيداً عن الأنظار وضماناً للسرية المطلقة .

جلسنا تحت شجرة التوت هذه نترقب، إلى أن جاء اللبناني في سيارة سوداء، توقفت إلى جانب الطريق الترابي. نزل هو منها، وبقي فيها شخص آخر. تبين فيما بعد أنه يهودي.. عميل آخر للشركة. مسح المكان بنظرة مريبة شملت كل الآفاق المحيطة به. اطمأن حين رأى حسن العبسي في الانتظار. اقترب منه هذا. راح يتحدث إليه بعض الوقت. ثم أخرج اللبناني من حقيبة كان يتأبطها أوراقاً قدمها للعبسي. خرجنا للتو من مكمننا، لننقض عليه و نستولي على الأوراق. اضطرب الرجل.. امتقع لونه.. ارتعشت أوصاله.. حاول مستميتاً الدفاع عن نفسه بكل الحجج الممكنة. تذرع بأنه لم يكن سوى ضحية جهله وغبائه، فضلاً عن عدم درايته بمثل هذه الشؤون ..! وإذ واجهه أحدنا بماضيه الحافل، متبعاً ذلك باشهار مسدسه، معلناً الحكم باعدامه باسم الثورة الفلسطينية، انهار الرجل دفعة واحدة. وطفق يسترحم ويستغفر، دون جدوى، فلقد فات أوان التوبة والاستغفار ..!

صمت العم عبد الغني قليلاً، ثم أردف في أسى:

.. آه يا بني لو عرف هؤلاء الخونة فداحة جريمتهم في حق شعبهم، بل وفي حق أنفسهم وأسرهم وأبنائهم من بعدهم، لأجيال قادمة بلا عدد. وهم في نهاية المطاف يخسرون كل شيء.. دنيا وآخرة يا بني ..!

أصبحنا على مشارف الأرض. ساد الصمت زمناً إلى أن بلغناها. ترجل العم فيما كنت أقفز عن ظهر حماره. السنابل تلامس صدري، ووجهي أحياناً. أدرت بصري فيما حولي. بساط ذهبي بديع. سطحه غلالة شفيفة تكونت من أطراف السنابل المدببة. يتهادى بأناة مع ريح الصبا.. والطيور تحوم، ثم تهوي تلتقط الحب، ثم تنطلق محلقة في الفضاء الرحب تزقزق راضية مطمئنة. الشمس ساطعة تغمر الكون. المحطة القريبة تطل بمبانيها الحجرية البيضاء من خلال فرجات بين أشجار الكينا العالية. نباتات متسلقة على جدرانها تحفل بأزهار بنفسجية وأوراق خضراء يانعة. سحابة دخان تبدو من بعيد، لا تلبث أن تتكشف عن عربات قطار قادم من الشمال، مرسلاً صفيراً مثيراً طالما استأنسنا به، كلما

تصادف وجودنا قريباً من خط سيره شرقي القرية. عن بعد تراءت لنا مباني يبنا تشرف من عليائها وديعة مهيبة. شعرت بحنين غامض إليها، رغم أني لم أبرحها إلا منذ قليل .

أعداد من الفلاحين، في مواقع متعددة، يحصدون القمح بمناجلهم اللامعة في ضوء الشمس الباهر، فيما راحت أصواتهم والأصداء تتجاوب في أرجاء السهل، يحث بعضهم بعضاً على العمل، او يرددون المواويل .

عدنا عند العصر. كان يوماً حافلاً. الفلاحون يملاون الطرقات، بدوابهم وعرباتهم المحملة بالسنابل، يتساقط بعض منها هنا وهناك فتفرش الطريق كله. غلمان على جانبي الطريق يفترشون الأرض، ومن أمامهم (بسطات) الحلوى وزجاجات المياه الغازية الملونة، وأكوام من الخيار والبطيخ. تكدست من حولهم أنهار من أغمار القمح، تعبق الجو برائحة التبن والتراب، ورفوف العصافير تحوم مغردة، تعلو وتنخفض، تقترب وتبتعد ... مهرجان زاخر بهيج استغرقني حتى الذهول.

خيل إلي أن فرصتي في متابعة دراستي قد ضاعت إلى الأبد. كان ذلك يوم حان موعد العودة إلى المدرسة، قبل أن يتم إنجاز البناء المخصص للصف السادس الجديد. ليس أمامي الآن سوى أن أندب حظي العاثر. لا سيما بعد أن فقدنا - أنا و فوزي - فرصة أخرى سنحت من قبل، سبق أن هيأها لنا الأستاذ شاكر، بمسعاه الحثيث من أجل إلحاقنا بدار الأيتام في القدس، أو بمدرسة "شنللر" المهنية. كان متاحاً لواحدنا، يومئذ، أن يغدو نجاراً، أو حداداً، أو سمكرياً مرموقاً. حقاً هي حرف لا تحظى لدى أهل القرية، بذات القدر من الاحترام الذي تتمتع به مهن أخرى، يرتدي أربابها طربوشاً وقميصاً ذا ياقة بيضاء منشاة، يتوسطها رباط عنق - لا سيما إذا كانا منقطاً - إلا أنها - على أية حال - خير مما كان ينتظرنا من حرث في الحقل، أو سقي في بيارات البرتقال .

مصيرنا يتارجح إذن، في مهب الرياح. بيد أن الأستاذ شاكر يمكن أن يحدد لهذا المصير مساره، إذ يقرر مواجهة التحدي، فيصمم على ألا يدع العوائق الطارئة تحول دون تحقيق طموحاته في صنع الجيل الأفضل الذي ينشد، من أجل البلاد والعباد ..! فلطالما اعتقد أنه مبعوث العناية الألهية لإصلاح ما فسد على ظهر هذا الكوكب - كما يقول الشيخ محمد أبو العينين - وذلك عن طريق العمل الدؤوب، وليس مجرد الاكتفاء بالقاء الموعظة، حسنة كانت أو غير ذلك..!

وما دامت السلطات المختصة قد وافقت، من حيث المبدأ، على إنشاء الصفين المرجوين فهذا وحده انتصار عظيم ."..ولئن امتنعت تلك السلطات عن تقديم المعونة في الوقت المناسب، إمعاناً منها في تهيئة الظروف الملائمة لسيادة الجهل والتخلف، فما ذلك إلا لكونها سلطة معادية، وليس أدل على هذا من أنها تغدق بسخاء على اولئك الدخلاء، ومن أموال الخزينة العامة التي نسهم نحن بالقسط الأوفر منها، راضين عن ذلك او كارهين له، قادرين عليه أو عاجزين عنه" ..

".. المهم يا أولاد، ويا سادة يا كرام، أننا حصلنا على الموافقة، رغماً عن أنوفهم.. حسناً.. لماذا لا نتدبر أمرنا بصريقة أو بأخرى.. لماذا لا يشاطر

هؤلاء التلاميذ رفاقهم غرفة الصف الخامس في الوقت الحاضر..؟

ذلك بعض ما كنا نسمعه من الأستاذ شاكر، سواء في غرفة الصف، أو في حواره مع المعلمين، حين كانوا يتخذون مجلسهم في ساحة الحديقة - مجال حركتنا الحيوي - صبيحة شتاء مشمس، أو ضحى ربيع متألق. لم يزد عددنا على العشرة تلاميذ. بعد أن تخلف أكثر من واحد منهم. ولقد أسعدني أن نعيم واسماعيل ومحمد يوسف النجار كانوا بين الباقين. وهذا الأخير كان الأكثر شغباً ومشاكسة، على الرغم من إصابته بعاهة عطلت يده اليسرى تماماً، مما حدا به إلى إخفائها في جيب بنطاله على الدوام. ولا يذكر أحد أنه رآه يوماً على غير هذه الصورة. وإذا ما سئل عن سر فقدان أصابعه الثلاثة، عزا ذلك إلى انفجار قنبلة كان يعبث بها. ونصدق نحن الرواية، فهو ابن عائلة انخرط معظم أفرادها في صفوف الثورة، وعلى رأسهم عمه الشهير محمد طه .

عمت الفرحة سائر الرفاق، حين راحت (مي) تشاركنا مقاعد الدرس في صفنا الجديد. مثل زهرة برية تتألق تحت ضوء الشمس. كزنبقة بيضاء يتضوع أريجها، كفراشة ترف أجنحتها الشفيفة خلال أمسية ربيعية. كلما لا حت عن كثب مقبلة مع أبيها، أو منصرفة إلى منزلها، يتماوج شعرها على كتفيها كشلال من حرير. تمنيت أن أتحدث إليها. غير أني تهيبت ذلك .

".. حتى إذا كان لأحد أن يقترب منها، فهو ليس أنا، على أية حال. بل إن محاولتي منافسة الزملاء الأكبر مني سناً، والأفضل ظروفاً، في التودد إليها، ليست إلا ضرباً من السذاجة والجنون ..!"

ثم تحققت الأمنية دونما تدبير سابق، حين طلب إلي الأستاذ شاكر - ربما لأني كنت أول من صادفه في طريقه - أن أوصل إلى منزله سلة مليئة بالخضار والأرز واللحم، إضافة إلى باقة أزهار جمعها " عم زكي" البواب المصري، من الحديقة .

لم ألبث طويلاً، إثر دخولي المنزل، حتى أخذت (السيدة، والدة مي)، توجه إليّ أسئلة متعاقبة في شؤون شتى، لم يكن المسؤول عنها بأعلم من السائلة ..! أثار ذلك دهشتي وخوفي معاً. ولم ينجني غير مجيء (مي) قادمة من المدرسة، يسبقها صخبها المثير. دفعت الباب في جلبة. هتفت بالتحية لأمها. طوحت حقيبة كتبها فاستقرت على كنبة قريبة. قالت الأم في أستياء بدا مصطنعاً، إذ كانت، تكتم ابتسامة لاحت على شفتيها :

- ألا تكفين عن هذا الجنون ..؟

أطلقت مي ضحكة ذات رنين، توحي بإدراكها ما في نفس أمها الممتلئة إعجاباً بصباها الباكر، كامتلائها هي زهواً بفتنتها الطاغية. التفتت (مي) إليَّ بغتة وكأنما فطنت لوجودي، لحظتئذ فقط:

- أنت ..هنا يا أمين ..؟

يا إلهي.. كيف لا أكون هنا و تسألني ..؟ لكن لابأس. بل إن هذا لعظيم إذ هي لا تجهل اسمي..! تلعثمت قبل أن أقول نعم.. مجرد نعم. قالت بمرح وهي تعيد خصلة شعرها إلى الوراء بتلك الحركة من جيدها :

- نشكرك يا أمين ..

- لا شكر على واجب يا آنسة ..

وكانت كلمة آنسة هذه جديدة علينا، سواء في المدرسة أو في القرية. لم تكن من الكلمات المتداولة. يصفون المتزوجة بالمرأة وغير المتزوجة بالبنت.. وقد يضيفون (البكر). لكنها عادت تسألني:

- كيف كانت دروس اليوم معك ؟

- جيدة.. ما عدا الحساب و الجبر .

- الجبر هو المادة المفضلة لدي ..

دعوت الله في نفسي قبل أن أجيب (الله لا يجبره هذا الذي اخترع لنا الجبر). ثم قلت :

- لكنها أبغض المواد إليَّ يا آنسة .

- إن شئت أساعدك.. وأحل لك بعض المسائل .

تدخلت السيدة كي تحول دون الاسترسال في حوارنا " الصبياني ". ذلك " الرجس الذي هو من عمل الشيطان ..". لم تجد خيراً من أن تستأنف ما انقطع من أسئلتها المحرجة. شعرت بالضيق، لانقطاع حديثي إلى (مي)، ثم لأني لم أشأ أن أتحدث عن أوضاعنا الخاصة، التي لا تسر، للغرباء. ولعلها أدركت ما فكرت فيه، حين أطرقت رأسي، متحاشياً النظر إليها، وملتزماً الصمت .

اقتربت مني. ربتت على كتفي، ومسحت شعري بحنو أم. ثم تركتني ومضت صوب الغرفة المقابلة، متهادية في مشيتها. يهتز جسدها الوثير، فيما شعرها الفاحم يتماوج على ظهرها وكتفيها. قلت في نفسي .." هكذا نساء المدينة .." وفي انتظار لا شيء أخذت أتفحص ما حولي من مظاهر الحياة المترفة. ما

عتمت والدة (مي) أن عادت، وبيدها لفافة متوسطة الحجم، كلفتني بحملها إلى والدتي. كما أنها أعطتني باقة الأزهار التي جئت بها عما قليل .

انطلقت مسرعاً، تتناوبني مشاعر شتى متباينة ومبهمة. هي مزيج من السعادة والحزن.. من البهجة والأسى. ماذا ستقول والدتي إذ أدخل البيت بهذه اللفافة، التي لم أعرف بعد ما هي؟ وهي التي عودتنا الامتناع عن قبول شيء من أحد، كائناً من كان. حتى الأهل والأقارب، ناهيك عن الغرباء.. غرباء..؟ أهؤلاء غرباء ..؟

قبل أن أبلغ المنزل التقيت مريم حيث كنت أراها أكثر الأيام عند أوبتي عصراً من المدرسة، عند المنعطف المفضي إلى دارنا، والذي كان خالياً من المارة لحظتئذ قدمت إليها باقة الزهر. قلبي يخفق متأرجحاً بين الفرح والخشية. زعمت أنني أحضرتها لها بالذات. ضمتها إلى صدرها بفرح. دفنت بين الأزهار وجهها. تلألأ بريق في عينيها. تمتمت بكلمات شاكرة، فيما كنت أتأملها مقارناً بينها وبين (مي). ".. إنها لا تقل عنها جمالاً.. لكن مي.. أناقتها كانت أكثر إبهاراً للعين.. وأشد إثارة للاعجاب.. ترى لماذا يمنعنا الأهل من التحدث معاً في هذه الأيام ..؟ ما الذي استجد ..؟ أعادت إليَّ مريم باقة الزهر، شاكرة، ومعلنة في ذات الوقت، أنها ستمضي قبل أن تقع عين أحدهم أو إحداهن علينا ..! ولما أبديت لها دهشتي. بادرتني بقولها ضاحكة:

- هل نسيت أني ذاهبة إلى البيت ..؟

- و ماذا في ذلك يا مريم ..؟

- لا شيء ..!

- إذن تأخذينها ..

- وماذا أقول لهم يا شاطر ..؟

- ولكن هذه ليست أول مرة .

- كان زمان.. حين كنا صغاراً..!

- وهل أصبحنا الآن كباراً ..؟ ومنذ متى؟

- هم يقولون ذلك.. كبَّرونا رغماً عنا ..!

لبثت في مكاني، أنظر إليها حتى غيبها المنعطف. دلفت إلى المنزل أحمل هدية (أم مي). اندفعت نحوي علياء. هرول أحمد يطلب، حتى دون أن يلتفت

إلى ما في يدي، أن أساعده في مسألة حساب أعياه حلها. هي ثلاثة زائد خمسة..! انصرفا عني حينما شرعت والدتي تفض اللفافة، بعد تردد غير قليل. وقفنا جميعاً من حولها، ننتظر في فضول ولهفة. علياء تتمنى أن تسفر اللفافة عن كمية من الحلوى. أحمد يرغب في أن تكون لعبة، كتلك التي رآها، ذات مرة، مع ابن الحكيم.. أما أنا فقد أردتها دفاتر وأقلاماً .بيد أنها كانت قطع قماش تصلح لملابس الأطفال.. يا لخيبة الأمل ..!

أطرقت والدتي بعض الوقت. ثم رفعت بصرها إلينا، تتفرس في وجوهنا التأثر بادٍ على محياها. و وميض حزن، نعرفه، يتلألأ في عينيها .

ثم قالت وهي مطرقة، تنظر الى (طبلية) العشاء الذي فرغنا من تناوله للتو، ما معناه :

- في مرة قادمة امتنع يا أمين عن قبول أي شيء من الناس وكذلك أنت يا سعيد يجب ألا تقبلوا شيئاً من أحد، يا أولاد، حتى لايشعر أحد بحاجتنا. حينما تكون نفوسنا عفيفة يحترمنا الجميع، الله يرضى عليكم ويسعدكم..!

وصايا هامة من هذا النوع لم تكن تنقطع أبداً، بل إنها حتى في المرات القليلة التي كنا نزور فيها بيت جدنا حسين، أو دار خالتي نعمه، توصينا بعدم تناول شيء مما قد يقدمونه لنا، بل وإن علينا الادعاء بتناول مثل ذلك الشيء قبل مجيئنا. من ثم تأصلت فينا عادة الرفض والتعفف هذه على المدى .

عكفت (مي) على مساعدتي في مادة الجبر. أخذت أتردد على منزلهم، مرة أو مرتين في الأسبوع. لم ألبث طويلاً حتى أحببت هذه المادة أكثر من أي شيء آخر. كما أصبحت أتقنها إتقان مي نفسها لها. إلا أنني ما فتئت أتظاهر بحاجتي الماسة لمساعدتها كي أظل على مقربة منها.

بيد أني لم أكن أدري أن صلتي الوطيدة هذه بابنة المدير - هكذا كنا ندعوها- سوف تثير حفيظة الزملاء نحوي، بل وضغينتهم أيضاً. إذ يرى هؤلاء أنني أقلهم جدارة بصداقتها. لهذا سرهم انقطاعي المفاجئ عن المدرسة، والذي كانت بواعثه ظروف سيئة اضطرتني للعمل في قطاف البرتقال.لم تكن والدتي سعيدة بما حدث. ولكن هل ثمة مندوحة عن مواجهة الواقع حتى لو كان مريراً..؟

لقد استشرى الغلاء، وازدادت المعاناة، و أوشكت الضائقة أن تخنق الأنفاس، بعد سنيّ الثورة، التي أعقبتها الحرب العالمية مباشرة. ولكي تزيد الوضع سوءاً، عمدت حكومة الانتداب إلى المغالاة في فرض الضرائب على الأراضي الزراعية، حتى بات محصولها لا يفي بالمترتب عليها منها، فضلاً عن ذلك، راحت تستورد كميات ضخمة من الدقيق الكندي والاسترالي، لتطرحها في الأسواق، بأسعار زهيدة، تنافس المحصول المحلي، وتؤدي بالتالي إلى كساده. أمسى هذا حديث أهل القرية في سهراتهم، على المصاطب، أمام البيوت، إضافة إلى نتف الأخبار التي تصل إليهم عن الحرب، من مصادر شتى، أولها الراديو ومضافة المختار، وآخرها - لكنه أهمها - الأستاذ شاكر..!

الحاجة (أم سايحة) نصحت عائشة بأن تحل أزمتها ببيع الحاكورة الملاصقة لجدار منزلها. أبدت هذه استعدادها لشرائها ".. رغم أنها ليست ضرورية جدا لها ..". هكذا قالت الحاجة. أم مريم المغير ارتأت، في أمسية الأمس أن تبيع أمي الأرض إذ ".. ما فائدة الأرض كي تحتفظي بها، في مثل هذه الأيام، وأنت على هذه الحال.."

فكرت أمي في ذلك. ثم تساءلت :".. من هو ذلك الأحمق الذي سيشتري (الهم من صدر صاحبه).. اللهم إلا الحاجة أم سايحة، التي ستستغل ظرفها لشراء الأرض بثمن بخس .." اليهود وحدهم يتقدمون للشراء في هذه الأيام العصيبة. وهم يعرضون أسعاراً مغرية. مما أثار الشكوك حول إجراءات الحكومة الهادفة للوصول إلى هذه النتيجة، والتي لم تكن إلا شركاً ينصب لهم بعناية فائقة .

.. اليهود ..؟ حتى لو فرشها هؤلاء ذهباً. حتى لو متنا جوعاً. وصية المرحوم : ".. الأرض يا عائشة.. الأرض هي العرض.. تموت الحرة ولا تأكل بثدييها ..".

..".. سوف تمر الأزمة.. وتبقى الأرض رغم أنف اليهود والانكليز.. الله لا يكسبهم ..!"

لم أنم إلا قليلاً تلك الليلة. وعند الفجر ينساب صوتها خفيض النبرات، كيلا توقظ الآخرين، فيما هي تربت على كتفي بحنانها المعهود:

– أمين.. قم يا أمين.. اسم الله عليك يمّه..

– هاه.. صحوت يا أمي ..

لا أدري إن كنت يقظاً أم نائماً.. وأنا أدير عيني في أرجاء الغرفة. أحاول مقاومة النعاس. ".. ما أروع الرقاد في هذه الساعة والبرد قارس في الخارج.. تباً لكل شيء. هوذا سعيد يهنأ بنومه.. حتى هذا لا أستطيع البوح به أمامها. ألا يكفيها ما تحمل من هموم ..؟" نهضت متثاقلة هي الأخرى كي تعدّ لي (زوّادة) لغدائي ذلك النهار. وكوباً من الشاي، أتناوله قبل ذهابي الآن، عله يبعث الدفء في أوصالي المقرورة، ويعينني على مشقة الطريق. أفقت في مثل هذا الوقت، ذات مرة. يوم ذهبت إلى أرضنا برفقة العم عبد الغني. كدت أطير يومها فرحاً. الأمر مختلف الآن. تطفر الدمعة من عيني. لا أريدها أن تراها. هذا عمل لا أقوى عليه.. لا أرغب فيه.. المدرسة.. مي.. الرفاق ..

غادرت المنزل أدثر رقبتي بشال من الصوف، صنعته لي ابنة الخالة فاطمة، عرفاناً منها، وتقديراً لخدماتي أيّام منفاها. أتأبط (صرّة) تحوي قطعة جبن ورغيفاً. ظلمة رقيقة تسربل الكون. وغيوم كثيفة تحجب السماء، فتضفي على الجو مزيداً من الوحشة. أبحث عن أثر لنجم، في أرجاء السماء، بغير جدوى..

بلغت مكان تجمع العمال، في اللحظة التي شرعوا فيها بالتحرك، وهم يحملون المقاطف والسلال ومواعين الورق. تناولت واحداً من السلال من يد الرجل المشرف على توزيعها. كأنه يعرف، منذ البداية، أنني لا أصلح إلا لحمل السل على ظهري..!

انخرطت في موكب العمال، الذين بدأوا يهزجون ويغنون. لكن أغنياتهم وأهازيجهم كان لها وقع على النفس حزين. كان بينهم مصريون وسوريون ولبنانيون. مضينا جنوباً صوب إحدى البيارات البعيدة، حتى أن الشمس ارتفعت أمتاراً في الأفق قبل أن نصل إليها .

كم مشواراً تراني قطعت حتى الآن، والسل اللعين على ظهري، مملوءاً وفارغاً، على التوالي، منذ الصباح الباكر. أحسد أولئك الجالسين أمام الكومة الهائلة من البرتقال، يلفون حباته بسرعة عجيبة تخطف البصر، ثم يقذفونها ذات اليمين وذات اليسار، إلى الأمام وإلى الخلف، حسب التصنيف الملائم لها، ثم تلف بذلك الورق الشفاف الملون في منتصفه تحمل اسم (الماركة) و(برتقال يافا). ولا تصرفهم دقة عملهم عن مواصلة أحاديثهم وضحكهم .

بل ليتني كنت واحداً من أولئك العاملين في ورشة التغليف، حيث الطرق المتواصل الذي يتخذ مع التكرار والرتابة نسقاً من الأصوات سرعان ما تألفها الآذان. قلت في نفسي :

ما أسعدهم جميعاً.. فهم لا يحملون سلالاً فوق ظهورهم. لا بد أن الشيخ محمد قد سأل عني اليوم.. كذلك الأستاذ أبو مهدي.. الآن حصة الأستاذ شفيق ودرس الأنشاء.. هل سيقرأ عليهم موضوعي كعادته؟ أم أنه لا يستحق القراءة هذه المرة ..؟ سوف يخبرهم نعيم أو أبو سليمان عن سبب غيابي ..سيحرجني ذلك أمام مي.. سوف تتأكد من أننا فقراء.. هل سأصغر في عينيها ..! هل أشكو لأمي، عند المساء، مشقة هذا العمل لأعود غداً إلى المدرسة ..؟

" الشمس ما برحت هناك.. لا يبدو أنها تنوي مبارحة مكانها ..! أينقضي هذا النهار حقاً؟

إلى أن يحدث ذلك ستواصل نقل هذه السلال، ملأى وفارغة، حتى يأتيك الفرج من عند ربك.. أو تسقط إعياء تحت هذه الشجرة.. أو في مجرى الماء هذا ..! قال لي (زميل) عمل في هذه البيارة، في الموسم الماضي. قال عنها

بأنها ليست أكبر بيارة في المنطقة. وهم – مع ذلك – يمضون فيها اسابيع عديدة قبل أن يفرغوا منها ". غلام آخر يقترب. يبدو متعباً تماماً. يتحامل على نفسه. يأمل أن يكمل نهاره وإلا ".. أكلوا عليه أجرته". مجموعة أخرى مقبلة. نهرول بالسلال الفارغة، وصوت "العم أبو عامر " يلاحق الجميع، منتهراً، لاعناً الآباء والأمهات ..!

تنفست عميقاً حين تناول الرجل السلّ عن ظهري، وأفرغه فوق الكومة الكبيرة التي بدت متألقة، كالذهب في ضوء الشمس. كرّة أخرى إلى الحقل.. سأعد خطواتي، منذ الآن، في الذهاب و الإياب. أفرحني هذا الاكتشاف المتأخر: واحد.. اثنان.. ثلاثة ..

آه.. ذلك صوت عصا "أبو عامر". ما بال هذا ال "أبو عامر" يواصل الضرب في كل الأحوال، سواء توانوا في عملهم أم نشطوا فيه؟ لكأنه يستمتع بصوت عصاه تصافح جلودهم ..!

يقولون – وربما كان ذلك صحيحاً – أنه يتقاضى أجراً على عمله هذا ..!

إنه لم يضربني حتى الآن. أهي مصادفة أم ماذا ..؟ ربما، فهو يسكن قريباً من بيتنا..!.. ولكن.. لو حدث لي هذا – لا قدر الله – أتراني أعدو أمامه مثلهم، تفادياً لضربة أخرى، أم أقذف بالسل أرضاً، فيزداد حنقاً من أجل حبات البرتقال، فيحلف بالطلاق عشراً أن يصرفني على الفور، ويضيع عليّ عندئذ "شلن" أجر نهاري كله؟ كما يضيع سدى كل ما صنعت حتى الآن، وهذا الذي صنعت هو مفخرة كبرى، سأحدث عنها أمي فور عودتي في المساء.. ولكن متى يأتي المساء ..! فلأحسب: إذا قدر لي أن أعيش حتى أتم أربعة أيام فهي أربع شلنات.. عشرون قرشاً بالتمام والكمال ..! سوف تتمكن والدتي آنئذ، من شراء كمية من الأرز والسكر، وربما السيرج. لو لم تكن أمي بحاجة إلى هذه المواد لاشتريت حذاء جديداً، مثل ذاك الذي يملكه اسماعيل العطار. وإن لم يكن حذاء فليكن قميصاً، ودفتراً للكتابة، وربما زاد قرش أشتري بتعريفة منه شوكولاته بحليب من دكان عثمان أبو حسين ..

(مي)..و(هم).. يستمتعون بالدفء الآن فوق المقاعد. كانت أياماً سعيدة تلك التي خلت، حتى الأمس.. كانت مي تؤثرني عليهم جميعاً. تساعدني على "الجبر". أذهب إلى منزلهم دون حرج، في الأيام الأخيرة. نمر تحت الجميزة معاً، فيكف باعة الخضار عن التغني بمحاسن بضاعتهم. يحملقون بنا في دهشة. أحدهم يهز رأسه في استياء.. آخر – من وراء بسطة الباذنجان – يمط شفتيه

امتعاضاً:

(الدنيا آخر زمن..)

بائع آخر : (اللهم احمنا من هذا الجيل.. لم تفقس البيضة عنهم..) (البنت والولد يمشيان معاً..) (ماذا أبقينا لليهود..!؟)

أتراها تذكرتني فتسأل عني الآن..؟ هذا هو المهم. أتراها عرفت سبب غيابي عن المدرسة ؟

..آه.. صوت العصا.. والسم يسري في كتفي. الصرخة تختنق في حلقي.. والدمع في عيني.. أقذف بالسل أرضاً.. أعدو صوب البوابة منطلقاً كالسهم.. وصوت أبي عامر يلاحقني طالباً إلي أن أعود، وإلا فهو، وبالطلاق ألفاً (سيحرق الذين خلفوني..!).. و ..(لن يدفع لي مليماً واحداً)..!

قالت، ونظرة الأشفاق في عينيها ترافق رنة الحزن في صوتها:

- يغنينا الله عن حمل سلال البرتقال يا ولدي.

كغريق لامست قدماه رمال الشاطئ بعد أن أيقن من هلاك محقق. الفرحة رقصت في صدري. وددت لو أقفز في الفضاء لفرط سعادتي.. أقبّل هذه الأم ..؟ ألقي بنفسي في حضنها ..؟ سأعود إلى المدرسة ..؟ وغداً أيضاً ..؟ صحوت على كلماتها وهي تتابع قولها :

- لقد قضيت نهاري كله في حيرة. لم أكن راضية تماماً عما حصل. كيف أدعك تترك المدرسة كي تشتغل في البيارات ..؟

ولكي أسري عنها قلت :

- لكنك فعلت ذلك مكرهة بسبب حاجتنا .

قالت وهي تلوح بيدها، كأنها تستنكر كل ما جرى، وتقرر في الوقت ذاته حكمة مؤكدة:

- (ما حدا مات من الجوع يا ولدي. اللي خلقنا ما بينسانا .)

ولكي تخفف عني أضافت مبتسمة :

- خير ربنا كتير يا أمين. عندنا قمح من الأرض.. والدجاجات تبيض.. ها أنت تسمعها تنق في باحة الدار.. وأخوك زرع شوية خضرة في الحاكورة.. تنكة زيت.. وتنكة زيتون من الرملة (بعتهم) خالك أبو عون. تين وعنب من الكرم.. و.. الحمد لله يا ولدي .

شارفت الشمس على المغيب. تلبدت السماء بغيوم كثيفة، رافقتها رياح غربية، سرعان ما تحولت إلى عاصفة مزمجرة، أعقبها تساقط مطر غزير، حتى حسبنا أن سطح القرميد سوف يتكسَّر فوق رؤسنا، وأن الأشجار سوف تنقلع من جذورها. التصقت علياء بي، فيما قال أحمد و هو يغالب النعاس ويفرك عينيه الذابلتين:

- (هل نتعشى يا أمي ؟)

- حاضر يمه .

نهضت تعد لنا الطعام الذي كنا نعرف مكوناته سلفاً. لكنها تعرف دائماً كيف تجد سبيلها لابتكار ما يدخل البهجة إلى قلوبنا. فقالت وهي عند باب الغرفة، وقبل أن تفتحه بحذر شديد، خشية اندفاع الريح العاتية :

- سوف اصنع لكم (زلابية).. ما رأيكم ؟

تحلقنا حول (الطبلية) القديمة، التي حفل سطحها ببقع لا حصر لها من آثار أنواع الأطعمة التي مرت بها عبر تاريخها العريق، منذ ايام والدي الخالية. بيد أنها حظيت، تلك الأمسية، بأقراص الزلابية، على صفحتها طبقة من السكر، إضافة إلى عدد من أرغفة الطابون، والبيض المسلوق، وإبريق الشاي الأزرق، رفيق الطفولة، يتصاعد بخاره برائحة القرفة .

وقد زاد الجو وحشة تأرجُح ذبالة السراج الشاحبة. تخبو زمناً حتى توشك أن تنطفئ، فنكتم أنفاسنا معها حتى توشك أن تنقطع. ثم تتطاول من جديد، فتفرج عن الهواء في صدورنا. تتوالى ذبذبة الضوء، تبعاً لهبات الهواء المتسللة عبر شقوق الباب، محدثة صريراً حيناً، وأزيزاً حيناً، في تناغم محزن. بل إن الباب ليندفع في لحظات، وكأن يداً قوية تحاول اقتحامه فيثير الوجل في نفوسنا. ترمق أمي السقف، بين آونة وأخرى، بعينين قلقتين، ثم تدعو الله، بصوت هامس، أن يسترنا ويحمينا من (الدلف)، هذا العام على الأقل، كيلا يضيف مزيداً لما نحن فيه. و لا يفوتها أن تضيف - للإفادة من المناسبة - رجاء، أقرب إلى الضراعة، من الباري عز وجل، بأن "يوفق الأولاد، وأن يقيِّض، لهم ولها، أولاد الحلال، وأن يبعد، عنهم وعنها، أولاد الحرام ..!"

لم نكن نتوقع زيارة جدي والخال رمضان، في تلك الأمسية العاصفة التي زادها مجيؤهما أكفهراراً. بل إني تصورت للحظة أن الله لم يستجب للشق الأخير من دعاء والدتي، أنا الذي ما كنت أشك قط باستجابته الدائمة لدعواتها..! جدي والخال رمضان، تربعا في صدر الغرفة، على فرشة لم تكن وثيرة، وبينهما مخدتان، الواحدة فوق الأخرى. كانتا معظم الوقت موضع دفع وجذب بين جدي و ولده، تعبيراً عن الإيثار من قبل الأول، والتوقير من جانب الأخير.

طفق خالي يرمق والدتي، بين الفينة والأخرى، كأنما يذكرها بأن هذا الكهل

الجالس أمامها هو الذي أنجبها وأتى بها إلى هذا الوجود، فهو من ثم، واجب الطاعة والولاء، كيما تنال رضاه عن جدارة واستحقاق ..! خيم صمت مشوب بالحذر، بعض الوقت. الكل ينصت لوقع المطر في الخارج. تصورت أن الكون سوف يغرق في لجة مياه تنهمر من السماء، وتنبع من أعماق الأرض. تذكرت (سيدنا نوح) والشيخ (محمد أبو العينين) الذي أكد لنا، ذات مرة، أن طوفاناً آخر ربما يقع في أية لحظة، بسبب ما يقترفه البشر من آثام في هذه الأيام ..! أما الأستاذ "شفيق" فقد أكد لنا بدوره جازماً، أنه في وقت تمطر فيه السماء عندنا، يكون صيفاً ملتهباً في مكان آخر من الكرة الأرضية..! كم هو خاطئ رأي الأستاذ شفيق هذا ..! وهل يعقل أن مكاناً في الدنيا الآن لم تغرقه مياه الأمطار هذه..!؟

نبهني صوت جدي يتنحنح. وكان واضحاً أنه فعل ذلك من قبل. كان قد أنهى، لتوه أيضاً، لف سيجارة "عربي". أغلق العلبة، التي بدا واضحاً أيضاً أن لونها كان فضياً، في وقت من الأوقات، قبل أن يعلوها الصدا في أكثر من مكان. بلسانه لامس السيجارة، مجرياً إياها يميناً ويساراً، كي يتأكد من سلامة التصاق طرفي الورقة. قطع طرفها بأسنانه، ثم نفث ما قطع. أشعل عود الثقاب، فيما كان خالي يسابقه، محاولاً فعل الشيء نفسه لكي يشعل سيجارة والده، لكن محاولته جاءت متأخرة..! نفث في الهواء أول دفعة من الدخان، وهو يلقي براحة يده الثقيلة فوق فخذه اليسرى التي يبسطها عند جلوسه، ممدداً الى جانبها عصاه، لتعينه على عرج ألمّ به منذ إصابتها بشظية قذيفة، يوم كان جندياً في الجيش العثماني، يحارب الانكليز في الحرب العالمية الأولى أيام السفر برلك. تنحنح توطئه، لأن يقول :

- يا بنتي. جئناك اليوم بأمر لو وافقتنا عليه، هذه المرة، لتحققت لك سعادة الدنيا والآخرة..!

ولما رأى والدتي لا تجيب، إذ هي حدست منذ البدء فحوى القضية التي جاءا من أجلها، أردف جدي قائلاً :

- أنا أعرف رأيك مسبقاً في هذا الموضوع. وقد تحدثنا فيه من قبل. ولكن أباك أدرى بمصلحتك منك أنت. وكما يقول المثل "أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة " فكيف الحال بأبيك ..؟

خطر لي أن جدي، إذاً، وبعملية حسابية - ربما لا تكون بسيطة - يعرف أكثر من أمي بألف سنة على الأقل ..! انتابها القلق من جديد. هذه المقدمات

تعني دائماً أن وراءها أخباراً غير سارة، وإلا لما احتاج صاحبها اليها .

كالفئران المذعورة أطبق علينا الصمت، فيما أعيننا تنتقل في حذر ما بين أمنا باشفاق، وبين الجد والخال في سخط لا تشوبه شائبة، أكثر من أية مرة سابقة. بدت لي تقاطيع وجه جدي بغيضة وغير متناسقة ..! أنفه الكبير هذا حبذا لو قص قليلاً من جانبيه. عيناه الضيقتان تجلبان المقت. أسنانه التي أصفر لونها، كأنياب نمر رأيت صورته صباح اليوم في كتاب قراءة علياء ..!

كان الخال رمضان يتابع كلمات أبيه، والنظر إلى والدتي، في ذات الوقت، عله يستشف ردها المرتقب، دون أن ينسى الالتفات إلينا بعينين تفتقران إلى المودة. تقولان بصمت ولكن بوضوح (أنتم العائق الأكبر أيها الملاعين). لكنه رأى أن يسهم بكلمة من جانبه، يشدُّ بها أزر أبيه، فقال وكأنه يلقي بحكمة ألهمها للتو :

– أنت صبية يا أختي. والناس ألسنتهم طويلة ..!

انتفضت والدتي وصاحت :

– حول ماذا ألسنة الناس طويلة يا رمضان؟ مرة أخرى تعود لهذا الكلام الفارغ ؟

قال جدي ملوحاً بيده :

– لا شيء طبعاً يا ابنتي، فأنت أطهر من ماء السماء .

– إذاً لماذا تكون ألسنة الناس طويلة ؟

– هي هكذا.. فماذا نصنع؟

– اذن لندعهم وشأنهم ..

– حتى لو تركنا الناس وشأنهم فهم لا يتركونا وشأننا .

– لتقطع تلك الألسنة اذاً ..!

– هذا ما ننوي صنعه يا بنية ..!

– انتهينا إذن، وليست هناك مشكلة ..!

– انت لم تفهمي ما أعني يا عائشة. قطع الألسنة لا يكون إلا باتمام زواجك.

تمالكت نفسها، و تساءلت بصوت هادئ، وهي تحدق في وجه أبيها :

– قل لي يا أبي.. وأنت يا أخي " العزيز" هل سمعتما في حقي كلمة واحدة،

منذ وفاة المرحوم، أو حتى قبلها ؟

ردا معاً، وهما يلوحان بأيديهما باستنكار بالغ :

- معاذ الله.. لا سمح الله.. ما هذا الذي تقولين ؟

اعتقدت أنها حسمت الأمر الآن، فقد أفحم الرجلان، فقالت :

- عن أي مشكلة تتحدثان إذاً ..؟

قال جدي وهو يكتم غيظه :

- عن مشكلة صبية مات زوجها، ويرغب أهلها في تزويجها من أحدهم، منعاً للقيل والقال، في قريتهم والقرى المجاورة ..!

- والقرى المجاورة أيضاً ..! لماذا لا نقول في فلسطين كلها بالمرة ؟

ساد صمت ثقيل بعض الوقت قبل أن تقطعه بقولها :

- تعرف رأيي في هذا الموضوع من زمان ..(لا تخض المي و هي مي..؟)

- ومتى كان للبنت أن تخرج على طاعة أبيها ..؟

- البنت. أما أنا فأم لأربعة أولاد .

قبل أن يغادر جدي منزلنا، وإزاء إصرار والدتي على موقفها، ومن أجل مضايقتها، وممارسة مزيد من الضغط عليها، اتخذ قراراً (شبيهاً بقرار سابق) سرعان ما أيده فيه ولده، وهو أن صبية مثلها يجب ألا تترك وحدها في مثل هذه الأيام العصيبة. من ثم فإن الخال رمضان سوف يبيت عندنا منذ الليلة، لا سيما وأن دوريات الانكليز عادت، من جديد، تجوب أرجاء القرية ليلاً، وذلك بسبب اقتراب قوات رومل من العلمين. وضرب مصفاة النفط في حيفا من قبل الطائرات الألمانية ..وو.. إلى أن أوردوا كل ما سمعناه من أنباء الحرب منذ بدايتها، وكأنه حدث البارحة .

وحين حاولت إشعارهما بأن أخاها - رغم ثقتها بشجاعته - لن يستطيع الوقوف في وجه الدوريات البريطانية. رومل وحده الذي يستطيع ذلك. لا سيما وأن هذا الأخ، من ناحية ثانية، أعزل من كل سلاح. وإذ أبدى أخوها استياءه من ملاحظاتها، التي تنم بوضوح عن عدم رغبتها في بقائه بمنزلها، أكدت له أنها لا تنتقص بذلك من قدره، وإنما هي تريد أن تجنبه المخاطر فيما لو أقتنى سلاحاً، أقلها الإعدام، الأمر الذي لا ترتضيه لأخيها بالتأكيد.

بيد أن جدي لم يوافق على هذا التبرير، الذي اعتبره واهياً للغاية. بل قد بدا عليه الارتياح إذاك، ربما لأنه أدرك أن ممارسة ضغوط، من هذا القبيل، لا ريب مؤتيه ثمارها عاجلاً أو آجلاً ..!

تبسّط الخال رمضان عقب انصراف أبيه. وحاول التودد إلى شقيقته، وتلطيف الجو الذي خلفاه أكثر اكفهراراً من عاصفة تلك الأمسية، فطلب عشاء وشاياً بالقرفة، معقباً على ذلك بأن (بيت الانسان وبيت شقيقته واحد..!). وبعد الشاي أبدى رغبته في العشاء ..(فبيت السبع لا يخلو من العظام ..!).

تساءلت تلك الأمسية : لماذا يموت جد صديقي نعيم في حين لا يفعل جدي ذلك ..!؟ أما عن خالي رمضان فقد خلته يسقط من فوق شجرة برتقال عالية، أثناء عمله بالقطاف، فتنكسر ساقه. أما اذا أسعدنا الحظ فتكون سقطته على نحو يمكن أن يفقده النطق ..!

أغمضت جفوني.. طفقت أستعيد ما مضى من يومي : المدرسة.. سياج بيارة العطار، والبرتقالات التي جلبها منها خلسة سليمان أبو سليمان، بما فيها حبة (البوملي) التي أصر على أن يأخذها هو.. الشيخ محمد وما رواه لنا من قصة سيدنا يوسف وإخوته.. خالي العزيز وجدي.. مريم.. مي.. جدي.. خالي.. كدت أصرخ في وجوههم (لماذا لا تدعونا وشأننا ..؟).

جدي يهيم في صحراء قاحلة.. في بيداء مترامية الأطراف خالية من البشر.. يبحث عن ولده الضائع رمضان.. أنا وأخواي نقذف برمضان في جب ذي قرار سحيق.. أناس كثر يهرولون نحو الجد، ونحن معهم.. ثم نسبقهم.. ننبئ جدي بأن ولده الأثير أكله الذئب ونحن عنه غافلون ..! يلوح جدي بكلتا يديه مستنكراً.. ألا إنكم لكاذبون.. ما كان للذئب أن يأكل رمضان أيها الأشقياء.. إن رمضان لقادر هو على أن (يأكل الذئب ..!) رفض جدي أن يستمع إلى أي تفسير لما حدث، فمضى يردد : (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله.. إنما ...

أوشكت أن أحزن من أجله، فهو جدي، والدم لا يصير ماء..! وإذا بقائل يهمس في أذني.. أنظر إليه لقد ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ..! فرحت.. كدت أطير فرحاً.. قفزت معبراً عن فرحتي الغامرة.. آه هذا الألم في خاصرتي.. نظرت فيما حولي.. لقد وقعت عن السرير الجديد الذي ابتاعته أمي البارحة. هرعت إليَّ مذعورة تردد :

اسم الله عليك يمّه.. اسم الله عليك ..!

لكثرة ما كان الجيران - لا سيما النساء - يمتدحون مسلكي، ويطرون خلقي، ولأنني كنت، في ذات الوقت، أقرأ شيئاً من سيرة الرسول عليه السلام. والخلفاء الراشدين، المقررة علينا في المدرسة، بت أعتقد بأنني قمين بأن أغدو واحداً من أولئك الأولياء الصالحين، الذين لا تخلو أحاديث الأمسيات، على المصاطب، أمام أبواب الدور، من ذكرهم و وصف كراماتهم والمعجزات التي تجري على أيديهم، كالشيخ الرفاعي، والسيد البدوي، قدس الله سرهما. وكيف أن هذا الأخير " جاب الأسير من بلاد الهند بحديده بعد أن مد من الشباك (إيده)..!". وأن ولياً آخر كانوا يضعون إبريق الماء عند ضريحه في المساء ليجدوه فارغاً في الصباح. ولا معنى لهذا سوى أن ولي الله استخدم ذلك الماء في الوضوء لصلاة الفجر ..! بل إن الكثيرين كانوا يذهبون إلى حد القول بأن هؤلاء الأولياء - بعضهم على الأقل - يمشي بيننا دون أن ندري. وأن هناك من الأحياء - هكذا تقول الحاجة أم سايحة - من هم أولياء، دون أن يعرف أحد عنهم ذلك، إذ هم حريصون على التستر، فلا يظهرون كراماتهم للعيان. ومن هؤلاء " أهل الخطوة " كالشيخ حسن الجمل، الذي لا يبعد منزله كثيراً عن منزلنا. الشيخ حسين هذا كان بوسعه أن يكون في جامع البلدة هذه اللحظة، وفي مكة المكرمة، في اللحظة التي تليها، مجتازاً آلاف الأميال، مخترقاً البر والبحر أو الفضاء في طرفة عين، وبالجسد لا بالروح وحدها ...!

جنحت إلى العبادة والتعبد لكي أصبح واحداً من هؤلاء. ولقد استهوتني فكرة اختصار الزمان والمكان بمجرد الرغبة في ذلك. فضلاً عن إمكان المشاركة في الأمسيات، وتناول العشاء مع من أشاء، دون أن يروني أو يشعروا بوجودي بينهم. رحت أبالغ في تعبدي، حين علمت أن مزيداً من الصلاة والتهجد، يمكن أن تدفع واحداً من الملائكة الذين قد يصادف مرورهم بقريتنا إلى زيارتي، ثم تكليفي بمهمة إصلاح البشر من أهالي قرى يبنا والقبيبة وما حولهما ..! تلك المهمة التي كان يطمح إليها الشيخ " العطار" إمام الجامع، - فيما يتناقل الناس عنه - والذي كان دائم الشكوى إلى حد اليأس من إمكان إصلاح أي من

هؤلاء البشر، سواء في خطبة يوم الجمعة، أو أحاديثه في المسجد عقب صلاة العصر.

أخذت أتردد على الجامع، صعوداً ونزولاً، عند كل فجر ومغرب وأصيل. لا سيما بعد أن سمعت في آخر صلاة للجمعة، من الشيخ علي العطار نفسه، بأن صلاة الجماعة تعدل سبعاً وعشرين ضعفاً من تلك المنفردة. وحاولت - بهذه المناسبة - أن أفيد من إجادتي مؤخراً لحفظ جدول الضرب، فوجدت المحصلة تغدو رقماً كبيراً فيما لو تابعت خطاي السير على ذلك النحو لعدد من السنوات القادمة ..!

ما عتم أن حل عيد المولد النبوي، فانتابني غير قليل من الابتهاج. ألبستني والدتي أفضل ثيابي (قمبازاً) أملس موشىً بخطوط بيضاء وزرقاء، وفوقه معطف أسود لا أعرف مصدره، إذ كان يرتديه أخي سعيد من قبل، وكوفية بيضاء وعقالاً أسود. ولم تخف أمي أسفها لعجزها عن استبدال هذه الأخيرة بطربوش قاتم اللون. ولكن (ما الحيلة يا بني.. العين بصيرة واليد قصيرة ..!). جلست مع من هم في مثل سني، في الصفوف الأخيرة الملاصقة للرواق. رحت أتابع، ورفاقي، قراءة قصة المولد، يتلوها عدد من المقرئين الذين بدا واضحاً أنهم يحفظونها عن ظهر قلب، على نحو يدعو إلى الإعجاب .

الجمع ينصت، وقد عبق المكان برائحة البخور، التي ازدادت نفاذاً بفعل الرطوبة المنبعثة من جدران المبنى العتيق، والتي لم يخفف منها عدد من النوافذ ذات الزجاج الملون، أخضر وأحمر وأزرق. على مسافات متباعدة من الجدران نقشت آيات من القرآن. وفوق المنبر كتبت أسماء بلون الذهب : (الله) في الوسط. ثم على الجانبين : محمد - أبو بكر - عمر - عثمان - علي .

أتأمل العمود الضخم الذي جلست إلى جواره، ثم ألحظ الرجل الذي يدور بإبريق الليمون، ثم آخر بإبريق ماء الورد، زاهي الحمرة والصفاء. تمنيت لو يكون نصيبي من هذا الأخير. فالليمون يمكن أن أحظى بمثله في بيتنا، حيث تجلس النسوة الآن - ما بين العصر و المغرب - أمام البيوت، يحتفلن بدورهن بالمناسبة. ما لبثت أن تنبهت للقوم وهم يهبون، بغتة، وقوفاً ينشدون معاً بأعلى أصواتهم :

.. صلى الله على محمد .. صلى الله عليه وسلم ..

نهضت سريعاً لأصنع الشيء ذاته. لا بد أن أغدو يوماً ذا شأن عظيم من التقوى والورع. لسوف أنحو طريق الرسول ذاته.. ولكن أنىَّ لي مثل غار

حراء..! وهل تدعني والدتي أذهب إلى أبعد من بيارة خالها الحاج مصطفى أبو عون ..! ومريم؟ أقاطعها عندئذ، أم ماذا ..؟ ومي.. ودروس الجبر والحساب..؟

أما خالي.. لأدعونَّ الله عندئذ ،أن يذهب به متطوعاً في الجيش البريطاني، حيث لا يعود إلينا بعد ذلك أبداً، كما حدث لحلمي المجدلاوي، وصابر الحملاوي، وممدوح البهنساوي. ولا بد أن جدي، بسبب من حزنه الشديد على ولده، سوف يكف عن ملاحقة والدتي بشأن الزواج .

اعتصرني الزحام عند مغادرة المسجد حتى أوشكت أن اقع مرة أو اثنتين، فيما يردد الجميع أدعية وتبريكات إبان الخروج، وأثناء بحث واحدهم عن حذائه، بين الكومة الكبيرة من الأحذية، وهو لا يني يلعن الشيطان الذي أضاع له حذاءه..! فيعقب آخر بأن الشيطان لا عمل له في مثل هذه المناسبة، ومثل هذا المكان. وهو أيضاً لن يشغل نفسه في مسألة كهذه ..!

أيقنت بأن الله قد اختصني بضرب من الكرامة التي أنتظرها – وربما العناية الألهية الخاصة – وذلك عندما ألمَّ مرض بأحد أبناء خالتي (نعمة) التي طلبت إليَّ أن (افتح له) لكي أرى ما إذا كان ابنها من (أبناء الحياة)، و أنه سوف يبلُّ من مرضه ..! كان شبحاً لطفل في عامه الثاني. التصق جلده بعظامه. غارت عيناه، صدره يعلو ويهبط في تسارع شديد، وأنفاسه تتحشرج. جلده يكاد يحترق. الخالة جفت دموعها ليأسها من شفائه. كذلك زوجها (الهندي). أداروا وجهه نحو القبلة، بناء على نصيحة إحدى الجارات، انتظاراً لإسلامه الروح لبارئها. قالت إن " السر الألهي" سوف يصعد إلى خالقه بعد لحظات. ثم أضافت (مبشِّرة) خالتي، بابتهاج واضح، بأن ابنها هذا سوف يغدو طيراً في الجنة، يرفرف على كتفيها، بعد أن يحين أجلها هي الأخرى ..!

حتى الرُّقى لم تُجْدِ شيئاً. كان آخرها ماقامت به الحاجة نفيسة العطار. أدارت البخور الذي ملأ جو الغرفة برائحته الزكية، وهي تردد، فيما يدها اليمنى فوق جبين ابن الخالة المحتضر :

رقيتك واسترقيتك من عين أمك وأبوك .

رقيتك واسترقيتك من عيون الحسَّاد اللي شافوك ومن عين اللي مايصلي على النبي.

همست خالتي بصوت خافت :

... الله يسمع منك يا حاجة ..

... على رأي المثل خذ من عبد الله وتوكل على الله ..!

ذلك كله ضاعف من ارتباكي وحيرتي. ماذا عساي أن أصنع والغلام سوف يموت على أية حال. بيد أني - ومن قبيل التعاطف مع تلك الخالة في محنتهـا - قمت بفتح ذلك الكتاب الأصفر، لأبي معشر الفلكي، كانت والدتي قد ابتاعته لـي، فضلاً عن تغريبة بني هلال، دفعت ثمناً لهما ثلاثة قروش. كل ذلك من أجل توسيع مداركي وتأهيلي لمثل ما أنا فيه الساعة. عملت بإحدى الوصايا الواردة في الكتاب. كتبت سطوراً على ورقة. طلبت إلى خالتي المنكوبة، أو التي توشك أن تصبح كذلك، أن تشعل بخوراً وكافوراً. قرأت بعض التعاويذ والتعليمات، التي أوصى الكتاب باتباعها، منبها إلى أن التقاعس عن تنفيذها، بحذافيرها، ربما تودي بصاحب الشـــأن إلى الهلاك المحقق ..!

وحين أبدت (زينب) ابنة أم عدنان، إحدى جارات الخالة رأيها، الذي فحواه أنها تنصح بعرضه على (الحكيم)، بدلاً من المحاولات العقيمة الجارية، نظرن إليها باستخفاف مشوب بشيء من الاستنكار. قالت خالتي :

- وهل في قدرتنا يا ابنتي ذلك؟ وأين هم الحكماء؟ هم في المدن. وهل بإمكاننا الجري به إلى يافا أو الرملة، أو حتى المجدل أو غزة ؟

قالت الفتاة في وجل :

- يا خالتي الولد مخطر.. ولن تفيده كتابة ابن اختك ال..

ردت خالتي - متجاهلة التعريض بابن شقيقتها :

- كما يقول المثل يا ابنتي ..(خذي من عبد الله واتكلي على اللـه..!). هذا الولد - مشيرة إليَّ - ابن شقيقتي مبروك.. وإن شاء الله سوف يكتب الله الشفاء لولدي على يديه ..!

نظرت الجارات بعضهن إلى بعض، قالت إحداهن:

(.. المسكينة تحلم.. بل تهذي لكنها معذورة.. أليست أماً ..؟).

في طريقنا إلى بيتنا، قالت أمي أنها كانت تؤثر البقاء، عند شقيقتها هذه الليلة، لكي تواسيها حين يحم القضاء، ويتوفى الله ابنها (صبحي) خلال الساعات القليلة القادمة ..!

بيد أن خالتي لم تدعنا ثانية، كما أنها لـم ترسـل فـي أثرنـا أحداً، خلافـاً لمـا اتفقت عليه مع والدتي، اذا ما ساءت الأحوال أكثر. لقد عوفي صبحي منذ اليـوم التالي .

هي مكرمة واضحة من عند اللـه لـي إذاً ..! استخفني الفـرح، إذ سـاورنـي الشعور بأن شفاءه كان على يدي. رحت أغني وأقفز وأصفر، إلى أن تذكرت أن ذلـك لا يليـق بـذوي الكرامـات الذيـن أنتظـر أن اسـلك فـي عدادهـم. أولـم تجمـع الجارات، فضلاً عن خالتي - وقبل هؤلاء جميعاً والدتي - بأنني "ولـد مـبروك"، وأن مستقبلاً زاهراً ينتظرني بين أولياء الله الصـالحين ..!؟

- ٢٤ -

انقطع الخال رمضان عن المبيت لدينا ليلاً، وذلك إثر ما اعتراه من ضيق لسوء استقبالنا المتكرر له، فأدرك أننا لا نسعد كثيراً بوجوده معنا. وادعى عندئذ، بأن والدتنا هي التي تحرضنا على تصرفاتنا غير المرضية إزاءه .

وإذ باءت محاولاتهم، قبل ذلك، بالفشل حيال إصرارها على موقفها، فقد فترت علاقتهم بنا، وتحولت مع الوقت، إلى ما يشبه القطيعة التامة، فلم نعد نحظى برؤيتهم إلا في المناسبات، كالأعياد، والمولد النبوي، وما ذلك إلا لكي يثبتوا " للقاصي والداني"، من أهل القرية بأن لعائشة رجالاً وأهلاً، وأنها ليست "مقطوعة من شجرة". أي من أجل ألا تلوك الألسنة سمعتهم ..!

لم يكن أمر مثل هذه القطيعة صعباً علينا، فقد كان جدي متزوجاً من رقية (أم سرحان) التي أنجبت له أخوالي - سرحان ورمضان وشعبان - وخالتي بديعة. وذلك عقب وفاة جدتنا الحقيقية، قبل أن نولد. وهكذا لم نعرف لنا جدة تروي لنا في الأمسيات الماطرة حكايات الجدات عن الجن والعفاريت، عن الشياطين والملائكة، عن الغول و(أبو رجل مسلوخة) الأمر الذي تكفلت القيام به أمي وجاراتها دون غيرهن ولكن جدتنا غير الحقيقية هذه أو (امرأة سيدي) لم تتعامل معنا إلا كأحفاد لها كما أنها لم تعامل قط والدتي على أنها ابنة (ضرتها) المتوفاة، كانت بادية العطف علينا. ترحب بنا في مودة ظاهرة حين نزور بيت جدي - على ندرة تلك الزيارات - ولا تحجم عن تقديم مابحوزتها من طعام لذلك النهار " أو مما اختزنته من مؤونة البيت، أو ماجنته من كرمهم القريب من البحر من عنب وتين وبرقوق.

يوم عرفنا أن الأستاذ شاكر نجح في مسعاه من أجل إنشاء الصف السابع في المدرسة، استخفنا الفرح: هتفنا، عدونا في الباحة، تقاذفنا الحقائب والدفاتر والمساطر. بشّرت أمي بالنبأ العظيم، فارتسمت على أساريرها وشفتيها ابتسامة عريضة، وطفح وجهها بشراً واشراقاً. "لن أذهب، إذاً، إلى مدرسة الأيتام في القدس، أو إلى أي مكان آخر في الدنيا، بعيداً عنها ...!

أسابيع قليلة، وينتهي العام الدراسي. ثم تنقضي عطلة الصيف، وفي الخريف يبدأ عام مدرسي جديد، ومي سوف تكون معنا.. رائع هذا.. آه لو تنقضي العطلة سريعاً.. لكنها لن تفعل، وشهور الصيف الباعثة على الملل. قالوا أنهم سوف يذهبون، إلى قريتهم "عنابة".. أين عنابة هذه؟ وأين طولكرم، التي قالوا أنها تقع بالقرب منها ..؟

تساءلنا : نعيم، وسليمان، واسماعيل العطار.. جميعاً:

– لماذا لا يمكثون هنا؟ ومن ذا الذي سوف ينقل للمعلمين وللمخاتير، ولنا جميعاً الأخبار المثيرة عن أهوال الحرب ..؟

– راديو المختار.. طبعاً ..

قال اسماعيل العطار

– ولكن من سوف يفسرها لهم، كي يدلهم على الفرق بين غورنج و غوبلز.. رومل ومونتجمري.. ومن هو الانكليزي ومن هو الألماني بينهما. في القرية يعرفون موسوليني وهتلر، أما تلك الأسماء الغريبة الأخرى فمن ذا الذي يعرفها غير الأستاذ شاكر، الذي يستطيع أيضاً أن يدخل البهجة إلى قلوبهم بأنباء الانتصارات الألمانية، على كل الجبهات. ألا فليأت اليوم قبل الغد، هذا الهتلر ليريحنا من هؤلاء الانكليز، الذين " منذ رايناهم لم نر خيراً أبداً..". القول الذي لا يفتأ أهل القرية يرددونه. أليس هو الذي يقولون بأنه سوف يقضي على الانكليز واليهود معاً، فيخرج أولئك من بلادنا، ويحول دون مجيء هؤلاء إليها ..؟

والدتي أيضاً، كانت تتمنى ذلك، حتى دون أن تدرك الفرق، هي الأخرى، بين من يسمونهم الحلفاء، ومن يدعونهم المحور. المهم، عندها، أن يخسف الله الأرض بهؤلاء الذين قتلوا زوجها، وليكن الشيطان هو الذي يهزمهم، فكائناً من يكون ذلك الذي سوف يحل مكانهم، فلن يكون أشد سوءاً منهم.

نبأ آخر جاءها من الخالة نعمة، أشاع مزيداً من البهجة في نفسها. علي الرملاوي يوشك أن يشفي تماماً من إصابته، ومن ثم فإن زفاف فاطمة إلى عريسها سوف يتم وشيكاً. وهكذا ساء فأل الذين شمتوا بها يوم أصيب، فنسبوا إليها الشؤم وسوء الطالع. ولقد كان ذلك، أهم بكثير، بالنسبة لخالتي نعمة ـ من أنباء الحرب العالمية القائمة، ونتائجها المرتقبة ..!

حزن والدتي المقيم لا يبارحها. أعباء المعيشة تزداد يوماً بعد يوم، والحرب تلهب الأسعار هنا تماماً كما تلهب ميادين القتال في البعيد. الأولاد يكبرون،

وتكبر معهم همومهم، لا سيما كبيرهم. الجيران لا ينسونها، ولا يحجمون عن الوقوف إلى جانبها كلما ألمت بها ضائقة. الحاجة أم سايحة، على وجه الخصوص، ترسل إليها، إذا حل الصيف، يوماً سلة عنب من كرمها، ويوماً مقطفاً من التين أو الصبار. أما الخضار، من خيار، وبندورة، وبقدونس، ونعناع، فالحاكورة، خلف الدار، كفيلة بها. أم مريم تزودها، لماماً، بالجبن والكشك، ولا تنساها من الزعتر والمريميه. البرتقال لم يكن يوماً مشكلة، ففي موسمه لا ينقطع وروده من دار الجمل أو الحاج أبو عون. والناس جميعاً يتوزعونه دون أن يتقاضوا له ثمناً. والدجاجات تبيض عشر بيضات في اليوم الواحد، لكن هناك ضرورات أخرى : ملابس.. دفاتر.. أحذية ..

.. وكليها لله يا عائشة.. البني آدم يخلق ورزقه معه ..

.. والنعم بالله.. يا ختي يا خضرة.. وعليه الاتكال ..

تقولها بانكسار. وأتمنى لو يسعني أن أصنع من أجلها شيئاً .." لو كنت مكانك يا سعيد لما تركت أمنا في مثل هذه الحال .."

في موسم الحصاد، يمكن بيع شيء من القمح، وتمضي الأمور على خير، لا سيما وأن العم عبد الغني جاء بالأمس يبشر بموسم حصاد جيد. فلقد زرع الأرض قمحاً، في وقت مبكر، هذا العام، والأمطار جاءت غزيرةمنذ أوائل هذا الشتاء. يؤكد ذلك (الدلف) الذي كاد يغرقنا، لولا أننا نهرع، إلى وضع الأواني، كالطناجر والصحون، هناوهناك، تحت هذه القرميدة وتلك، نتقافز أنا وأحمد وعلياء إلى حيث تساقط قطرات المطر، ثم نقبع، كي نتفاداها، في الزوايا، ولصق الجدار، مما حدا بها أن تؤكد من جديد، عزمها على "إصلاح هذا القرميد.. عند حلول الصيف القادم.. إن أحيانا الله.. "

تنظر إلى الأعلى في ضراعة مرددة بابتهال هامس :

.. يا من سترت ما مضى.. استر ما بقي ..

مذ أخذ الدفء يتسلل مع شمس آذار عمد الأستاذ شفيق إلى البدء بنشاط رياضي عارم. ففضلاً عن التمارين الصباحية، والتدريب اليومي على ألعاب رياضية مختلفة، استعداداً للمشاركة في مهرجان الألعاب الذي سوف يقام في مدينة يافا، شرع بتشكيل فريق لكرة القدم، قوامه التلاميذ من الصفين الأخيرين. عصر كل من يومي الأحد والأربعاء، نمضي إلى أرض (الحراز)، جنوبي القرية، حيث ينبسط السهل، يحيط بأطرافه جميعاً سياج كثيف من الصبار. تقع خلفه وعلى جوانبه بيارات البرتقال الممتدة حتى تخوم الكثبان الرملية، المترامية حتى البحر. يشاركنا اللعب معلمونا، بمن فيهم الشيخ محمد، الذي كان مظهره طريفاً حين يخلع جبته السوداء، ولكنه لا يتخلى عن عمامته أثناء اللعب. وإذ يعدو، ملاحقاً الكرة بقوامه الطويل النحيل، تمتد يده تباعاً، صعوداً ونزولاً، إلى عمامته تلك كي يبقيها في مكانها، وخشية أن تقفز من فوق رأسه. ولا نكف عن اللعب قبل أن يبدأ قرص الشمس بالاختفاء وراء بيارات البرتقال، غائصاً في سوافي الرمال. عندها نقفل عائدين، جنباً إلى جنب مع قطعان الماشية، التي تملأ الجو ثغاءً وخواراً، مثيرة غباراً كثيفاً، يعبق الجو من حولنا برائحة صوفها، وعرقها، وروثها ..!

فاجأنا الأستاذ شفيق، ذات صباح، ببشرى هزتنا فرحاً، حين أنبأنا بأننا سوف نتبارى مع فريق قرية القبيبة. صحيح أنه حدثنا عن ذلك من قبل، لكننا لم نكد نصدق، ربما لأنه يحدث لأول مرة. لهذا كانت فرحتنا عظيمة، وبتنا نعد الأيام انتظاراً للموعد المقرر .

أقلتنا حافلتان، حيث رافقنا عدد من المشجعين المتحمسين. وسرني أن أخي سعيد كان بينهم. لقينا استقبالاً حافلاً وبهيجاً عند مدخل القبيبة، حيث ارتفعت أشجار السرو، والكينا الباسقة على جانبي الطريق، فغمرته ظلالها الوارفة. اصطف تلاميذ مدرستها، وأمامهم معلموهم وقفوا في باحتها التي تكتنفها الأشجار والزهور. ارتفعت أصواتهم تصدح بالأناشيد. زغردت النساء، عند أبواب الدور، فيما احتشد جمهور حول سور المدرسة، وعند بوابتها يصفقون

ويهتفون. أصابنا الزهو وتخيلنا أنفسنا وقد انتصرنا على فريق القبيبة، مما زادنا إعجابا بأنفسنا واعتداداً ..!

اختلطنا بزملائنا، حينما فرغوا من واجبات استقبالنا، فيما ذهب معلمونا مع زملائهم إلى داخل المبنى، حيث قدم لهم الشراب، ثم القهوة، فيما قدمت لنا زجاجات المياه الغازية الملونة، ففرحنا بها وهي تفرقع، عند فتحها، وتفور، تنبعث منها نكهة عذبة مثيرة .

(صبري الحكيم) المشرف على المستوصف في قريتنا، أختير حكماً للمباراة، التي سرعان ما ألهبت حماس المتفرجين، من أهل القبيبة، والقرى المجاورة، الذين وفدوا إليها في الشاحنات، وعلى ظهور الحمير والبغال، وقد ألمت بهم - كما بدا واضحاً - سعادة غامرة، إذ كان هذا الذي يجري حدثاً نادراً. ومما أضفى على المباراة أهمية، سمعة الأستاذ شفيق، التي كانت قد طبقت الآفاق في انحاء المنطقة، بوصفه رياضياً فذاً. وحين أسفرت المباراة عن فوز فريقنا، خمسة إلى واحد، عزي ذلك الفوز إلى براعته الفائقة، وقدراته الرياضية الخارقة ..!

وقفنا صفوفاً، تلاميذ كل مدرسة على حدة :

.. استرح.. استعد ..

.. ثلاث مرحات لفريق مدرسة يبنا ..

.. مرحى.. مرحى.. مرحى ..

دوت عاصفة من التصفيق، ترددت أصداؤها في ارجاء القبيبة. تدفق الأهالي إلى داخل المدرسة، لينخرطوا في حلقات، يلعبون الدبكة، وينزعون (الحطات) عن رؤوسهم، ملوحين بها، ابتهاجاً وفرحاً، فانطلقت الأهازيج والأغاني : على دلعونا.. يا ظريف الطول ما شي الواد الواد ...

في طريق العودة، لاح القمر بدراً ساطعاً، غمر ضياؤه الأشجار والحقول. بدت ظلال أشجار الكينا طويلة مهيبة، أضفت على ما حولها سحراً وجمالاً.. ووحشة. في الشمال، من خلال نوافذ الحافلة بدت أنوار تناثرت على مدى البصر. قيل لنا إنها مستعمرات أضيئت بالكهرباء : رخبوت، عيون قارة ... في الجنوب والشرق، حيث قرانا تملأ السهل، بدت نقاط قليلة من أضواء واهنة، كاد يخفيها ضوء القمر. رائحة التربة، والزرع، والأشجار، تتسلل عبر نوافذ الحافلة التي راح أزيز عجلاتها، وصوت محركها الخشن يبددان الهدوء المهيمن فوق

البيارات والحقول. لدى اقترابنا من مشارف القرية، شرعنا ننشد :

موطني.. موطني ..

الجمال والجلال.. والسناء والبهاء.. في رباك

والحياة والنجاة.. والهناء والرجاء.. في هواك

هل أراك؟ سالماً منعماً.. وغانماً مكرماً

هل أراك ..؟ في علاك.. تبلغ السماك

موطني.. موطني ..

انطلقت هتافات الأهل الذين كانوا في انتظار عودتنا، كما لو كنا جنوداً عائدين لتوّهم من معركة مظفرة .

لم تمض سوى أيام قليلة حتى زف إلينا الأستاذ شفيق بشرى سارة جديدة، عن رحلة سوف نقوم بها، يوم الخميس القادم، إلى البحر هذه المرة. وعلى من يرغب المشاركة فيها أن يأتي بموافقة ذويه، وعليه أيضا، أن يجلب معه طعامه ليوم كامل. اعترضت أمي، متذرعة بخوفها عليّ، فالبحر "غدّار"، و " ماكل مرة بتسلم الجرة .." و"إن شالله كل يوم والثاني رحلة.. يوم فوطبول.. ويوم البحر.. وايمتى تتعلموا يا خايبين ..!؟

أيدّها سعيد في موقفها بعد أن علم أنه لا مكان له في هذه الرحلة. كذلك الحاجة أم سايحة. لكن مجيء أم مريم، في تلك اللحظة بالذات كان إيذاناً بالفرح، بل كان نعمة وبركة هبطت من السماء، على الرغم من ضيقي لمجيئها وحدها. بادرتها والدتي بسؤالها الاستنكاري، الذي يوحي إليها بنوع الاجابة التي تنتظرها منها :

– اسمعي يا أم مريم.. قال مفكرين ياخدوا الاولاد رحلة للبحر هالمرة؟ والمسخوط وحياة راسه لازم يروح معهم ..!

أدهشني موقف أم مريم، حين قالت، بعد أن رمقتني بنظرة سريعة :

– وماله يا أم سعيد ..؟

– والبحر يا أم مريم ..؟

– توكلي على الله.. يروح ويرجع بالسلامة ان شالله.. العمر واحد والرب واحد يا حبيبتي ..!

تحركنا قبيل الشروق، متجهين غرباً، يسودنا الصمت، وبقايا النعاس في

أعيننا. معلمونا، وعم زكي المصري البواب، في المقدمة، يسوق حماره، الذي نعرفه كما نعرف العم زكي نفسه، لصحبته الدائمة له. وهو نفسه كان يصفه بأنه رفيق عمره الوفي ..! حمّله بما لا نعلم من أواني ومواد خاصة بهم. ما لبثنا أن أخذنا نتسابق، لدى بلوغنا مشارف الطريق الرملي الذي يمر عبر البيارات، بعد أن اجتزنا المقبرة. بلغنا سوافي رمال شبيهة بالجبال. شرعنا نتدافع فوق الرمال الناعمة المبللة بالندى، نتدحرج عن القمم العالية، منزلقين على السفح، فيما أنهار من الرمال تتدفق منسابة معنا. شجرة جميز ضخمة، تبسط ظلالها العريضة، وشجيرات كرمة تفترش الرمال. أشجار أثل عالية تصفر الرياح بين أغصانها وأوراقها المدببة كالأبر، مرسلة ظلالها الرقيقة إثر شروق الشمس. بدت من بعيد زرقة داكنة، تلامس أطراف الأفق، أسرعنا إليها بين الرمال وأشجار الكروم هاتفين:

.. البحر.. البحر.. يا أولاد ..

طفقنا نعدو، ونعدو، غير آبهين لصيحات معلمينا التي لاحقتنا، منذرة متوعدة، لكن هؤلاء ما لبثوا أن مستهم العدوى، فانطلقوا في أثرنا يحث بعضهم بعضاً على السباق :

.. يا أستاذ شفيق.. يا شيخ محمد.. اخلع الجبة.. يا أستاذ غنيمي ورينا همتك ..!

العم زكي وحماره، وحدهما حافظا على هدوئهما، إذ لاحا عن بعد، في مؤخرة الموكب يسيران الهوينا، في صمت رزين، ينبئ عن وطيد الألفة بينهما..!

أنسام البحر تنداح رخية منعشة. هدير الأمواج يبتلع أصواتنا. الشمس ترقى في السماء صعوداً، فتتقاصر الظلال، وينتشر الدفء. تغمر بنورها الرمال فتبدو بساطاً متموجاً من الذهب. مياه البحر تلوح أكثر زرقه كلما اقتربنا منها إلى أن توقفنا أمامها نلتقط أنفاسنا مأخوذين بسحرها ورهبتها معاً، نرنو للأمواج المتدافعة، كأن بينها سباقاً. يعلوها الزبد حين تبلغ الشاطئ، فتتكسر على رماله، ثم ترتد عنه حسيرة، تمضي في البعيد، مخلفة حطامها فوق طبقة رقيقة من الحصى والزلف والأصداف الملونة، يرشح منها الماء مرسلاً هسيساً هامساً، ما إن يتلاشى حتى ينقض الموج، يعيد الكرة من جديد.

تساءلت في سري " منذ متى ..؟ وإلى متى ..؟ وإلى أين ..؟ "

لم أتوقف عند تساؤلي، إذ سرعان ما دفعني أحدهم فالفيت نفسي في لجة الماء، أضرب بيدي وقدمي، يتطاير الرذاذ فوقي ومن حولي، تصعد بي موجة وتهبط بي أخرى.. بالروعة البحر.. برودة الماء ورهافة النسيم.. أراجيح الموج.. وصخب الرفاق.. رفوف العصافير فوق رؤوسنا ومن حولنا، خافقة أجنحتها في لجة سماء زرقاء صافية، تحتضنها كأم رؤوم حانية ..

أمضينا سحابة نهارنا، نسبح حيناً، نتراشق بالماء والرمل حيناً، نخرج إلى الشاطئ، ندفن أجسادنا في الرمال الرطبة، إلى أن يبلغ منا الأعياء مبلغه .

تجمعنا في حلقات، كي نتناول غداءنا. يداعب النسيم أشجار الكينا التي تفيأنا ظلالها، والمياه بساط أزرق بلا نهاية يمتد على مدى البصر فتتلاقى مع زرقة السماء بعيداً عند الأفق، تبعث الرهبة في نفوسنا رغم ما يعترينا من مرح. المعلمون يفترشون الرمال تحت ظلال شجيرات النخيل، معهم العم زكي وحماره. كانوا منهمكين في إعداد طعامهم. لم يكونوا على بعد منا يحول دون وصول رائحة الشواء إلينا. بالحدس والتخمين والتحزير أدركنا أنهم يصنعون (قدْرة خليلية)، قوامها الأرز واللحم والكثير من التوابل، مما أثار حنقنا عليهم، كما أثار فينا، في الوقت نفسه، بغضنا للجبن والزيتون، وعزوفنا عن الزعتر ..!، محتويات (الصرر) التي جلبناها في حقائبنا، فضلاً عن البصل، وحبات من البرتقال ..

صبحي السيلاوي كان أكثرنا حركة ومرحاً، منذ بداية الرحلة. لكنه الآن صمت بغتة، ثم سرح ببصره بعيداً، على صفحة الماء المتلألئة كالمرايا، لكي يفاجئنا بقوله الغريب :

- ترى كم من البشر اختطف هذا البحر على مر الزمان ..!؟ كم عمره هذا البحر ..؟ تعالوا نسأل الشيخ محمد ..!

ربما خطر لي سؤال مشابه، لكنني لم أجرؤ مثله، على البوح به. بعد لحظات صمت، أخذ يردد، بصوت هامس، وهو ما يزال في شروده، آية كريمة، كنا قرأناها في درس الديانة، منذ ايام، شرحها لنا، الشيخ محمد، متعجلاً يومئذ :

" قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مدداً. صدق الله العظيم ".. سامعين يا اولاد ..؟

نظر بعضنا إلى بعض في دهشة. لم يفهم أي منا لماذا قال أبن السيلاوي هذا الذي قاله. ما الذي ذكره بدرس الشيخ محمد الآن. أم لعله يحاول حفظ الآية

الكريمة من أجل (تسميعها) في درس الديانة غداً.. ولكن هل هذا وقته ..؟

لم نلبث طويلاً حتى نسينا الأمر كله ..! استأنفنا عراكنا مع الأمواج، حين كانت الشمس تنحدر غرباً، فيما استلقى معلمونا فوق الرمال، في قيلولة رخية، بعد تناولهم غداءهم، الذي ايقنا أنه كان دسماً وشهياً. ما فتئ صخب الفتية على أشده. وما أنفك الموج ملتحماً في معركته الأزلية، كراً وفراً. والغلمان بأجسادهم النحيلة السمراء يرتعون تحت وهج الشمس. انقضى الوقت منسياً تماماً، يتسرب حثيثاً كحبات الرمال بين أصابعنا. اكتشف واحد منا أنه إذا حفر في الرمل مقدار شبر أو شبرين، انبثق الماء من جوف الرمل عذباً سائغاً للشاربين. وسرعان ما عمم هذا اكتشافه على الرفاق، الذين انكفأوا بدورهم على الأرض، أو جلسوا القرفصاء يستخرجون الماء من باطنها، من عشرات الحفر التي رصّعت رمال الشاطىء في لحظات.

بغتة شقت الفضاء صرخة غلام مرتاع :

.. يا استاذ.. يا أولاد.. في ولد بيغرق ..

هبَّ المعلمون من قيلولتهم وقوفاً، على أقدامهم مرة واحدة. هرعنا جميعاً نحو الشاطئ، يسبقنا هلعنا وعيوننا بحثاً عن ذلك الغلام. دوت الصفارة التي كانت إيعازاً لنا بالخروج إلى الشاطئ. قذف رجلان – جاءا قبل قليل يقودان جملين – بنفسيهما في لجة الماء. كذلك فعل المعلمون جميعاً. وسرعان ما خرجوا ثانية، حين ظهر على كتف واحد من الجمَّالين، غلام انطوى جسده فوق كتف الرجل، فتدلى رأسه على ظهره، فيما نصف جسده الأسفل على صدره. طرح الغلام أرضاً، فيما بادر الرجل الثاني إليه، وشرع في الضغط على خاصرتيه. وما راعنا إلا أن رأينا رغوة بيضاء تنساب من فمه، ثم رفعه هذا ممسكاً بساقيه إلى الأعلى، بحيث أصبح رأسه إلى الأسفل، يوشك أن يلامس الرمال، فيتدفق المزيد من الماء والزبد من فيه ومنخريه. طفق الرجل الآخر يضع أذنه على صدر الغلام، يستمع إلى تنفسه. تبين لنا، في هذه الأثناء، ونحن نتدافع هنا وهناك أن الغريق لم يكن سوى صبحي السيلاوي .

كان الفزع بادياً في وجوه المعلمين، وعلى حركاتهم المضطربة. أيديهم تضرب كفاً بكف.. عيونهم معلقة بين الغلام، و وجه الرجل، مستطلعة ضارعة. توقف الرجل بغتة. أطرق أرضاً قبل أن يقول، بصوت خفيض متهدج :

– العوض على الله يا جماعة ..

موكب العودة يمضي في صمت مهيب. لا يسمع سوى حفيف الأقدام فوق الرمال. رفيقنا ملقى على ظهر الجمل، يقوده الرجل الغريب. المعلمون والأستاذ شفيق يحيطون به. رؤوسهم منغرسة في صدورهم، يحملقون في الرمال كأنما يحصون حباتها. طال الطريق وطال. حتى حسبنا أنه لن ينتهي، لكننا تنبهنا أخيراً على أصوات تصدح من بعيد من أكثر من مذياع :

.. يا ريتني طير لا طير حواليك.. مطرح ماتروح عيوني عليك.. لكن ياريت ..

.. افرح يا قلبي لك نصيب.. تبلغ مناك ويا الحبيب.. افرح ياقلبي ..

اندفع جمهور من أهل القرية باتجاهنا، ملوحين بأيديهم، هاتفين ملء حناجرهم، وكأنما أدركوا بالحدس ما حدث. وما أن بلغنا الساحة حتى اختفى الجمل بين الجمع الحاشد ...

وضعتُ في الزحام.. وعتمة الغسق .

شغلت القرية حادثة صبحي السيلاوي، عن كل ما عداها، ردحاً من الزمن. لم يعد هؤلاء يتحدثون عن الحرب، وتقدم الألمان، عن الهجرة اليهودية وتواطؤ الانكليز، أوحتى عن الغلاء . أنحى كثيرون باللائمة على الأستاذ شفيق، يتهمونه، وسائر المعلمين، بالتقصير في رعايتهم للتلاميذ أثناء الرحلة، فيما ذهب آخرون إلى التنديد بالأستاذ شاكر نفسه، الذي لم يشارك في الرحلة، وكان حرياً به ألا يسمح بها أصلاً لما تنطوي عليه من أخطار. و "لكن هذه هي نتيجة الاستهتار بأرواح العباد..!"

ترددت شائعات عن اعتزام (آل السيلاوي) على الأخذ بثأر ولدهم، وشائعات تقول بأن الولد كان يغرق فيما كان المعلمون "الأشاوس" يلعبون طاولة الزهر.. بل الضامة.. وقد تبين، فيما بعد أن مصدر تلك الأنباء المتباينة كان "محمد الشريف "، الرجل الغريب، الذي وفد إلى القرية منذ سنين، مدعياً بأنه دخل في الأسلام، تاركاً دين آبائه وأجداده الأولين. فتنكر له ذووه، وناصبوه العداء. وهو، لذلك لا يبغي الآن شيئاً أكثر من الاقامة في هذه القرية النائية عنهم ما بقي له من عمر. وأعلن أنه اتخذ هذا الاسم تيمناً بصاحبه وشاهداً أكيداً على صدق إسلامه. ثم افتتح محمد الشريف دكاناً للبقالة، بمعونة (أهل الخير) في القرية، الذين تعاطفوا معه، وقرروا الوقوف إلى جانبه. وتعمد أن يكون حانوته قريباً من الجامع، ما أمكن، كيلا تفوته صلاة جماعة واحدة، ما دامت هذه تعدل سبعاً وعشرين من الصلاة الفردية. أي أن المسألة تماماً كتجارة الجملة والمفرق كما يرى ..! وتزوج امرأة من القرية هي "حفيظة" أرملة "حسن ابو عميرة"، متكفلاً بابنتها من زوجها المتوفى، التي آلى على نفسه بأن يعاملها كما لو كانت ابنته من صلبه، ففي ذلك مزيد من الثواب، يضمنه عند الله، يوم الحساب ..!

وحينما واجهه بعضهم بما صنع في القرية، بادعاءاته، وما نقل عنه من شائعات، زعم بأن ذلك صدر عنه بحسن نية، وبسبب من تعاطفه مع آل الفقيد الذين روّعه مصابهم، لاسيما وأنهم جيرانه.. وأن "النبي عليه السلام أوصى بسابع جار "، (فما بالكم إذا كان هذا الجار ملاصقاً لجدار دكاني ..!؟)

بيد أن حفل المصالحة الذي جرى، بعد فترة وجيزة، بين عائلتي النجار و أبو سالم، صرف الناس عن متابعة اهتمامهم بالحادث، لاسيما وأن هذه المصالحة تعرضت لاحتمالات شتى، خلال السنوات الأخيرة، ولأنها كانت على هذا القدر من الأهمية، فقد شوهد أهل القرية يهرعون، عصر ذلك اليوم، زرافات ووحداناً، صغاراً وكباراً، إلى ساحة البلدة، التي أقيم فيها سرادق عظيم، قريباً من ضريح الصحابي" أبي هريرة". وإذ لم يتسع السرادق إلا لعلية القوم، افترش الآخرون الأرض المواجهة له. كفَّ الناس عن لغطهم حينما شرع الشيخ "لطفي عوض الله" في تلاوة آيات من الذكر الحكيم. لم يكن صوته رخيماً كصوت الشيخ " محمد رفعت " الذي ألفوا سماعه، كل صباح ومساء، من (الراديو)، الذي لما يزل أعجوبة في نظر الكثيرين، أمثال والدتي، وأم مريم، والحاجة أم سايحة.

راقني المشهد :المنصة.. السرادق الفخم. كراسي الخيرزان. البسط الملونة على الجدران .

وقفت والعديد من رفاقي فوق قبور مرتفعة في مواجهة السرادق، مما أتاح لنا مشاهدة ما يجري من فوق الرؤوس المزروعة ما بيننا وبينه، غير آبهين بمن يزجروننا لوقوفنا على قبور الموتى .

عن كثب، بدا محمد يوسف ابو سالم، ومحمد طه النجار، ومن حولهما العديد من أفراد أسرتيهما، في الصفوف الأمامية، وقد ارتدوا ثياباً فاخرة، وعباءات سوداء وقرميدية الألوان، وعلى رؤوسهم الحطة والعقال، وفي الأيدي سبحات يعبثون بحباتها. وإذ فرغ الشيخ لطفي من تلاوته، سادت لحظات صمت وترقب، وكأن أحداً يخشى أن تنفجر قنبلة. وقف الاستاذ شاكر، باعتباره المثقف و(المتعلم) الأكبر بين الموجودين قاطبة، ثم توجه إلى المنصة. وضع كلتا يديه على المنضدة، منحنياً قليلاً إلى الأمام، ليشرع في النظر بإنعام في مختلف الاتجاهات، يتفرس الوجوه، كأنما يبحث عن شيء، قبل أن يتنحنح، توطئة لبدء حديثه الرزين، بصوته ذي النبرة الجهورية العميقة :

تكلم عن الصلح " الذي هو سيد الأحكام"، مستشهداً بآيات في هذا المقام، سبق أن تلاها لتوه الشيخ عوض الله، مردداً " ياأيها الذين آمنوا أصلحوا بين أخويكم" وعن ضرورة توحيد الصفوف والجهود في الظروف الراهنة، وعن الأخطار المحدقة بالبلاد والعباد، من الناقورة شمالاً حتى القنطرة جنوباً، ومن البحر غرباً حتى ضفاف الأردن شرقاً ولم يفته أن ينوه بأن هذا النزاع لم يكن إلا من فعل الانكليز "قاتلهم الله أنىً يوفكون ..."، تطبيقاً لسياستهم في بث الفرقة

والخصام بين الأخ وأخيه، وزوجته التي تؤويه، لو أمكنهم ذلك. علا التصفيق إذ توقف الرجل لتناول كوب من الماء. استأنف حديثه، فكان حول عودة النشاط إلى الهجرة اليهودية للبلاد، ثم عرج على قصة باخرة تقل يهوداً نسفت في ميناء حيفا، والتي سرعان ما اتهم اليهود الانكليز بتدبير أمر تفجيرها، ولكن هؤلاء ردوا التهمة عن أنفسهم فنسبوها إلى العرب، الذين أكدوا بدورهم أن اليهود أنفسهم كانوا الفاعلين، والهاجاناه تحديداً. نبههم إلى ضرورة الامتناع عن التطوع في الجيش البريطاني، الذي لم تتورع قيادته عن إنشاء فيلق يهودي قوامه تسعون ألفاً منهم. ولكن حال الانكليز يؤول اليوم إلى الضعف - ايها الأخوة - ومصيرهم المرتقب لن يكون إلا هزيمة منكرة، تورثهم المهانة " إلى يوم الدين وأبد الابدين.. فما من ظالم إلا سيبلى بأظلم ..!" فالأسلحة الجديدة التي ابتكرها الألمان ..الطائرة بلا طيار.. الصاروخ.. الغازات السامة.. هذه كلها سوف تمحق القوات البريطانية محقاً.. إن شاء الله.. وفي مدى زمن يرونه بعيداً ونراه قريباً ..."

نهض الرجلان عند نهاية الخطاب، بين عاصفة من التصفيق. تعانقا، كما فعل الشيء ذاته رجال من الأسرتين. انطلقت الزغاريد والهتافات، وعيارات نارية. ثم ما لبثت أن جاءت قصاع الطعام. وسرعان ما انخرط الناس في حلقات حولها، فبدت حركاتهم كتدافع أمواج البحر في يوم عاصف .

في اليوم التالي تماماً ،عم القرية اضطراب مفاجئ. تحدث الناس عن تصرف أحمق جديد للحكومة ولليهود معاً، إذ نمى إليهم أن هؤلاء شرعوا في بناء مستعمرة إلى الجنوب الغربي من القرية، أسموها "غان يبنا". كان الغضب بادياً على الوجوه، وفي التساؤلات المستنكرة :

".. ألم تكفهم رخبوت وريشون في الشمال ..؟ إنهم يطوقوننا من كل جانب..

".. حتى الاسم.. يبنا. تصوروا حتى أسماءنا يسرقونها .."

كما نددوا بالانكليز المخاتلين المتواطئين، الذين لا يظهرون الآن.. ولا يحركون ساكناً.. كأنهم ليسوا الدولة الحاكمة المتسلطة على البلاد. على أية حال هذا ليس جديداً علينا.. وكما يقول المثل "حاميها حراميها .."..!.. غداً يا شباب نمضي إلى تلك المستعمرة، نسوي بها الأرض، نجعل عاليها سافلها. و " لايفل الحديد إلا الحديد .."

احتشد جمع غفير ضحى ذلك اليوم، في السوق، وتحت الجميزة. انطلق

الرجال، وفي أيديهم الفؤوس والعصي، وقضبان الحديد. وحين بلوغهم المستعمرة، كان هناك قرويون وفدوا من القرى المجاورة للغرض ذاته. العدد القليل من الخفراء، في حراسة المستعمرة، هرعوا إلى سيارة كانت تقف هناك، انطلقت بهم جنوباً مثيرة خلفها سحابة من الغبار والدخان .

دمر الجمهور الأكواخ والمنشآت التي كانت في بداياتها بعد. تعاهدوا على ألا يسمحوا بقيام مستعمرة في منطقتهم، ما دام فيهم عرق ينبض ..! لم يفت محمد الشريف أن يشارك في العملية. بل إنه أبدى إعجابه بمن تزعموها، فضلاً عن ابتهاجه وسروره بما حدث. تفرق الناس، وعادوا إلى قراهم مزهوين بما صنعوا، يحمل بعضهم ألواحاً من الصفيح أو الخشب أو الزجاج، من أنقاض المباني المدمرة. لكنهم حين بلغوا القرية وجدوا الانكليز في انتظارهم .

".. أرأيتم؟ ها هم يظهرون الآن حتى قبل أن نصل إلى بيوتنا ..

سيارات البوليس، والخيالة، والمخاتير، ومحمد اليوسف، غصت بهم الساحة، قريباً من الجميزة. اعتقلوا عدداً من الشبان. هدد قائد القوة البريطانية، الذي كان يترجم عنه ضابط عربي، وقف إلى جانبه، بأن ينسف عدداً من مباني القرية، يماثل عدد البيوت المدمَّرة في المستعمرة، في المرة القادمة. تدخل المخاتير فعرضوا الأسباب والمبررات التي حدت بالناس لأن يقدموا على ما أقدموا عليه. ألزم الانكليز المخاتير قسراً، بالتوقيع - والبصمة لمن لا يعرف الكتابة، كالحاج علي الهمص - بألا يتعرض أهل القرية لليهود في المستقبل، إذا ما استأنفوا بناء مستعمرتهم. كما أكد لهم بأن تلك الأرض التي يقيمون عليها تلك المستعمرة هي أرض "أميرية" منحت لهم من قبل المندوب السامي نفسه ..! بل إن هذا حدث منذ القديم، وليس اليوم. منذ أيام (هربرت صموئيل) أول المندوبين السامين على فلسطين ..! وحين ذكره أحدهم بأن هذا الأخير كان يهودياً، ثار قائد القوة في وجهه، مهدداً باعتقاله على الفور إن هولم يكف عن الشغب ..!

وحين تقدم أهل القرية والقرى المجاورة بشكوى عاجلة إلى قائمقام الرملة، أبدى هذا تعاطفه معهم، لكنه أبدى، في الوقت ذاته، عجزه عن صنع شيء من أجلهم، فأحال شكواهم إلى حاكم اللواء البريطاني، الذي وعدهم برفعها إلى المندوب السامي ليرى فيها وفيهم رأيه ..! وربما يرفعها هذا الأخير إلى حكومة جلالته في لندن ..!

لم يمض وقت طويل قبل أن ترد الأنباء بأن معسكراً، للمهاجرين من بولونيا، هذه المرة، أقيم، على عجل، في أرض على مقربة من قرية (قطرة)،

بجوار (معسكر قطرة) للجيش البريطاني، المقام هناك منذ زمن. وقد زعم أن هؤلاء ليسوا يهوداً، بل هم أسر بولونية، نزحت عن بلادها، إثر احتلال الجيوش الألمانية لها. لم ينقم أهل القرية على هؤلاء بل أحسوا بالعطف عليهم والاشفاق نحوهم. ثم ما لبثوا بعد وقت قصير، أن وجدوا فيه ميداناً لفرص عمل لهم، ولأبناء القرى المجاورة، بمن فيهم أنا وأخي سعيد، الذي تمكن من اقناع والدتنا – بعد جهد كبير بذله – بجدوى اصطحابه إياي "للمتاجرة مع البولونية ".

كان البولونيون يبيعوننا علب السجائر، والسردين، والصابون المعطر، وقوالب التمر.. أشياء كثيرة وجميلة، نرى بعضها لأول مرة، في أغلفتها الملونة البهيجة. وهذه نقوم ببيعها إلى أصحاب الحوانيت والجيران عند عودتنا. أثارت النساء البولونيات دهشتنا، بل انبهارنا. كنَّ على قدر فائق من الجمال ،لم نر ما يشبهه من قبل. بياض بشرتهن بلون الحليب.. شعرهن بلون الذهب، كخيوط الشمس عند الشروق، وقبيل الغروب.. عيونهن في زرقة مياه البحر في يوم صفت سماؤه، تضفي عليهن سحراً غامضاً تلك البزّات العسكرية، الضيقة والقصيرة، والقمصان الكبيرة على الصدر، تزيدها بروزاً صدورهن النافرة. وحين كنا ننقل إلى أمنا صورة مما نشهد في معسكر البولونية، تنقل بدورها ما سمعت، إلى جاراتها اللواتي يبدين استنكارهن معقبات بأن (الدنيا آخر زمن.. وأن القيامة آتية لا ريب فيها، عما قريب ..!).

كان هناك أيضاً أطفال ورجال من البولونيين من أعمار مختلفة. قيل إن هذه المعسكرات أقيمت لكي يقطن فيها هؤلاء البؤساء من لاجئي بولونيا المنكوبة، ريثما تنجلي الحرب، مسفرة عن هزيمة الألمان. ولن يتوانوا، آنئذ، عن العودة إلى ديارهم. هذا ما كان يردده المخاتير، نقلاً عن (سعادة القائمقام)، عن حاكم اللواء، عن المندوب السامي.. أيضاً ..! فليطمئن أهل القرى، على مستقبلهم، وليس عليهم أن يخشوا شيئاً البتة..!

نتفيأ ظلال الأثل حين يلم بنا التعب. وإذا كان الوقت ظهراً تجمع عدد منا حول (صرر) الطعام التي زودتنا بها أمهاتنا. نغامر أحياناً بفتح علبة سردين أو (بولوبيف). تعبر من أمامنا أسراب من البولونيات، يتضاحكن ،(ويرطنّ) بما لا نفقه. سيارة جيب مكشوفة، تقودها إحداهن، يتطاير شعرها حول وجهها وجيدها مثيراً. نمعن النظر إلى الأكشاك الخشبية، ذات الألوان الزاهية، متناثرة على رقعة السهل، ومدى البصر، فوق السفح المقابل، تتخللها حدائق بدا عليها أنها أنشئت حديثاً، فأشجار الورد لم تزهر بعد، والعشب بدا قصيراً، وإن كان شديد

الاخضرار. والنوافير التي وزعت في أنساق هندسية، ترش الماء في دوائر يصلنا رذاذها مع الأنسام القادمة من الغرب.

نؤوب في المساء. تعترينا سعادة بالغة، حينما تلوح لنا مباني القرية، ومئذنتها على سفحها الجنوبي. لا تقل عنها، بل تفوقها فرحة أمنا بعودتنا، وفرحة أحمد وعلياء بالمعلبات الملونة الصقيلة، والأشياء الجميلة التي جلبنا معنا. لكنها، مع ذلك، لم تكن تحب لنا هذا العمل، فهي دوماً تخشى علينا شيئاً.

.. سيارات الانكليز يا أولاد.. يمكن يدهسوكم عن قصد ..!

.. اليهود يا أولاد.. ديروا بالكم.. لا تأكلوا من أيديهم ..! ·

.. الثعابين والعقارب.. البولونية يمكن يكونوا يهود يمه ..

وحين تشكو همومها أو تعرض مخاوفها على الحاجة أم سايحة، تحاول هذه أن تخفف عنها بشيء مما اعتادت قوله لها، في مثل هذه المناسبات :

(.. طولي بالك يا أم سعيد.. إن الله مع الصابرين.. بكره بيكبروا. المثل بيقول : اصبري على عجينك بيختمر).

عدنا، والشوق يخفق في جوانحنا. نتسابق في الباحة، يتطاير الرمل تحت أقدامنا. يعرض كل منا على الآخر ما أتى به من دفاتر وأقلام. ملابسنا متباينة في أشكالها وألوانها. ففي الأيام القليلة الأولى من بداية العام الدراسي، يغضُّون الطرف عن القميص الكاكي، والشورت الكحلي.

يا لفرحتنا الغامرة. مي، وصف سابع، نحن تلاميذه النجباء ..! من بينهم اسماعيل العطار، وسليمان ابو سليمان، ومحمد النجار، ونعيم ابو جلاله، وفوزي ابن الخالة. لقد بدوا أكبر مما تفعله شهور الصيف وحدها. رنين الجرس أجمل من أي موسيقى للوهلة الأولى، لولا ما يثيره، بعد لحظة في نفسي.. تلك الذكرى إياها.. فيغص حلقي، وينقبض صدري، وتوشك أن تطفر من عينيّ الدموع.

وقف المعلمون في مواجهة الصفوف المنتظمة، فيما اعتلى الأستاذ شاكر العتبة المرتفعة، مقدار درجتين، أمام غرفة الصف السابع الجديدة، تلمع شبابيكها الزرقاء، ورائحة الدهان ما زالت تنبعث من المبنى. باشارة من الأستاذ شفيق، الذي بدا مختلفاً تماماً عما عرفناه فيما مضى، صدحت الأصوات الرفيعة الحادة:

دمت يا بلادي ما دام الزمن وطن المجد ومجداً للوطن

ساد الصمت، فتحدث الأستاذ شاكر، موجهاً إلينا نصائح وإرشادات أبوية. شكر الأهالي على إسهامهم الجليل في إقامة هذا الصف، مما ينبئ عن رغبتهم الصادقة في تعليم أبنائهم .." لكي يكونوا ذخيرة المستقبل، وطليعة الأجيال القادمة، لا سيما بعد أن يجلو الانكليز عن هذه الديار المقدسة، وتستقل البلاد بمشيئة رب العباد ..."

وقفت مي عن كثب. بدت وكأنها هي الأخرى كبرت أكثر مما ينبغي. حتى ملابسها بدت وقورة مهيبة، لاتلائمها. طال شعرها الذهبي أيضاً، وبدلاً من الضفيرتين المجدولتين انسدل إلى منتصف ظهرها، يموج مع كل حركة من رأسها، التي بدا كأنها تتعمد الاكثار منها، أو هي لا تتعمد، ما من أحد يعلم على وجه اليقين. لكنها كانت تضفي عليها مزيداً من السحر والرقة والنعومة.

رائحة الورق الجديد حين وزعت علينا الكتب المقررة، والمحابر، والمساطر الخشبية، تتسلل إلى قلوبنا بالبهجة.. الصور الملونة.. الرسوم.. خرائط الأطلس ..

كيف قضيت العطلة ..؟ ماذا تتمنى في عامك الجديد ..؟ ماذا تنوي أن تكون في المستقبل ..؟

تلك هي الأسئلة التي ما أنفك الأستاذ شفيق يوجهها إلينا في درس الانشاء. وقد اخترت في إجابتي أن أكون شرطياً ..! أما اسماعيل العطار، فقد تمنى أن يفتتح له مكتباً في مدينة يافا، لتصدير البرتقال إلى كافة أرجاء العالم..! مثل رشيد الجمل والحاج عبد المجيد أبو لبن ..!

لم تمض سوى أيام قليلة حتى تبينا أن جو المدرسة، أيضاً، لم يعد كما كان فيما مضى. لم ندرك تماماً ما الذي تغير.. لكن شيئاً ما قد تغير بالتأكيد.. نفتقد حماسة الأستاذ شفيق، ومرح الأستاذ غنيمي، وسخرية الشيخ محمد. بل إن هذا الأخير ازداد وجهه عبوساً عن ذي قبل، حتى أن خطوطاً عمودية واضحة بدت ما بين حاجبيه، وأخرى أفقية على جبينه، مما عمق خشيتنا إياه، وحذرنا إزاءه. وإذ يحين موعد حصة الرياضة، التي اعتدنا انتظارها بفارغ الصبر، يطلب إلينا الأستاذ شفيق أن ننتشر في الباحة لنزاول اللعب كيفما نشاء، الأمر الذي أثار دهشتنا. وها نحن لا نذهب إلى (الحراز)، مما يعني أننا لن نشارك في مباريات لكرة القدم، هذا العام، مع أي من القرى المجاورة. كنا نفكر في هذا، ربما معاً. أفقنا أخيراً، على أن الرحلة المشؤمة التي فقدنا فيها رفيقنا كانت سبب ذلك كله .

مي لا تساعدني على دروس الجبر والحساب هذا العام، الأمر الذي أصابني بالاحباط والأسى معاً، وزاد من كآبة أجواء عامي الدراسي هذا. لكنني لم أقطع الأمل في أن يستأنف الأستاذ شاكر تكليفي بخدمات أوديها لهم، كما كان عليه الحال في الماضي. بيد أن مي لم تلبث أن عادت سيرتها الأولى.. إلى شقاوتها المألوفة، وإن يكن بحذر. كانت كالانكليز، تستمرئ خصومات التلاميذ من أجلها. كذلك الأستاذ شاكر، عادت أنباء الحرب المتصاعدة لتحتل مكانها في أحاديثه من جديد. كان سعيداً لتقدم الألمان في روسيا، لكنه كان حانقاً على أمريكا لدخولها الحرب إلى جانب "الانكليز الشياطين ". دفع باب غرفة صفنا صبيحة ذلك اليوم الشديد البرودة، حتى حسبنا أن الريح العاصفة هي التي قصفته، لكنه كان الأستاذ شاكر يهتف بأعلى صوته :

– تعال يا شيخ محمد.. تعال..

هبَّ الشيخ محمد واقفاً. اتجه نحوه حتى بلغ الباب، فوقفا كليهما عند العتبة:

– هل سمعت يا شيخ محمد؟ هذه الأمريكا اللعينة تعلن الحرب على الألمان.. لكنها ستخسرها ورب الكعبة ..! نعم سوف تخسرين يا أمريكا هذه الحرب ..!

ولما كان الشيخ محمد حزيناً لسبب آخر، لم يتحمس كثيراً لما نقل إليه الأستاذ شاكر. وحين سأله الأخير عن أسباب فتوره، غير المعهود، في مثل هذا الموقف. حدثه عن بيارته التي لم يضمّنها في هذا الموسم لآل الجمل، أو لغيرهم من (الضمّانة)، الذين يفدون من يافا في هذا الوقت من كل عام. تصدير البرتقال توقف بسبب المدمرات والغواصات الألمانية التي تجوب البحار، فتسد السبل على حركة السفن التجارية ايضاً.

– ولكن هذا ليس حالك وحدك يا شيخ محمد.. الدنيا حرب.. حرب يا شيخ محمد ..

– هذا أدهى وأمر يا أستاذ شاكر. لو كان الأمر متعلقاً بي وحدي لما أكترثت كثيراً، ولكنه بلاء عام. كما ترى، تقع علينا نحن تبعات ما يصنع الأوروبيون هؤلاء. فهذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل.. لم نصنعها نحن.. لكنها تخنقنا خنقاً وكأننا نحن مضرموها .

– الانكليز.. الانكليز يا شيخ محمد.. هم أسباب فساد هذا الكون. حتى الزلازل حين تقع لا بد وأن يكون لهم يد فيها ..!

وحين يهز الشيخ محمد رأسه موافقاً، يبادره الأستاذ شاكر :

– ادع معي.. ابتهل إلى الله العلي القدير أن يورثهم هزيمة منكرة لا تقوم لهم بعدها قائمة. أنتم المشايخ دعاكم مستجاب ..!

يهتف الشيخ محمد، وهو يرفع كفيه نحو السماء ضارعاً :

– اللهم خذ بنواصيهم فإنهم لا يعجزونك ..

بسط الأستاذ شاكر كلتا يديه إلى السماء :

– اللهم آمين.. يا مجيب الدعوات.. الله يسمع منك يا شيخ محمد .

ثم اقترب منه ضاحكاً، يضرب على كتفه، قائلاً بصوت أقل ارتفاعاً :

– لكني أشك في أن يستجيب الله لدعواتك يا شيخ محمد ..!

كتم هذا ضحكة أوشكت أن تفلت من حنجرته. ثم هرولا معاً نحو غرفة المعلمين .

عدوت الى الشارع مستطلعاً. أصوات صاخبة.. وصيحات تتردد مرعدة، معلنة سخطها وغضبها. كانت هناك (مظاهرة). وجدت نفسي بين صفوف المتظاهرين، دون أن أعرف كنه مايجري. علمت أنَّ الغضب عمَّ سائر أرجاء فلسطين. تظاهر الناس، ونددّوا بالانكليز ذلك حين نقلت إليهم الأنباء أن هؤلاء الانكليز يحاصرون قصر الملك فاروق بالدبابات. سمعوا الراديو، وقرأوا في الجرائد بأن مندوبهم في مصر، ويدعى (اللورد كيلرن) خيَّر الملك بين القبول بوزارة يريدها الانكليز وبين التنازل عن العرش.. !

أ إلى هذا الحد تبلغ بهم الصفاقة أيها الناس.. ؟

انتابهم الشعور بأن هذه المهانة تمسُّهم.. بل تمسُّ العرب جميعاً، وليس الأخوة في مصر وحدهم، ثم إن الملك فاروق، أولاً وأخيراً، ملك مصر، ومصر بلد عربي، وهم يعلمون، حق العلم، بأن المصريين مثلهم تماماً يكرهون الانكليز، ولايرغبون في مساعدتهم ضد الألمان. بل أنهم يتمنون مجيء الألمان الذي بات وشيكاً ليساعدوهم على التخلص من هؤلاء الانكليز الذين ابتليت بهم الأمة العربية .

تساءل بعضهم :

لماذا لايكون (اللورد كيلرن) هذا يهودياً أيضاً ،على شاكلة ذلك الضابط (تشارلس وينجت) اليهودي الذي نكّل بأبناء فلسطين إبان ثورتها، قبل أن ينقلوه إلى مصر للعمل مع القوات البريطانية فيها.. ؟.

تواصلت المظاهرات على مدى اليومين التاليين. ثم توقفت بعد أن علموا بأن الانكليز تراجعوا عن موقفهم أمام غضبة الشعب المصري والشعوب العربية في كل مكان، وأن القضية سوِّيت بينهم وبين الملك فاروق. لكنهم في اليوم التالي قاموا بمظاهرات الابتهاج التي عمت سائر البلدان .

عدنا إلى بيوتنا قبيل العصر متعبين. ولكن الشعور بالزهو يغمر نفوسنا. ألم نهزم الانكليز أخيراً نحن العرب مجتمعين.. ؟

أمطرت السماء، عصر ذلك اليوم، بعد أن تلبدت بغيوم كثيفة قاتمة، تحولت إلى سوداء فاحمة، بعد الغروب. فيما عصفت الرياح فتقصفت أغصان الأشجار تحت وطأتها. وميض البرق يخطف البصر، يتبعه قصف الرعد هادراً مخيفاً. أنكمشنا حول الموقد نلتمس الدفء في جمراته المتوهجة. حتى سعيد عاد مبكراً هذا المساء، وقد أفرحنا قرطاس العوامه الذي جلبه معه. بدا الخوف على أحمد وعلياء. كذلك ساورني ذلك الخوف أيضاً، إذ فكرت في الزلازل، و(سقوط الرعد)، الذي يتحدثون عنه، والذي هدم بيتاً في العام الماضي، وقتل بقرة وأربع نعاج. أكثر ما أخشاه الآن هو أن تبعث بي أمي إلى إحدى الجارات لاستعارة شيء ما. كيف أقطع باحة الدار المسكونة بالأشباح، وسط هذا الجو المرعب؟ أو أن تطلب إلي جلب حطب من الحاكورة حيث (البئر الكفري)، الذي طالما نسجت حوله القصص والروايات، فهو تارة يحوي كنزاً مرصوداً، تخرج منه دجاجة حولها عدد من الصيصان المصنوعة من الذهب، ترسل أصواتاً مرعبة، فضلاً عن أنها تتحرك، أو هو مقام واحد من أولياء الله. عزز هذه الأقاويل ما رددته والدتي نفسها، إذ قالت لجاراتها ذات مساء أنها، ووالدي سمعا ذات ليلة حركة تصدر من ناحية البئر، متجهة إلى باحة الدار، ولما صاح والدي متسائلاً: من هناك؟ أجابه صوت ضخم، كأنه صوت أربعة رجال ينطقون معاً:

.. أنا يا شيخ سليم ..!

.. ومن أنت ..؟

.. أنا ولي من، أولياء الله. سوف أتوضأ لصلاة الفجر، من هذه الجرة. جزاكم الله خيراً، وبارك لكم في جرتكم وفي نسلكم ..!

وعندما صمت والدي رهبة مما سمع، عاد الصوت ثانية ليقول، فيما صوت الماء يندلق من فوهة جرة الفخار العتيقة :

.. قم صلِّ الفجر يا رجل، فالصلاة خير من النوم ..!

أكدت والدتي ذلك "والله سمعته بأذني يا خضرة كما أسمعك الآن. وسمعت صوت الماء المتدفق أثناء وضوئه..". أخذت أدعو الله في سري، ألا يلهمها ما يدعوها إلى أن تطلب إلي مغادرة الغرفة بعد أن سمعت ما سمعت .

تواصل سقوط المطر بغزارة لم تعهد من قبل، حتى أيقن الناس أنه لن يكف أبداً، وأن طوفاناً سوف يحدث كطوفان (سيدنا نوح عليه السلام) بعد أن "عم الفساد في الأرض، (فاقتربت الساعة وانشق القمر).. فقد نطق الحديد.. و ولدت

الأمة ربتَّها.. والنساء أصبحن يخرجن كاسيات عاريات في بعض البلاد كالبولونيات واليهوديات ..!!" يرددون هذا نقلاً عن الشيخ علي العطار وآخرين، مما قرأه هؤلاء في (الجفر) وفي غيره من كتب التراث ...!

غداة عودتنا إلى المدرسة، بعد أن صفت السماء وأشرقت الشمس، كانت في انتظارنا مفاجأة محزنة، هزتنا جميعاً، إذ علمنا أن الأستاذ شاكر سوف ينقل من مدرستنا، في غضون أيام قليلة. يبدو أن وشايات في حقه بلغت سلطات الانتداب، تماماً كما حدث مع مديرنا السابق الأستاذ عبد الخالق. المهم أنهم سيذهبون.. أجل، مي وأسرتها سوف يذهبون ..! فلقد عوّدتنا الأيام على أن الأنباء السيئة تتحقق دائماً .

وسريعاً جاء ذلك اليوم البائس، الذي خلف في قلبي ركاماً من الأسى. وقف الأستاذ شاكر على تلك العتبة إياها. يلقي فينا كلمة وداع، ونستمع إليه خاشعين. أكد لنا أننا "سوف نظل ابناءه البررة، على الدوام. وأنه لن ينسى الأيام التي قضاها في بلدتنا، مدى الحياة ..".

أحزنني وجهه المتجهم الحزين، يطفح حمرة تحت الحطة البيضاء والعقال الأسود، والبدلة الرمادية وربطة العنق الزرقاء، مما أضفى عليه مزيداً من الهيبة والوقار. وقفت مي قريباً من العتبة، بدت حزينة هي الأخرى، فأفرحني ذلك لحظة، إذ هي حزينة من أجلنا.. من أجلي تحديداً.. ربما..! كانت تحدّق في الأرض عند قدميها كأنما تبحث عن شيء فقدته، تعبث حيناً بأزرار معطفها الأخضر، وحيناً بخصلة من شعرها الذهبي انسدلت على صدرها. أحاسيس غريبة غمرتني، فدفعت إلى مآقيَّ بالدموع. انطلقت أنشج باكياً، حين تعالى النشيج من حولي.. مي الأثيرة، المالئة دنيانا مرحاً.. تمضي فلا نراها بعد اليوم..؟

خيط واهٍ من أمل باهت يلوح كالسراب تعلقت به نفسي، حين أكد الأستاذ شاكر، من جديد، بأنه "لن يألو جهداً للعمل على زيارتنا، كلما أتاحت له الظروف ذلك في المستقبل .." أو أنهم قد يعيدون النظر في قرارهم الظالم .. في اللحظة الأخيرة ". أتساءل :.. أصحيح هذا يا سيدي..؟ أم أنك تقوله كي تخفف عنا وعنك وطأة الفراق..؟ لماذا يفترق الناس؟ لماذا هم مجبرون على أن يفعلوا ذلك؟ نفقد الأعزاء دوماً.. بالسفر.. بالموت.. من نحب هم الذين يرحلون ...

المدرسة كئيبة بعد غيابها. الأستاذ عبد الفتاح – المدير الجديد – يختلف تماماً عن سلفه. قلما تسمع له صوتاً. يبدو متزناً وحريصاً على مظهره

وهندامه. لكأن كل شيء لديه محسوب بدقة. حتى مشيته وكلامه. لم يكن هناك ما يدعونا لكرهه. لكننا مع ذلك، وبالاجماع، لم نرتح إليه، لا لشيء إلا لأنه حلّ مكان الأستاذ شاكر.. وبالتالي ذهبت مي ..!

كان جلُّ اهتمامه منصباً على الزراعة، إذ هو - كما علمنا بعدئذ - خريج مدرسة خضوري الزراعية في طولكرم. لهذا أصبح درس (الزراعة عملي) الآن درساً حقيقياً. عكف على تدريبنا كيف نزرع الملفوف والبطاطا و البصل. ولم ينس الورد الجوري والصقصلي وتم السمكة. كما أولى اهتماماً خاصاً بخلايا النحل التي كانت هناك. وكنت أحظى بلسعة أو أكثر منها - شأن بقية الزملاء - كلما خرجنا إلى موقعها. خاصة في ذلك اليوم الذي تم فيه جني العسل. عندها يردد الأستاذ عبد الفتاح قوله "لا يسلم الشهد من ابر النحل ..!".

خرج إلينا يومئذ، من الغرفة الخاصة بأدوات الزراعة، وقد ارتدى ملابس غريبة، منتفخة، وكفوفاً بيضاء في يديه. وعلى رأسه وحول وجهه صندوق له واجهة من الشبك، وفي إحدى يديه جهاز ينفث دخاناً يغمر صناديق النحل. وفي نهاية العملية سألنا عما إذاكنا نرغب في شراء شيء من العسل، على أن نحضر ثمنه في اليوم التالي. وحين أخذت العسل إلى البيت، نظرت إليّ والدتي حانقة، وأخذت تردد فيما هي تروح وتجيئ :

.. من أين أوفر لكم ثمن العسل يا سيد أمين ..؟

.. لم يبق علينا إلا العسل ما شاء الله.. ادعو ربكم أن يديم عليكم البصل أولاً ..!

صورة مي لا تغيب.. ثقلت أيام المدرسة. باتت مملة كئيبة.. عما قريب يحل موعد الامتحانات، ويقام ذلك الاحتفال الذي وعد به مدير المدرسة أهل القرية، والذي لم يشهدوا مثله من قبل. سوف يتضمن، إلى جانب الأناشيد الوطنية، تمثيليات يقوم بها تلاميذ مختلف الصفوف هي : فتح الاندلس، إسلام عمر، مجنون ليلى. بدأت التساؤلات التي تثيرها والدتي وجاراتها :

وماذا بعد المدرسة الآن ..؟

الأجوبة هي ذاتها، رددناها أكثر من مرة. أولاد الجمل، وأبو سالم، والعطار سوف يذهبون إلى المجدل أو الرملة أو يافا.. أو حتى إلى القدس لاستكمال دراستهم. الآخرون، تنتظرهم بيارات البرتقال، وكروم العنب، وقطف الزيتون.. والمواسم التي لا تنقطع على مدار السنة .

سرادق كبير أقيم في باحة المدرسة بين المبنى والحديقة. شارك الكبار من التلاميذ العمل في إقامته، كنقل أعمدة الخشب، وجرّ (الشادر) الكبير. أما الصغار منهم فينقلون أدوات النجارة والحدادة، وعلب الطلاء المختلفة الألوان، تطلق رائحتها المنعشة. كما أسهم فيه العديد من شبان القرية، فضلاً عن المعلمين أنفسهم. الباحة تعج بالحركة كخلية نحل. وخلف السياج، بين فرجات أشجار السرو والصنوبر العالية وتحت ظلالها وقفت نساء وأطفال، ينظرون إلى ما يجري في فضول ودهشة .أنجز العمل في أيام قليلة، وظهر للعيان ذلك المسرح المنتظر.

على ضوء المصابيح المتلألئة عقب الغروب، شرع الناس يتوافدون من كل صوب. يجلسون على كراسي الزان التي صفت أمام خشبة المسرح. وقد تركت المقاعد الأمامية خالية لعلية القوم من المخاتير والوجهاء أصحاب البيارات .

اعتلى المنصة مدير المدرسة الأستاذ عبد الفتاح، يقدم التلاميذ. يذكر أسماءهم وأدوارهم في التمثيلية. ثم أعقبه الأستاذ شفيق يشرح ما تعنيه مسرحية (فتح الأندلس) ومناسبتها التاريخية، التي تتحدث عن أمجاد العرب الغابرين.. طارق بن زياد وموسى بن نصير .

خيم الصمت عندما ظهر الممثلون. ليتابع الجمهور أحداث المسرحية بشغف. لكن بعضهم يستفسر عما لا يفهم من تلك الأحداث، فيتطوع بعض آخر لتفسير ما يجري حسب فهمه هو لها. بعض تعتريه الدهشة.. بل الاعتزاز بما فعل الأجداد في الزمان الغابر، والأسى على ما فرطت أيديهم أيضاً، نتيجة لخلافاتهم وخصوماتهم، التي أفضت في نهاية المطاف، إلى ضياع البلاد والعباد، وإلحاق الأذى بهم جميعاً، وامتدت آثاره للأجيال اللاحقة بما فيها نحن.

ذلك بعض ماتردد على الألسنة إبان العرض وبعده. تلا ذلك عرض مسرحية (قيس وليلى) التي حظيت بعض المواقف فيها بالتصفيق من الرجال، والزغاريد من النساء الواقفات وراء مقاعد الرجال. أعقبها أخيراً، وفي الختام مسرحية (إسلام عمر). مذكِّرة بأجوائها التاريخية المثيرة لجهاد العرب المسلمين

الأوائل .

قدمت أكواب (الماورد والمازهر). نثرت الورود والسكاكر على الحضور، الذين انصرفوا زرافات عند نهاية الحفل الذي أخذ بألبابهم. انضم الأطفال والنساء إلى الآباء والأخوة لدى انصرافهم، عائدين إلى بيوتهم، عبر الأزقة النائمة، التي غمرها ضياء قمر صيفي حالم، وترامت ظلال جدرانها بأشكالها الخرافية. انطلقوا يتحدثون عما رأوا وسمعوا. أما أولياء أمور من قاموا بالأدوار التمثيلية فقد رفعوا رءوسهم عالياً. مفاخرين بما صنع أبناؤهم.

قال ابو اسماعيل العطار لأبي ممدوح الجمل مماحكاً:

- أرأيت يا (أبو ممدوح) ابني الذي فتح الأندلس ...!؟

رد أبو ممدوح مباهياً:

- وابني أيضاً مثل دور قيس جيداً يا (أبو اسماعيل) حتى كأنه هو..

قهقه العطار، وهو يضرب كفاً بكف :

- ولكنه جنَّ يا رجل.. هل سرَّك أن يجنَّ ولدك سعيد من أجل امرأة؟

- لا تنكر أيضاً أنها جنت من أجله هي الأخرى .

أما والد نافذ الحوراني، فقد أصابه الحرج حين هتف الحاج أبو عون، وهو يضرب براحة كفه على كتفه :

- كيف رضيت، يا أبا نافذ، أن يمثل ابنك دور ليلى ؟

- وماذا في ذلك، يا حاج مصطفى؟ المسألة تمثيل في تمثيل ..أتحسبه صار بنتاً بتمثيله دورها..؟

أعلنت نتائج الامتحانات غداة اليوم التالي. كما وُزّعت الشهادات، فاسودّت وجوه وابيضّت وجوه - كما سبق أن توعّدنا الأستاذ شاكر (رعا الله أيامه).. ومي.. آه يا مي لو أنك شاركتنا أيامنا هذه. أشاد مدير المدرسة بالمعلمين الذين كانوا يقفون معاً أمام صفوف التلاميذ. كان أطولهم الشيخ محمد بقوامه الفارع، عمامته الناصعة البياض وجبّته السوداء أضفتا عليه وقاراً. قلت في نفسي حينئذ :" شيخنا هذا، كان الأقل جهداً، والأدنى أكتراثاً بنا و بدروسنا على حد سواء.. ولكن ها هو ذا، على الرغم من ذلك يبدو منتفخ الأوداج، وكأنه هو وحده من صنع تلك الأمجاد ..!" قبيل انصرافنا شرعنا نردد الأناشيد :

.. موطني موطني ... هل أراك ... في علاك تبلغ السماك...

.. دمت يا بلادي ما دام الزمن ... وطن المجد ومجداً للوطن ...

.. بلاد العرب أوطاني ... من الشام لبغدان ...

ومن نجدٍ إلى يمنٍ ... الى مصر فتطوان...

فيما كانت تتنازعني مشاعر الحزن والأسى لفراق المدرسة والرفاق، وإلى غير رجعة هذه المرة، ومشاعر الابتهاج والفرح لخلاصنا من المعلمين والدروس والوظائف المدرسية. والشيخ محمد أيضاً..!

ولكي يبقى ذلك اليوم واحداً من الأيام التي لا تنسى، أعلن الاستاذ عبد الفتاح بأن عربة (السينما المتجولة) التابعة للحكومة سوف تصل إلى قريتنا مساء ذلك النهار، وبأن أهل القرية مدعوون، عن بكرة أبيهم، لمشاهدة عروضها في الساحة العامة للقرية .

شرع الناس يتوافدون على الساحة منذ العصر. اكتظ بهم المكان. بالكاد بقي أحد في منزله. تبدت على وجوههم معالم اللهفة والترقب لما سوف يشهدون. كأنهم غير مصدقين. لم يلبثوا طويلاً حتى بدأ العرض، لتظهر على الشاشة التي نصبت بعيداً عن العربة، خيالات وصور تصحبها الموسيقى. كانت حسب التعليق الذي رافقها أو قدّم بين يديها (فيلماً) عن قيس بن الملوح وليلى العامرية. ظهر أعرابيان بثيابهما البدوية. رجل وامرأة يتحاوران غناءً. من ذا الذي لا يعرف صاحب الصوت الذي يقلده الشباب في كل شيء. إنه (مطرب الملوك) محمد عبد الوهاب، والصوت الآخر الأميرة أسمهان من جبل العرب في سوريا. خيمة البادية.. الموقد.. النار المتقدة التي جاء قيس يطلب قبساً منها. تهتف ليلى مرحبة بادية اللهفة والحنين :

(قيس ابن عمي عندنا.. يا مرحبا يا مرحبا)

فيرد عليها قيس :

(متعت ليلى بالحياة ... وبلغت الأربا)

وعندما يقطع (أبو ليلى) مناجاتهما الحالمة بصوته المثير للرهبة :

(جئت تطلب ناراً.. أم جئت تشعل البيت ناراً ؟)

عندئذ يبتهج المشاهدون الرجال، إذ هكذا ينبغي أن يكون الرجل في مثل هذا الموقف. بل يستغربون كيف لا (يكسر) الرجل رقبة هذا االمجترئ على حرمة سكنه و أسرته. فيما تستاء منه النساء واصفات إياه بالقسوة.. بل والجلافة أيضاً. وهن منبهرات بعذوبة صوت ليلى وجرأتها. أكثر الحضور يشهدون شيئاً اسمه السينما لأول مرة. لكأنهم في حلم ساحر. بالأمس كانت أعجوبة الراديو التي لم يجدوا لها تفسيراً حتى الساعة. واليوم هذه السينما العجيبة أيضاً. هذه التي تريك الأنسان يتحرك أمام عينيك.. يتكلم.. يغني.. يضحك ويبكي.. بل

ويرقص أيضاً..! (صحيح الدنيا آخر وقت يا ناس ..! كل يوم عجايب وغرايب جديدة ..! عشنا وشفنا ويا ما نشوف ..! هذا كله من علامات الساعة ..!) لم يداعب الكرى جفوننا تلك الليلة إلا قليلاً. واحتفاء بما جرى في الأيام الأخيرة. قدمت أمي لنا عشاء شهياً : بيض مقلي، من نتاج دجاجاتها التي تملأ باحة الدار نقيقاً طوال النهار. ضحت بواحدة منهن أيضاً، ربما لأنها أصبحت (عتقية) لا تنتج بيضاً، زيتون وزعتر وزيت نابلسي، ثم فطاير وبليلة قمح بالسكر. دخل سعيد مندفعاً، يهتف فرحاً :

- أحضرت لكم عوامه ونمورة يا أولاد.

علياء وأحمد انقضا على اللفافتين يفتحانهما انتهرتهما أمي :

- انتظرا لما بعد العشاء يا (مفاجيع) ..!

لم يصغيا إليها، بل شرعا في التهامها دون وناء.

صفت السماء. وتلألأت النجوم على صفحتها. نسمات عليلة تنساب رقيقة حانية. الصوت القادم من مقهى القاضي يتردد واضحاً، أكثر قرباً من ذي قبل. إذاعة لندن حيناً.. ألمانيا حيناً. صوت يهدر مبشراً بهزيمة الانكليز وحلفائهم، وبالنصر المؤكد والمؤزر لدول المحور، ألمانيا هتلر وإيطاليا موسوليني. ما من أحد يجهل صاحب ذلك الصوت. باتوا يعرفونه جيداً ويترقبون سماعه في الأمسيات. على الرغم من تحذير السلطات. إنه يونس البحري. الذي يباشر إذاعته بعبارته المشهورة التي أصبحت شعاراً (حيِّ العرب). نعم هم الألمان يحيون العرب ..فمتى يأتي أولئك لكي يريحونا من هؤلاء الأوغاد ..؟ لا يلبث أن يتناهى إلينا صوت الشيخ محمد رفعت يتلو سورة مريم، التي تثير في نفس والدتي دفقات من الشجن. تطلب إلينا الصمت إكباراً وإجلالاً.. أبوكم يا أولاد كان يقول :(وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون). يعقب ذلك الغناء : هليت يا ربيع هل هلالك.. متعت الدنيا بجمالك. أنساك وافتكرك تاني. ثم اسمهان بصوتها الرخيم المثير للشجن :

عليك صلاة الله و سلامه.. شفاعة يا جد الحسنين..

ده محملك رجعت أيامه ..هنية وتمنته العين ..

أمي خاشعة، توشك أن تطفر الدموع من عينيها، ومسحة الحزن المألوفة تغشى وجهها الشاحب قليلاً. تردد همساً وهي تنظر إلى البعيد :

اوعدنا يا رب ...

خالتي وزوجها تمكّنا - بعد أن بذلا جهداً لاينكر - من إقناع أمي بالسماح لي بمرافقة ثلاثتهم في رحلتهم إلى الخليل. ربما كان ذلك من أجل أن يكون لفوزي - ابن الخالة - رفيق في هذه الرحلة .

انطلق (الباص) مبكراً في طريقه إلى يافا. امتلأت المقاعد. كان المقعد الأخير نصيبنا. خالتي نعمة وزوجها (عبد الكريم الهندي) وأنا وفوزي ابن خالتي إياه.

الطريق الضيق المتعرج تحف به البيارات المسيجة بأشجار الغيلان ذات النّوار الأصفر، تضرب أغصانها السامقة سقف الباص وجانبيه. أصوات الموتورات التي تسقي البيارات. إيقاع صفيرها يمضي مع تدفق الماء في البرك، مرسلاً موسيقى مختلفة النغمات. السائق (ابو دياب النمروطي) لا يني يلقي نكاتاً يضحك لها القريبون منه طوال الوقت. كان في شكله الكثير مما يثير ضحكهم، فهو نحيل قصير القامة، يبدو في ملابسه الفضفاضة كأنه يسبح فيها حين يتحرك. طربوشه الأكبر بكثير من حجم رأسه، حالت أذناه وحدهما دون انزلاقه إلى اسفل، ليغطي سائر وجهه. صمت أبو دياب فجأة. اشرأبت الأعناق. تطلعت الأعين في فضول من خلال النوافذ إلى حيث راح ينظر أبو دياب، الذي نطق بكلمات مقتضبة، عاد بعدها إلى صمت ينبئ عن غمٍّ دفين :

هذه مستعمرة رخبوت.. وهؤلاء هم اليهود ..

شخصت العيون لترقبهم يمشون على رصيفي الشارع العريض. بعضهم يقف أمام الحوانيت ذات الألوان والكتابات والرسوم الغريبة على واجهاتها. خواجات، و(برانيط) منفرة. نساء حاسرات غير محتشمات، بملابس تبدي من أجسادهن الأذرع والصدور والسيقان. الناس غير ناس.. ليسوا كأهل يبنا. الحوانيت أيضاً ليست كمثل حوانيتها. أصوات الراديو والحاكي تلغط او تغني بلغة غير مفهومة. المباني ذات طوابق عديدة تحيط بها الحدائق ذات النوافير، تنثر الماء رذاذاً في كل اتجاه. سطوح المباني من القرميد الرمادي والأحمر. علق بعض من في الحافلة باستنكار :

(يا أخي صدق من قال يهود. لا دين ولا ما يحزنون. قالت خالتي : الله لا يبارك لهم ..!)

أسرع أبو دياب، كأنما يريد الخلاص من رؤيتهم. الطريق تحف به أشجار باسقة فتشكل ما يشبه النفق حين تتلاقى قمم أغصانها العالية. سيارات ودراجات.. مباني متباعدة متفرقة لا تلبث أن تكتظ وتتكاثف.. أناس في الطرقات لا يختلفون عن سمت من سبقت رؤيتهم في رخبوت. صوت أبو دياب، مرة أخرى وكأنه ينبئ عن كارثة :

.. هذه عيون قارة يا شباب.. مستعمرة ريشون ليتزيون كما يسمونها هم .

تمتد الأبصار مستطلعة في فضول، واستنكار أيضاً. يتساءل بعضهم من أين جاء هؤلاء. بل هم قد أنشأوا البيوت والحدائق والطرقات كما لو كانوا سوف يقيمون إلى الأبد في هذه الديار، التي ليست لهم.. والانكليز الذين أعانوهم ومهدوا لهم السبل لأنشاء هذه المستعمرات، هل سيبقون هنا إلى ما شاء الله ..؟ سيأتي يوم يرحل هؤلاء وهؤلاء.. (إن شاء الله..الله يسمع منك.. هذا ما سيحدث في المستقبل بالتأكيد ومهما طال الوقت) .

يخلص أبو دياب بالحافلة إلى مكان متسع من الأرض الفضاء.. مستديرة كبيرة تتوسطها حديقة من الزهور الجميلة الملونة وسط أرض خضراء. هذا دوار بيت دجن. يدّور أبو دياب مقود السيارة بكل قوته، وهو بالكاد يظهر من ورائه، ليتجه غرباً.. إلى يافا. ثم يستأنف الشرح دون أن يطلب إليه أحد ذلك، متعمداً رفع صوته، ليتناقله من خلفه إلى من هم وراءهم تطوعاً أيضاً :

هذه مزرعة (نيتر) اليهودية. يسمونها (مدرسة زراعية) مثل خضوري في طولكرم، ولكنها ليست إلا وكراً، لا يعرف أحد شيئاً عما في داخله على نحو مؤكد. يقولون أن بداخلها معملاً للسلاح.. وبمعرفة الانكليز أيضاً. تلك قرية عربية. مئذنة تلوح من بعيد. بيارات برتقال ثم بيوت وحوانيت على جانبي الطريق، يجلس أمامها رجال و نساء عرب.. هذه قرية يازور.. وذاك معمل ثلج (الهبّاب). شلالات من الماء تتدفق على صرح عالٍ من الأنابيب المطلية باللون الأحمر.. وهذه مطحنة (عطا الله عطا الله). تتباطأ الحافلة. تئن فيما هي تتمايل على الجانبين، ورائحة البنزين تعبق في أنوفنا. هذا (سبيل أبو نبوت)..(البصة).. نحن الآن عند مدخل يافا. الشوارع مكتظة بالسيارات، بعضها يحمل بشراً، وبعض يتمايل بحمولته من البضائع.. نداءات الباعة في كل مكان. الدكاكين وأمامها معروضاتها المتنوعة الملونة.. روائح الأطعمة.. البسطات الحافلة بأشياء

كثيرة لا حصر لها، لا نستطيع أن نتبين ماهيتها تماماً، إذ نمر بها دون ريث. خلق كثير، يتحركون كخلية النمل في كل اتجاه .

.. وصلنا يا شباب حمد الله على السلامة ..

.. يعطيك العافية يا ابو دياب ..

.. الله يعافيكم ويسلمكم.. العصر العودة إلى يبنا يا شباب.. لا تتأخروا..

في ظل جدار سامق، عند الطرف القصي من باحة المكان، اكتظت بعدد من الحافلات، جلس عدد من الرجال ذوي الطرابيش الحمراء القانية. بينهم من ارتدى (قمبازاً)، ومن ارتدى بنطالاً. أمامهم أكواب الشاي وفناجين القهوة. يتوسطهم رجل بدين جداً، يكاد صدره يخرج من قميصه، وفخذاه من رجلي بنطاله. من أمامه (أرجيلة) صفراء لامعة، يقرقر ماؤها كلما جذب نفساً منها. أشار أبو صبحي الهندي إلى حيث هؤلاء، وكأنه يلقي إلى خالتي بنبأ عن اكتشاف عظيم :

– انظري يا نعمة.. ذاك الرجل البدين هو يوسف بامية.. !

قالت خالتي مندهشة :

– ما شاء الله.. قدّ أربعة. وهو صاحب هذه السيارات كلها ..؟

– صلي على النبي يا شيخة (آه كلها) كراج بامية هذا باصاته شغّالة كل الوقت، على خط يافا غزة والقرى على الطريق، يبنا واسدود والمجدل.. وله خط على بئر السبع أيضاً.. سبحان العاطي ..!

أنا و فوزي كالمشدوهين نرقب ما حولنا بانبهار. المدينة بكل ضجيجها وزحمتها. غاب عنا (ابو صبحي) بعض الوقت. ثم عاد يحمل عدداً من القراطيس. أعطى كلاً منا كعكة بالسمسم، وورقة تحوي القليل من الزعتر والفلفل الأسمر. رجل ينادي بصوت جهوري :

– الرملة.. القدس يا شباب ..

هبَّ ابو صبحي واقفاً (هيا بنا يا أولاد.. يا نعمة ..)

انطلقت السيارة مغادرة (كراج بامية) متجهة شرقاً، عبر الشوارع ذاتها التي جئنا منها عند قدومنا قبل قليل.. الأبنية العالية ذات الشرفات المزخرفة تطل على الطريق.. المآذن عن كثب تشرئب إلى السماء. حدائق سبيل أبو نبوت الواسعة الخضراء حافلة بالأزهار والأشجار.. على امتداد أرصفة الشارع، على الجانبين

صفوف من الأشجار، كما تبدت من خلال فرجات بين المباني.. الشوارع نظيفة لامعة.. السيارات ذات الألوان والأحجام المختلفة، تنطلق في كل اتجاه. رجال من البوليس عند مفارق الطرق، بملابسهم وحركاتهم المهيبة، يوجهون السيارات العابرة ويرقبون المارة.

اعتراني شيء من الحزن إذ نغادر يافا هكذا سريعاً، قبل أن نرى منها إلا ذلك القليل. لكن زوج خالتي يتصرف دونما اكتراث لمشاعرنا. بل هو لم يلحظها أصلاً. وعلينا جميعاً أن نذعن لمشيئته. حتى خالتي التي كانت ذات سلطان في منزلها، بدت الآن وادعة مستكينة. لكنه مضى يحدثنا عما نرى، تعويضاً عما فاتنا. هذا معسكر صرفند للجيش البريطاني. هذه كروم زيتون الرملة. تلك مئذنة الجامع الأبيض في الرملة تبدو من بعيد. هنا يقام في شهر نيسان من كل عام موسم النبي صالح، يؤمه أهل المدن والقرى، فتنعقد حلقات الذكر، وتمشي في الشوارع مواكب الطرق الصوفية، بأعلامها وطبولها. كما تقام الولائم والأفراح، وتمتلئ المنطقة بباعة الأطعمة والحلويات الملونة والمرطبات، من يافا والرملة. كذلك تكثر المعروضات من الألعاب والهدايا المصنوعة يدوياً في البلاد، والملابس الملونة، ولاسيما للصغار، تلوّن البسطات والأرصفة. تذكرت هذا الذي رأيته هنا منذ سنتين حين قدمت إلى موسم النبي صالح، بصحبة أخي سعيد ورفاق له. مضى أبو صبحي يحكي لنا أيضاً قصة ناقة النبي صالح المشهورة، والقوم الذين عقروها، فحلّ عليهم غضب الله وعقابه. هذه معصرة زيتون في هذا المبنى الأثري القديم. حتى حجارة المبنى العتيقة بدت مشبعة بالزيت. وهذا مصنع حلاوة النبي صالح .

بدت لنا شوارع الرملة أقل إزدحاماً بالناس من شقيقتها يافا. المباني والدكاكين والبيوت بني الكثير منها بالحجارة وبعضها باللبن. تنتشر الأقواس الشرقية في معظم مبانيها. والنوافذ الخشبية المزخرفة برسوم جميلة. مآذن وقباب كثيرة. الرجال يرتدون (القمباز) والطربوش وشملة عريضة تحيط خصورهم، تتدلى منها سلسلة ساعة الجيب. النساء محجبات بالملاية السوداء والمنديل على الوجه. معظم المناديل في يافا شفافة يرى ما وراءها، أما هنا فهي كثيفة تخفي الوجه تماماً ..!

توقفت السيارة في ساحة واسعة، تجمع فيها خلق كثير، صعد إليها ركاب يحملون سلالاً وضعوها عند أرجلهم في حرص واضح. ثم لم تلبث أن تحركت عبر سوق قامت على جانبيه حوانيت كثيرة، على واجهاتها أسماء أصحابها التي

رحنا نتسابق على قراءتها أنا وفوزي : الحاج مصطفى الخيري.. الحاج ربحي الغصين.. الفاروقي.. التاجي.. المفتي.. الحاج أحمد ابو لبن ..

تزيد السيارة من سرعتها : ويعلو هدير محركها. يشرع الطريق في الصعود شيئاً فشيئاً. لدى ابتعادنا عن الرملة، تحف به البيارات والكروم، التي انتشرت بينها الدور والأكواخ، على مرمى البصر. فلاحون وعمال يسوقون الدواب وقطعان الماشية. وحين غدونا على علو شاهق بين الجبال، على الطريق المتعرج كالأفعى حول سفوحها بدت الأودية من علٍ خلابة ساحرة، تترامى ظلالها هنا، أو تومض في ضوء الشمس هناك. من آن لآخر يعرّفنا سائق الحافلة بما يعرف عن هذه المناطق وأسماء القرى والكفور. وحيناً يتحدث الركاب أنفسهم متطوعين بالحديث عما يعرفونه من هذه المناطق، إلى أن لاحت لنا مبانٍ متفرقة، لم تلبث أن تكاثرت شيئاً فشيئاً. في البعيد عقب رحلة أنهكت قوانا فيها اهتزازات الحافلة وتعرجات الطريق، ظهرت قبة الصخرة، تسطع تحت ضوء الشمس، ومآذن الأقصى، وأبراج الكنائس. حنين غامض لشيء لا أعرف كنهه، يثيره مرأى الأسوار الضخمة، بحجارتها العتيقة عند باب العمود. والباعة يملأون الساحة، ينادون على بضاعتهم (ملبن.. زيت.. زعتر.. زبيب.. قطين..) يعرض معظمهم صوراً ولوحات للأقصى، وقبة الصخرة، والأسوار وشتى الأماكن التاريخية. سبحات وأيقونات، وكتب قديمة أوراقها صفراء، مشغولات من الصدف والمخمل. للمكان نكهةٌ خاصة آسرة، تغمر الروح وتسمو بالنفس إلى آفاق كونية عليا لا حدود لها.

حين خيّرنا من قبل السائق بين البقاء في القدس أو متابعة سفرنا إلى خليل الرحمن، غاظني مرة أخرى ذلك (الهندي) زوج خالتي نعمة، بإصراره على مواصلة السفر دونما ريث. قلت لفوزي :

- لماذا يستعجل سفرنا عمنا الهندي ؟

- لأنه جاء من قبل إلى هذه الأماكن .

منادٍ يحث الراغبين بالسفر على اللحاق بالحافلة المنطلقة للتو :

الخليل.. ناقص ثلاثه ركاب.. الخليل.. بيت لحم.

وإذ يلمحنا عن بعد، يواصل النداء ولكن بصوت أكثر ارتفاعاً :

الخليل يا مستعجل.. أربعة ركاب. ناقص أربعة.

العبارة الأخيرة بدت وكأنها موجهة إلينا. استجاب زوج خالتي للنداء على

الفور، فهرع باتجاه الرجل، فيما هو يحثنا على اللحاق به، إلى الطرف الآخر من الساحة، وهو يحمل حقيبة كبيرة، فيما تحمل خالتي (بقجة) أكبر من اللتين حملناهما أنا وفوزي. أمسينا داخل (الباص). ولكن هذا لبث طويلاً قبل أن يتحرك، إثر إلحاح الركاب، وبعد أن يئس المنادي من العثور على عشرة آخرين أيضاً ..!

على مدى البصر، في كل اتجاه بدت الأودية السحيقة وقمم الجبال الشاهقة وكأنها تلامس صفحة السماء. تلك بيت ساحور بمبانيها البيضاء، وأبراج كنائسها وأديرتها العتيقة.. صور باهر.. نحالين.. بيت فوكين.. بلدات وقرى ذات طابع متميز في أنساق المباني والحدائق، كما في الثياب والأزياء. مشارف بيت لحم، الأكبر بين كل القرى والبلدان، التي شهدنا مذ غادرنا القدس. نقترب من ساحتها أمام كنيسة المهد، ذات الأسوار العالية، كأنها حصن قلعة رومانية، توحي بالوحشة لكنها مهيبة تملأ النفس جلالاً. تغص الساحة بأناس من شتى الأجناس، كما بدوا في أزيائهم وهيآتهم. أجراس الكنائس تقرع، يتردد صداها في الجبال والأودية. هنا هبط جبريل عليه السلام ليبشر مريم العذراء ابنة عمران، بولدها الذي يكلم الناس في المهد صبياً. حلق الخيال بعيداً بعيداً إلى الأزمنة السحيقة. خالتي تبتهل إلى الله «بأن يعيدنا إلى ديارنا سالمين ..! (الهندي) كعادته في تسرعه غير المحمود، لم يصبه شيء من ذلك الخشوع أو تلك المشاعر التي ألمتّ بنا. أشار علينا بالجلوس في ركن من تلك الساحة، لتناول طعامنا قبل مواصلة السفر إلى الخليل .

مرت بنا نساء تلحميات. أبدت خالتي إعجابها بأزيائهن. الثياب الطويلة حتى القدمين. بيضاء أو سوداء، مطرزة على الصدر و الجانبين بألوان مختلفة زاهية وشاح أو شال أبيض يغطي الرأس، مرسلاً على الظهر أو ملفوفة حول العنق، منهمكات في الكلام أو الضحك بدا واضحاً أنهن خرجن للمشي في هذا المكان الحافل بكل ماهو مثير وجميل. قال لنا زوج خالتي إن النبي يحيي قتل في هذا المكان تحقيقاً لرغبة تلك اليهودية (سالومي) برؤية رأسه على طبق من ذهب..!

اليهود.. دائماً اليهود.. أليسوا هم منشأ الشر و الأذى إذن منذ أقدم العصور..؟ وهذه الحرب العالمية المحتدمة.. أي دور مقيت لهم فيها ..؟

شرع عمنا (الهندي) يستحثنا على اللحاق بالحافلة إلى الخليل، واعداً إيانا بأن نعرج على بيت لحم وكنائسها لدى عودتنا .

تنحدر الشمس نحـو المغيـب، فتغمـر الظـلال السـفوح الغربيـة، فيما تسـطع أشعتها على قمم الجبال والتلال الشرقية. سكينة موحشة.. ونسمات بـاردة تتسـلل عبر النوافذ، رغم أننا في مطلع الصيف، خلافاً لما كان عليه الحال صبيحـة هـذا النهار في يافا. قرى كثيرة لاحت عن بعد ترصّع سفوح الجبال التي بـدت لوحـة طبيعية رائعة، مستلقية في سكينة في أحضان الجبال الشامخة الخضراء .

تذكرت أمي وإخوتي. حبذا لو كانوا معنا الآن. بل تمنيت لو كان أبي حيـاً، لقمنا إذن معه بهذه الرحلة، بدلاً من هذا (الهندي) زوج خالتي نعمة ...!

لسوف أحدثهم عن هذا كله. نعيم وسليمان واسماعيل سوف يحسـدونني بـلا ريب ..! سأروي حكاية رحلتنا هذه لمريم قبل هؤلاء جميعاً.. أما أنـت يـا مـي.. آه يا مي.. أين أنت الآن أيتها الغالية ..؟

الليل طويل طويل.. قلقة حيرى من أجله. تتساءل مرة أخرى. ولقد أعيتها التساؤلات : (أين أنت الآن يا أمين.. ماذا دهاني كي أرسله معها .؟ حسبي الله عليك يا نعمة.. ترى أين هم الآن؟هل يبيتون في يافا عند أم زكي العبسي؟ أم تراهم واصلوا سفرهم إلى الخليل؟ كيف أمضوا نهارهم؟ أكلوا .؟ شربوا ..؟)

على ذبالة السراج المتأرجحة بدت علياء وأحمد منكمشين تحت اللحاف، كقطتين وديعتين، تثيران الشفقة. سعيد تمدد لصق الجدار ..(هذا الولد قلبه طيب.. يحب إخوته.. يخاف عليهم من نسمة الهواء.. لكنه.. آه يا رب..)

تأتي أوقات تحسب فيها أنها نسيت سليم. لكنها في مثل هذه الأوقات العصيبة تجده أمامها، يؤنس وحشتها.. يحفزها على الصبر.. يشد من أزرها في حمل العبء الذي ألقته على عاتقها رصاصة الانكليزي القادم من وراء البحار. لو لم يقدم على فعلته تلك يومئذ، لتغيرت مسيرة حياتهم. من المؤكد أنها كانت تسير الآن في اتجاه آخر. لم يقتل سليم طوال سنوات الثورة، حين كان يحمل البندقية، ويتسلل في جنح الليل مع رفاقه، لمهاجمة المستعمرات اليهودية إثر اعتداءات هؤلاء على العرب. في تلك الأيام التي كانت تملؤها خوفاً ورعباً كان يعود سالماً في كل مرة.. ثم يمضي الآن هكذا في طرفة عين؟ وفي ظرف عادي تماماً لا يتوقع أحد أن يصاب فيه بسوء ..؟

انضمت إلى الجارات، في تلك الأمسية، على مصطبة الحاجة الكبيرة. أم مريم وابنتها، الحاجة خضرة، حفيظة زوجة محمد الشريف. (هذا الرجل ليس ككل الرجال.. لا يقصّر في شيء من أجلها.. لو طلبت (لبن العصفور) لجاءها به).. الانكليز يتراجعون، يتقدمون.. الألمان يخترعون، يصنعون.. اليهود يفرُّون، يهاجرون.. الزرع.. الحصاد.. البرتقال.. الأعراس.. الغلاء المخيف.. البيارات التي جفت أشجارها. تحدثن في هذه الشؤون جميعاً. أما هي فكان همها أمين عند عودته بالسلامة مع خالته نعمة.. هل يذهب إلى مدارس القدس، أم مدارس يافا، أسوة باسماعيل (ابن العطار) وسعيد (ابن الجمل) ..؟هذه المسألة التي تؤرقها دائماً ولا تغيب عن بالها إلا لماماً ..

- لا هذه و لا تلك يا عائشة.. يبحث له عن عمل يساعدك على ما أنت فيه؟

- لكنه صغير يا حاجة.. أي عمل يمكنه أن يقوم به المسكين ؟

- أي عمل والسلام.. يقولون أن الانكليز يريدون عمالاً في المعسكرات. وإذا لم يكن هذا، فلماذا لا يعمل في بيارات البرتقال أو في كروم الزيتون؟ أي شيء أحسن من لا شيء يا حبيبتي ..! (المثل بيقول العب في المقصقص حتى يجيك الطيار)

الجن.. العفاريت.. يقولون أن جنياً تلبّس بنت (ابو عيشة). الحق على أمها التي دلقت الماء المغلي على رأسها في الحمّام، دون أن تسمي بالله. أخذوها للشيخ (عبد الجبار). كسّر على جسد المسكينة حزمة عصي خيزران. لم يستطع الرجل إخراج الجني اللعين. يقولون أن بين الجان من هو مسلم ومن هو كافر.. يظهر أن هذا من النوع الثاني ..! نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..!

(النوَر) كان لهم نصيب في أحاديث (المصطبة). نصب النوَر خيامهم في البستان المقابل لدكان أبو العبد الرملاوي، وفي الحواكير (شباب البلد كل يوم عندهم. هذا ماكان ينقصنا ..! راقصات ومغنيات.. والرجال يسهرون عندهم حتى الفجر. بينهم واحدة اسمها صابرين. لها سن ذهب تسحرهم لما تضحك لهم.. وخدوا دلع نوريات ..! الله لا يكسبهم بكره يخربوا لنا الاولاد..! قال أبو (صالح الجمال) وضع لها النقوط في صدرها عشرة جنيهات ..! وأشعل لها سيجارة بخمسة جنيهات ..! شوفوا بالله عليكم. الله لا يبارك له الثاني. الناس يا دوب تلاقي الخبز وهو يحرق المصاري يشعل سيجارة لواحدة نورية ... لا حول و لا قوة إلا بالله.. أذن العشاء يا لله يا صبايا ..!)

اعتراها الغم والضيق حين أغلقت باب دارها. الصمت مطبق، والظلمة الفاحمة في باحة الدار. نقيق الضفادع في الأودية القريبة يتناهى إليها حزيناً موحشاً. الديدان المضيئة تبرق عبر الظلمة، تتقافز أمامها ومن حولها، حفيف أوراق شجرة التين في الحاكورة بجوار الكهف (الكفري) المهجور. أسرعت الخطا، ومن أمامها علياء وأحمد يتعثران فيلوذان بها، ويمسكان بثوبها. تنفست الصعداء حين أقفلت باب الغرفة. ضوء السراج شاحب، ولكنه على أية حال خير من العتمة المخيفة هناك. حاولت دفع ولديها للنوم. لكنهما أصرّا على ألا يناما قبل تناول العشاء. جاءتهما برغيف الطابون، وقطعتي جبن مما جاءت به

أم مريم صباح ذلك النهار. إبريق الشاي يوحي بشيء من الطمأنينة حين يتعالى بخاره المعطر بالميرمية. تقدم لهما الشاي تصحبه دفقة حنان من قلبها المثخن بالجراح والشجن .

الليل طويل طويل.. يزداد طولاً وعمقاً كما لو كان ينبئ بأنه سرمدي ... " وأين أنت يا أمين..؟ يا رب.. يا من سترت ما مضى.. استر ما بقي .."

أمضينا ليلتنا الأولى في دار البكري. تجمّع الرجال في القاعة الواسعة الأرجاء، ذات الأقواس والأعمدة العالية. مضافة آل البكري، حيث جلس الرجال على فرش مدّت فوق بسط ذات ألوان زاهية، ورسوم جميلة، و مساند عديدة وضعت بين واحدهم والآخر كي يتكئ عليها. لذت وفوزي بالصمت، فيما انخرط الرجال في أحاديث شتى. يصب أحدهم القهوة في فناجين بيضاء، ذات زخارف ملونة، يطوف عليهم بها من حين لآخر. يقطعون حديثهم في كل مرة، لكي يثيروا جلبة حول من يسبق من في الأولوية لتقدم له القهوة. فيما يهتف الشيخ البكري بين وقت وآخر : قهوة يا (ابو مصباح).. قهوة للرجال. يستأنف الرجل البدين ذو اللحية الكثة البيضاء (ابو ماجد) حديثه الذي انقطع بقوله :

- الحلال هذه السنة قليل يا جماعة لقلة الخير .

يرد رجل يدعى (ابو فيصل) :

- أي والله كانت الأمطار شحيحة هذا العام على غير المعتاد .

شيخ نحيل وقور (الشيخ رجب الناظر) يقول بصوت عميق هادئ:

- هذا نصيبنا أيها الناس.. والأمر بيده سبحانه من قبل ومن بعد .

يؤمن على قوله (أبو ماجد) بالقول :

- نعم نعم.. وما أصدقه من قائل يا شيخ رجب (وفي السماء رزقكم وما توعدون..) اللهم عافنا واعف عنا .

حاول زوج خالتي (الهندي) بعد أن شاركهم حديثهم ومشاعرهم، أن يثنيهم عن السعر الذي طلبوه ثمناً للأغنام التي يبغي شراءها. تشبثوا بادئ الأمر. لكنه نجح أخيراً في زحزحتهم عما أرادوا، مؤكدين له بأنهم ما كانوا ليبيعوا (حلالهم) بهذا السعر لأيٍّ سواه. لا سيما وأنه ضيفهم الأثير. شكرهم عندئذ (الهندي) على هذه الأريحية، التي لا ينكرها أحد، ودعا لهم بالبركة والعوض .

عقب العشاء نشبت معركة حامية الوطيس، من أجل غدائنا في اليوم التالي. أصرَّ كلٌ منهم على أن يكون هو صاحب الدعوة، إلى أن فرض عليهم الشيخ

الناظر ترتيباً أقروه بالأجماع، مؤداه أن يكون الغداء عنده. أما العشاء فلدى أبي ماجد. أما غداء اليوم الذي يليه فعند (أبو موسى)الزير. ولولا إصرار زوج خالتي على أنه لن يبقى أكثر من يوم آخر في الخليل، لامتدت سلسلة الدعوات إلى ما شاء الله، بحيث تشمل الحضور جميعاً .

منذ الصباح الباكر خرجنا أنا وفوزي، إلى الزقاق مع عدد من أولادهم. نركض.. نتقاذف الكرة.. نلعب الاستغماية.. الدُّحل.. نتسلق شجرة الجميز العتيقة التي تظلل مساحة كبيرة من الزقاق.. وشجرة البلوط الهائلة في الساحة القريبة. قال الأولاد أن عمرها آلاف من السنين، كما سمعوا من آبائهم. عدنا مع صالح وحسين وماجد إلى الدار نحو الظهيرة، ولكن إلى حيث الحريم هذه المرة. استقبلنا ببشاشة ومودة من قبل سيدات الدار، كانت خالتي نعمة هناك، وكأنها واحدة منهن. بتودد واضح وحنو حقيقي، سألت امرأة بيضاء مكتزة الجسم، ينسدل شعرها الفاحم على كتفيها، عما إذا كنا نرغب في الطعام أو أي شيء آخر. وقبل أن نجيب سبقتنا خالتي بالأعتذار شاكرة للمرأة، ذات العينين العسليتين والجسم البدين. لكن هذه تجاهلت اعتذار خالتي. دلفت إلى الداخل، غابت بعض الوقت، لتعود وفي يدها علبة حلوى، وفي اليد الأخرى سلة تحوي فواكه مجففة من التين والعنب والمشمش .

الفتيات الصغيرات التففن حولنا فرحات مندهشات، يتفرسن في وجوهنا وأجسامنا، كما لو كنا قد هبطنا للتو من كوكب آخر. بقينا وحدنا معهن، حين عادت النساء للانهماك فيما كن فيه من عمل لإعداد الطعام. بخار كثيف يتصاعد في أجواء الدار.. رائحة السمن واللحم، كما رائحة البصل والثوم واللبن تعبق في المكان. خليط من هذا كله يثير الشهية، لا سيما وقد حلَّ موعد الغداء. باحة الدار ذات الرخام الملون الجميل، الجدران السامقة التي شيدت من الحجارة الداكنة، توسطت الباحة بركة واسعة، تكتنفها شجيرت الورد الجوري. تظلل البركة أغصان شجرة توت معمرة، فتضفي على المكان سحراً غريباً. الفتيات يعاملننا كما لو كنا ألعاباً طريفة قدمت إليهن ..!

في المضافة عند العصر حيث عدنا إليها كارهين، نتساءل من أين أتى كل هؤلاء الرجال؟ امتلأت بهم المضافة. لكنهم يخلدون إلى الصمت مصغين إلى المتحدث من بينهم. إلى أن قطع الصمت والحديث معاً الأذان لصلاة العصر يتناهى إلى المكان، فيبعث في النفس الخشوع. هبَّ الرجال وقوفاً للصلاة جماعة، يؤمهم الشيخ البكري. أنا وفوزي أيضاً يجب أن نصلي معهم. قبيل

التسليم لكزني فوزي بمرفقه، فكتمنا ضحكاً أوشك أن ينفجر. سرت تمتمات الرجال بالدعاء، فيما يصافح واحدهم الآخر، بعد مصافحة الشيخ البكري أولاً. ثم ساد الصمت قليلاً إلى أن يتخذ كل منهم مجلسه، مسنداً ظهره إلى الجدار الذي صفت على امتداده الوسائد. ولكن متى يؤتى بالغداء؟ وماذا ينتظر القوم ؟

الجو مهيب، حتى أن غير قليل من الرهبة تسلل إلى نفسي. وكذلك ابن خالتي فوزي. لا نملك أن نتكلم أو أن نغادر المكان. لا بد أن أمي قلقة الآن كعادتها عند غياب أيٍّ منا.. لسوف أحدث سعيداً بهذا كله. كذلك نعيم والآخرين.. لسوف أعمل على إثارة حفيظتهم، هذه المرة ..! ها هم أخيراً يأتون بالطعام الذي لا بد أنه أمسى عشاءً أيضاً، فالشمس قد غربت لتوها .(بواطي) الأرز واللحم ورائحة السمن تطغى. تستقر (البواطي) أمام الجلوس .لا تمتد إليها الأيدي قبل أن يهم الشيخ البكري بذلك وهو يقول :

– تفضلوا على ما قسم الله يا جماعة. بسم الله الرحمن الرحيم .

سرعان ما اندفعت الأيدي إلى القصاع. وانهمك الجمع في التهام الطعام، في صمت مطبق إلا من همهمة هنا ونحنحة هناك. وبسرعة أيضاً انفض القوم عن القصاع. فكان علينا أن نكف عنها بدورنا، حتى قبل أن نتناول كفايتنا. رفعت (البواطي) دون أن ينقص منها الكثير، ونحن ننظر إليها بأسف. أبو مصباح يعود إلى تقديم القهوة، ببشاشته المعهودة، حين يشرع الرجال في أحاديثهم وحكاياهم التي يبدو أنها لا تنتهي. نتمنى إذن لو نترك وشأننا، فنغادر جو القاعة هذا غير المريح، لصرامته ووقاره. إلا أننا لم نجرؤ على الافصاح عن رغبتنا، ناهيك عن تنفيذها.

زاد الجو اكفهراراً حينما تطرق الحديث إلى الانكليز وتواطؤهم مع اليهود. وعد بلفور المشؤم.. هربرت صموئيل، ذلك اليهودي الذي نصّبوه مندوباً سامياً على فلسطين أول عهد الانتداب، موكلين إليه أمر تهيئة الظروف الملائمة للهجرةاليهودية، وإقامة المستعمرات على الأرض الأميرية لكي تستوعب مهاجريهم هؤلاء. إضافة إلى صنع كل ما من شأنه أن يمكنهم من إقامة وطن قومي لهم. لجنة(المستردل).. الكتاب الأبيض.. أحكام الإعدام الجائرة وشهداء الخليل وغيرها. جمجوم والزير وحجازي الذين أعدمهم الانكليز.. ثم عن ثورة البراق التي انطلقت من الخليل والقدس.. عن دور الشيخ عز الدين القسام الريادي فيها، وفيما تلاها من ثورات، كانت أعتاها قوة وأطولها زمناً ثورة عام ١٩٣٦ التي مهد لقيامها غداة استشهاده في أحراش يعبد. الأمر الذي زاد لهيب

الثورة ضراماً، لا سيما وأنه قد جاء في أعقاب مواقف احتجاجية ضعيفة، كالمذكرات والعرائض، والمؤتمرات وتأليف اللجان، والوفود إلى المندوب السامي في القدس، أو إلى الحكومة البريطانية في لندن. هم يشكون ما يقع عليهم من مظالم لمن أوقع فيهم تلك المظالم نفسه ..! يقابل ذلك كله، من جانب الانكليز، وعود لا تتحقق ابداً. أتباع القسام، وتلاميذه ومؤيدوه، حملوا لواء الثورة، التي امتدت من بعده في الزمان والمكان، فشملت أرجاء فلسطين بأسرها حتى عام ١٩٣٩.. أثنوا على الرجل الذي حمل روحه على كفه، قادماً إليهم من بلدة جبلة على الساحل السوري، إيماناً منه بوحدة الأرض والأمة و الدين، ويقينه بجدوى الجهاد في سبيل الله والوطن، فإما نصر وإما شهادة. لم يؤمن الرجل بالحلول الوسط، ولا بالوعود والعهود الخلابة الكاذبة، فالحرية تؤخذ عنوة ولا تمنح مجاناً لأحد.

قال قائل منهم : ألا يعني هذا (باجماعة) أننا أبناء أمة واحدة.. قضايانا واحدة.. تاريخنا واحد.. كذلك مصيرنا ومستقبلنا جميعاً.

قال الشيخ البكري الذي لبث صامتاً معظم الوقت :

- أنتم تعرفون أنني قاتلت مع القسام جنباً إلى جنب. رحم الله الرجل وأسكنه فسيح جناته. ثم مع فصيله من بعده على امتداد زمن الثورة. نعم أذكر تلك الأيام، وهي ليست بعيدة عنا على كل حال. هناك في أحراش يعبد، وربى جبال نابلس وطولكرم وعنبتا. منذ البداية جاءنا الرجل ومعه العديد من الرجال من سوريا لقناعته وايمانه بأن بلادنا واحدة وأمتنا واحدة. هذه شهادة لوجه الله والتاريخ. كان على يقين بأن الجهاد هو السبيل، دون غيره إلى تحرير البلاد من المستعمرين، فرنسيين كانوا أو انكليز، وبالتالي منع هجرة اليهود والحفاظ على أرض الوطن.

أطبق صمت حزين.. ران على القوم خشوع يليق بمقام الرجل، الذي حنى الرجال رؤوسهم أمام ذكراه العطرة إكباراً وإجلالاً.

يتحرك الشيخ (الناظر) في مجلسه. يهم بالكلام فيصمتون:

- أيها الأخوة. بشّرنا أفضل الخلق صلوات الله عليه وسلامه، بأن القيامة لا تقوم قبل أن يتجمع يهود في هذه البلاد. ثم تأتي جيوش من المشرق، وتقوم حرب ضروس، يفنى فيها اليهود عن بكرة أبيهم. يغمر الدم الأرض يومئذ، حتى يبلغ الركب. يومئذ يختبئ اليهودي وراء حجر فينطق الحجر قائلاً يا مسلم هذا يهودي تعال فاقتله.. أجل " لاتقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود.. "

لبث القوم صامتين، شاخصة أبصارهم إلى الشيخ، وقد ارتسمت على وجوههم علامات البشر والارتياح، و كأنهم يتمنون أن يحدث هذا، في هذه الساعة، قبل أن يقوموا من مقامهم.

تناهى إليهم صوت المؤذن قادماً من الحرم الابراهيمي. هبَّ الرجال وقوفاً، وكأنهم فوجئوا بسماعه على حين غرة. لم تمض دقائق قليلة حتى كنا نسير في موكب مهيب، في الطريق إلى الحرم الابراهيمي لأداء صلاة العشاء. جموع المصلين تفد تباعاً فرادى وجماعات. الأنوار الباهرة تضيء صحن الحرم وباحته الخارجية. الأعمدة العتيقة الضخمة البادية للعين، وكأنها وجدت هنا منذ الأزل. السجاد الملون، برسومه الجميلة يغطي أرض الحرم. نوافير الماء في الباحة الفسيحة الأرجاء. كدنا ننسى ما حولنا. أخرجنا من استغراقنا هذا انتهاء الصلاة، وسماع التكبير والتلاوة. ثم يتفرق الناس، ونمضي لقضاء ليلتنا الثانية. حفلت ليلتي بالرؤى والأحلام. شيخ وقور لا سبيل إلى وصفه.. كأنما هو قادم من أعماق التاريخ، يحمل في يده مصباحاً يشع نوراً باهراً. يقول بلهجة استنكار: يزعمون انتماءهم لي وهم ليسوا كذلك. أنا مشرقيٌّ ومقامي هنا، منذ فجر التاريخ، وهم جاءوا بالأمس من بقاع في مغرب الشمس. سبقتُ أصل وجودهم بألف سنة فكيف يدَّعون قرابتي. أنتم أبنائي والأرض لكم ... يصمت الشيخ قبل أن يهديني المصباح، وهو يشير لي بيده صوب الشمال. ألتفت إلى حيث يشير، فأرى قبة الصخرة ومآذن الأقصى تسربلها ظلمة حالكة.. ولكن مصباح الشيخ، ومن هذا البعد السحيق ينشر الضياء عليها وعلى ما حولها.. ثم يقول وهو يقدم لي المصباح بيد وسيفاً باليد الأخرى: " هذا هو الطريق إليها ..!"

- ها نحن أخيراً في القدس يا فوزي. عمك (الهندي) وفى بوعده، هذه المرة، يا ابن خالتي. ولكن هل سنمكث في القدس بعض الوقت، أم تراه يتعجل سفرنا كعادته؟ قال فوزي :

- يا حبيبي المهم أننا سنمضي يوماً على الأقل هنا، فهذه هي القدس يا أمين وليس غيرها. ثم انهما يعتزمان، هو و أمي أداء صلاة الظهر، في حرم المسجد الأقصى، حيث الصلاة جماعة في هذا المكان الذي بارك الله حوله، تعدل لا أعرف كم صلاة عادية في مكان آخر. أليس هذا ما كان يقوله لنا الشيخ محمد أبو العينين، أم تراك نسيت ..؟

خالتي تنادي إذ سبقناهما بمسافة عشرين أو ثلاثين متراً، في ذلك الشارع الضيق، ذي الحجارة الضخمة الداكنة، والأرض المبلطة بالحجارة. تنادي خالتي آمرة إيانا (قف انت وهو). توقفنا إلى أن لحقا بنا. حذرتنا عندئذ، بأننا يمكن أن نضيع في لمح البصر وسط هذا الزحام، وماذا تصنع ساعتئذ؟ هل تطلب المنادي للبحث عن (مسخوطين) ضائعين ..!؟

كل ما حولنا مثيرٌ للدهشة. الأسواق تغص بالدكاكين والبسطات، حيث هنا كل شيء مما لا يمكن أن يخطر ببالنا، سواء الأسواق وما حفلت به من بضائع وهدايا ومأكولات، أو الشوارع والأزقة المتفرعة عنها، ذات الأسقف المغطاة، والقباب العتيقة كأنها ولدت مع التاريخ. رائحة الرطوبة تخالط روائح الأطعمة والملابس والعطور والبخور والعنبر. مزيج مثير من كل شيء. نسهو أحياناً عن تعليمات الخالة، نتباطأ هنا.. نتوقف هنا مشدوهين بما نرى، فلا نتنبه إلا على وكزة منها أو نداء. زوج الخالة ظل محايداً، لا يتدخل قط طوال الوقت، إلا أنه يحثنا الآن على المضي قدماً، دون تلكؤ، نحو المسجد الأقصى، كيلا تفوته الصلاة جامعة. المسجد الأقصى وقبة الصخرة. بدا المشهد كالحلم. الباحة الفسيحة جداً. القبة المتلألئة ذات الألوان الزرقاء المذهبة تبهر العين، وتشيع في النفس الخشوع قباب عالية، وأقواس فخمة، وأعمدة حجرية ورخامية ملونة. آه يا قدسنا ما أبهاك وأروعك.. نظرت إلى خالتي التي أشرق محياها خشوعاً

وسكينة، ودموع لمعت في عينيها.. تهمس وهي ترفع يديها وبصرها نحو السماء ضارعة (يا رب يا من قدَّرتنا على زيارة قدسك الشريف، اوعدنا بزيارة بيتك الحرام، في مكة المكرمة، وضريح نبيك الحبيب، في المدينة المنورة ..)

يشرح لنا عمنا الهندي :

هذا حائط البراق الذي يزاحمنا عليه اليهود، ويسمونه هم(حائط المبكى) زوراً وبهتاناً. هذه قبة الصخرة التي يحكى أنها ارتفعت من مكانها على الأرض حينئذ، لكي تلحق بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام، ساعة انطلق مع جبريل عليه السلام يعرج إلى السماء، فأشار إليها بيده الكريمة، فتوقفت حيث هي معلقة هكذا في الفضاء. من فوق المنابر يتردد صوت عدد من المؤذنين في سماء المدينة. يتقاطر الناس إلى المسجد. وسرعان ما غصت بهم الساحة، حتى أوشكت أن تضيق بهم على رحبها. وقفنا في الصفوف الأخيرة، وخالتي مضت إلى الصفوف الخلفية لتصلي مع النساء .

وما أن قضيت الصلاة، حتى عاد (الهندي) إلى تسرُّعه المعهود. لا بد من اللحاق بالحافلة المسافرة إلى يافا. ولكي يسكتنا اشترى لنا ملبن ومهلبية، وسقانا أكواباً من الخروب المثلج. حاولت خالتي أن تثنيه عن عزمه، لكي نبيت في القدس هذه الليلة، لكنه أبى. تتازعتني الرغبة بين البقاء والرغبة في العودة إلى أمي وإخوتي والرفاق، إلى حارات يبنا وبياراتها. وكما يحدث دائماً، رضخ موكبنا الأصغر لأمر (الهندي) وإذا بنا على متن الحافلة التي تقلنا إلى يافا.

شوارع يافا، قبيل الغروب أقل اكتظاظاً بالناس عما كانت عليه صبيحة ذلك اليوم. نستقل الحنطور. نطرب لوقع حوافر الحصان على حجارة الشارع، كموسيقى ذات إيقاع موزون. تغمرنا البهجة أنا و فوزي، فهذه أول مرة نركب فيها حنطوراً. تبهرنا واجهات المحال المضاءة باكراً، قبل أن يحل الظلام. معروضاتها الآسرة، نشتهي كل ما فيها. حتى تلك الأشياء التي لم نرها من قبل، ولا نعرف ما هي، لكنها لا بد أشياء جميلة تقتنى أو تؤكل أو تشرب ..! الكراسي على الأرصفة أمام الحوانيت والمقاهي، يجلس عليها رجال من ذوي الطرابيش، أمام بعضهم الأراجيل ينفثون دخانها، وقد رشت الأرض بالماء، فانتشرت في الجو رائحة الرطوبة المتربة. هذا (مقهى الانشراح) المشهور. حتى في يبنا يأتون على ذكره. جدرانه جميعاً من الزجاج، ينبؤنا زوج خالتي. كان على وشك أن يقول شيئاً آخر، لكنه كف بغتة عن الكلام، حينما انحنى يمد نصف جسده إلى خارج الحنطور محملقاً بدهشة، ثم يهتف مثيراً فزعنا :(انظري

يا نعمة.. أليس ذلك الرجل هو محمد الشريف...؟).

بادرت خالتي تنظر إلى حيث أشار زوجها. ولكن الرجل كان قد ابتعد قليلاً وهو يسير على الرصيف المقابل، فلم تعرفه إذ كان ظهره فقط بادياً فقالت :

- تعني ذاك الرجل؟ لكنه يضع على رأسه (برنيطة) وهو يرتدي بدلة أيضاً يا(أبو صبحي)..اتق الله يا رجل.. محمد الشريف و(برنيطة).. معقول؟ ولماذا يكون هنا الآن..؟

- هذا ما حيرني يا امرأة. اؤكد لك أنه هو بعينه.. ولكنه ..

- يخلق الله من الشبه أربعين.. محمد الشريف؟ وحّد الله يا رجل ..!

استوى في مجلسه، وهو يضرب كفاً بكف متسائلاً، يقرّع نفسه، لماذا لم يوقف الحنطور فور رؤيته لكي يلحق به، ثم قرر فجأة أن يفعل ذلك. نقد الحوذي قرشاً. هرولنا وراء (الهندي) مسرعين. ولكن عبثاً ذهبت محاولتنا. فالرجل الذي يسعى للحاق به ضاع وسط الزحام، حين أمسينا عند ناصية شارع يافا تل ابيب الملتقية شارع جمال باشا. أسقط في يده. ولبث حائراً، يضرب أخماساً في أسداس، مردداً كمن يحدث نفسه " محمد الشريف.. ما الذي جاء بك إلى يافا في هذا الوقت وبهذا الزي؟ (برنيطة وبدلة) يا محمد الشريف؟ وتختفي أيضاً في هذا الشارع.. يافا - تل أبيب، الذي تقع فيه دائرة (C.I.D) للبوليس والأمن ..؟".

(باص يبنا سافر منذ قليل). هكذا قال أحدهم. أين نمضي الليلة إذن؟ ارتأيا أخيراً، خالتي وزوجها، بعد المداولة، أن نذهب إلى منزل (أبو زكي العبسي) جارنا في يبنا، الذي يعمل منادياً في كراج بامية، ويقيم وأسرته في يافا منذ زمن. الأمر الذي يحسده عليه بعض أهالي قريتنا.

يقع منزلهم في يافا القديمة. سلكنا إليه طريقاً ضيقاً بعد أن مررنا بساحة (الساعة) توقفنا أمامها ملياً. ذلك البناء من الحجر الرملي العتيق، الذي ثبتت عند قمته الهرمية الشكل ساعة كبيرة، تدق في أوقاتها، بحيث أصبحت دقاتها سمة ومعلماً لرواد الساحة،وسكان ما حولها من بيوت وحوانيت. رائحة البحر الملحية تعبق حارات يافا القديمة، ذات الأضواء الواهنة. قبل أن نلج الزقاق المفضي إلى المنزل المنشود، سلكنا شارعاً حديثاً عريضاً، بدا واضحاً تنافره مع عراقة المكان. قيل أن السلطات البريطانية شقته هنا، بعد أن هدمت ما ينوف على مائة منزل، قامت بنسفها، بحجة تحسين المدينة، في حين كان الهدف أمنياً وانتقامياً معاً، رداً على عمليات الثوار أيام الثورة. كما نسفت أجزاء من المناطق الشمالية والجنوبية من المدينة القديمة، فأحالتها إلى أنقاض، متذرعة بالأسباب ذاتها. وهكذا شوهت المدينة وأزالت من الوجود آثاراً تشهد على حضارة عريقة قائمة منذ الآف السنين. زعموا أنهم سيدفعون تعويضات لأصحابها ..! ولكن ما الذي يمكن أن يعوّض خسارة تاريخ وحضارة؟ هذا ما كان يردده العديد من أهالي البلدة القديمة في يافا.

في منزل العم (أبو زكي العبسي) قضينا أمسيتنا، بصحبة جيران جاءوا إليهم، حين سمعوا بأن لديهم زواراً من بلدهم، لكي يشاركوهم سهرهم وسمرهم. كما في كل مكان آخر، دار حديثهم حول الانكليز و اليهود والهجرة، جور حكومة الانتداب، وصنيعها في يافا حيث هم الآن. ينتابنا الضيق أنا و فوزي إذ أننا لم نحسب، منذ البداية، أن جل رحلتنا سوف ينقضي في الاستماع إلى الكبار، الذين لا همَّ لهم سوى الحديث عن الثورة.. بطولاتها، مآسيها، مظالم الاستعمار وتجاوزاته على الحقوق والبشر، واليهود وأطماعهم في بلادنا. ولكن ماذا نصنع؟

ليس في وسعنا غير الصمت والاستماع أيضاً ..! كان أبو زكي، لا ينفك عن ترديد عبارات الترحيب، التي لو أحصيناها (أنا وفوزي) لبلغت أرقاماً عالية ..! كذلك كانت الخالة (أم زكي) التي أبدت مودتها وحبها للخالة نعمة، على وجه الخصوص. كما انهم - العم أبو زكي وحرمه - لم يدعا سانحة تمر دون الاستفادة منها للمباهاة بما هما فيه. سواء العمل أو الأقامة في يافا، الأمر الذي يتمناه الكثير من القرويين. قدمت لنا (أم زكي) عشاء يافاوياً سخياً، على غير ما ألفنا في بيتنا. أطباق عديدة حفلت بأصناف شتى من الطعام. و لا ينفك الرجل وحرمه يقسمان علينا بأن نتناول المزيد. ولكن على الرغم من رغبتنا أنا وفوزي الاستجابة لرجائهما - برّاً بالقسم على الأقل - إلا أننا لم نجرؤ على ذلك، أمام نظرات خالتي المحذرة.

في الصباح الباكر مضينا بصبحة العم(أبو زكي) إلى كراج بامية، ولكن ليس قبل إفطار شهي، وسخي أيضاً، أصرّا على تقديمه لنا، كي لا نشهرٌ بهم لدى أهل بيتنا. كأن نقول بأننا خرجنا من لدنهم دون أن يقوموا بواجبهم نحونا. قال هذا العم (أبو زكي) وهو يقهقه عالياً ويضرب بكفه الثقيلة على كتف عمنا عبد الكريم الهندي ...!

نفى محمد الشريف أن يكون هو ذلك الرجل الذي شوهد في يافا، حينما سئل من قبل بعضهم، وبعد أن أشاع القصة زوج خالتي، حتى بلغت أسماع أهل القرية كافة. ادعى بأنه كان في القدس لأداء صلاة الجمعة اليتيمة ..! صدقه بعض فيما شكٌ في أمره آخرون. بيد أن هذه المسألة نسيت تماماً يوم حادث مقتل المعلمة يسرى اليافاوية، فقد كان حادثاً غريباً، ومثيراً قلب حياة القرية رأساً على عقب لزمن غير يسير. كانت يسرى، المعلمة الوحيدة في مدرسة البنات، التي استحدثت قبل عامين. تقطن وحدها داراً صغيرة، على مقربة من المدرسة. ذات صباح، و حين افتقدت لغيابها، كان طبيعياً أن يُتحرّى عنها في منزلها، فاكتشف عندئذ أنها قتلت بطعنات في صدرها. شاع في القرية أن يسرى كانت في حال توحي بأنها تعرضت لمحاولة اعتداء عليها، قبل أن تتلقى الطعنات القاتلة. قيل أنها كانت بملابس نومها التي تمزقت، وخصلة شعر وجدت في قبضة يدها المتيبسة. ثم تشعبت الروايات إلى فروع عديدة، كل منها يذهب في اتجاه. من بينها همس تردد في أكثر من مكان بأن المختار الشاب (أسعد الرنتيسي) هو الجاني، حيث كان الرجل موضوع أقاويل من قبل، مؤداها أنه كان معجباً بها. بل قيل إنه عرض عليها أن تكون ثالثة زوجاته، إلا أنها رفضت، مما حدا ببعضهم أن يردد أقولاً مثل :(حاميها حراميها ..) و(حرامي الدار أعيا كل حارس)...!

كان يوماً مشهوداً في يبنا. سيارات البوليس. ضباط عرب وانكليز ببزاتهم الزرقاء والنجوم اللامعة على أكتافهم. تجمعات في كل مكان، لا سيما أرصفة المقاهي وفي ظل الجميزة. استدعى عدد كبير من الشبان، حتى أولئك الذين لم يكن للشبهات أن تحوم حولهم بحال. ومن بين هؤلاء أخي سعيد، الذي عاد مؤخراً من غيبة طويلة في شمال البلاد. كان التحقيق يجري في دار المختار (الحاج أبو عون)، وبحضور محمد اليوسف، مما أثار حفيظة آل النجار، وعلى رأسهم عميدهم محمد طه، وإن لم يستدع هذا إلى التحقيق. إلا أن عودة محمد اليوسف إلى واجهة الظهور والنفوذ، على هذا النحو السافر ساءه وآلمه. هذا ما

أخذ الناس يلغطون به، ويتحسبون لنتائجه واحتمالاته. أما محمد الشريف فقد نفى حين دعي إلى التحقيق، أن يكون على علم، أو أنه يشك في أحد من أهل القرية. بل وأكد أن الفاعل لا بد وأن يكون من خارجها. ثم أردف بأنه يقول قوله هذا ويستغفر الله العظيم إذ إن بعض الظن إثم ..!

لم يسفر التحقيق، كما لم تكشف التحريات، في نهاية الأمر عن شيء. غير أن الشائعات ما برحت تحوم حول المختار، الذي أبدى عدم اكتراثه بما يتقولون عنه، مؤكداً للمستريبين في أمره بأن أعداءه من أيام الثورة، هم الذين يعملون على الكيد له والأيقاع به. كما أنه نسب شيئاً من هذا القبيل إلى منافسيه على منصب (المخترة) الذي فاز به من دونهم ..!

مضى زمن هدأت فيه الضجة القائمة حول مقتل المعلمة. انصرف الناس إلى قضاياهم وأعمالهم. وعادت من جديد مشكلة البحث عن عمل. تلك المشكلة التي أقضّت مضجع والدتي. ولكن العم عبد الغني رأى أن يسدي لها معروفاً، فطلب إليها أن ترسلني معه للعمل في قطاف الزيتون في الرملة، لأسبوعين أو نحوهما. وإزاء تأكيده بأنه سوف (يضعني في عينيه). وبدافع من الضرورة الملحة، لم تجد مناصاً من الموافقة .

اتخذ لنا العم عبد الغني سكناً قريباً من الجامع في مدينة الرملة. غرفة كبيرة أمامها باحة فسيحة، تسلقت أشجار الياسمين على جدرانها العالية. نمنا جميعاً في تلك الغرفة. أنا وعم عبد الغني قريباً من بابها، وابنتا أخيه (عزيزة وآمنة) ورفيقتهما (خديجة) في صدرها. عند الفجر، في يومنا الأول مضيت والعم إلى الجامع المجاور. كان النوم لما يزل مسيطراً طاغياً. لم أكن راغباً في الذهاب في مثل هذا الوقت المبكر. وددت لو أني أعود ثانية إلى النوم. لكن الرجل نبهني إلى النداء الذي كان يعلن ساعتئذ : (الصلاة خير من النوم). توضأنا من حنفيات الماء المنبثة حول بركة تتوسط صحن الجامع. عدد غير قليل من الناس يفعلون الشيء ذاته. ازدهى المكان حياة وصحواً وضياء، رغم أن الظلام ما برح يغشى أرجاء الكون.

كنّ في انتظار عودتنا عقب صلاة الفجر، وقد ارتدين ثيابهن و وقفن متأهبات للانطلاق مع عم عبد الغني إلى حقل لا يبعد كثيراً عن أطراف المدينة، حيث التقينا هناك أعداداً من العمال والعاملات، وفدوا من قرى مجاورة. كان عليّ بوصفي (ولداً نحيلاً وخفيفاً) أن أصعد إلى أعالي أشجار الزيتون المعمرة، لكي أسقط عن قممها ثمارها. من أجل ذلك زودني الرجل بعصا طويلة، أجدُ بها

الأغصان والثمار، ليقوم الآخرون ممن تحت الأشجار بجمعها في سلال يحملونها.

كان عملاً شاقاً مرهقاً. بيد أن رفقة الأولاد والبنات، وتبادل الدعابة، والأغاني والأهازيج والمواويل.. كل ذلك كان قميناً بأن يجعل الأمر هيناً، بل مشوّقاً أيضاً. نقضي العصر والأمسيات معاً في تلك الدار الصغيرة. أمكث وحدي مع الفتيات حين يمضي عم عبد الغني إلى مقهى قريب، أو إلى السوق كي يبتاع لنا خبزاً وجبناً، وربما شيئاً من الفول وأقراص الفلافل. عزيزة أكثر الفتيات مشاكسة، تتعمد استفزازي وإثارتي. هي حيناً تخطف كسرة خبز، أو قرصاً من الفلافل في يدي، محاذرة أن يلمحها العم، غير آبهة باحتجاجي، فيما بعد، حين لا يكون الرجل معنا. وفيما آخذ الأمر على محمل الجد، تنفجر ضاحكة تشاركها رفيقتاها الضحك، فضلاً عن تعليقات لاذعة. اختطفت من يدي ذات مرة – وكنا وحدنا ساعتئذ – منديلاً اشتريته كي أقدمه هدية لمريم عند عودتي المظفرة. حدث ذلك حين عرضته عليها مباهياً ولأخذ رأيها عما إذا كان هدية لائقة ..! دسّت المنديل في صدرها، وهي تعلن أنها سوف تأخذه لنفسها، فهي أولى به من مريم هذه. وأن عليَّ (إن كنت شاطراً) أن أجرو علىإخراجه من مخبئه ..!

ثرت واضطربت.. كيف لي أن أمد يدي إلى صدرها؟ وماذا ستفعل هي عندئذ لو أني أقدمت على ذلك؟ ربما تصرخ.. تشتم.. من يدري ..؟ كلا لن أسترجع المنديل من هذا المخبأ الحصين المحفوف بالمخاطر ..! ولما رأت (خيبتي) هكذا بدا عليها، أمسكت بيدي لتدفع بها إلى حيث خبأت المنديل. أحسست بقشعريرة غريبة، إذ وجدتها – يدي – تلامس لحماً طرياً ساخناً. اقتربت مني حتى لامست وجهي خصلات شعرها، ولفحته أنفاسها اللاهثة. اقتربت أكثر حتى لامس خدها صفحة وجهي، وأحسست بدفء جسدها حين التصقت بي. تراجعت فجأة مبتعداً عنها، فأجفلت إذ كانت مسبلة العينين .

كان ذلك مخيفاً.. ورائعاً أيضاً. عدوت نحو باب الدار، مبهور الأنفاس، مأخوذاً مرتبكاً، لكني لم ألبث أن عدت.. اقتربت منها.. مددت يدي نحو صدرها لاستخراج المنديل من مخبئه.. لكنها هي التي ابتعدت الآن، وهي ترسل ضحكة متحدية، وتلوح بسباتها في شقاوة قائلة :

.. لا لا يا شاطر ..! كنت من الأول ..!

بتنا نتحين الفرص، بعد ذلك، بل نختلقها اختلاقاً كي نبقى وحدنا، إلى أن

أحست خديجة بما يجري. لكن هذا حدث في اليومين الأخيرين، حين كنا نزمع العودة إلى بيتنا الحبيبة. انتابتني مشاعر متباينة، تراوح بين الرغبة في أن تطول مدة بقائنا هنا، وبين الحنين إلى الوالدة التي أغيب عنها، لأول مرة، كل هذا الوقت. بدت الأشجار أكثر دفئاً ومودة في الأيام الأخيرة.. ورائحة الأرض المبللة بالندى شهية محببة، تشيع في صدري وجداً وحنيناً.. وعصافير الدوري التي تحط على الأشجار، أو تهبط إلى الأرض تلتقط الحب، ثم تطير محلقة في الفضاء الواسع.. ونسمات الخريف الباردة تنبئ بشتاء قريب. أود لو أعانق الأشجار والعصافير في الكروم، والياسمين على الجدران، وخضرة الأرض وزرقة السماء، وقطرات الندى المتلألئة.. عزيزة وخديجة.. وحتى عم عبد الغني ..!

في أرجاء حقول الرملة.. على مشارفها، وفي طرقاتها، يضطرب مهرجان قطاف الزيتون بعنفوانه المثير، وصخبه البديع. غصت الطرقات والحقول بزرافات من العاملين، رجالاً ونساءً، غلماناً وفتيات، يحملون سلالهم وعصيهم وزوّادات طعامهم.. أشواقهم وأهازيجهم، بملابسهم المتباينة في أشكالها وألوانها. كما اكتظت بقوافل العربات والدواب، التي ناءت بأحمالها وأثقالها. وجهتها معاصر الزيتون. تعالى الغبار المنبعث من وفرة الزحام والحركة، محمّلاً برائحة الزيت والزيتون، وقد اختلطت بروائح عرق الدواب وروثها. بدت المدينة عن كثب بقبابها ومآذنها ودورها البيضاء. عرس للطبيعة والبشر، في خضم حياة مؤّارة، جمعت ذلك المزيج المتآلف مابين عناصر الطبيعة والانسان، والحيوان جميعاً. آثار كل أولئك في نفسي أحاسيس مفعمة بالحنين والشجن ..

أهمس في ضراعة :

- يا عم عبد الغني متى نعود ؟

تنظر الفتيات الثلاث إليّ. لعلهن أدركن مابي.. يربت العم عبد الغني على كتفي، مبتسماً، وكأنما هو الآخر قد أحس مايضطرب بين جوانحي ويقول :

- غداً أو بعد غد ياولدي

آه.. لكأن دهراً ينقضي قبل أن نعود .

قيل لنـا عنـد بوابـة المعسـكر بـأن علـى من لا يحمـل (هويـة) شـخصية أن يحصل عليها أولاً، وقبل التقدم لطلب عمل. سأل واحد من بين الواقفين عمـا إذا كان ممكنا النظر في شأن الهويـة بعـد معرفـة النتـائج، فمـن أسـعده الحـظ ويمـن الطالع بالقبول التزم بإحضارها. رفض الرجل القـابع فـي الغرفـة الصـغيرة عنـد البوابة، التي كانت سيارات الجيش تعبرها بين لحظة وأخرى. قال الرجل متأففاً:

- انصرفوا وافعلوا ما قلت لكم وإلا فلا عمل لكم هنا .

كان بديناً، منتفخ الأوداج، ممتقع الوجه، حتى ليبدو كصفيحة نحـاس قديمـة، ما إن تنظر إليه حتـى تبغضـه علـى الفـور. الحـراس الانكلـيز بقبعـاتهم قرمزيـة اللون، وبدلات الخاكي، وشارات لامعة لا ندري ما هي، على الأكتاف والصدور ومقدمة القبعة. كان منظرهم مهيباً، باعثـاً علـى الرهبـة، حيـن تذكـرت دوريـاتهم التي كانت تداهم القرية فيما مضى، وضابط المحطة الشهير بجرائمـه وقسـوته.. إنهم هم أنفسهم ..!

غداة اليوم التالي، منذ لاحت تباشير الفجر، شرعنا نغذ السير متوجهين إلـى مدينة الرملة، من أجل الحصول على الهوية. (الباص) المغادر للقرية لا يتحـرك قبل أن يجتمع له العدد الكافي من الركاب لشغل مقاعده. من ثم كان علينـا، لكـي نضمن الوصول إليها أثناء الدوام، أن نقصدها سيراً على الأقدام.

سبعة كنا، من بينهم نعيم أبو جلاله وسليمان أبو سليمان، وكنـت أصغرهـم. نمضي عبرالحقول والبيارات إلى وادي حنين أولاً، ثم نتجـه شـرقاً إلـى الرملـة. تصافح وجوهنا نسمات الصباح الندية. تحط العصـافير على الأشـجار رفوفـاً، ثـم تطير حين تحس اقترابنا منها. بلغ مني الأعياء مبلغاً، إلا أني لم أفصح عن ذلـك تحاشياً لسخرية تصدر عن أحدهم. أتحرق شوقاً للحصول على الهوية، ومـن ثـم على عمل في معسكر قطرة. العمل في معسكرات الانكليز جيد وممتع، كما يقول العاملون فيها، فضلاً عن الأجر المغري. ثم إن هذا العمل - هكذا حدثـت نفسـي - خير علـى أيـة حـال، مـن حمـل سـلال البرتقـال فـي موسـمه الوشـيك، وجـدّ

الزيتون، وسقي البيارات، أو تعبيد الطرقات مع المتعهد (عبد الله أبو غوش). عملت مع هذا الأخير يومين اثنين، لم أستطع أن أضيف إليهما ثالثاً. كان العمل يبدأ مع شروق الشمس ولا ينتهي إلا مع غروبها. وهو إما تكسير الحجارة تحت وهجها اللافح، وإما نقلها بالقفة إلى المختصين برصفها توطئة لرشها بطبقة من القار الساخن ذات الرائحة النفاذه المثيرة مع بخارها المتصاعد.

كان ذلك على الطريق بين يبنا واسدود، بمحاذاة خط السكة الحديد الذاهب إلى رفح فمصر. وعلى الرغم مما نحن عليه من عناء يفرحنا مرأى قطار الصباح المتجه شمالاً إلى محطة اللد، وقطار العصر المتجه جنوباً صوب مصر. نتوقف لحظتئذ عن حمل الحصى وتكسير الحجارة. نعد عربات القطار، ونلوح لركابه الذين يبادلوننا الهتاف وحركات الأيدي والصفير ..! تمنيت لو أنني كنت واحداً منهم. أشجار الكينا العالية، واحتنا الظليلة في قيظ الظهيرة، ساعة تناول الغداء من الزوادة التي كنا نشرع في ترقبها وانتظارها، ونعد الدقائق لحلول موعدها، حتى قبل أن يبدأ نهارنا بحمل القفة الأولى. سيكون الأمر مختلفاً في معسكر الانكليز. لا أرى سبباً واحداً يحول دون قبولي للعمل فيه، بل إني أزيد على بعض المتقدمين، بأني واحد من بين قلائل تعلموا الانكليزية، الأمر الذي سوف يأخذونه في الحسبان، دونما ريب ..! تصورت هذا كله اثناء عودتنا. بل لقد حلمت به، فكان من شأنه أن خلق لدي الاحساس بأن الطريق إبان العودة كان أقصر .

أعلنت فرحتي على الملأ حين اجتزت الاختبار للعمل في معسكر قطرة. قبلت مع ثلاثة آخرين من بينهم نعيم أبو جلاله. أما العمل فمراسل مكتب ،يدعونه (office Boy). كان نصيب الصديق نعيم العمل في مطبخ الضباط، على الرغم من جهله المطبق بشؤون الطبخ. وددت لو أطير إلى يبنا، كي أزف إلى والدتي النبأ العظيم .(لا سيما وان راتبك سوف يكون أربعة جنيهات.. يا بطل)..!

كدت لا أصدق أنني أنا الذي سوف يعمل في ذلك المكتب الرائع بمعسكر قطرة. الغرف نظيفة لامعة. أرضها وجدرانها من الخشب. المراوح الكهربائية التي تدور من تلقاء نفسها يا أولاد..! كنا نسمع عنها فيما مضى، ونشكُ أصلاً في وجودها كحقيقة. لم أكن أصدق أن هناك رفاهية من هذا القبيل، يمكن ان تتاح لكائنٍ ما ،حتى لو كان هذا انكليزياً ..! عدد من الفتيات الجميلات، يعملن هنا جنباً إلى جنب مع عدد من الرجال.. بعضهم يرتدي ملابس مدنية،

والآخرون من الانكليز ببزاتهم العسكرية. أثار دهشتنا أن هؤلاء الانكليز ليسوا كالذين عرفناهم فيما سلف. يتحلى هؤلاء بتهذيب ودماثه على نحو ما. بل هم حين يصدرون إليك أمراً يقدمون لذلك بقولهم (من فضلك) أو (إذا أمكن)..! لقد منحوني قبل أن يمضي أسبوع واحد على تعييني في هذه الوظيفة الرائعة، دراجة انكليزية خضراء بلون سياراتهم.. جديدة تماماً، ذكرتني على الفور بتلك الدراجة الصدئة المتآكلة، التي سبق أن اشتراها سعيد منذ شهور، من ابن (ابو هاشم)، بجنيهين اثنين، فأقامت والدتي الدنيا على رأسه ولم تقعدها، إلا بعد أن أعادها إلى أصحابها، واستعاد ثمنها بتوسط من أهل الخير، الذين تطوعوا لفض النزاع حول للصفقة ..! همست بيني وبين نفسي ..(هذه بركات دعواتك يا أم سعيد ..!).

مس ريبا - كما كانوا ينادونها - كانت الأجمل بين العاملات في مكتب إدارة المعسكر هذا. بيضاء، ذات شعر ذهبي، وعينين زرقاويين واسعتين تثيران في المرء أي شيء عدا الاطمئنان إلى صاحبتهما. يزيد بياضها نصاعة تلك الثياب السوداء، التي ترتديها في أكثر الأحيان. معتدة بنفسها، ومتعالية في مسلكها، حتى على أقرانها. أما أنا فهي بالكاد تنظر إليّ. بل إنها حين تناولني مظروفاً لأنقله إلى الغرفة المجاورة، تظل مطرقة تنظر في أوراق أمامها، متعمدة ألا تعيرني التفاتاً. أما (مس سارة) فسمراء شرقية الملامح، ذات عينين شديدتي السواد، كشعرها الأسود الفاحم. ممتلئة أكثر من زميلتها (ريبا) البادية النحول. سارة هذه تتعامل برقة أكثر. وحين لم يكن لديّ عمل هنا أو هناك، لدقائق أو لساعة من الوقت أجلس في غرفتها. يحلو لي عندئذ، أكثر من أي شيء آخر أن ارقب أناملها الرشيقة وهي تعزف على الآلة الكاتبة. أعجب كيف يمكنها أن تفعل ذلك بتلك السرعة الفائقة، وحتى دون أن تنظر إلى الآلة نفسها. حاولت، ذات مرة، أن أختلس طباعة كلمات على تلك الآلة، عندما خرجت لشأن ما. وحينما تعرقلت حركة الآلة عالجتها مضطرباً، أحرك مفتاحاً، أضغط زراً، في محاولة لأعادتها، سيرتها الأولى، فكسرت شيئاً ما فيها. أصابني الذعر، وتوقعت أسوأ ما يمكن أن يحدث،. وقفي عن العمل. عندما عادت (مس سارة) أدركت على الفور ما حدث فور لمسها الآلة بيدها. حدقت في وجهي بإمعان. لم أفهم معنى نظرتها المحايدة التي رمقتني بها، ولكني أيقنت أنها سوف ترفع الأمر برمته إلى أحد (مسترين) سميث أو فوكس. بيد أنها فاجأتني بابتسامة أعقبتها قولها، وهي تضم ذراعيها إلى صدرها الناهض :

ماذا فعلت يا ملعون ...؟

لم أصدق ما سمعت. فرحت كثيراً.. لن يعلم بذلك إذن (المستر) فوكس على وجه التحديد. ولن أفصل من العمل أيضاً ...!(ياما انت كريم يا رب) ..!

المستر فوكس والعدد الآخر من الموظفين المدنيين كانوا يهوداً. يجلس بعضهم أحياناً في الردهة أمام المبنى في فترة الاستراحة، وحدهم أو بصحبة الانكليز في أكثر الأحيان. يصل إليّ بعض حديثهم عن كثب، حتى لو لم أتعمد سماعه. أفهم بعضه، ولا أفقه بعضه الآخر. ولكني أحاول الربط حينئذ، بين ما أدركه وما لا أدركه من ذلك الحديث لعلّي أعرف عمَّ يتحدثون، ولاسيما حين يذكرون (العرب)، حيث ألمح العداء في وجوههم واضحاً جلياً .

بدوا ذات يوم على قدر من الابتهاج، لم يسبق أن ظهر عليهم مثله من قبل. بل ذلك كان حال جميع من في المعسكر. كالهتاف وتبادل التهاني والقبلات بين الرجال والنساء .

ترى ما هو مبعث فرحهم اليوم؟ ما الذي حدث؟ مع نهايات ذلك النهار علمنا أن الألمان يتراجعون، ولأول مرة، على جبهة هامة جداً، هي جبهة العلمين. حيث أن مارشالاً انكليزياً يدعى (برنارد مونتجمري) استطاع اكتساح خطوطهم، وأن يوقع بهم هزيمة منكرة. معنى هذا اندحار جيوش (رومل) القائد الألماني الأسطورة، الذي لم يهزم في معركة قط ،بل هو صاحب الاسم الذي يثير مجرد ذكره الرعب في صفوف القوات البريطانية.. كأن الانكليز أنفسهم لا يصدقون ذلك ..!

عكس ذلك تماماً كان الحال عندنا نحن العرب. إذ كان ما هو مفرح لهم لا بد أن يكون مصدر تعاسة ونذير شؤم لنا. استقبل العرب هذه الأنباء بالوجوم والتشاؤم، في كل مكان .

مثلما أثارت إعجابي بزّات الضباط الانكليز، وما عليها من شارات على الأكتاف والصدور، بهرتني الألوان الزاهية، بل الساحرة على البولونيات. الشعر الذهبي المرسل.. حمرة الوجوه والشفاه.. بياض البشرة. البزات الكاكي العسكرية والقبعة المائلة على الرأس، ينساب الشعر الحريري على الظهر والكتفين، يطيِّره الهواء، فيلامس الجيد ويستقر أو يتريث على الصدر ..

سارة منشرحة الصدر في هذا الصباح. مع خطواتها يتضوع شذى عطر ساحر حين تدلف إلى المكتب. لعلها الوحيدة، التي تملك ذلك الشعر الفاحم، ترسله على كتفيها، بين الشقراوات. القميص الأبيض نافر عند أعلى صدرها أكثر مما كان يبدو في الأيام الماضية. سلسلة ذهبية تتدلى من جيدها، ثم يختفي طرفها داخله.. (التنورة) السوداء الضيقة جداً على قوامها فترغمها على تضييق خطواتها، يصاحبها إيقاع دقات كعب حذائها على أرض المكتب. أختلس النظر إليها بحذر خشية أن تمسك بي متلبساً. لكنها سرعان ما تحس ذلك. خطت نحوي، وهي تثبت نظرتها إلى عيني. أطرقت سريعاً.. قرصت خدي وهي تضحك بصوت مرتفع قائلة بالعربية :

..(كل مالك بتصير ملعون يا أمين ..!)

بعد قليل، أوقفت الضرب على الآلة الكاتبة. ثم دعتني لمرافقتها إلى مقصف الضباط، الذي كان قد خلا من رواده، كالعادة بعد التاسعة. جاءتنا فتاة (منهن أيضاً) بكوبين كبيرين من الشاي الممزوج بالحليب، وقطعتي كعك. طلبت إليَّ سارة عقب انصراف الفتاة، أن أجلس إلى جوارها. وإذ بدا عليَّ التردد والارتباك، قطبت جبينها قليلاً، وهي تكتم ضحكة توشك أن تفلت منها، ثم قالت بلهجة آمرة، مشيرة بيدها إلى المقعد المجاور لها :

- قلت لك تعال واجلس هنا يا أمين ..

تناولت مجلة ملونة فتحتها وهي تردف قائلة :

- تعال انظر إلى هذه الصور ..

لم يكن في وسعي غير الانصياع لطلبها، فبادرت إلى الجلوس حيث أشارت، تاركاً مسافة بيني وبينها، محاذراً لمس جسدها الذي أصبحت ملاصقاً له في هذا الوضع، إلا أنها قرّبت كرسيها حتى لامست ساقها العارية عند الركبة ساقي العارية أيضاً، في نفس الموضع، بسبب الشورت الذي كنت أرتديه. شرعت تقلب صفحات المجلة، فيما هي لا تكف عن الحركة، وعن تبديل وضع ساقيها، واحدة فوق الأخرى بالتناوب، وكأن ذلك يحدث عفواً و عن غير قصد. اعترتني أحاسيس غريبة مثيرة، لكن سارة لم تدعني أمضي بعيداً قبل أن تسألني بغتة، وهي لا تفتأ تحدق في المجلة :

- أتحب اليهود أم تكرههم يا أمين ؟

فاجأني تماماً سؤالها. أدهشني عدم انتظاري سؤالاً كهذا؟ تلكأت قليلاً قبل أن أجيب :

- ليس كلهم .

- كيف.. ماذا تعني بقولك ليس كلهم ..؟

- لا أكرهك أنت يا مس سارة ...

- تكره الآخرين إذن ..؟

- لم أقل ذلك ..! لكن خذي مس ريبا مثلاً ..

حدقت في وجهي بنظرة ثابتة، لم أعهدها في عينيها من قبل. ثم قالت بعد برهة صمت، خلتها طويلة، بصوت هادئ يراوح بين الرجاء والأمر :

- لا تكرههم يا أمين لأي سبب. لأنهم بؤساء مساكين. هتلر يُعمل فيهم القتل. وهم يأتون إلى هذه البلاد للنجاة بأرواحهم، هم عائدون إلى أرضهم الموعودة ..!

حيّرني قولها "عائدون إلى أرضهم ". وحين استفسرت عن معنى قولها هذا التزمت الصمت .

في هذه اللحظة أقبلت فتاة الصالة، بخطواتها الثابتة الرشيقة، لتطلب إلى سارة بالانكليزية، الذهاب إلى المكتب، بناء على طلب وردها. نهضت سارة على الفور. طلبت إليَّ البقاء حيث أنا ريثما تعود. لبثت في مكاني بعض الوقت أتأمل المكان، وكأني أراه لأول مرة .(ميس الضباط) هذا يرتاده ضباط المعسكر، والنساء البولونيات في الليل. يسهرون ويعربدون من باب الترفيه عن أولئك الضباط. ملحق به ما يسمونه (الكانتين). حيث يجدون فيه ما يرغبون من أطعمة

ومشروبات.. وهدايا.. أدوات كتابة، بطاقات معايدة.. وغير ذلك مما لا يحيط به حصر..

وحين طالت غيبة سارة، بادرت للعودة إلى المكتب. وهو ملاصق تماماً للصالة، لا يفصلها عنه سوى طرقة طويلة. وفيما كنت أمر بالنافذة المفتوحة على تلك الطرقة، والتي تجلس فيها (مس ريبا)، سمعت حواراً بينهما بصوت مرتفع، يتسم بالحدة، حينما توقفت قليلاً بعيداً عن النافذة، قبل أن أتابع سيري إلى المكتب. أمسكتا عن الحديث فور دخولي. أدركت أني كنت موضوع حديثهما ذاك، حينما نظرت إليّ (ريبا)، التي بدا على وجهها التجهم والاستياء. بل لعله الغضب. ثم ما لبثت هذه أن غادرت الغرفة مسرعة، توشك أن تجتاحني بجسدها الفائر وعطرها المثير. أكدت ظنوني نظرات سارة المتفحصة، لكنها سرعان ما ابتسمت، وهي تشير نحو الباب قائلة :

- مجنونة ريبا هذه ..!

ثم انصرفت للضرب على الآلة الكاتبة، غير منتظرة تعقيباً مني. " ما معنى هذا؟ ما الحكاية؟ ما شأنهما بي ..؟" .

إبان العودة حدثت نعيم بشأنهما، لكنه كان مهتماً أكثر بالحديث عن الطبخ، والطهي، والطعام المتاح له تناوله هناك، بحرية مطلقة لا حسيب عليه ولا رقيب.. لحوم، معكرونة، (بولبييف)، معلبات مختلفة الأنواع مما لم يره من قبل.

- تصور يا أمين فواكه تعوم في القطر معبأة في علب ..! تفاح.. دراق وهذا الأنا.. أنا.. آه أنا ناس. حتى الخيار معبأ في علب. أما ذلك الكعك الذي يسمونه بودنج (puding).. يا سلام يا أمين (اللي أعطاني يعطيك)..! ثم انطلق بعد ذلك، يتحدث مندهشاً عن الشقراوات البولونيات، اللواتي يحضرن بصحبة الضباط. وكيف أنهم يتعانقون، بل هم يتبادلون القبلات هكذا جهاراً نهاراً، في الطرقات ..! تحدث أيضاً عن رئيس الطباخين (أبوعثمان) الذي يحلوله أن يلقي بالأطعمة الفاخرة في صناديق القمامة، وأنه لا يتورع عن أن يدلق أكثر من نصف خزان الشاي، الممزوج بالسكر والحليب، في البالوعة ...! يفعل هذا كله لا لشيء سوى الكيد للانكليز على طريقته. لكي يوقع بهم خسارة ما، هي إسهامه في حدود قدرته بمساعدة الألمان في حربهم ضدهم ..! ما يتلفه أبو عثمان من هذه المواد يا أمين يمكن أن يطعم نصف أهالي بينا ..!

تذكرت نعيم وأبو عثمان و المعسكر في المساء، حين جلسنا نتناول عشاءنا من الخبيزة، التي تجيد والدتي طهوها. ولكني منذ البداية لا أستسيغها، فامتنعت

عن العشاء. وحين أبدى سعيد تذمره أيضاً، لأنه بالأمس لم يأكل سوى هذه الخبيزة، وحدث أن علياء أخذت تبكي لأنها تريد شيئاً آخر، انفجرت والدتي صائحة منددة.. (هذا اللي شاطرين فيه.. وانت يا سعيد لا منك و لا كفاية شرك.. اشتغل وجيب يمه.. ما أنت صرت طول الباب ما شاء الله عليك ..!).

ولكن (سعيد) الذي تعوّد على ثوراتها المفاجئة لا يبدي اكتراثاً. بل هو يثير حنقها أكثر حين يعمد إلى تهدئة ثائرتها بالضحك، أو بالاقتراب منها ليطبع قبلة على جبينها. عندئذ تدفعه عنها ساخطة، وتضرب له المثل بأخيه الأصغر قائلة – أخوك الصغير هذا حامل همنا ..(وانت داير على حل شعرك)..! ويزيد الطين بلة حين يطلب أحمد دفاتر ومساطر.. ثم تتبعه علياء تقلده فتطلب ما طلب، فلا تملك. إلا أن ترفع يديها إلى السماء ضارعة :

– الله يرضى عليك يا أمين رضى القلب ورضى الرب.. أنت لا تطلب شيئاً.. وكل ما هو موجود يعجبك ..(روح يمه الله يرضى عليك بعدد شعر راسك)..!

وقع المطر المتساقط فوق سطح القرميد.. أشجار الكينا ترسل حفيفها في الخارج.. صوت الراديو يأتي من بعيد يعلو ويخفت مع تماوج الريح.. العتمة الموحشة هناك، وراء الباب،جمر (الكانون)يخبو شيئاً فشيئاً.. ضوء السراج الواهن يتأرجح، مرسلاً ظلالاً ورسوماً كئيبة، ذات أشكال مختلفة على السقف والجدران.. أدفن راسي تحت الغطاء لأمضي بعيداً في دنيا بلا حدود.. نعيم ... أبو عثمان ... البولونيات ... سارة ... تحب اليهود ... تكره اليهود ..!

- ٣٨ -

حينما أخبرت والدتي، بعد أيام، بما قالته لي سارة، غضبت وقالت لي :

- لماذا لم ترد عليها ..؟

- وبماذا أرد يا والدتي ..؟

- اسالها كيف تكون هذه أرضها وهي (ما بتحكي عربي..!وهي نفسها من أي داهية إجت).

- لقد سألتها، ولكنها لم تجب.

- كان عليك أن تسألها مرة ومرتين وعشر مرات حتى تجيب ..
صدق من قال (البيت بيت أبونا إجو الغُربْ يحاسبونا)..

- خشيت أن أغضبها يا أمي ..

- ولماذا تخشى غضبها ..؟ تخشى اليهود أولاد الميتة ؟.. كله إلا هذا يا أمين ..

ذهبت إلى المعسكر غداة اليوم التالي، متحفزاً للرد على سارة، لكنها لم تتح لي أية فرصة لذلك. لقد تجاهلت الموضوع تماماً. أخرجت من حقيبتها قطعتي (شوكولاه)، قدمت لي واحدة منها ثم - وكأن ذلك يحدث مصادفة - أخرجت منها كتيباً، قلبت أوراقه هنيهة، قبل أن تناولنيه، لتقول وهي تنحني نحوي، وقد لامست وجهي غدائر شعرها ..(خذ تفرج يا أمين). ثم شرعت تقرأ لي ما هو مكتوب تحت الصور التي احتواها ذلك الكتيب. منها ما هو لشوارع في المستعمرات اليهودية، ومنها صور لمصانع أقمشة، وأخرى لتعليب الأغذية.. مدارس.. تلاميذ في رحلات ... كشّافة في مخيمات.. فتيات شبه عاريات.. ثم أخيراً لجنود يهود في الفيلق اليهودي المقاتل مع الحلفاء في شمال أفريقيا. وقبل أن تطوي الصفحة الأخيرة.. ضربت بكفها صدري، ولكن برفق قائلة وهي تبتسم :

- أرأيت لماذا يجب أن تحب اليهود يا أمين ؟.. عندهم أشياء كهذه ليس

عندكم مثلها ..يعني عندهم حضارة ..! عارف حضارة ماذا تعني؟ و وجدتني أقول لها :

– يا آنسة سارة هذه حضارة البلاد التي جئتم منها. وحضارة تلك البلاد أصلها من العرب ..

– من قال لك هذا الكلام الفارغ ؟

– أساتذتنا وأهلنا.. والكتب أيضاً ..

شغلنا ذلك النهار جو غريب ساد المعسكر. إنهم يرقصون في الشوارع. أصوات الموسيقىوأغاني غير مفهومة من الراديو وأسطوانات الحاكي. كان ذلك ابتهاجاً للنتائج التي أسفرت عنها معارك (ستالنغراد) وهي هزيمة ساحقة للقوات الألمانية، وخسائر فادحة في صفوفها. فهذا الذي هزم هو الجيش السادس الذي استسلم تسعون ألفاً من جنوده، من بينهم أربعة وعشرون جنرالاً وماريشالاً..ذلك ماتناقلته الأنباء.. الراديو.. الجرائد .فضلاً عن سارة ومن معنا في المكتب.

وبقدر ما كان هذا مبعث سعادة لهم، كان مصدر تعاسة لنا، نحن العرب في المعسكر. ولأنهم يعرفون هذا، عمدوا إلى مماحكتنا، بل إغاظتنا بتصرفاتهم وتعليقاتهم على ما حدث كقولهم :

(.. صاحبكم هتلر انتهى.. خلاص.. بكره تشوفوا.. طاوعونا انسوا هتلركم هذا ... لسه بتحبوه ..؟ طيب يا خبيبي خبوه للآخر لما نشوف)..!

كانت سارة هي الوحيدة التي واصلت تعاملها معي كما كانت في السابق. بل إنها أصبحت تداعبني وتضاحكني أكثر من ذي قبل، فعندما نكون وحدنا تلتصق بي، تميل نحوي قائلة وهي تشير بإصبعها إلى وجنتها :(أمين قبلني هنا)..! وإذ أهم بذلك تباغتني بخطف قبلة بشفتيها، وتطيلها أحياناً أكثر مما أحتمل، لا سيما حين تضمني إليها بقوة، ملصقة صدرها المضطرب صعوداً وهبوطاً بصدري، فيأخذ مني الاضطراب والخوف مبلغاً لا أعرف كيف أداريه. لكنها تبادر إلى القول فيما هي تصحح وضع شعرها وملابسها :

.. ملعون.. صرت ملعون يا أمين ..!

أما هذا فلم أجرؤ على نقله لأمي. إذ هو نقض صارخ لتعليماتها و وصاياها الصارمة، التي لا تنفك عن تذكيري بها في كل حين :

.. اليهوديات يمّه.. الكفار الملاعين.. دير بالك منهم.. والبولونيات كمان..!

" آه لو رأتني مع سارة الآن ولكن ماذا تريدني أن أصنع؟ هل أصفعها ..؟

أهرب منها؟ أعرف أنك لا تقبلين هذه الأعـذار.. لكنـك لسـت فـي مكـاني لتعذريني..!"

تجتاحني مشاعر الندم، بل الشعور بالذنب لمخـالفتي وصاياهـا، لكننـي سرعان ما أنسى ذلك عند حدوثه في اليوم التالي ..!

حدثني نعيم مساء ذلك النهار عن بولونيـة صغيرة شقراء. زعم لي بأنها أحبته، وأنها غدت تسعى لرؤيته كل يوم. وهـي تحدثه عن بلادها التي دمرها الألمان أول اجتياحهم لأوروبا، وعن ذويها الذين قتل بعضهم و اعتقل بعض آخر، وأنها هي وأمها وحدهما كتبت لهما النجاة من جستابو هتلر والنازيـة ." وهي بعد ذلك تنتحب يا أمين من أجل ابيها المعتقل هناك. تتصورهم يشرّحون جثته لأجراء تجارب عليها، أو يلقون به حياً في أفران الغاز ... هي يهودية صحيح يا أمين، لكني لا أملك إلا العطف عليها حين تحدثنـي عن هذه الويلات التي حاقت بها وبأمثالها. وهي أيضاً ليست كاليهود الذين نعرفهم هنا ..!"

أجادل نعيم عندئذ، في مدى صحة ما تقول صديقته (ماريا). وأتذكر سارة.. هي أيضاً ليست مثلهم. وعندما تمر بنا كوكبة من النساء البولونيات، يتأودن في مشيهن، تضفي عليهن البزات الكاكية، المكوية جيداً، مزيداً مـن السحر والفتنة، يعلق نعيم حينئذ بقوله، بجرأة لا أملكها، ربما لأنه يكبرني بعامين :

".. أكثر ما يسحرني في البولونيات، يا ولد، سيقانهن المكتنزة البيضاء كالحليب ..!وصدورهن الرجراجة النافرة.. وذلك الشعر الذهبي تحت القبعة المائلة ..! وملابسهن الكاكي الضيقة جداً.. !"

في طريقي إلى الساحة الواقعة عند أطراف المعسكر من الخارج، يلتقي العديد منا عند الانصراف. ننتظر سيارة الجيش القادمة من معسكر عاقر، التي اعتدنا أن نقفز إليها عند الدّوار في رواحنا، كما نقفز منها، عندما تخفف من سرعتها، في ذات المكان عند مجيئنا في الصباح. هذا الترتيب الذي درجنا عليه منذ حظينا بالعمل في معسكر قطرة. إذ هم لا يخصصون لنا وسيلة نقل إلى يبنا لقلة عددنا، وعلينا إذن أن نتدبر أمرنا بطريقة أو بأخرى. في ذلك العصر ألفيت سيارة نقل مدنية تقف إلى جانب الطريق. عرفت أنها واحدة من سيارات شركة (سوليل بونيه) اليهودية، التي تتعهد أعمال الانشاءات والطرق للبريطانيين، في معظم أرجاء فلسطين. ولما كانت تقف عند منحدر خفيف، وكنت أحلم دائماً بذلك اليوم الذي أقود فيه سيارة، وأفكر في طريقة القيادة ومتعتها إلى حد الهوس، وكذلك كان شأن أترابي جميعاً. يخيل لي أحياناً بأني أجلس وراء عجلة القيادة..

أحرك المقود.. أرفع قدماً وأضع الأخرى فوق (دواسة البنزين) أو الفرامل ... أنطلق بها كالريح ...! خطر لي ذلك كله في لحظة خاطفة. وسرعان ما وجدتني بداخل سيارة سوليل بونيه هذه. أحل فرملة اليد، وإذا بالسيارة تتحرك حتى قبل أن أفعل أي شيء آخر، لتدرج نحو المنحدر. فوجئت بما حدث وكأني لم أكن أتوقعه.. ماذا أصنع؟ يا ألهي؟ لا وقت للتفكير ولا للتصرف.. إلى أين ستمضي بي ..؟ تملكني الهلع .." إذا ما انقلبت الآن هذه اللعينة.. لو صدمت إنساناً أو حيواناً.. وصايا أمي.. ها أنذا أسوأ من سعيد ..". لكنها وكما تحركت بغتة ودون سابق إنذار توقفت فجأة لدى ارتطامها بصخرة على جانب الطريق، عندما جنحت إلى اليمين قليلاً.. تنهدت عميقاً كأني أخرج جبل الرعب الذي جثم على صدري دهراً. نظرت إلى الصخرة .." لا شك أن دعوات أمك هي التي أوقفتها في اللحظة المناسبة والمكان المناسب ،كي تحول دون وقوع الكارثة المحققة، التي كانت في انتظارك ...". قفزت منها على الفور، حين تناهت إلى سمعي عن بعد، صيحات غاضبة. نظرت إلى الوراء فيما انطلقت أعدو بما أوتيت من قوة. كان سائقها اليهودي يصيح :

.. وقّف يا ملعون.. يا عفريت يا ابن العفاريت.. سأذبحك وحياة ديني ..!

لم يهدأ روعي إلا حين أمسيت بعيداً عن المعسكر، والتقيت نعيم في مكاننا المعتاد. رويت له، مبهور الأنفاس، ما حدث، فيما كانت تقترب منا كوكبة من البولونيات، خرجن للتمشي على الطريق. أخذنا نتفرس فيهن حتى أوشكت أن تدوسنا السيارة القادمة من معسكر عاقر. قفزنا إليها في اللحظة الأخيرة، ونحن نلوح لهن كما لو كان بيننا وبينهن سابق معرفة أو انتظار لقاء ..

أيام وشهور توالت على الناس، وهم يرقبون أحداث الحرب الجارية التي تفاقمت أكثر فأكثر، لا سيما بعد ما سمعوه عن دخول أمريكا تلك الحرب، بقوات ومعدات هائلة إلى جانب الحلفاء، أو هم يشكون ضنك العيش وشح الموارد. البرتقال لا أسواق لتصريفه، فالبحر مغلق، وموسم قطافه هذا العام كان أسوأ موسم مرَّ عليهم. الأعراس قليلة هذه السنة، ومعظم الزيجات أرجأت إلى أن (تتحسن الأحوال). ولكن متى تتحسن الأحوال، والحرب لا يبدو أن لها نهاية وشيكة؟ البيارات بعضها يخضع للرهونات لبنوك في يافا وتل أبيب. أما من رفضوا التعامل معها فقد جفت أشجارهم لعدم قدرتهم على مواصلة خدمتها. محصول القمح فائض عن الحاجة، فقد كان موسم الأمطار غزيراً سخياً، ولكن الناس لا يأكلون خبزاً فقط. حاجاتهم كثيرة، وبيع ما يزيد عن حاجتهم من القمح يسعف في الحصول عليها، ولكنه أيضاً لا تصريف له، أمام منافسة الطحين الكندي، والقمح الاسترالي المستورد، حتى في داخل البلاد. حتى مواسم الحصاد، التي كانت مواسم الفرح والبركة بدت كئيبة مكفهرة. من له ولد أو رجل يعمل في معسكرات الانكليز، فقد أوتي حظاً عظيماً. ولكن فرص هذا العمل ليست بالكثرة، التي تستوعب كل قادر عليه أو راغب فيه. والانكليز يؤثرون اليهود على العرب للعمل معهم، إلا إذا اقتضت الضرورة. نعم فالانكليز هم الانكليز، وعداؤهم لن يتغير فيتحول إلى صداقة للعرب تحت أي ظرف. اليهود أيضاً ما برحوا يتدفقون على البلاد، والمستعمرات ما أنفكت تقام في أماكن كثيرة، لم يستطع أهل البلاد وقفها رغم ثوراتهم المتعاقبة. وحين لجأوا إلى طلب العون من أشقائهم العرب، وجدوا أن عبد المعين بحاجة لمن يعينه ..! فبلادهم مستعمرة أيضاً، وهم لا يملكون من أمرهم أو أمرها شيئاً. بل إن من حكامها من هو ضالع مع الغرباء، يأتمر بأمرهم عن قصد أو عن جهالة، يقدم لهم خدمات، إما مدفوعة الثمن، في شكل كرسي يجلس عليه، أو تطوعاً واحتساباً لوجه الشيطان وابتغاء مرضاته ..!

في خضم هذا كله، ماذا تستطيع امرأة مثلها أن تصنع؟ هذا الذي يجري يُعجز أقدر الرجال وأحكم العقول. تتذرع بالصبر كسائر الناس أيضاً. لكنها لا تني تفكر في مستقبلهم. سعيد الذي غدا شاباً لا تدري ماذا ينتظره. لم يتعلم في

مدرسة، ولم يتقن صنعة. أمين هو من تعقد عليه الأمل في حمل عبء الأسرة، ولكن ها هوذا ينقطع عن مواصلة تعليمه مرغماً، بعد أن أنهى الصف السابع. حبذا لو مكنتها الظروف حتى لو أقتضاها الأمر بيع (الحاكورة) للحاجة أم سايحة.. ولكن حتى هذا لن يمكنه من الذهاب إلى يافا لأكثر من سنة دراسية واحدة. تتصوره عندئذ، شاباً يرتدي بزة كحلية اللون، وقميصاً أزرق كالأستاذ شفيق موسى، أو الأستاذ علي السيد.. وربما (كرافته) أيضاً ..! ولكنني آه يا ولدي ..(العين بصيرة واليد قصيرة) ..! أحمد.. علياء.. أربعة.. خلّف لي أربعة. مطالبهم وحاجاتهم (تهد الحيل) .." آه يا تلك الرصاصة الغادرة.. وذلك الجاني الذي لم يتق الله.. لو يرى الآن ما نحن فيه.. وأي آثار خلّفت.. جريمته النكراء ..!"

تقترح عليها مرة أخرى، الحاجة خضرة، أن يذهب أمين وأحمد عصر كل خميس، لقراءة القرآن على القبور، لقاء ما يعطيهم ذوو الموتى، كالعادة المتبعة، خبزاً وبيضاً مسلوقاً. أو أن عليها أن تقبل نصيباً من الزكاة، التي يعرضها عليها أقاربها من عائلتي الهمص وأبو عون، أو جيرانها دار الجمل والعطار.. أو بدلاً من ذلك كله تبيعهم (الحاكورة)..!

لم تنقطع عنها زيارات أبيها في الشهور الأخيرة مصطحباً أخاها رمضان. ظلوا يأملون، على الرغم من كل ما حدث في الماضي، بأن (يلين رأسها) وتوافق على الزواج، لا سيما بعد أن ضاقت الأحوال حتى بالرجال. غير أنهما أقل إلحاحاً، هذه الأيام، حرصاً منهما على ألا يثيرا غضبها، وبالتالي رفضها من باب العناد. بل إنهما يلمّحان كلما حانت الفرصة ولا يصرحان.

حدثت شقيقتها نعمة في الأمر، إذ ضاقت بها السبل، وازداد سواد الدنيا في عينيها. نعم هي الوحيدة، التي يمكنها أن تفضي إليها بمكنونات قلبها دون حرج. ردت عليها شقيقتها بلهجة حانية، لكنها لا تخلو من الحنق والألم لأجلها :

".. يا عائشة.. يا حبيبتي.. يعني أنت أحسن مني ..؟ اسأليني أنا لما تزوجت الهندي. لم أتزوجه حباً فيه أو في الزواج.. لكنها الظروف.. الدنيا.. الانكليز الله لا يكسبهم هم السبب.. لا تفتحي لي جروحي وافتح لك جروحك.. اسمعي مني وتوكلي على الله ..!"

لم تنم تلك الليلة. وقع المطر المنهمر فوق القرميد، والريح العاصفة رغم أن الشتاء يوشك أن ينقضي.. شباط في أواخره. أيام (المستقرضات)، وقصتها مع البدوية، التي شكت شح المطر ذات يوم، فاتفق شباط وآذار على إرضائها من

جهة، والانتقام منها لسخريتها منهما من جهة ثانية. أهاب أحدهما بالأخر قـائلاً " يا خوي يا شباط ثلاثاً منك وأربعة مني حتى تخلي واديها يغني .." وهكذا أخذت الأمطار تنهمر كالسيل سبعة أيام بلياليها.. فامتلأ الوادي وغرق قطيـع أغنامهـا.. وهي نفسها أوشكت على الغـرق، لـولا أن اللـه سـلم ..! ضحكـا منهـا و وعداهـا بمثل ذلك في العام القادم ..!

حتى هذه الحكاية التي جنح إليها خيالها، في تلك الليلـة الظلمـاء، لـم تجلـب النـوم إلـى عينيهـا. وهـذا ال (أبـو صفيـة) الـذي لمّـح باسـمه والدهـا فـي زيارتـه الأخيرة لها. هل هو الرجل الذي يلائم ظروفها؟ وانه ليس أكثر من (شـغيل) فـي البيارات والبناء. الأهم مـن هـذا كيـف يكـون وقـع الأمـر علـى الأولاد؟ لا سـيما الكبيرين.. وإذا ما عيرّهما رفاقهما.. أمك تزوجت يا سعيد ..! أبـو صفيـة عمـك زوج أمك يا أمين ..! (يا إلهي).. أمسكت رأسها بين يديها، تحركه يمنــة ويسـرة ألماً، واللوعة تعتصر قلبها. طفـرت الدمـوع مـن عينيهـا.. بكـت وبكـت.. دفنـت رأسها في الوسادة، التي سرعان ما بللتها الدموع. ولكن المطر مـا بـرح ينهمـر، يقرع القرميد بعنف أشد، والنافذة الغربية تصطفـق.. والريـح مـا انفكـت تعصـف بالأشجار فتتكسّر الأغصـان تحـت وطأتهـا التـي لا ترحـم. أعياهـا الألـم والأرق معاً.. أرهقها الحزن والأسى فأغفت. أبو صفيـة بعينيـه الحـادتين يقـترب منهـا.. يحاول أن يبتسم لها.. لكن ابتسـامته مخيفـة.. هـذه أنيـاب ذئـب.. يقـترب أكـثر.. يمسّد شعرها براحة كفه الثقيلة فتصدمه.. تكـبر الأنيـاب البـارزة مـن فكيـه كلمـا اقترب.. ينقض عليها، ينوي التهامها.. تدفعه عنها بكلتا يديها، وتهم بـالفرار مـن وجهه، فيما هو ينقض للأمساك بها.. تدفعه عنها .. تصـرخ فـي وجهـه والـروع يخنقها ... يتراجع..يبتعد.. يختفي.. تنظر فيما حولهـا.. تلفـي نفسـها تجلـس فـي فراشها ،و الأولاد من حولها نيـام، تـتردد وانيـة أنفاسـهم الرتيبـة الهادئـة. إلا أن (سعيد) الذي صحا للتو.. يتساءل مرتبكاً :

... ما بك يا أمي ..؟

تنعم النظر إلى وجهه السمح الحبيب، البديل عن ذلك الوجه المرعب، الـذي كان الساعة أمام عينيها. تبحث بهما في أرجاء الغرفة، كأنها تريد أن تطمئن إلـى أنه ذهب حقاً.. وأن ما رأته لم يكن إلا كابوساً. تمتمت وهي تشير إلى سعيد بـأن يعود إلى النوم وفي عينيها نظرتها الحانية :

... لا شيء يا حبيبي.. لا شيء.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..(اللهـم اجعله خير).

ما الذي حدث؟ كيف تطورت الأمور، وفي غضون وقت لا يتجاوز شهوراً قليلة، حتى تزوجت عائشة ..؟

أجل تزوجت عائشة من (أبو صافية). لم يصدق كثير ممن حولها، وفي أنحاء يبنا قاطبة ،أن المرأة الصابرة العنيدة، التي يئس ذووها من قدرتهم على إرضاخها لمشيئتهم تتزوج أخيراً. فلقد أيقن الجميع أنها لا بد منفقة عمرها أرملة متنسكة من أجل أولادها. ولكن ها هي ذي تتزوج أخيراً ..!

كان قاتماً وكئيباً ذلك اليوم. لم يكن يوم بهجة وفرح. المرارة تفعم نفسها، والحزن يطوي جوانحها. صور سوداء لا تبرح مخيلتها حول أبنائها. تضم صغيرتها : " علياء ..آه يا ابنتي ..". هي نفسها لا تصدق أن هذا حدث. كأنها في حلم مفزع. ندمت وتمنت لو أنها لم تذعن لمشيئة أحد. ولكنها لم تذعن. الظروف هي التي أملت عليها صنع ما لا تريد، حتى أولئك اللواتي قدمن للتهنئة كن كمن يقدم العزاء في فقيد غال. أما من كنَّ يغرينها ويدفعنها إلى الموافقة على الزواج دفعاً، فقد أتين اليوم على غير الصورة التي توقعتها. بعضهن ينظر إليها، وكأنما اقترفت خطأ فادحاً لا سبيل إلى غفرانه. ينظرن إلى علياء، فيمططن الشفاه، ويقلبن الأكف، مع نظرة نحو السماء ترافقها تمتمة غير مسموعة ولا مفهومة. يتحوقلن ويتأسفن. أم مريم وحدها بدت متعاطفة معها، مواسية لها في محنتها. أما مريم فقد لبثت صامتة، لكنها مضت تخالسني النظرات، وقد بدا عليها التأثر.. ربما من أجلي ...! تكسر الصمت أمي بقولها وهي ترنو إلى مريم:

- كبرت يا مريم.. عروس ما شاء الله.. أنت من عمر أمين.. فاكرة يا أم مريم أنت قبل الزلزال بشهرين وأنا بعده بأربعة ..!

أمنّت أم مريم على قولها بأن البنات يكبرن عادة قبل الأولاد. وحين دعت لها والدتي بأن يقيّض الله لها (ابن حلال) في وقت قريب.. إنه سميع مجيب، أكدت لها أم مريم بأن الذين طلبوها حتى تلك اللحظة (بعدد شعر رأسها). وافقت والدتي على ذلك بأن البنت (مثل الوردة اللهم صلي على النبي) فلماذا لا يتقدم

لها من هم بعدد شعر رأسها ورأس أمها أيضاً ..!؟

اعتراني ضيق مباغت، دونما سبب واضح للجزء الأخير من حديثهما. أمعنت النظر فيها. حقاً لقد كبرت. فهل تتزوج غداً وتبتعد عنا أكثر مما ابتعدت. صحيح أني لا أتمكن من رؤيتها والتحدث إليها إلا لماماً هذه الأيام، إلا أن فكرة زواجها، وابتعادها من ثم عن الحي، زادتني ضيقاً وانقباضاً. هممت بمغادرة المكان، ولكن مريم هنا، والفرص المتاحة للقائها باتت أندر من خبر سار..! أم تراني نسيت محاولاتي من أجل أن أراها، من حين لحين، عن طريق ابنة خالتي فاطمة، حينما تذهبان لملء الجرار من حاووز الهمص؟ لن أضيع هذه الفرصة إذن. لأصبرن.. فإن الله مع الصابرين. وكل ما نحن فيه يدعو إلى الصبر والتصبر ..! "أمي هذه التي تزوجت (أبو صافية) أخيراً.. وأبو صافية نفسه الذي اقتحم حياتنا على غير رغبة منا أو انتظار.. أبي.. وتلك الرصاصة.. وذلك الانكليزي الجبان.. إلهي اجزه شر الجزاء.. إنك أنت المنتقم الجبار ..".

نظرت حولها في صباح اليوم التالي. تتفقدهم. لم يكن هناك أحد غير علياء. تحدث نفسها : أحمد في المدرسة. أمين لم يذهب لمعسكر الانكليز فأين هو؟ سعيد خرج مهموماً مغموماً حتى دون أن (يصبّح). لم يصفق الباب وراءه، كما اعتاد أن يفعل عند خروجه غاضباً. أغلق الباب بهدوء ومضى.. احتضنت علياء، وانخرطت في بكاء صامت، بدا لها كأنه سوف يمتد إلى ما لا نهاية :" آه يا أحبائي.. ماذا صنعت بكم ..؟ الله يجازيك يابا.. الله لا يوفقك يا خوي يا رمضان.. أنت السبب..!".

عند ناصية الشارع، قريباً من دار أبو زكي العبسي، وقف سعيد يتكئ على الحائط، فيما جلست قبالته على الحجر الرابض لصق الباب ،كأنه هناك منذ الأزل. لكنه بدالي وكأني لم أفطن إلى وجوده إلا هذه الساعة. أحدق في أرض الشارع. سعيد أيضاً مطرق إليها. يضم ذراعيه متقاطعين على صدره. يزفر حيناً.. يتنهد حيناً.. يضرب الجدار حيناً ثالثاً ... ثم يقول كمن يحدث نفسه دون أن ينظر إليَّ :

- لماذا حدث هذا يا أمين ..؟

قالها بصوت مبحوح لم أعهد سماعه منه قبل اليوم. بماذا أجيب ..؟ وهل أنا أدرى منه بالأسباب التي أوصلتنا إلى ما وصلنا إليه ..؟ هو على أية حال لا ينتظر مني جواباً. لكن دموعاً ترقرقت في مآقيَّ بغتة.. كبَتُّ مشاعري في الأيام الماضية، دفعها إلى الأنفجار الساعة. شهقت.. انتحبت.. أمسكت رأسي بكفيَّ

خشية أن يلمح دموعي أحد. انحنى عليَّ سعيد.. مسح رأسي بيد حانية.. أمسك بيدي وأنهضني .

– ما هذا يا أمين؟ تبكي يا أمين؟ لا لا.. أنت يا أمين رجل.. والرجل لا يبكي. لم نعد صغاراً.. كبرنا على البكاء. وأمنا أعانها الله. لا تصدق أنها راضية عما جرى. خالك وجدك من جهة.. والأحوال من جهة.. والناس ...

خالتي نعمة تأتي كل يوم لتقضي سحابة النهار. وفوزي أيضاً يرافقني اكثر الوقت. لم يتغير الكثير في أسلوب حياتنا، سوى دخول ذلك الرجل فيها. كان شرطاً لها أن يقيم معنا كي لا تبتعد عنا. ولما كانت له ابنة في مثل سني (اسمها أمينة)، فقد جاءت معه أيضاً. لم أشعر نحوه بمحبة ولا بكراهية. شعور محايد تماماً. نقمتي وإخوتي كانت تتجه نحو الظروف القاهرة، التي أملت علينا ما لا نريد. هو من ناحيته لم يسْعَ إلى التقرُّب منا و التودُّد إلينا.. يتصرف وكأن لا وجود لنا. كان يدرك موقعه منا أغلب الظن، فالتزم جانب الحذر حيالنا. أما أخي سعيد فقد أسرَّ لي بأنه يكره الرجل كرهاً شديداً. بدا لي سعيد، في هذه الأيام شاباً مكتمل الرجولة. نما الشعر في وجهه وشاربيه. بدا أطول مما كان قبلاً. عيناه الواسعتان تحت حاجبيه الكثيفين، تنبئان عن رجولة مبكرة، لا سيما وأنه دائم العبوس والتقطيب، حتى دون أن تكون هناك أسباب موجبة. كان سعيد يتجنب رفقتي فيما مضى، بدعوى أنني (ولد) وهو ذاهب إلى أمثاله من الشباب، ولا يليق بالتالي أن يصطحبني معه، أصبح الآن يميل إلى مرافقتي، إثر عودتي من المعسكر عند العصر. نذهب إلى مقهى الخال (أبو داود)، أو إلى رفاق له في ساحة القرية أو سوق الجميزة. يريحني ذلك الأحساس بالطمأنينة في صحبته. أما رفاقي فقد حسبت أني لن استطيع مواجهتهم بعد الذي حدث. لكن هؤلاء لم يبد على أيٍّ منهم أي جديد. نعيم يحدثني كعادته عن بولونيته الشقراء. سعيد الجمل يروي لنا الحكايا عن يافا، وثانوية العامرية، التي سوف يواصل فيها دراسته حتى شهادة المتريكوليشن (Metriculation). سليمان أبو سليمان يطلق العنان لغنائه (.. يا ظريف الطول ماشي الواد الواد ..) أو تقليده لواحدة من أغاني عبد الوهاب أو فريد الأطرش. وكما تمضي الحياة بنا دون تغيير ذي بال، كذلك كان شأنها مع عامة الناس في قريتنا. المقاهي تغصُّ بروَّادها، أربعة شاي.. قهوة يا ولد.. طرقات الزهر و الدومينو.. صوت الراديو يصم الآذان.. سيارات الجيش العابرة.. من فيها يحيُّون أو يشتمون.. جرس المدرسة يدق فيما ننتظر السيارة التي تقلنا إلى المعسكر. تلك هي قادمة تهدر من بعيد.. تنقض

علينـا كوحـش كاسر، لكأن سـائقها ينـوي أن يدوسـنا تحـت عجلاتهـا ..! بعنـف يفرمل في اللحظة الأخيرة، فيجأر صفير كوابحها.. نهرع إليها متدافعيـن للتسـلق من الخلف.. لحظات خاطفة، وإذ الجميـع علـى متنهـا، لتنطلـق مزمجـرة، مثيرة غباراً ودخاناً ورائحة بنزين خانقة .

في أواخر ذلك الشتاء توفيت (حفيظة) زوجة محمد الشريف. وكما في كل حالات الموت، يندهش الناس أول الأمر، ثم لا يلبثوا أن يعتادوا ذلك وينسون. دهش أهل القرية، ولا سيما نساؤها لموت حفيظة المفاجئ، إذ كانت موفورة الصحة والعافية، فكيف ماتت؟ زوجها - الطارئ على القرية منذ سنين - لا يبخل عليها بشيء، وهو يعاملها كأحسن ما يعامل رجل زوجته.. فلماذا تموت..!؟ أما هو، الرجل الطيب، الوديع كالحمل، فقد تركته حفيظة وحيداً في هذه القرية، التي لا قريب له فيها و لا صديق، على الأرجح. ابنتها (وداد) من زوجها الأول بقيت معه. لقد تربت في حجره منذ طفولتها، فهي بمثابة ابنة له. لا سيما أنه لم يرزق بولد من حفيظة. عمر وداد الآن ثلاث عشرة سنة أو نحوها.. أكبر قليلاً أو أصغر قليلاً.. ليس هذا مهماً، فالناس في القرى قد لا يعرفون حقيقة أعمارهم، وتواريخ ولاداتهم، على وجه اليقين .

لقد رأوه بأم أعينهم يذرف الدمع هتوناً، وهو يمشي وراء نعشها. بل لقد انتحب لدى مواراتها التراب. لم يحتمل متابعة المشهد الأليم، فانتحى جانباً، كي لا يتمزق فؤاده وهو يراها تلحد أمام عينيه، توارى الثرى في تلك الحفرة المهيبة الرهيبة، التي هي الموطن الحقيقي، والمسكن الدائم لكل كائن من البشر. هكذا واسوه، لكي يهونوا عليه. ثم هولم يتأخر عن عمل كل مامن شأنه أن يعينها على الشفاء، كنقلها إلى يافا لمراجعة أطبائها، بعد أن عرضها على اسحاق الحكيم اليهودي في القرية، دون أن يفضي مسعاه إلى النتيجة المرجوّة .

أقام الرجل مأتماً مهيباً. قرأ المشايخ القرآن الكريم على روحها الطاهرة. تناول المعزُّون القهوة السادة. وزّع الصدقات عن روحها، على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، من محتويات دكانه، كالأرز والسكر والطحين والصابون، وحتى علب السردين وعلب الكبريت وصودا الغسيل ..! لم يدخل دكانه أحد في الأيام الثلاثة التي تلت وفاتها، دون أن يهبه شيئاً من محتوياتها .

لغط الجميع بذكره، وأثنوا عليه ثناء حسناً، ودعوا الله مخلصين أن يعينه على مصابه، وأن يلهمه، بحق، جميل الصبر والسلوان. وما دام الرجل على هذا

القدر من الطيبة والحنو، فلسوف يرعى ربيبته وداد كما لو كانت ابنته من صلبه.

قال محمد الشريف للجوار، عقب انقضاء أيام العزاء، بأنه ذاهب إلى يافا ليومين أو ثلاثة من أجل أمور تهمُّه. عاد بالفعل في اليوم الرابع، وقد بدا عليه الحزن و الأسى. استطالت لحيته، وغدا ممتقع اللون، كما لو أن مرضاً عضالاً ألمَّ به. وفي أعقابه، عصر ذلك اليوم، جاءت سيارة تحمل بضائع جديدة، لم تتسع لها الرفوف وأرض الدكان، فوضع كميات منها أمامها وعلى جانبيها كادت أن تسد الطريق. وقفنا، عدد من الغلمان والفتيان، نرقبها لدى تفريغ حمولتها. كذلك فعل بعض الرجال ،الذين كانوا في طريقهم إلى الجامع، وقفوا يتفرجون. ولم يزحزحهم عن مكانهم سوى صوت المؤذن. تحركوا عندئذ، وهم يتساءلون عن محتويات حمولة الشاحنة، وعن الرجل الذي سرعان ما عاد إليه نشاطه، وأسعفته همته. أما هو فقد كان يغمغم على مسمع منهم بأنه إنما يؤدي واجبه، إذ ليس في وسعه أن يقطع عن الناس حاجاتهم وضرورات عيشهم. يقول ذلك وكأنه ينتظر شكرهم على أريحيته .

تذكرت عندئذ، ما زعمه الهندي، زوج خالتي، يوم كنا في يافا بأنه رأى محمد الشريف هناك في زيّ غريب كالمتنكر، وقلت إنه – الهندي – كان واهماً دونما ريب، أو أنه تراءى له أن من رآه كان محمد الشريف هذا لكم أساء الظن زوج خالتي بهذا الرجل الطيب .!

أعقب ذلك إقبال الناس على دكان محمد الشريف، أكثر من أي وقت مضى. كما أن الرجل سرعان ما خرج عن تحفظه وانطوائه. أخذ يجالس الآخرين، سواء في الجامع، أو في مضافة المختار. يحضر المآتم والأعراس، لكي يرد لأصحابها جميلهم، يوم وقفوا إلى جانبه في محنته. بل إنه وهو الذي يعرفون قصة خروجه على ذويه، ولجوئه إلى قريتهم هذه، كيما يعيش بعيداً عن بني جلدته، ضماناً لحريته في اعتناق العقيدة التي اختار، وما أفاء الله عليه من نعمة الأيمان والهدى، لجدير بحدبهم ورعايتهم.

وإذا ما جرى الحديث حول الانكليز واليهود، شاركهم الرجل التنديد بهؤلاء وأولئك. فالانكليز هم أصل البلاء في هذا العالم. واليهود تركوا أوطانهم، ومساقط رؤوسهم في اوروبا، لكي يأتوا إلى هذه الديار.. لماذا يفعلون ذلك؟ لماذا لم يذهبوا إلى الأرجنتين أو غانا، حيث فكروا أول الأمر؟ بل كان يحدثهم عن أمور يجهلونها، أو يعرفون القليل عنها. أنى لهم مثلاً أن يعرفوا، في هذه القرية،

شيئاً عن (مؤتمر بلتمور)، وما قرر اليهود فيه؟ عن العصابات اليهودية بأسمائها ومسمياتها العاملة الآن ضد الانكليز؟ عن دور اليهود في المراكز المالية العالمية والبنوك والشركات.. إنهم كالأخطبوط، يتدخلون في كل شيء، وينشرون حبائلهم ودسائسهم في كل مكان. غير أنه في النهاية يبدي شيئاً من العطف على (مأساتهم)، إذ هم عرضة، على الدوام، لأخطار شتى تحيق بهم في أوروبا. وهم من ثم معذورون إذا ما فكروا في النزوح إلى مكان آمن كفلسطين، ثقة منهم بأن أهلها كرماء بما فيه الكفاية، للسماح بإيوائهم بين ظهر انيهم، فضلاً عن الثقة في حماية الانكليز لهم.

أما (تيودور هرتسل) ذلك المجنون الذي حلم بإقامة دولة لليهود في (أرض الميعاد)فليس أكثر من إنسان خيالي كان يعيش في وهم كبير ..! بل إنه لمعتوه أيضاً إذ يشتط به الوهم الى هذا الحد.

ينصت الناس إليه، ويعجبون بسعة اطلاعه وغزارة علمه. بل إن الكثير منهم أمسوا يقصدونه في حانوته، للأستماع إليه. أو هم يلجأون إليه لاستشارته، حتى في امور قد تكون خاصة. فالرجل كأسمه (شريف)، وموضع ثقة. بل إن حسن الطالع وحده، هو الذي جاء به إلى قريتهم، لكي يتخذها موطناً، دون غيرها من بلاد الله الواسعة ..!

أمي أيضاً أوصتنا، وكذلك الخالة نعمة أوصت أولادها ألا نقصد، بعد اليوم، غير دكان الشريف لشراء حاجاتنا. فهو، فضلاً عن كل ما أصبح معروفاً عنه، يبيع بضاعته لهم بأسعار زهيدة، تقل كثيراً عن أسعار أصحاب الحوانيت الأخرى، أبناء بلدتهم ذاتها :أبو العبد الرملاوي.. عبد الله أبو نحلة.. عثمان أبو حسنين ..! الرجل قنوع ويخشى الله في البيع والشراء.. في السرّ والعلن ..!

- ٤٢ -

الدنيا تضيق بي حتى الاختناق. مريم تتزوج وترحل بعيداً إلى الحارة الشرقية. حتى في عرسها لم أستطع تقديم باقة أزهار لها. حُينا بدا كئيباً بعد رحيلها. وسعيد يذهب إلى حيث لا ندري، أغلب الظن أنه توجه إلى حيفا. لم يصبر على رؤية رجل (غريب) يعيش بيننا، ليصبح بين عشية وضحاها أحد أفراد أسرتنا. كنت أشاطره المشاعر ذاتها، لكنني كنت أقدر منه على إخفائها. حرصي على ألا أكون سبباً في مزيد من الألم لأمي، مكنني من كبت تلك المشاعر وعدم الإفصاح عنها. يكفيها ما هي فيه. واللوم لا ريب، يقع على جدي حسين وخالي رمضان وحدهما. خيمت الكآبة على منزلنا أكثر مما كان الأمر فيما مضى. وغياب سعيد أنشأ لها هماً عظيماً ليس هذا أوانه. في المعسكر أيضاً يشيعون بأنهم ينوون الاستغناء عن خدمات عمال من العرب. دعوت الله ألا أكون واحداً منهم. ولقد طمأنتني (سارة) بأن ذلك لن يشمل الأعمال الصغيرة كعملي هذا، اللهم إلا إذا سعت إليه (ريبا) ذات التأثير الواضح على (الكابتن سميث)، والمسؤول عن المكاتب التي نعمل فيها. وريبا هذه، تعرف سارة كما أعرف، أي قدر من الود تكنه لي ..!

خالتي نعمة وضعت مولوداً أسمته (جابر)، الأمر الذي أثار استياء فوزي، وسبب له ضيقاً شديداً. تصورت للتو أن يحدث مثل هذا لنا أيضاً في وقت ما، في مقبل الأيام ..! فوزي كان حزيناً أيضاً لعمله في دكان عمه الهندي. تلبية لرغبة خالتي نعمة في أن يغدو ابنها (لحاماً) مرموقاً في القرية.. هذا في الوقت الذي ينقل إليه الرفاق، العاملين في المعسكرات ما ينقلون من أنباء البولونيات، والسيارات التي تغدو وتروح فيها. وحين سعى، في محاولة منه أخيرة، لأن يثني أمه عن رأيها، وعرض عليها العمل لدى أحمد الحلاق، مبيناً لها مزايا (الحلاق) على (الجزار) كان عمه الهندي أقدر على إقناعها بعكس ذلك، لا سيما وأن (الولد ولد لا يفهم أين تكون مصلحته). يريد فوزي أن يعمل في أية مهنة خلا الجزارة .

تكتنفني الوحشة والشعور بالضياع في الأمسيات، حين أجد نفسي وحيداً

بغير رفيق أو صديق من لداتي، فضلاً عن افتقادي لأخي سعيد. حتى حين أنشغل بتدريس كل من أحمد وعلياء، فإن ذلك لا يعوضنني شيئاً عن غيابه. أمي أيضاً حزينة واجمة أكثر وقتها. لكنها عاجزة عن تغيير شيء فيما يجري. يجمعنا العشاء في المساء. لكن لا العشاء، ولا الأمسيات، كانت هي التي اعتدناها. يظل الصمت باسطاً سلطانه طوال الوقت. أمينة ابنة عمنا الجديد، بدت لي أكثر رقة مما حسبت أول الأمر. وهي لا تنفك عن محاولتها استرعاء انتباهي، بوسائل شتى تلجأ إليها. كأن تناولني إبريق الماء القريب منها، أو رغيف الخبز، أو كوب الشاي. وهي تسعى عندما نكون وحدنا إلى التحدث إليّ في شأن يعنُّ لها أو أمر تختلقه اختلاقاً. إلا أنني أفكر في سارة والمعسكر ومريم التي ذهبت.. أما (مي) فقد بات اليأس من احتمال عودتها إلينا، مع أبيها، أمراً مقضياً .

لماذا لا يحدث دائماً إلا الأسوأ؟ لماذا نفقد الأحبة دائماً؟ أتراه صحيحاً ما يتناقلونه في الحكايا من أن (اللي انكتب عالجبين لازم تشوفه العين ..)، تلك الحكمة التي يعلنها المطرب محمد عبد الوهاب بصوته الجميل..؟ وهل هذا الذي نحن فيه، هو ما خطته يد القدر على جباهنا.. أم تراها تلك الرصاصة ..؟ ويا أيها القدر ماذا تخبئ لنا من بعد ؟

الكآبة تبسط ظلها على البيت كله. بل إن الناس جميعاً في القرية تعتريهم مثل هذه الكآبة، ومعها القلق والأرق والتشاؤم. مسغبة العيش.. الأنباء المحبطة عن اليهود والحلفاء والمحور. جيء بالأمس بابن (الحملاوي) مقتولاً على جبهة مصر. قيل في طبرق، قيل في العلمين، في النورماندي.. ما من أحد يدري على وجه اليقين. تخرُّصات ليس إلا. المهم هو أنه فقد حياته هناك، في حرب لا شأن له بها ولا بأصحابها. نعاه بعضهم بوصفه شهيداً، فيما رأى فيه آخرون مجرد قتيل في سبيل الانكليز ،أي في سبيل الشيطان ..!(أيموت من أجلهم، يا ناس، ويسلك في عداد الشهداء)..؟

خلت حياتهم الآن من مواسم الفرح. حتى المواسم الوطنية التي أمسوا يتوقون إليها كالنبي صالح، والنبي موسى، والنبي روبين بعدت الشقة بينها وعنها في الزمان. هي على مرمى البصر، لكنها محظورة عليهم بأمر الحكومة. لأن الأضواء ممنوعة. والمصابيح والنوافذ تطلى بالأزرق، تفادياً لغارات الطائرات الألمانية. على الرغم من كل ذلك تؤكد لي سارة بأننا (سوف نعيش بعد الحرب، معاً عرباً ويهوداً.. جنباً إلى جنب، في سلام ووئام.. وأن الانكليز

سيرحلون ذات يوم. بل يجب أن يرحلوا، فهم الذين يوقعون بيننا وبينكم يا أمين، لكي يبرروا بقاءهم هنا. نحن وأنتم يجب ألا نعطيهم هذه الفرصة ..!). قلت لها عندئذ :

– ولكنهم أصدقاؤكم. بل هم يسمحون لكم بصنع السلاح الآن، كما يقال.

– وكيف تعرف أنت ذلك؟ ولكن حتى لو كان هذا صحيحاً فهو في مصلحتنا المشتركة في نهاية الأمر.. أليس كذلك يا أمين ؟

– أنتم تريدون إخراجهم من البلاد حقاً ..؟ تريدون إخراجهم وهم يعملون على إدخالكم.. كيف؟ أو ليسوا هم الذين يساعدونكم على الهجرة ويقيمون لكم المستعمرات ؟

– بلى.. ولكننا لا نريدهم هنا إلى الأبد. نريدهم فقط بالقدر الضروري لتحقيق أهدافنا.. ثم بعد ذلك...(في ستين داهية ..!). إذا بقي هؤلاء الانكليز هنا فلن تكون لنا دولة خاصة بنا.. أعني.. وبكم ..! هناك مسائل كثيرة، يا أمين، لا أستطيع شرحها لك.. أنت صغير.. نعم صغير أنت.. أم تحسب أنك أصبحت رجلاً.. تعال يا شاطر.. تعال أجلس هنا بجانبي.. إلى متى تظل خائفاً هكذا يا عبيط ..!؟

لبثت صامتاً.. أو لعلي شردت بعيداً أفكر.. أستعيد ما تقوله. أخرجتني من شرودي حبة (المندلينة) التي قذفتني بها فأصابت صدري، وهي تطلق ضحكة عالية، فيما تنقل كرسيها هي إلى جانبي. جرؤت هذه المرة على مبادلتها قبلة خاطفة.. أعادت الكرة مرة.. مرتين.. لكنني اضطربت وابتعدت لاهثاً. تضحك طويلاً حتى تكاد أن تستلقي على ظهرها، وهي تقول :

– خوّاف يا أمين.. ولكن لماذا تخاف ..؟ لن يحدث لك شيء لو أنك.. يعني ...

جاءت الفتاة النحيلة الشقراء، العاملة في المقصف بكوبين من (النسكافيه بالحليب) كانت سارة طلبتهما من قبل. رمقتنا بنظرة مشفوعة بابتسامة.. ثم غمزت لسارة بعينها قبل أن تنصرف.. وضعت سارة قطعاً من قوالب السكر الصغيرة في الكوبين. قدمت لي واحداً، وهي تقول فيما هي تشير إلى محتوياته :

– انظر.. هذا اللون ليس صافياً تماماً. إنه بنيّ.. كريم.. رمادي.. قد نختلف حتى على تسمية لون هذا الشراب. الأمور بيننا وبينكم كذلك.. ليست صافية تماماً أولاً.. ونختلف على الأسماء والمسميات ثانياً ... ولكن الجوهري

هو أن تكون الأمور بيننا صافية كالحليب الأبيض.. والكثير يتوقف عليكم من أجل أن يتحقق ذلك .

- علينا نحن؟ كيف ؟

- نعم عليكم أنتم. يجب أن توطنوا أنفسكم على العيش معنا، دونما ثورات واضطرابات، وكلام فارغ كالسابق. و لابد أن التجارب الماضية علمتكم أنه لا فائدة من ذلك كله. مات منكم الكثير.. فماذا أفادكم ذلك ..؟

..." ترى لماذا تحدثني سارة في هذه القضايا وهي التي تقول بأنني ما زلت صغيراً على فهمها؟ ما الذي تريد أن تدخله في روعي؟ لماذا؟ أتحبني هي كما تقول أم هي تحتال علي؟ ولماذا أنا؟ ألم تجد يهودياً يحبها ..؟ ثم كيف تجيد العربية إلى هذا الحد ..؟

في طريق عودتنا أتحدث عن سارة إلى نعيم، ويحدثني هو عن البولونية. لا يقطع حديثنا سوى قدوم سيارة الجيش تهدر من بعيد. تخفف من سرعتها عند الدوّار. نعدو خلفها.. نتعلق بها.. يجذبنا الرفاق إلى الداخل. يستقيم الطريق أمامها وتنطلق بأقصى سرعتها. أزيز عجلاتها يدوي على الطريق الأملس، تحف به أشجار الغيلان والصبر، التي تطل من ورائها البيارات والكروم، حتى مشارف يبنا، التي نبلغها قبيل الغروب. يهدئ السائق من سرعته، مرغماً بين الدكاكين والمقاهي على الجانبين، إلى أن يتوقف بعنف قريباً من ظلال الجميزة، مثيراً غباراً وأتربة.. تدفع بالباعة ورواد المكان إلى التحديق المتجهم في سائقها.. مصحوباً بسيل من اللعنات تنصب على رأس أصحابها ..!

تشخص إلينا، عندما نترجل، أعين الجالسين على المقاهي، والباعة تحت الجميزة. ولكننا نهفو إلى أن ترانا أعين الفتيات، حاملات الجرار، غاديات رائحات بمحاذاة مقهى أبو سالم ..! أترى بينهن مريم؟ لكنها رحلت إلى الحارة الشرقية، فهنيئاً للحارة الشرقية ..! الغصة تختنق في الحلق، والحرقة في القلب لظى.. الوحشة تسربل المرئيات.. وفي السماء غيوم داكنة تزحف على أديمها لتحجب القمر والنجوم.

وقع ما كان في الحسبان. جاءت قائمة (التوفير) للعمال العرب، في معسكر قطرة. قدّر لي أن أكون بينهم. ربما تلك الأفعى. لقد نجحت أخيراً في تأليبهم عليّ. أليس الكولونيل سميث (كالخاتم في إصبعها) كما تقول سارة ..؟

مورد الرزق الوحيد ينقطع. ونتاج الأرض لا يوفر لنا أكثر من طحين للخبز، وأشياء أخرى قليلة، نحصل عليها مقايضة ببعضه، وبما نناله من ثمن بخس ببيع بعض آخر. والرجل الذي حلّ بيننا أبدى أنه ليس مسؤولاً عنا، منذ البداية. بل هو ليس في حال تسمح له بذلك حتى لو أراد. ولسوف يضيف هذا مزيداً من الضنك والعناء لأمي الملتاعة، التي لم يقدر أحد على تقديم وصفة مجدية لها غير (الصبر). وأي أسى يخلف في نفسي فراق المعسكر وما تعودته فيه. الابتعاد عن سارة ليس كل ما يؤسفني، على الرغم من أنها حاولت التخفيف عني بكلمات، هي في نهاية الأمر، لا تعني شيئاً .

طبعت على الآلة الكاتبة عنوان منزلها في رخبوت، وأكدت لي، ترحيبها بزيارتي لها هناك إن شئت. بل إنها أصرت على أن أفعل. أستمع إليها واجماً، ثم متسائلاً بيني وبين نفسي (هل يعقل أن أزورها في رخبوت ..؟ وصايا أمي.. والخطر المتربص بي آنئذ..). وإذ طال صمتي، وامتدت إطراقتي أكثر مما ينبغي على ما يبدو، انحنت علي لتطبع قبلة على وجنتي، إذ كنا في ركن من المقصف وحدنا، وقد خلا من رواده، كالمعتاد في مثل هذا الوقت من النهار. ثم قالت :

- على اية حال لن تنقطع عن العمل اليوم أو غداً. لا يزال أمامك أسبوعان من الآن .

- وبعد الأسبوعين يا (مس سارة)..؟

- يعني ....!

أمضيت الأيام الباقية، أكاد لا أؤدي عملاً، في انتظار اليوم الأخير الذي جاء سريعاً .

ليل الأرق طويل، ولكن ها هوذا ملل النهار طويل أيضاً. المشي في أزقة يبنا.. بين الدكاكين والمقاهي.. إلى سوق الجميزة.. مع فوزي حتى سور المدرسة، والنظر إلى التلاميذ يصخبون ويلعبون في باحتها وحديقتها أحسست بالحنين إليها .. حتى قراءة صفحات من هذا الكتاب أو هذه الجريدة، لا يكاد ذلك كله يملأ من هذا الفراغ المتنامي شيئاً. وأمي التي كنت أحسب أن انقطاعي عن العمل يسبب لها إزعاجاً لا حدود له، لم يبد عليها أنها اكترثت كثيراً. هل كان ذلك موقفها حقاً، أم انها لم تشأ أن تثقل على كاهلي فتحملني من الهموم مزيداً..؟

بيد أن الوقت لم يطل قبل أن نعلم بأن معسكر عاقر يطلب عمالاً. كنت بين أوائل المتقدمين. وفي غضون أيام قليلة، ظهرت النتيجة، التي علقت على اللوحة، عند بوابة المعسكر. بقدر ما كان حزني لدى مغادرتي (قطرة)، كان فرحي اليوم في (عاقر). نعيم أيضاً بين المقبولين. بل إن حسن الطالع رافقنا هذه المرة، إذ كان نصيبنا معاً العمل في المطبخ. مساعد طباخ.. سفرجي.. أي شيء.. نتقن العمل أو لا نتقن، لم يسألنا في ذلك أحد. إلحاقنا بالطباخين، عرباً ويهوداً، و ذوي الاختصاص هنا كفيل بتعليمنا ما لانعلم. نتلقى تعليماتهم وتوجيهاتهم وننفذها.. نقشر الخضار.. نعد الفواكه.. نضع الشاي في (براميل) كبيرة ممزوجاً مع هذا المسحوق الأصفر الذي يقولون أنه حليب.. ننقل المواد والأدوات إلى حيث يجب أن تنقل.. نصنع أي شيء دون أن نعرف شيئاً. هم الذين يوجهون حركتنا، وهم الذين يعينون المقادير، ومجمل التفاصيل اللازمة ..!

الجنود يفدون تباعاً إلى قاعات الطعام في الصباح الباكر لتناول الأفطار. يقفون بالدور في (طابور) طويل، يحملون أطباقهم في أيديهم. يضع السفرجي لواحدهم في طبقه بيضاً مقلياً، وشرائح من لحم الخنزير، وأصابع النقانق، ثم يمر هذا أمام خزانات الشاي، ليملأ من حنفية في أسفلها ،كوباً معدنياً كبيراً، قبل المضي إلى قاعة الطعام، حيث أعدت الموائد وعليها شرائح الخبز الأبيض، والمحمَّص الذي يسمونه هم (toast) وقوالب الزبد والمربى، وبشر القمح (corn flake). يضج المكان بالصخب والضحك بل والعربدة. يحدث مثل ذلك في الغداء والعشاء مع الفارق في نوعية الطعام ليس إلا. شرائح اللحم البارد، والخضار المسلوقة، لاسيما البطاطا، معجونة بالحليب والزبد. ثم الحلوى بعد ذلك من سلطة الفواكه المعلبة، والمعجنات ذات الأنواع والأسماء الغريبة.. جلي.. كراميل.. والكثير مما لم نعرف من قبل. حتى لقد غدونا موضع حسد رفاقنا على عملنا الشيق هذا. كنا نستمرئ ذلك الحسد إذ أتيح لنا أن نرتع في هذا النعيم

المقيم من دونهم ..! كان علينا أن نتبادل (ورديات) على مدار اليوم. ومن حين لآخر يجيء دورنا لوردية ليلية، مما يقتضينا المبيت في المعسكر. لم ترتح والدتي لذلك، واعترضت عليه. كيف (تبيت عند الانكليز واليهود يمّه). غير أنها لم تلبث أن رضخت للأمر الواقع .

لم نشهد من قبل أعياداً للميلاد أو لرأس السنة. أعيادنا التي نعرف، هي عيد المولد النبوي.. عيدا الفطر والأضحى، حيث أمي والجارات يسهرن حتى الصباح، منهمكات في صنع الكعك والمعمول، فيما نحن نحوم من حولهن. رائحة المحلب وشذى الينسون تغمر البيوت والزقاق، بل الحي كله لا سيما عند عودتنا من لدن الفران (أبو ربحي الغزاوي)، نحمل الصواني على رؤوسنا، إذ النساء لا يخرجن في مثل هذا الوقت. عيد الميلاد هذا كان شيئاً مختلفاً. ولأنه عيد الميلاد فقد طلب إلينا العمل في ورديات متلاحقة ومكثفة. وإذا كان الاستاذ شفيق موسى يؤكد لنا أن عجائب الدنيا كانت سبعاً، فليلة الميلاد هذه كما رأيناها هي العجيبة الثامنة ..! صخب وصياح، وحركة دائبة.. نداءات، وحث للهمم، تنديد وشتائم مقذعة ..! الطباخون والمشرفون في حالة استنفار.. اختلطت أصوات البشر بهدير الأفران.. بروائح اللحوم والدجاج والأوز ولحم الخنزير والبقر.. مع عبق الفطائر والشطائر، وصنوف الحلوى التي حصر لها. البخار سحابة تغطي كل شيء، يكاد المكان يتفجر دفئاً وحرارة، لولا دفقات من الهواء البارد تقتحمه عندما يفتح باب أو يغلق آخر. المطر ينهمر غزيراً في الخارج، والبرق يومض، والرعد يهدر كقصف القنابل. مذكراً الانكليز بالغارات الألمانية. زجاجات الخمور على الموائد، وفي أيدي الجنود، في كل مكان. وعلى المنصة التي تقع في صدر الصالة كان سرب من اليهوديات يرقصن في استعراضات جماعية، وفردية في البداية، ثم ينضم إليهن عدد من الانكليز يراقصونهن على إيقاع الموسيقى الصاخبة التي تصم الآذان .

نحن العمال العرب نرنو إلى ذلك، وقد أخذت منا الدهشة مأخذها، لا سيما مشهد الرقص، وابتذال اليهوديات في أحضان الرجال، شبه عاريات. أشعرنا الطباخون اليهود بأن الفضل لهم (أي لليهود) رجالاً ونساء في إحياء هذه الحفلات، وفي خلق أجواء المرح، وإضفاء البهجة على السمّار، بتقديمهم شتى صنوف المتع هذه التي نشاهد. أضاف الطباخ (سمحون) ذو الشعر الأشيب، فيما هو يصرُّ عينيه الضيقتين، بأنهم إنما يشاركون الانكليز احتفالاتهم مسايرة، ومن أجل مصلحتهم الخاصة فقط، إذ هم لا يعترفون أصلاً بالأعياد المسيحية أو

الأسلامية. بل كيف بعيد ميلاد للمسيح وهم الذين ينكرونه في الأصل؟ وحينما أمعن هذا في الأساءة للسيد المسيح عليه السلام، تصدّى له الطباخ (أبي عثمان) تشاجراواوشكا أن يشتبكا بالأيدي، لولا أن تدخل المناوب (المستر بيكر)، الذي بادر إلى توجيه اللوم على الفور إلى (أبي عثمان)، حتى قبل أن يتحقق من أن هذا إنما يدافع عن السيد المسيح المحتفى بعيد ميلاده الليلة، والذي سبق لليهود هؤلاء أن سعوا لصلبه قديماً، وها هم لا يزالون يسيئون إليه وينكرونه حتى عصرنا الحاضر. لكن الضابط بيكر صاح غاضباً :

- (أنتم العرب مشاغبون.. حتى في مثل هذه الليلة لا تكفون عن الشغب)..!

عبثاً حاول العرب إقناعه بأن يستمع إليهم لكي يشرحوا له حقيقة ما جرى. لبثت تلك الليلة الأسطورية موضوعاً للحديث على مدى الأيام التالية، سواء بين العاملين في المعسكرات، أو بين السّمار من أهل القرية، وكأنها واحدة من ليالي ألف ليلة وليلة التي يسمعون عنها .

سيارات الجيش البريطاني التي تقل العمال في كل صباح، تمتنع عن ذلك عادة في أيام الأحد من الأسبوع. علينا من ثم أن نتدبر أمرنا في ذلك اليوم، من أجل الوصول إلى المعسكر بوسائلنا الخاصة، التي لم تكن سوى السير على الأقدام أو ركوب الدواب، إذ لا وسيلة مواصلات منظمة تتوفر بين يبنا ومعسكر عاقر .

نتجمع عند الفجر في سوق الجميزة أولاً، ثم ننطلق شرقاً في طريق ترابي من خلال البيارات والحقول والأرض العراء، المزروعة قمحاً أو ذرة أو بقولاً، إلى أن نبلغ جارتنا قرية المغار، المتربعة فوق ربوة عالية وعلى سفوحها. دخان (الطوابين)، كما رائحة خبزها الساخن تضمخ الأجواء من حولها. وإذ نعبر الأزقة الضيقة عند طرفها الجنوبي، نلتقي أناساً من أهل المغار هنا وهناك، ممن بكروا في السعي إلى حقولهم، يجرُّون دوابهم وأغنامهم وأبقارهم. أو نلتقي عمالاً مثلنا ينطلقون إلى المعسكرات والبيارات. الحياة تمور بأوجه النشاط منذ بواكير الصباح. ثغاء الأغنام، وخوار البقر.. رائحة التربة الندية.. زقزقة العصافير فوق الأشجار وعلى الأسطحة. برد الصباح في هذا الوقت من الشتاء. يغذ موكبنا السير فنبلغ المعسكر مع بداية الدوام .

ذات صباح ليوم أحد، وقبل أن نبلغ مشارف المغار، على الطريق الترابي غربيها، والشمس قد بزغت لتوها، توقفنا جميعاً دفعة واحدة، وكأن أحداً أمرنا

بأن نفعل ذلك، أمام جثة رجل ملقاة على قارعة الطريق، يقف إلى جوارها حمار أبيض، يضرب الأرض بقوائمه. أصابنا الهلع.. تحلقنا حول الجثة. الرجل ميت منذ وقت ليس بالقصير، فيما بدا للكبار من بيننا :

.. الدم متجمد حوله يا جماعة.. قتلوا الرجل فياويلهم من الله ...لا بد أنهم لصوص.. قطاع طرق ...

تذكرنا ما كنا قد شهدناه على الطريق قبل وصولنا إلى هذا المكان، ولم نأبه له ساعتئذ. ثلاثة رجال ملثمين مروا بنا مسرعين، يتجهون غرباً في طريق يبنا. لعلهم هم القتلة ..؟ بل لا بد أنهم هم، وإلا فمن يكون غيرهم؟ ألم تروا إلى عجلتهم.. حتى إنهم لم يردوا علينا الصباح ..! لم يردوا طبعاً خشية انكشاف أمرهم. تابعنا طريقنا، يغشانا الخوف والأسف لموت إنسان في هذه الفلاة، فيما أهله ينتظرون عودته سالماً غانماً. مضينا نضرب أخماساً في أسداس.. تكهنات.. تعليقات.. تفسيرات شتى.. كل يدلي بدلوه.. ويستعرض ذكاءه ..!

لدى عودتنا إلى القرية في المساء، كانت تعج بأفراد البوليس، تماماً كما حدث يوم مقتل يسرى اليافاوية. اتخذوا من مضافة المختار الحاج مصطفى أبو عون مقراً للتحقيق. حققوا مع الكثيرين.. اعتقلوا عدداً من الشبان على ذمة التحقيق. وانتشرت الشائعات بلا حصر : كان الرجل قادماً من إحدى قرى الشمال، محمّلاً حماره بضاعة يبيعها في سوق يبنا أو المغار.. الذين قتلوه لصوص سرقوا بضاعته ونقوده ... قتل الرجل خصوم له أخذاً بالثأر، بعد أن تربصوا به في هذا المكان النائي ... الرجل سمسار أراضي قتله ثوار ... الرجل ... الرجل ...

لم يبرح خيالي مرأى الجثة تلك الليلة.. امتنعت عن تناول العشاء ..رافقتني صورة القتيل، وتحركات البوليس عشية ذلك اليوم حتى في أحلامي .

بواكير الربيع، وما زالت لسعات البرد تلفح الوجوه، لكنها ليست كتلك التي عهدناها في أعياد الميلاد، ورأس السنة، وشهور الشتاء الأخيرة. كل شيء في الداخل كان مريحاً ومسلياً، على الرغم من المناكفات، التي لا تتوقف بين العمال العرب أنفسهم من جهة، وبين هؤلاء واليهود، الذين يتكلمون العربية، من جهة أخرى. إلا أنها لم تكن تتطور إلى ما هو أكثر من ذلك. و الفضل في هذا يرجع للشاويش (هنري) المخمور دائماً : وصفة الضابط (ستانلي). كانا على قدر من الشدة والصرامة ترهب الجميع. من ثم لا يتجاوز هؤلاء وأولئك حدوداً معينة .

شاء لي حسن الطالع أن أغدو موضع رضاهما، لا لشيء إلا لأنني ألمُّ - ولو بتواضع - بلغتهما الانكليزية. كان علي أن أقوم بترجمة التعليمات، وربما الشتائم أيضاً، الصادرة عنهما للعمال. نعم أمسيت حتى دون سعي مني، المترجم المعتمد لكليهما، الأمر الذي أبهجني حقاً، إذ أصبحت في مأمن من نوبات الغضب، التي كانت تنصب على رؤوس الآخرين، حتى دون أن تكون هناك أسباب وجيهة في أكثر الأحيان. الشاويش (السيرجنت هنري) يبلغ به الغضب أحياناً حداً يدفعه إلى قلب محتويات الأواني.. أو أن يضرب بحذائه الضخم مائدة أو إناء، وكأنه يقذف بكرة قدم، فيما هو يصيح، ويكيل الشتائم، ثم يهتف :

- أمين.. تعال أنت.. قل لهؤلاء الأوغاد بأن صبري قد نفذ. قل لهم أن يكفوا عن.. أن يذهبوا إلى.. نعم قل لهم أن يذهبوا جميعاً إلى الجحيم.. ولينفذوا ذلك على الفور.. هذه تعليماتي.. قل لهم ذلك ..!

ينصرف غير منتظر سماع ترجمتي، أو ردة الفعل الناجمة عنها، من قبل هؤلاء. لكن الصمت المطبق يخيم على الجميع، والهلع يدب في أوصالهم. لا يسمع سوى هدير الأفران، وهسيس الآنية التي يغلي فيها السائل أو الطعام. البخار ورائحة الخليط الهائل من الأطعمة و الأشربة، تبدو واضحة تماماً الآن أكثر من أي وقت آخر.. وإلى أن يأتي الله بفرج من عنده، على صورة انتهاء

الدوام.. أو إقلاع سيارة الشاويش هـنري، ذاهباً إلـى مهجعه أو صالـة العرفـاء. يتنفسون الصعداء، ويحمدون ربهم أن مرت ثورة الشـاويش هنري بسلام، هـذه المرة أيضاً.

لهذا أصبحت موضع حسد منهم، لكن بعضاً آخر أخذ يسعى للتقرب منـي والتودد إليّ. من هؤلاء (السفرجي) أحمد المصري. وعلى الرغم من أنه يكبرني ببضع سنين، إلا أنه استطاع أن يبني صداقة وطيدة مـع كلينـا، نعيم أبـو جلالـة وأنا. كما أنه نجح في بناء صداقات مع العاملين من اليهود أيضاً. توطدت عـرى صداقتنا أكثر، حين أعلمته بأن عائلتنا مصرية الأصل، وأن جدّي لأبـي قدم مـع الجيش المصري في غزوة إبراهيم باشا لفلسطين، حيث أقام فيها من بعد. لمـاذا بقي في فلسطين ولم يعد مع الجيش المصـري؟ هذا ما لا أدريـه، إذ استشـهد أبـي قبل أن ينبئنا بشيء عن ذلـك. هتـف أحمـد المصـري حينئـذ، وهـو ينقـض علـيّ يحتضنني ويضمني إلى صدره قائلاً :

- نحن بلديات إذن ... يا سلام يا أولاد ..!

أكد لنا أحمد المصري، بأنه وجـد الآن.. والآن فقط تفسيراً لتلـك المشـاعر التي كانت تخامره نحونا (أنا ونعيم)، فالدم (لا يصير مـاء)، و لا بد أننـا ننتمـي إلى أرومة واحدة، وان دماءنا المشتركة مصرية، من عهـد خفـرع وتـوت عنـخ آمون ..! منذ ذلك اليوم أصبحنا نتحدث في كل ما يعـنُّ لنـا. قضايانـا الخاصـة.. وقصتـي فـي معسـكر قطـرة.. واليهوديتـان سـارة وريبـا.. البولونيـات والانكلـيز واليهود هناك. وفي ذات يوم اقترح علينا أن نذهب ثلاثتنا إلى رخبوت، ما دامت سارة سبق لهـا أن دعتنـي إلـى منزلهـا ..(وإلا لمـاذا أعطتـك عنوانهـا ..؟ هنـاك سوف ترون العجب. سبق لي أن ذهبت إلى رخبوت مرات عديدة.. رأيت اليهود على طبيعتهم، كما هم، في الأسواق، فـي البيـوت، فـي الكازينوهـات والملاهـي. لنذهب يا شباب.. وبما أن خير البر عاجله.. فلنذهب مساء اليوم، حيث لا وردية ليلية لدينا أو نذهب غداً إن شئتم ..!) .

زعمت لوالدتي أن علينا وردية ليلية ذلك اليوم.. وفي المساء كنا ثلاثتنا فـي رخبوت. شوارعها المضاءة مكتظة بالمـارة .واجهـات المحـال السـاطعة الأنـوار حافلة بكل شيء. الخواجـات يتـأبطون أذرع النسـاء جهـاراً نهـاراً. بـل يقبلونهـن أيضاً في الطريق العام ..! تفرعات ذلك الشارع العريض، والمداخل العديدة إلـى شوارع كثيرة أضيق. كيف نعثر على بيت سارة وسـط هـذه المتاهـة.. تلـك هـي المسألة؟ ولكن ذلك لم يعجز أحمد المصري، الذي جعلنا نعرف طريقنا إلى منزل

سارة، على هدي العنوان المكتوب في الورقة وسؤال بعضهم عن اسم الشارع المنشود ..! لم نكن بنا حاجة إلى طرق الباب بقبضة يدنا، كما نفعل في بيننا، إذ ضغط أحمد المصري على زر مثبت على الجدار، ففتح الباب بعد ريث. وإذا هي سارة أمامنا وجهاً لوجه. نظرت إليها دهشاً لكنها انقضّت عليّ.. قبلتني في الوجنتين، متجاهلة من معي. لبث نعيم مندهشاً إلى أن دعتنا للدخول، فيما نظر إلينا أحمد المصري مبتسماً.. بل ضاحكاً، يهز راسه يميناً ويساراً ،وهو يهمس كمن يحدث نفسه (أيوه يا عم ..!). عرفتنا على أبيها موشى، وأمها استر. غرفة جلوس صغيرة. عدد من الكراسي في صدرها وعلى جانبي مدخلها. على جدرانها علقت صور شتى بعضها لفتيات عاريات، وبعض لزعماء من اليهود. وحين رأتنا ننظر والتساؤلات في أعيننا، شرعت وهي تشير إلى كل منها، تشرح ما هي ومن هي.. النساء ممثلات في أفلام ذكرت أسماءها، دون أن نعرف شيئاً مما تقول. أما صور الرجال فهي حسب تعريفها : لنبي صهيونيتهم (هرتسل) ولزعيمهم (وايزمن) الذي حصل لهم من الانكليز على وعد بلفور.. وآخر اسمه (بن غوريون) هذا فضلاً عن صورة أبويها يوم زفافهما، وصورة كبيرة لها هي في مدخل البيت.

ندمت على مجيئنا إلى هذا المكان.. مالي ولسارة هذه، ويهودها وصور زعمائها وأنبيائها المزعومين. ولكننا جئنا، وانتهى الأمر. في الطرقة الصغيرة، البادية لنا على قيد خطوتين أو ثلاث داخل البيت، جلست استر، وهمّ بالجلوس قبالتها موشى، وهو يعتذر لنا من بعيد قائلاً :

كنا سندعوكم لتناول العشاء لولا أن الطعام معدٌّ لنا وحدنا من قبل ولا مجال لدعوة آخرين ..!

شكرناه على دعوته هذه التي تتسم بكرم واضح، فيما يعترينا الاشمئزاز من هذا البخل البشع المتأصل، الذي طالما سمعنا به عن اليهود، وأسوأ منه الاعتذار بمثل هذه الفظاظة. أما سارة فقد بدت وكأنها لم تسمع أو تلحظ شيئاً. شغلها، أو هي التي تشاغلت بالحديث عن المعسكر الذي غادرته، والأسئلة عن المعسكر الذي نعمل فيه الآن، فضلاً عن إبداء شعورها بالأسف من أجلي ..!

غابت قليلاً، ثم عادت لتقدم لنا أكواباً من شراب (السيدر) والبرتقال، ولتحدثنا عن مستقبل البلاد، لا سيما وأن الحلفاء باتوا في الموقف الأفضل، بل هم في طريقهم إلى النصر على دول المحور. وحين بدا علينا وكأننا لا نصدق بأن الألمان يُهزمون – هؤلاء الذين هزموا الحلفاء في (دنكرك) وحطموا خط

(ماجينو) الاسطورة – أعلنت أن الهزائم المتلاحقة التي منوا بها مؤخراً، على جبهات عديدة، حولت الحرب كلها لصالح الحلفاء. فمنذ جبهة العلمين، وشمال افريقيا، وخسائرهم الفادحة في تلك المعارك.. بل إن خسائرهم في معركة (ستالينغراد) وحدها كلفتهم مائتان وخمسة وثمانون ألف جندي. قتل نصفهم وأسر الباقون (.. شكراً ليهوه.. الذي أنقذنا من براثن الطاغية هتلر.. وهذه أرض المعاد تبقى لنا.. و يمكنكم بالطبع العيش فيها معنا.. لماذا لا نكون أصدقاء؟ كما هو الحال بيني وبين أمين...؟)

قالت ذلك وهي تضحك وتضرب بكفها على فخذي. وحين أبدى أحمد المصري أكبرنا سناً و أكثرنا وعياً أيضاً–، لكثرة مطالعاته – دهشته لوفرة معلوماتها، وإعجابه بسعة اطلاعها، أعلنت ببساطة متناهية بأنها عضو عامل في مجال التوعية، في تنظيم الهاجاناه. عندها قلت، متسرعاً وفي غمرة استغرابي :

– أنت ..؟ أنت يا مس سارة عضو في الهاجاناه التي يقولون أنها..

قاطعتني ضاحكة، وهي تعتدل في جلستها، لتضع ساقاً فوق الأخرى، فينكشف ساقاها البرونزيان.. عامدة أو غير عامدة.. ما من أحد يدري، فأضافت تقول :

– وما ذا في ذلك يا شباب؟ لا أخفي عليكم أننا نعمل على أن يكون لكل يهودي ويهودية دور يقوم به من أجل قضيتنا، في أي مكان من العالم. وأنا كيهودية أيضاً لي دوري.. فما هو وجه الغرابة؟ لكن ما هو غريب، هوأمر زعمائكم أنتم. إنهم متحجرون.. لا يريدون.. التعاون معنا.. وهم قصار النظر، لا يريدون أيضاً أن يخرج الانكليز، قبل أن يمنحهم هؤلاء ما يسميه زعماؤكم الاستقلال.. أي استقلال يقصدون ..؟ وعن أي انكليز يتحدثون ..؟.. ومع ذلك هم منشغلون دائماً بتأليف لجان لا تصنع شيئاً.. لجان تحت أسماء وعناوين مختلفة.. بل إنهم يتقاتلون من أجل تزعمها وترؤسها.. الذين يتقاتلون هم الذي تتألف منهم اللجان أيضاً ..! ما جدوى ذلك في النهاية ..؟

استأذنا للانصراف.. غادرنا منزل سارة، ونحن في حيرة من أمرنا ..؟ هل هي صادقة فيما تقول؟ بل هل يعقل أن تكون صادقة فتدلنا على خفاياهم وأسرارهم؟ وإذا كانت فعلاً كذلك.. أليس هناك هدف آخر من ورائه ترمي إليه؟ وكيف يتفق أنها، كيهودية، تريد الأفضل لنا ولزعمائنا بحيث نبدي استياءها لخلافاتهم؟

أصرت على مرافقتنا.. وبعد أن سرنا خطوات معدودات، أشارت إليَّ وهي تتباطأ قليلاً في مشيها. وحين انفردت بي.. وتابع رفيقاي سيرهما، قالت عاتبة، بل مؤنبة :

- لماذا لم تأت وحدك ..؟ هل كان يلزمك حرس ..؟

وحين اعتذرت بأني لم أعرف كيف أجئ إلى رخبوت، فضلاً عن الاهتداء إلى منزلها، قالت:

- حسناً، ها أنت قد عرفت الطريق. سأنتظرك لتجيء وحدك في المرة القادمة.. هاه.. أفهمت يا أمين.. قلت وحدك ..!

ضمتني إليها.. قبلتني وانصرفت وهي تلوح بيدها. باي أمين ..! هتف أحمد المصري :

- لنذهب إلى أحد المقاهي يا أولاد.. يسمونها هنا كازينو.. تعلّموا يا جهلة.. ماذا يسمونها؟ كازينو ...! (سارتك) هذه يا سيد أمين (سدّت نفسنا)..!

دلفنا إلى مكان بدا لنا منذ الوهلة الأولى أنه حانة وصالة رقص. داهمني اضطراب شديد. لكأن عيون هؤلاء جميعاً تتفحصني.. نظرت إلى ملابسي.. حذائي. أخرجني من ارتباكي أحمد المصري وهو يدفع بي إلى إحدى الموائد، حيث جلس ثلاثتنا نرقب ما يجري.. وصوت الموسيقى الصاخبة، والراقصات اللواتي كشفن عن صدورهن وسيقانهن. جاء النادل. طلب أحمد المصري شيئاً، حتى دون العودة إلينا لعل لنا رأياً آخر. صبَّ لنا الندل قطرات في أقداح صغيرة، من الزجاجة التي أرساها بعدئذ، على المائدة أمامنا. أضاف إلى الأقداح قليلاً من الماء. ما أن تجرعت رشفة حتى غص حلقي، فكأن ناراً أحرقته. وعلى صوت سعالي تطلعت إلينا العيون، إما ساخرة أو مستنكرة. أدركت أن هذا الذي شربت لم يكن سوى الخمرة، التي طالما حذرتني والدتي من الاقتراب منها، ذلك أن (الرسول عليه السلام لعن شاربها وبائعها وناقلها.. الله يرضى عليك يمّه)..!

اقتربت منا فتاة دون العشرين من عمرها.. شقراء، أرسلت شعرها الذهبي على كتفيها.. توقفت على بعد خطوتين، ترمقنا بنظراتها الجريئة، ممسكة بسيجارة في يدها.. قطعت الخطوتين، ثم وقفت بين نعيم وأحمد المصري، تشير إلى سيجارتها وهي (ترطن) بالعبرية. بادر أحمد إلى إشعال عود الثقاب.. انحنت تشعل سيجارتها، لاح صدرها المكشوف، وقد تلاصق نهداها حتى بدا عميقاً ذلك الخط الفاصل بينهما. ثم سألت، وهي تنفث دخان سيجارتها، في

وجوهنا، بلهجة ركيكة عما إذا كنا عرباً كما خمنت، وما إذا كنا نرغب في الرقص معهن، مشيرة إلى الحلبة. ثم مؤكدة لنا بأن هناك الكثير من البنات الأوروبيات والمحليات، اللواتي يمكن للواحد منا أن يختار من بينهن من يشاء لقضاء أمسية جميلة معها ...!

وحين نظر بعضنا إلى بعض متسائلين، وكأن عيوننا تتشاور في الأمر، تذرع أحمد نيابة عنا بضيق الوقت لدينا، الأمر الذي يدعونا للانصراف في غضون دقائق. قالت ضاحكة، فهي لم تيأس بعد، وهي تغمز بعينها اليمنى ما معناه بأنها تعرض علينا الذهاب معها..! ولدهشتي وحين أوشكت الرد عليها رافضاً ،كان أحمد المصري قد سبقني إلى الرد معلناً بأننا نتمنى ذلك، على أن يكنَّ ثلاثاً ..!

غادرنا المكان في صحبتها، بعد أن أشارت إلى أخرى، فانضمت إلينا بغير تردد. أما هذه فكانت سمراء، ذات عينين واسعتين نفاذتين. وحين أصبحنا داخل زقاق ضيق، لا يصله إلا ضوء خافت، من عامود كهربائي، على مسافة غير بعيدة، وقفنا تحت شجرة صنوبر أغصانها الكثيفة امتدت إلى عرض الطريق، وعلى ارتفاع أمتار وراء سور الحديقة لذلك المنزل. قالت لنا الأولى بأن في وسعها أن تأخذنا إلى منزلها، لقضاء الليلة. وبقدر ما كانت دهشتي، كذلك نعيم، كان اندفاع أحمد المصري في الاستجابة لها. أحسست بغتة أنني في حالة غريبة، هي مزيج من الرغبة في المغامرة ومن الرعب، في ذات الوقت مما يجري. لكن أحمد المصري بادر إلى سؤالها عن (الثمن)..! ساومها وكأنه يشتري قميصاً أو حذاء. اتفقا أخيراً، فمضينا معاً من شارع إلى شارع، وإذ توغلنا مسافة ليست بالقصيرة، بين المنازل المضاءة فيما أصوات الراديو، ناطقة بالعبرية سواء كان حديثاً أوأغنية، تصل إلينا من وراء جدران تلك البيوت التي نمر بها. تملكني الخوف بغتة.. وتذكرت في ذات اللحظة ..(اليهوديات يا أمين.. لا تأمن لليهود يمه ..!) كأنها تنظر إليَّ الآن.. أكاد ألمح وجهها أمام ناظري، وقد ارتسمت عليه علامات الخيبة والدهشة والغضب ..! توقفت فجأة.. سحبت نعيم إلى الوراء بشدة، فتوقف حيث هو، فيما تابع أحمد المصري سيره معهما :

– اسمع يا نعيم.. لن أمضي خطوة واحدة أخرى مع أحمد.. إلى أين يذهب بنا معهن.. إلى أين ..؟

– انا الآخر بدأت أشعر بالخوف.. يمكنهم أن يذبحونا ويخفوا آثارنا هنا.. (و لا من شاف ولا من دري.. ونكون رحنا في شربة ميه)

- إذن هيا بنا. نادِ أحمد، ولنعد على الفور..

- ولكن إلى أين ؟

- إلى المعسكر نبيت هناك، ونزعم لأهلنا أن ورديتنا امتدت حتى الصباح.. المهم أن نخرج من هذه الورطة ..!

في طريق العودة، لم يكفّ أحمد عن التنديد بنا، ووصمنا بالجبن والخيبة أيضاً، إذ أضعنا (فرصة عظيمة) لقضاء ليلة رائعة في صحبة اليهوديتين.. جين ومادلين ..!

منذ النصف الأول من شهر حزيران أصبح شغل الناس الشاغل متابعة الأنباء، في ليلهم ونهارهم، بأعصاب مشدودة، وقلوب وجلة، تتحسب لما هو قادم . تلك الأنباء التي راحت تتوالى عن المعركة الهائلة، محتدمة الأوار، على شواطئ نورماندیا في فرنسا، والتي سوف يتوقف الكثير على النتائج التي سوف تسفر عنها. التفاؤل والمرح والسعادة تسود أرجاء المعسكر حيث نعمل. لكل جانب أسبابه الخاصة. الجنود الانكليز يرغبون في انتهاء الحرب بانتصارهم على المحور، ومن ثم العودة إلى بلادهم. وأما اليهود، فلأن ذلك يعني لهم تحقيق حلمهم في إقامة وطنهم القومي على أرض فلسطين. وإذا كان الثمن الباهظ، الذي تقاضوه في الحرب العالمية الأولى، لوقوفهم إلى جانب حلفاء ذلك الزمن ،كان وعداً من بلفور، لزعيمهم حاييم وايزمن، فإن الثمن الذي سوف يتقاضونه عند انتهاء هذه الحرب القائمة هو تحقيق ذلك الوعد - الحلم على أرض الواقع. أن يغدو حقيقة واقعة يحيونها. هذا ما كانت تلهج به ألسنتهم، وتتحدث عنه الجرائد والراديو. كما أن العرب من جانبهم، كانوا يتحدثون عن نتائج ما بعد الحرب، في الدور والمقاهي والسهرات على المصاطب. أهون هذه النتائج، إذا ما دارت الدائرة على ألمانيا هتلر، أن كارثة لا يعلم مداها إلا الله سوف تحيق بهم. لقد دلل أولئك الألمان على حسن نيتهم نحو العرب، بما أبدوه دائماً من نصرة لقضاياهم، وتأييد لثوراتهم المتعاقبة. كما أن العرب يلمسون ذلك حقيقة واقعة، بعد أن أمست ألمانيا مأوى للزعماء المناوئين للانكليز، سواء كانوا مبعدين عن ديارهم، أو فارّين للنجاة بأرواحهم من جور أحكام قد تطال رقابهم. المفتي لاجئ لديهم، يقابل هتلر نفسه وقتما يشاء، للحصول على وعود بالدعم والمؤازرة، بعد الحرب التي لا يشك الحاج أمين الحسيني، ولا هتلر في نتائجها النهائية. كذلك فوزي القاوقجي قائد الثورات العديدة المتعاقبة في فلسطين وسوريا. هو الآن هناك من أجل الاستشفاء، إثر جراح خطيرة أصيب بها وهو في طريقه إلى إحدى المعارك.. ها هم الألمان يعالجونه وينقذونه من موت أوشك أن يكون محققاً، سواء بسبب جراحه، أو احتمال وقوعه في أيدي الانكليز أو اليهود. هو

أيضاً يعمل على كسب الألمان إلى جانب القضايا العربية عامة. ورشيد عالي الكيلاني كان قد لجأ إليهم عقب إجهاض ثورته على أيدي الانكليز وعملائهم في العراق، القائد حسن سلامه أيضاً هو في ضيافتهم الآن .

لاغرو إذن أن يترقب هؤلاء جميعاً ما يجري الآن بحذر وقلق، انتظاراً لما تسفر عنه معركة النورماندي الجارية. الاذاعات من لندن ومن برلين، بصوت يونس البحري، لا تتوقف عن نقل أنباء المعركة. صحيح أن أحداً من الجانبين لا يأتي بالأنباء صادقة مائة بالمائة، فلكل مبالغاته، إلى حد تحويل الأمنيات إلى أخبار كأنها الحقائق. ولكن المتلقين من كلا الجانبين تحركهم أمانيهم أيضاً..!

كانت الحاجة (أم سايحة) قد اشترت (راديو)، فهي القادرة الوحيدة في الجوار - بعد دار الجمل- على اقتنائه، وشراء بطاريات له ..! تتجمع النساء في بيتها عند المساء. هذه تريد الاستماع إلى القرآن الكريم، وتلك ترغب في أغنية لأسمهان أو أم كلثوم.. وبعض يتابعن الأخبار، وإن كن لا يقدرن على فهمها تماماً إلا أنهن بالحدس والتكهن يمكنهن تخمين اتجاه الرياح. وقد يتاح لي حضور جلساتهن هذه بصحبة أمي، إذ مازلن يرينني صغيراً، رغم بلوغي الرابعة أو الخامسة عشرة ..! عندئذ يمطرنني بأسئلة لا نهاية لها، حول ما يجري. يطلبن إليَّ ترجمة فصحى الراديو إلى لغة يفهمنها.. أو على الأقل، شرح ما استخلصت مما سمعت :

- انت متعلم يا ستي.. فهِّمنا الله يرضى عليك ..!

- احكي لنا يا خالتي الله يبعث لك بنت حلال تسعدك وترضيك ..!

وقد أكون - مثلهن - بحاجة لمن يفسر لي مضمون ما أسمع.

حين أسفرت المعركة عن هزيمة الجيوش الألمانية على تلك الجبهة، لم يصدق الناس ذلك.. أوهم لم يشاؤا أن يصدقوا بأن تلك الاسطورة التي رسمت في أخيلتهم عن القوة الألمانية، التي لا تقهر، يمكن أن تهزمها قوة على وجه الأرض. من ثم عليهم أن يتشبثوا بآمال تصنعها أخيلتهم، فحيناً يشككون في الأنباء الواردة إليهم، على أنها دعايات غربية مغرضة، وحيناً أنه لا بد وأن هناك خفايا لا يعلمونها وأن الألمان يدبرون شيئاً يفاجئون به العالم برمته، فراحوا من ثم يتناقلون أقوالاً مثل:

- لا بد أن في الأمر سراً لا يعرفه إلا الألمان أنفسهم .

- لسوف يفاجئ الألمان الدنيا باسرها بسلاح جديد يقلب مجريات الأحداث

رأساً على عقب. انتظروا بعض الوقت.. توقّعوا في وقت ليس ببعيد مفاجآت سارة. الدعاية الألمانية أيضاً كانت تقول ذلك.

- أليسوا هم الذين أذهلوا العالم بتلك (الطيارة بدون طيار).. وبالصاروخ (F2).. وبالغازات السامة ..وو.. ولا أحد يعرف ماذا لديهم أيضاً.. أسرار عسكرية عظيمة سوف يكشفون عنها عند استخدامها فقط، وفي الوقت المناسب..

- وكِّلوا الأمر لله (ياجماعة).. ومن توكل على الله كفاه...

على الرغم من الرتابة التي خلقتها حالة المراوحة بين الأمل والقنوط يحدث من حولنا ما يحرك المياه الراكدة في القرية. فوزية ابنة خالتي، تزف إلى غازي ابن الحاج أبو عون .و كما هي أعراس العائلات الموسرة، أقام هؤلاء عرساً حافلاً في بياراتهم غربي القرية. الدبكة والسامر وتخت الموسيقى من يافا. كانت الحفاوة بخالتي وأولادها، وبنا أيضاً واضحة، لكوننا أهل العروس ...!

عطلة المدارس الصيفية تنتهي، وينتقل أحمد إلى الصف الرابع. أما علياء فإلى الصف الثاني.. وقد أصبحت مشاغبة وطلباتها كثيرة.. لكنها كانت مصدر تسلية لنا، ولوالدتي على وجه الخصوص. فوزي ابن الخالة، يواصل عمله لدى عمه الهندي،ليصبح (معلماً لحاماً) تفخر به خالتي ..!

محمد الشريف يغدو رجلاً مرموقاً بين أهل القرية. يبني غرفتين إضافيتين في داره، وينشئ مضافة صغيرة يزوره فيها محبوه. يوسع دكانه على حساب قطعة الأرض الخلاء المجاورة لها، ولا يعترض عليه أحد. يستشيره الكثيرون في شؤونهم ويبثونه شجونهم .

أمينة التي تتضح معالم أنوثتها أكثر في كل يوم، تواصل مداعباتها ومشاكساتها، لا سيما بعد أن أصبحت تلميحات أمي وأبيها حول عزمهما تزويج (هذه البنت لسعيد أو لأمين) في الوقت المناسب ..! من جانبي لا أرى فيها أكثر من أخت لنا، نعيش معاً تحت سقف واحد .لكن ذلك يضايقها، بيد أنها لا تبدي غير الرضا والمودة .

نعيم يحنُّ إلى بولونية معسكر قطرة (ماريا)، التي لا يعترف بأن هناك امرأة أجمل منها (في العالم). نواصل عملنا في معسكر عاقر.. والطريق الطويل المضني، نقطعه ذهاباً وإياباً سيراً على أقدامنا، أيام الآحاد. لقد بتنا نغبط أولئك الذين يملكون الدواب، ويتخذونها وسيلة لنقلهم إلى المعسكر. يربطونها على السياج، دون أن ينسوا تعليق (المخلاية) في رقابها ملأى بالتبن والشعير تزيد عن وجبة غداء ..!

راديو الحاجة أم سايحة أصبح يغنينا، لبعض الوقت، عن راديو مقهى القاضي. يتحدثون عن فيلم جديد لأسمهان تمثل فيه وتغني. يقولون أنه سوف يهز الدنيا بقصته الغريبة وبأغانيها في ذلك الفيلم، التي سمعوا منها حتى الآن بالراديو ..(ايمتى حتعرف ايمتى.. إني بحبك انت).. (أنا اللي أستاهل كل اللي يجرى لي).. (أهوى يا من يقول لي أهوى). ومع كل أغنية حكاية يختلقونها. اسم الفيلم في حد ذاته مثير للخيال والجدل ..(غرام وانتقام). ومحمود عنان السفرجي، لا يفتأ يشنف أسماعنا، فيما هو يروح ويجيء، يحمل الأطباق الفارغة والملأى، بواحدة ثم بأخرى من تلك الأغاني، طوال نوبة عملنا مما يثير عجبنا وإعجابنا. كيف حفظها؟ من علمه غناءها وهي جديدة لم تسمع إلا عن قريب..؟ وهو يعدنا، أيضاً باصطحابنا لحضور الفيلم عند عرضه في سينما فاروق.. وربما الحمراء بيافا. غير أن نبأ مفاجئاً ينقض على رؤوس الناس كالصاعقة بغير مقدمات :

.... ماتت أسمهان ....! وماتت قبل إنهاء الفيلم .

ذهل الناس ولم يصدقوا.. لا بد أنه نبأ ملفق.. إلا أنهم ما لبثوا أن تأكدوا من صحة النبأ، بعد أن أذاعته الإذاعات، وكتبته الجرائد جميعاً. بل ووصف لكيفية موتها، غرقاً في النيل، وما أحاط بالحادث من غموض. فبعض نسبه إلى القضاء والقدر وحدهما، وبعض رأى فيه حادثاً مدبراً، وأن لزوجها الممثل (أحمد سالم) يد في ذلك وبعض أصرَّ على أن للانكليز يداً في الحادث، متذكرين الطريقة التي قتل فيها الملك غازي منذ سنين، وأكدت الأيام أنهم كانوا وراء مقتله.. صحيح ... ليس صحيحاً ... معقول ... ليس معقولاً ..! لكن الأنباء السيئة قلما تكون كاذبة : أسمهان ماتت. والحزن من أجلها في كل مكان. كانت كالحلم.. كالخيال.. كالأسطورة.. تلك الشمعة التي أضاءت ليالي سمرهم انطفأت سريعاً، فعمر الشموع قصير دائماً، وقد خلفت وراءها ظلاماً وقتاماً .

في المساء، ونحن جلوس على الشرفة، تناهى إلينا صوتها، من مقهى القاضي، حزيناً ومحزناً:

فرَّق مابينا ليه الزمان ... ده العمر كله بعدك هوان.

لم يمض زمن طويل على أحداث النورماندي، حين نقلت الأنباء حكاية جديدة هزت الدنيا باسرها لغرابتها وخطورتها. عن مؤامرة استهدفت حياة هتلر. ليس الانكليز ولا الأمريكان هم الجناة، لكنهم عدد من قادته أنفسهم. جنرالات وماريشالات، من ذوي الأسماء المعروفة والطنانة في الحرب. لكن الرجل نجا

بأعجوبة. بعد أن قتل معظم من كانوا معه في ذلك الاجتماع. ولأن هتلر هذا رجل (ضد الموت)، كما كان يحسب الكثير من الأصدقاء والأعداء، على حد سواء، فقد ذهب بعد الحادث بساعة أو نحوها فقط ،وكأن شيئاً لم يحدث، لاستقبال حليفه (موسوليني)، الذي كانت زيارته لألمانيا في هذا الوقت بالذات، محددة سابقاً ..!

حاروا في تفسير ما وقع لهتلر. فسره الأصدقاء بما يتفق وأمانيهم أيضاً، تشبثاً بالبقية الباقية من الأمل، الذي استقر في نفوسهم ورسخ في وعيهم، على مر السنوات الماضية. نجاة الرجل إذن دليل لا يدحض على أن العناية الألهية تريد له النجاة، لكي ينجز أموراً لم يخلق إلا لأنجازها ..! وإلا فما معنى أن يقتل من كانوا بالقرب منه و من حوله، دون أن يصاب هو بسوء؟ ما معنى أن تفشل خطة المتآمرين المحكمة، هذا الفشل الذريع ،ولأسباب واهية لا يصدقها عقل؟ ألا يعني هذا أن للرجل رسالة لم تتم بعد؟ وهي من وجهة نظرهم، خلاصهم من اليهود والانكليز معاً، ومن ثم الابقاء على بلادهم ملكاً لهم دون غيرهم من الدخلاء ؟. ذهبت الاشاعات كل مذهب. حيكت القصص، ونسجت الحكايا.. خيالية وأسطورية كانت، لكنها تلتقي جميعاً، في نهاية الأمر، عند نقطة واحدة، هي أن معجزة من السماء أنقذت لهم زعيم ألمانيا (هتلر).. الأسطورة ..!

أما أولئك في الجانب الآخر، فقد رأوا فيما حدث، وفيما سبقه من انهيارات لجيوشه، الجبارة على كافة الجبهات، دليلاً قاطعاًعلى بداية النهاية المحتومة. وإذا كانت هذه المحاولة باءت بالفشل، لسبب أو لآخر، فلا ريب أن محاولة أخرى أكثر إحكاماً سوف تنجز المهمة .

ولا ينقضي هذا العام قبل أن يختم أيامه بما هو أكثر فجيعة. وإن تكن هذه الفجيعة واحدة من ذيول المؤامرة على حياة هتلر. إنه (رومل) هذه المرة.. رومل الأسطورة الحقيقية، التي يكنُّ لها الأحترام، ويعترف لها بالعبقرية الفذة، الأعداء أنفسهم. أجل إنه رومل.. ثعلب الصحراء، هذه المرة. كان الاعتقاد سائداً بأن رومل هذا ما دام حياً، فسيظل هناك أمل يراود النفوس بعودة الأمور إلى نصابها، واتجاهات الرياح إلى مجراها الصحيح. لسوف يهزم الحلفاء على يديه، رغم كل شيء ..! لسوف يفاجئ رومل خصومه بما يقصم ظهورهم ..! أو ليس هو القائد الفذ القادر على اجتراح المعجزات ..؟ وهم الآن ينتظرون إحداها في هذا الوقت العصيب. ولكن ها هو ذا رومل يذهب. وحين يوارى رومل التراب، تدفن معه آمال كبيرة لبثت ردحاً من الزمن تضيء نفوسهم وتخفق بها قلوبهم .

ليس مهماً أن يعرفوا أسباب موته.. كيف؟ وأين..؟ انتحر..؟ أم قتل على الجبهة الروسية..؟ المهم أنه قد مضى. الفضول وحده يدعوهم للتساؤل والاستفسار. تقول الأنباء بأن الرجل كان ضالعاً في (مؤامرة تموز) على زعيمه هتلر. وأن هذا الأخير – حفاظاً على أمجاد رومل وشهرته، ثم تحسباً لردة فعل الشعب الألماني – قد خيَّره بين الانتحار في صمت، بالسم الذي أرسله إليه مع اثنين من مارشالاته، ورفاقه في السلاح، وبين محاكمة علنية تكشف دوره في المؤامرة، فاختار الرجل الانتحار، من أجل سمعته وأسرته وبلاده .

وحكايات تروى عن كيفية انتحاره.. عن شجاعته الفائقة في استقبال الموت أيضاً.. حديثه الأخير مع ولده وزوجته، قبل تجرع السم بدقائق معدودة. يخبرهم فيها بأنه ذاهب إلى حتفه. ماذا عليهم أن يفعلوا.. ترتيبات جنازته.. أن يتحلوا بالصبر والشجاعة.. يقبل زوجته.. يقبل ولده (مانفريد) يبتسم لهما ابتسامته الأخيرة.. وبريق دموع في عينيه.. ويمضي. وحين تبكي لأنه يقتل قتلاً وظلماً، يتندر ضاحكاً بمرارة، مذكراً إياها بحكاية سقراط في وضع مماثل تماماً، حين أجاب زوجته بقوله (وهل كنت تفضلين يا عزيزتي أن أقتل ظالماً ؟) .

مآتم في كل بيت.. والحزن في كل مكان.. يرددون.. (كل شيء يسير نحو الأسوأ ... اللهم الطف بنا و أعنا على ما هو آت).

لم نشعر باليتم، فيما مضى، على النحو المفجع الذي نحس في هذه الأيام. كان الأقارب والجيران، ومن حولنا جميعاً يشيرون إلينا، أو يتحدثون عنا، دون أن ينسوا إطلاق وصف (يتيم) على واحدنا. كان ذلك يخلف في نفوسنا الغضة إحساساً غريباً، هو مزيج من الشعور بالاختلاف عن الآخرين، إلى شعور بالحرمان والتسليم بقدرٍ لاحيلة لنا فيه. قدر فرضته علينا رصاصة أطلقها كائن ما وطئ أرضنا ذات يوم، قادماً من وراء البحار لكي يكتب مأساتنا الدامية، بحركة من إصبع يده ..! صورة لاتبرح مخيلتي ..

في أيامنا هذه، ومنذ زواجها، تغيرت أشياء كثيرة في حياتنا. لم تعد قادرة على التصرف كما تشاء. هي تراوح حيرى بين إرضاء الزوج، وبين الحدب على الأولاد، وحمايتهم من السوء، وحتى من هذا الذي يتبدى في عيونهم، ويرتسم على وجوههم من أسى ومرارة. من شأن ذلك أن يسهّد لياليها ويشقي حياتها. بيد أنها لا تملك أن تصنع شيئاً. بدت في كثير من الأوقات نادمة على ما جرى. كان في وسعها - هكذا مضت تحدث نفسها - بأن تقيم على رفضها الزواج. لقد صمدت في البدايات، فما بالها تنصاع بعد هذا الزمن لما أملته الظروف والأهل؟ أهي الحاجة؟ الضرورة؟ الأهل؟ أم هي كل هذه مجتمعة؟ حتى الجيران وإن كانوا متعاطفين معها، رحماء بها، إلا أنهم يحملون الأفكار ذاتها، والتقاليد عينها : صبية مثلها تعيش أرملة ما بقي من عمرها؟ كيف؟ أمر من الغرابة بمكان ..!

تفاقم إحساسنا بالظلم والحرمان والضياع. بتنا نرى في عيون الآخرين نظرات الرثاء تلسعنا كالسياط، رغم أن مبعثها هو عطفهم علينا. غير أنها ورغم النوايا الطيبة إزاءنا، تشعرنا بالدونية في كل الأحوال، وبأننا نفتقر إلى شيء يملكونه من دوننا. وعلى الرغم من أن أحمد وعلياء لا يدركان من الأمور ما ندرك (أنا وأخي سعيد)، إلا أن ملامح الانكسار البادية في أعينهما، لا تخفى على الناظر إليهما، حتى دونما إمعان. صديقي نعيم يلمس ما يعتمل في داخلي. يتجاهله تارة، ويتطرق إليه تلميحاً تارة أخرى. وحين لا يجدي ذلك يلجأ إلى

مباشرة غير جارحة، كأن يقول محتداً، أو متصنعاً الحدَّة :

- يا أخي يحدث هذا لكل الناس. الرسول عليه الصلاة والسلام عاش يتيماً.

- ولكنه يا نعيم ...

- أمك على الأقل على قيد الحياة.. أطال الله عمرها ..

فوزي ابن الخالة أيضاً، يقول شيئاً من هذا القبيل، كلما لاحت مناسبة مماثلة. بل هو يمضي ليقص عليَّ حكايا عن معاناته هو والشقيقات، وأنه يتحمل الكثير أيضاً، وأننا عندما نكبر ستتغير أشياء كثيرة.. أما الآن فما (باليد حيلة) على رأي الخالة نعمة ..!

لعل إحساسي هذا كان سبباً في إحجامي عن الاستجابة لمحاولات أمينة التقرب مني والتودد إليَّ، بوسائل شتى تلجأ إليها. فهي منذ وطئت قدماها أرض دارنا تمثلت لي ولأخوتي جزءاً، بل طرفاً فيما ألمَّ بنا. صحيح أنها مثلنا - يتيمة أيضاً من أمها - محكوم عليها أن تعيش أوضاعاً ليست من اختيارها، لكن هذا لا ينفي إحساساً فاتراً، أوقل نفوراً يعترينا نحوها.

في ذلك الصباح، وبطلب من أمي، ذهبنا معاً إلى الكرم نجني تيناً وعنباً وجميزا. في السنوات الأخيرة لم أذهب إلى الكرم إلا لماماً. أذكر الأيام الخالية التي كان يصحبني فيها والدي، إلى كرمنا الذي يقع إلى الشمال الغربي، عند أطراف البيارات المحاذية لرمال الشاطئ. تربته حمراء تنبسط الخضرة على أرجائها، فتبدو لوحة ملونة ساحرة، بين أشجار التين، والكرمة، والتوت، والزيتون، وجميزتان كبيرتان، وسدرة عند الطرف القصي على السفح الرملي في نهاية الكرم. فوضى الأشجار المتناثرة هنا وهناك على غير نسق، كانت أجمل ما تراه العين، إذ بدت آجاماً مبعثرة، على بساط تلونه حمرة التربة وخضرة العشب والبقول، حتى أن بعضها صنعت من تلقاء نفسها، ما يشبه الخيمة من أغصانها وأوراقها الكثيفة. عريش البوص قريباً من السدرة، حيث كان يحلو لوالدي تفيؤ ظله ليغفو ساعة القيلولة، فلا يفيق إلا نحو الغروب. يبادر عندئذ إلى جرة الفخار الحمراء العتيقة، يتوضأ من مائها البارد. هذا العريش مازال على حاله، ظليلاً تتسرب النسمات مابين عيدانه الملساء رطبة منعشة.

جيراننا (دار البوجي) أصحاب الكرم المجاور، يزرعون أرضهم تبغاً. لم أعرف ذلك إلا يوم اقترب أبي من حدود كرمهم، ليحيي عمال الورشة العاملة لديهم وأصحاب الكرم. كانت هناك أكوام من أوراق عريضة بنية وصفراء، يفرد

العامل ورقة على حدة، يضيف إليها أخرى ثم أخرى، إلى أن تصبح ربطة يرصها فوق الكومة العالية الكبيرة. رد القوم التحية بمثلها، ودعوا أبي مشاركتهم فنجاناً من القهوة، كانت تفوح رائحتها وهي تغلي على الموقد. بعدئذ جمع أبي عنباً وتيناً في سلة، بعد أن أسهمت في (التلقيط) معه. حملتها إليهم. تقبلها جيراننا شاكرين، داعين لأبي بدوام الخير والبركة.. وطول العمر أيضاً ..!

خرجت من شرودي.. من رحلتي في سني طفولتي الخالية، حين ألفيت نفسي وأمينة وحيدين تحت واحدة من أشجار التين، نقطف ثمارها، وقد اختفينا تماماً في ظلها الوارف. لقد تسربت خيوط من أشعة الشمس، التي استطاعت التسلل من خلال أوراقها الكثيفة، فرسمت بقعاً دائرية صغيرة، بدت كقطع ذهبية متناثرة تتلألأ على الأرض الرملية. تنبهنا إلى ما يعنيه الموقف. سادنا شيء من الاضطراب، الذي لم تكن أسبابه واضحة لنا. بدت أمينة شاخصة ببصرها إليّ، ترمقني وعلى شفتيها ابتسامة مرتبكة. خيل إليَّ أنها تتوقع مني الدنو منها. وإذ لم أفعل، اقتربت هي، فأصبحت أمامي تماماً. صدرها الناهض يرتفع ويهبط يتسارع غريب. أوشك صدرها أن يلامس صدري. ومضت في خيالي صورة امرأة ما، ورجل ما، في مكان ما، في وضع مماثل لوضعنا هذا. اكتسحني شعور مبهم، دفعني إلى الوراء دفعاً، في سرعة ومضة برق خاطفة. تنامى اضطرابي، وتسارعت أنفاسي اللاهثة. أطرقت أمينة إلى الأرض، وقد توردت وجنتاها، بل إن دموعاً لاحت تترقرق في عينيها. بعفوية مباغتة وجدتني أدنو منها.. أحتضنها.. أضمها إليَّ بحنان. أحسست أنها تعاني حالة مماثلة.. لم يزايلني شعور حنان أخوي يجتاحني نحوها. تندت دموع في مآقينا معاً.. كأنما توحدت أعيننا وقلبانا في جسد واحد وروح واحدة .

جلسنا تحت شجرة التين. وقتاً لا ندري مداه، نتناول حبات من قطوف العنب، غير واعين لحركة أيدينا، صامتين لكننا نتحدث بقلبينا وعيوننا، إلى أن قالت بلهجة تشي بذلك الحزن الدفين :

.. ليتنا نبقى وحدنا هنا زماناً طويلاً طويلاً ولا نرى أحداً ..

قلت متعباً، ترزح على قلبي هموم رجل في خمسينيات عمره الشقي :

.. ويمتد بنا الزمان إلى الأبد ..

.. لا أهل ولا أقارب أو أحد.. أيّ أحد ..

.. و لا انكليز.. و لا يهود.. حتى ولا عرب ..!

ما إن عدنا عصراً حتى ألفينا القرية على حال من الاضطراب والغليان، ذكرتنا بيومي مقتل المعلمة يسرى اليافاوية، والقتيل المجهول على طريق المغار. سيارات البوليس والجيش البريطاني أيضاً.. وتجمعات هنا وهناك. قالوا أن شباناً ثلاثة وجدوا قتلى على رمال بيارتهم. هم الأخوان أحمد وتوفيق النجار، وقريبهم نايف الشيخ ابراهيم. يلغط الناس في كل مكان بأقوال وحكايا في دهشة واستنكار :

.. ثلاثة دفعة واحدة ..؟ يا للمجرمين.. ثلاثة من عائلة واحدة.. ألا يخافون الله ... المنتقم الجبار ...؟ يا ويلهم من حساب يوم عظيم.. حسبنا الله ونعم الوكيل ...!

تعليقات شتى، وشائعات، وغضب، ووعيد وتهديد. ما يرنو إليه الجميع هو معرفة الجناة، الذين يجب أن يشنقوا عندئذ على هذه الجميزة.. هل كان القتلة يهوداً؟ ولكن هؤلاء لا يقاتلوننا في هذه الأيام. بل هم يوزعون المنشورات الداعية إلى تعايش و وفاق، معلنين في ذات الوقت أن نشاطهم يقتصر على الانكليز وحدهم. الأحداث خلال السنتين الأخيرتين تؤكد أن أعمالهم الارهابية موجهة للانكليز فعلاً، فما الذي غيرّ اتجاههم إن كانوا هم القتلة؟ وإذا لم يكن اليهود هم الجناة فمن يكون إذن ؟

يضرب الناس أخماساً في أسداس، ويطلقون التكهنات، في شتى الاتجاهات. بعض ذهب به الظن إلى الخصوم القدامى محمد اليوسف وجماعته. ولكن لماذا يقدم هؤلاء على هذه الجريمة النكراء بعد أن ساد الوفاق والوئام، أو على الأقل توقفت الخصومة منذ (الصلحة) التي جرت منذ زمن؟ ولكن أصحاب وجهة النظر هذه، لا يعدمون القدرة على إيراد المبررات والأسباب. فمحمد اليوسف قد يرى أن هذا هو الوقت الأنسب لأنهاء آل النجار، على مراحل، كقوة منافسة له في هذه الظروف المواتية. فما من أحد يعلم على وجه اليقين، ماذا يمكن أن يحدث غداً، وما الذي تخبئه الأيام. قد يذهب الانكليز.. ربما ينقلبون اليوم على حلفاء الأمس ولن يكون هذا غريباً عندئذ. فهم على مدى التاريخ لا يؤتمن

جانبهم، والتجارب معهم، والقصص المروية عنهم غير مجهولة.. قد.. وقد ...

اتخذ البوليس هذه المرة من المدرسة مقراً للتحقيق. ولكن كما حدث في مرات سابقة، أقفل التحقيق دون الوصول إلى نتائج حاسمة. وإذ علمنا فور عودتنا من الكرم بأننا كنا على مسافة قريبة من مكان الجريمة، أصابنا الهلع، فبيارة النجار، لا تبعد كثيراً عن الكرم، وأنه في الساعات التي كنا فيها هناك، كان البوليس والإسعاف ينقلون القتلى إلى القرية. أما من ذا الذي أبلغ عن الحادث، فهو جمَّال مرَّ مصادفة بمحاذاة بيارتهم، حين رأى جثثهم الملقاة على الرمال، ومن حولها بركة من الدماء، فانطلق مرتاعاً ليبلغ أهل القرية بما رأى. ولكن هؤلاء لم يصدقوا النبأ، أول الأمر، لغرابته و هوله. من ثم اقتادوه إلى المكان المزعوم، بعد أن أعلموا نقطة بوليس المحطة بالأمر .

آلت أمي على نفسها، ذلك اليوم ألا نذهب إلى الكرم، أو إلى أرضنا وحدنا بعد ذلك. حمدت الله على نجاتنا، فيما هي تلوم نفسها على ما أقدمت عليه، وكان ممكناً أن يجلب لنا الأذى. كما أنها قررت أيضاً أن (تضمّن) الكرم في الموسم القادم لأي ضامن يتقدم إليها، كما كانت تفعل في السنوات الماضية. لم تستقر القرية بعد ذلك على حال. فالتوجس والحذر والريبة تنتاب الجميع. يفكرون حيناً في اليهود، وحيناً في دار أبو سالم. قال قائل منهم :

.. اليهود إذن بدأوا يتجهون إلينا من جديد، بعد الانكليز.. وهذه جريمة لا يقدم عليها إلا اليهود قساة القلوب .

.. هم لا يتورعون عن قتل أبناء جلدتهم، إذا ما رأوا في ذلك مصلحة لهم، في سبيل تحقيق أهدافهم. أم تراكم نسيتم بواخر المهاجرين التي نسفوها، كالباخرة (باتريا) في خليج حيفا، التي فجرها أحد إرهابييهم ويدعى (مناحيم بيغن). لقد ضحوا بكل من على متنها بجريمة بشعة، فقط لكي يلصقوا بالانكليز تهمة إعاقة الهجرة ..! بل إن قيادات منهم، كما يتردد ويقال، ضالعة مع النازيين أنفسهم، من أجل تهجير المزيد منهم لبلادنا، عن طريق إرهابهم وتخويفهم بما يثيرونه ويشيعونه، وهو صحيح حيناً وباطل حيناً، عن أعمال إبادة وتعذيب يوقعها بهم أولئك. الغاية من وراء ذلك أن يدفعهم الذعر إلى الفرار. ومن ثم الهجرة إلى فلسطين. وما داموا يقترفون جرائم بهذا الحجم ومن هذا القبيل حيال شعبهم نفسه، فأين وجه الغرابة في قيامهم بقتل عدد من العرب هنا أو هناك..؟

من جديد شرعوا في البحث لتأليف لجان تتولى أمور التسلح، وتحصين

القرية، وتنظيم حراسات ليلية عند مداخلها. ولأن المال اللازم غير متوفر، فقد رأوا تأجيل مشروع تمديد المياه إلي البيوت، ومشروع بناء المدرسة في الحراز الجنوبي، حتى بعد أن قطعوا شوطاً لا بأس به في هذين المشروعين .

منذ زمن بعيد لم تشهد القرية مأتماً كهذا.. الناس عن بكرة أبيهم في حداد. شارك الجميع في العزاء، كما في تقديم الواجب.

وفي السرادق الكبير، الذي أقيم في الساحة العامة، تجمع المعزّون على مدى ليال ثلاث. بل استمروا بعد ذلك يسهرون لأكثر من أسبوع آخر. حيث يعقدون اجتماعاتهم ويتخذون قراراتهم .

آل أبو سالم، وفي طليعتهم محمد اليوسف، شاركوا في العزاء، وقدموا لذوي الضحايا ما تقتضيه المناسبة، سواء على صعيد المواد العينية أو إبداء المشاركة في المشاعر. عندئذ لام بعض الناس أنفسهم، إذ ذهبت بهم الظنون حد اتهام هؤلاء الأبرياء من دم آل النجار، مرددين ألا (إن بعض الظن إثم) أيها الناس ..! فيما استرسل آخرون في شكوكهم قائلين بأن محمد اليوسف (هذا الداهية) لن يدع الشكوك تحوم حوله، وتمسك بتلابيبه، دون أن يصنع شيئاً. ألا إن هذا الرجل (يقتل القتيل ويمشي في جنازته) دون أن يرف له جفن ..!

قبل أن يلم الكرى بجفني تلك الليلة، ألفيت نفسي في ظل شجرة التين العتيقة.. وأمينة مضطربة خافقة الصدر.. متوردة الوجنتين.. تلوذ بي فيوشك صدرها أن يلامس صدري.. أنفاسها تلفح وجهي.. أغمض عيني.. ومعاً نمضي بعيداً ...

قبل أن ينتهي العام تصاعدت أنباء هجمات اليهود علـى الانكليز. قيل إنهـم قتلوا في القاهرة شخصية بريطانية هامة.. وزير خطـير يدعـى (اللـورد مويـن). أثار ذلك غضب الحكومة البريطانية، التي رأت أن اليهود يمرغون كرامتها فـي الوحل، ليس في فلسطين وحدها، وإنما في خارجها أيضاً. شرعت تهدد بالانتقـام لكرامتها، مذكرة إياهم، بجميلها ومكرماتها التي أغدقتها عليهم، على مر السـنين، وفي كل الظروف، والتي لولاها لما قامت لهم قائمة في هذه الديـار. بل إنهـا - فوق ذلك كله - هي التي أنقذت الكثير منهم من بطـش النازيـة.. ثم جـاءت بهـم إلى فلسطين، وفرضت على أهلها الأصليين والشرعيين وجوداً لهم فيها .

يفـرح العرب و يشـمتون بهـؤلاء البريطـانيين، الذيـن يلقـون اليـوم (جـزاء سنمار) مـن أصفيـائهم وأوليـائهم. ولكـن الفرحـة لا تطـول، فتطـورات الحـرب المحتدمة في أوروبـا لا تسـر. وهـي تسير كـل يـوم مـن سـيء إلـى أسـوأ. هـذه الحرب التي يتوقف الكثير، بالنسبة لهم، على نتائجها. وحين تفيض بهم المـرارة يرددون (... يا جماعة المتعوس متعوس.. لو علقوا على راسه فانوس ..) (اللي ماله حظ لا يتعب ولا يشقى..)، (الألمان يا شايف الزول يا خايب الرجا...)

وما أن يدخل العام الجديد، وتمضي ليالي الاحتفالات بـالميلاد ورأس السنة حتى تأخذ الأمور في التفاقم أكثر فأكثر. فالألمان بعد انسحابهم مـن بـلاد كثيرة، سبقت لهم السـيطرة عليهـا فـي سـنوات الحـرب الأولـى، يـتراجعون الآن عنهـا، ويلوذون بـالأراضـي الألمانيـة ذاتهـا، أمـام زحـف قـوات الحلفـاء بقيـادة الجنرال الأمريكـي (أيزنهـاور) والماريشـال البريطـاني (مونتجمـري). تقـول الجرائـد والاذاعات يوماً أن الألمان خسروا مائة وعشرين ألـف رجـل.. وسـتمائة طـائرة وسبعمائة دبابة.. و و.. ويوماً تقول ذبح من الألمـان تسـعون ألفـاً مـن أصـل مـا يقارب الثلاثمائة ألف، الذين أسرتهم القوات الروسية الزاحفة، وأن هؤلاء اقتيـدوا إلى سيبيريا، لكي يلقى آلاف منهـم حتفهـم فـي أصقاعهـا الجليديـة الرهيبـة بـرداً وجوعاً وإعياءً قيل أن (ستالين) يتمنى لو استطاع إبادة الألمان حتى آخر رجل.

وما أن يحل ربيع هذا العام، حتى تتـوارد الأنبـاء معلنـة عن هزائم جديـدة

مني بها الألمان، وعن تقدم جديد لقوات الحلفاء في الأراضي الألمانية ذاتها. يصاب الناس بالأحباط ويعتريهم القنوط. على المقاهي يتحلقون ويلصقون آذانهم بالراديو. كما أنهم يتخاطفون الجرائد الواردة من يافا (فلسطين) و(الدفاع). وفي البيوت، وعلى المصاطب في المساء، حيث يتناولون القهوة والشاي على ما جرت عليه عادتهم، في الظلمة، أو في ضوء القمر، لا حديث لهم غير هذه التطورات العجيبة، التي لم تخطر لهم على بال. واعتقد الناس أنه ليس سوى حظهم السيء هو سبب هذه الكوارث ..! و لابد أنهم في مقبل الأيام، سوف يلقون من العنت وسوء المعاملة الكثير من قبل الانكليز. أما اليهود فالاقتتال معهم محتم، دونما ريب. وعندما تلتقط آذانهم، ذات يوم، نبأ ساراً هو موت (روزفلت) رئيس أمريكا، فبالكاد يصدقونه، لأنهم تعودوا الاستماع إلى الأنباء السيئة وحدها في الآونة الأخيرة. غير أنهم حين تأكدوا من النبأ فرحوا واستبشروا خيراً، ظناً منهم بأن هذا سوف يؤثر على مجريات الحرب.. وبالتالي ربما تحل المعجزة المنتظرة ..!

.. مات روزفلت يا شباب.. من هو هذا الروزفلت ..؟ حليف الانكليز وصديق اليهود ..مبروك.. اللهم ألحق به تشرشل ..!

يتبادلون التهاني في المقاهي والطرقات والبيوت. أبو داوود يقدم الشاي والقهوة لكل رواد مقهاه مجاناً. رشيد الجمل ينذر أنه سيضحي بقطيع من الغنم.. أصحاب الدكاكين يوزعون الملبس والحلوى. لكنهم وقبل أن يتمادوا في أفراحهم، تأتيهم أنباء تراجع الألمان وانكفائهم، حتى برلين ذاتها، ثم إحاطة القوات الروسية (بالرايخستاغ) مقر هتلر ذاته.. ثم.. ثم.. النبأ العظيم الذي غطى على كل الأنباء وأتى على البقية الباقية من أي أمل ما زال يتردد بين جوانحهم.. كان النبأ العظيم الذي دوى ضجيجه، وتردد صداه في أرجاء العالم قاطبة، وتقرر به وعلى أثره الكثير مما له علاقة بمستقبل البشرية كافة، على ظهر هذه الأرض لحقب طويلة قادمة هو :

- نهاية هتلر.. مات هتلر منتحراً ..!

هل ينتهي هذا الرجل الذي دوّخ العالم بأسره هكذا؟ الرجل الذي كان اسمه وحده يلقى الرعب والرهبة في النفوس ..؟ الرجل الذي ينسبون إليه مسؤولية موت عشرات الملايين من البشر.. ودمار قارة أوروبا ..؟

قالوا إن قذائف المدفعية الروسية دمرت ما يسمونه بمستشارية الرايخ، مقر قيادته، فقتل ومن معه من القيادة الألمانية العليا، ومشاهير القادة الذين يعرفهم

العالم باسمائهم.. وقالوا إن هتلر انتحر بالسم، ومعه (إيفابراون) عشيقته، التي تزوجها قبل موته بساعات فقط ..! بل كان انتحاره بإطلاق الرصاص على نفسه.. كما انتحر معهما أيضاً وزيره الأثير غوبلز، ومعه زوجته وأطفاله الستة، الذين تجرعوا السم جميعاً.. وقالوا إن هتلر اختفى ولا أحد يعلم مصيره.. ولسوف يظهر فيما بعد، على نحو أو آخر، ليقود الألمان إلى النصر المؤزر ..!

علق الكثيرون آمالهم على القول الأخير. استساغوه فرجحوا كفته، ربما لأنه يتفق مع تمنياتهم وأمانيهم.. نعم مثل هتلر لا يموت بسهولة هكذا.. أو لابد أن هناك سراً.. لكن ألمانيا نفسها، ها هي ذي تستسلم أيضاً لقوات الحلفاء.. ألمانيا بجبروتها، وعظمتها، وجيوشها الهائلة، التي ما حسب أحد يوماً أنها يمكن أن تقهر.. ألمانيا باسلحتها المعروفة والسرية.. ألمانيا هذه تستسلم.. فيا لشؤم الطالع وبؤس المصير ..! كانت عيونهم تنطق بهذا قبل ألسنتهم، وفي يقينهم أن الغيب يخبئ لهم في ثناياه ما هو أدهى وأمر، مما يبعث منذ الآن على الرهبة والروع .

.. ترى ما الذي تخبئه الأقدار ايها الأخوة ..؟

.. علم ذلك عند علام الغيوب ..

لكن بارقةً من الأمل لاحت في الأفق، في خضم ذلك الطوفان من عوامل الإحباط والخوف والتشاؤم، فتشبثوا بها تشبث الغريق بالقشة، رغم أن أهميتها لم تكن من وزن الأحداث الجارية، إلا أنها من شأنها أن تمنحهم شيئاً من الطمأنينة. بارقة الأمل هذه تمثلت في الأعلان عما أسموه بميثاق الجامعة العربية. هذه الجامعة لن تسمح باستفراد اليهود بهم. ولسوف يكون لها شأن وأي شأن، لاسيما وأن الانكليز باركوها وأقروا قيامها كما يقولون. فلتهدأ النفوس، وتطمئن القلوب إلى حين..

لعل ضمائر هؤلاء الانكليز قد صحت أخيراً وأرادوا التكفير، في نهاية الأمر عما اقترفته أيديهم بحق الأمة العربية..! من يدري..؟ كل شيء جائز في هذا العالم الغريب.. !

- ٥٠ -

أفراح المعسكر ومن فيه تفوق الوصف. ما كنا نشهده في المناسبات التي مضت لم يكن شيئاً مذكوراً، إذا ما قورن بما يجري الآن.

انتهت الحرب العالمية. ولن يطول بهم الوقت قبل أن يعودوا إلى بلادهم. الأغاني والموسيقى تصدح بها مكبرات الصوت، في كل مكان. كأن النظام الصارم المعهود قد انقلب إلى فوضى جارفة. أو كأن المسئولين يتساهلون اليوم للمناسبة السعيدة. أفواج من اليهود - أغلبهن نساء - تنقلهم الحافلات، قادمة من المستعمرات القريبة. الرقص، الشراب، تبادل العناق والقبلات.. أفواج من البولونيات ببزات عسكرية، قدمن أيضاً، فأضفين على الحفلات الصاخبة، مزيداً من الألق.

وحدنا، العدد القليل من العمال العرب، نرنو إلى ما يجري، وكأننا في عالم من خيال. وحين تقع الأعين علينا، تطل منها الريبة والتوجس. الطاهي اليهودي (سمحون) يقول لنا والشماتة بادية في عينيه :

- أرأيتم (يا زملائي الأعزاء) كم كنتم مخطئين أنتم وبقية العرب في انحيازكم للألمان؟ ها هو (هتلركم) انتهى.. ألمانيا.. النازية.. كله راح في داهية..!

يلوّح السفرجي محمود عنان بيده وكأنه غير مبال بكل ما يجري.. وهو يقول (أكثر من القرد الله ما سخط).. يدير ظهره منصرفاً وهو يغني (إيمتى حتعرف ايمتى.. إني بحبك إنت ..!.) سنرى فيلم غرام وانتقام في سينما فاروق هذين اليومين يا أولاد ..! الشاويش (هنري) في لحظة يبدو مرحاً ومبتهجاً، وفي اللحظة التي تليها ينطلق صوته مدوياً. شاتماً، لاعناً، ثم منادياً :

- أمين.. قل لهؤلاء الأوغاد من زملائك بأن يكفوا عن ضجيجهم، وإلا ألقيت بهم في واحد من هذه الأفران...!

وحين يجدني قد لبثت صامتاً، ومندهشاً أيضاً، يصرخ من جديد (لماذا لا تترجم لهم ما أقول يا أمين.. قل لهم هذا ..). ثم ينصرف قبل أن يتأكد من أني

نفذت تعليماته. نعرف عندئذ أنه في حالة من السكر الشديد، كد أبه في كل الأوقات. بدأت تساورنا الشكوك في أمر بقائنا في العمل، نحن العمال العرب. ما حاجتهم لنا بعد أن انتهت الحرب؟ أحمد المصري أيضاً يبثنا مخاوفه، إذ هو لا يدري ماذا يصنع، وإلى أين يذهب لو حدث ذلك. وحين سألته عما إذا كان لا يرغب في العودة إلى بلاده.. وأنه ينبغي أن يكون أكثرنا فرحاً بعودته إلى وطنه وأهله، قال وهو يشرد ببصره إلى بعيد :

– ليست المسألة ما إذا كنت أحب مصر.. بل كيف لا أحبها يا مجنون؟ ظروف معينة جاءت بي إلى بلادكم، ولو لاها لما رأيتني هنا.. ما من أحد يهجر بلده بمحض أختياره يا أولاد. وحين قلت له بأن بلادنا هي بلاده، وأننا تعلمنا أن بلاد العرب جميعاً أوطان لنا جميعاً.. حتى ذلك المقطع الخاص بمصر رددته على مسمعه ضاحكاً ..(ومن نجدٍ إلى يمنٍ.. إلى مصر فتطوان ..)، لم يعقب وكأنه يغيّر موضوع الحديث فيقول :

– ما رأيكم لو نذهب الآن معاً إلى رخبوت، وترى صديقتك سارة أيضاً ،

أو مات برأسي على الفور.. بلا.. فيما لبث نعيم صامتاً. فمضى عنا أحمد المصري وهو يلوح بيده .

– اذهب وحدي.. (طول عمري عايش لوحدي).. سوف أسلّم لك على سارتك ..!

وحين سألني نعيم لماذا لم نذهب مع أحمد، أبديت له تخوفي من اليهود، وكل ما له صلة بهم. فهل نذهب إليهم بأنفسنا تحملنا أقدامنا، مخاطرين بأرواحنا؟ ثم ألم تر إلى سارة وأحاديثها المريبة؟ أكد لي نعيم بأن مخاوفي هذه مبالغ فيها، وأنه من الواضح أن سارة تحاول أن (تبلفنا) بأن تدخل في أفكارنا أموراً تهمها، ولكن بما أننا نعرف هذه الحقيقة فيمكننا أن نتظاهر بموافقتها على آرائها، نستمتع معها، وفي نفس الوقت نلتزم جانب الحذر. أكدت له أيضاً: أنه من الخير لنا أن (نبعد عن الشر ونغني له) كما تقول أمي دائماً .

مضينا إلى حيث تقلنا سيارة الجيش إلى يبنا، فأدركناها في اللحظة الأخيرة قبل انطلاقها .

ترد الأنباء من سوريا بما يقض المضاجع. الفرنسيون يقصفون أحياء دمشق، ومدناً أخرى. كما أنهم يهاجمون المجلس النيابي السوري، فيقتلون الحامية التي دافعت عن مبنى البرلمان ببطولة نادرة، حتى لحظة استشهادها. قامت المظاهرات، في كافة أرجاء فلسطين، معلنة الاحتجاج والاستنكار، أعلنت الجماهير استعدادها للتطوع، والذهاب إلى سوريا لتشارك الأخوة هناك قتالهم، ضد الاستعماريين الفرنسيين. أحس الفلسطينيون أن إخوتهم في سوريا يتعرضون لمثل الذي يقع لهم. وهم يذكرون للشعب السوري نصرته لهم على الدوام، وفي كل الظروف. وما استشهاد القسام عنهم ببعيد. قيل إن الشهداء بالمئات وان أحياء برمتها أحرقت بل إن حيَّاً بأكمله يقع بمحاذاة سوق الحميدية الشهير وغربي الجامع الأموي قد احترق تماماً.. والثورة تعم الآن كافة أرجاء الشقيقة سوريا. أخذ الناس يتساءلون في دهشة واستنكار : هل هذا أول بوادر انتصارات الحلفاء؟ التنكر لنا نحن العرب في جميع أوطاننا ..؟ صورة أخرى عما حدث في أعقاب الحرب العالمية الأولى فيما سلف. نعم فهم ينظرون إلينا على أننا أمة واحدة، على الرغم من تقسيمهم لبلادنا إلى عديد من الدول والأوطان، تحت أسماء مختلفة ... هم هكذا.. أطماعهم القديمة هي هي.. عداؤهم القائم منذ الحروب الصليبية هو هو لم يتغير.. وفلسطيننا هذه أليست هي سوريا الجنوبية قبل التجزئة ..؟ سايكس بيكو.. وبلفور.. والخيانات ..؟

لبث الناس في غليان.. ويبلغ حماسهم عنفوانه حين يسمعون أصوات الحاكي في كل مكان : سلام من صبا بردى أرق / ودمع لا يكفكف يا دمشق.. و.. دم الثوار تعرفه فرنسا/ وتعرف أنه نور وحق.. و.. للحرية الحمراء باب / بكل يد مضرجة يدق ...

وتتصدى قوات البوليس البريطاني للتظاهرات. لقد ساءهم أن ينتصر عربي لعربي.. وأن يروا وحدة المشاعر تتجلى في الأوقات العصيبة، في أقوى مظاهرها، رغم عوامل التجزئة ومحاولات التفرقة. ولم تتوقف المظاهرات إلا حين جاءت الأنباء عن توقف الأعمال الاجرامية الفرنسية في سوريا، وتدخل

جهات دولية، لصالح الأخوة في سوريا .

قبل أن تنعم قريتنا بشيء من الهدوء إثر الأحداث الأليمة الأخيرة في الشقيقة سوريا، فوجئوا بنسف جسر السكة الحديد شرقي بينا. اليهود هم الذين قاموا بذلك، هذه المرة. لقد لجأوا مؤخراً إلى أسلوب جديد ماكر. فهم يتعمدون أن تقع عملياتهم على مقربة من القرى والمدن العربية، لكي يسهل عليهم إلصاق التهمة بأهلها، عندما يرون ذلك ضرورياً. وتنطلي الحيلة على الانكليز، فيعمدون إلى التنكيل بالأهالي العرب. وهذا تماماً ما حدث، فلقد هرعت قوات بريطانية إلى القرية، فطوقتها من كافة جهاتها. ثم قامت بتفتيش المنازل، وتوقيف الشباب، والتحقيق مع الكثيرين، عن طريق الاستجواب واستخدام الكلاب البوليسية. استمر ذلك طوال اليوم، ولم تنته الحملة لولا ان أعلنت عصابتا (إيتسل وليحي اليهوديتان) مسؤليتهما عن العملية، وأنها تمت رداً على الانكليز لإعدامهم منذ شهور قاتلي (اللورد موين) في القاهرة .

ذات صباح من شهر آب، صحا العالم على نبأ لحادث لم يسمع بمثله من قبل، في تاريخ البشرية. فاكتسحت الدنيا بأسرها موجة من الفزع والهلع، وعدم التصديق غرابة ودهشة. ذلك أن قنبلة واحدة ألقيت فوق مدينة يابانية اسمها (هيروشيما) فدمرت المدينة تماماً، وأفنت كافة الأحياء فيها من إنسان وحيوان ونبات. ما يربو على مائة ألف من البشر، قضوا نحبهم في لحظة واحدة..! عقدت الدهشة ألسنة البشر، وشلت عقولهم، وأججت أحاسيس الخوف الغريزي لديهم على مصائرهم، من ذلك الهول الذي يمكن أن يحل بهم .

هل يمكن أن تفعل قنبلة واحدة مثل هذا؟ ومن أين للأمريكيين قنبلة كهذه؟ ولماذا يلقون بمثل هذه القنبلة على مدينة كهذه، فيقتلون أهلها بمن فيهم أطفال ونساء وأناس عاديون؟ وأي قلب متحجر هذا الذي يأمر بجريمة على هذا القدر من الهول والجسامة؟ تساؤلات ما فتئ الناس يرددونها في سائر أرجاء البلاد، والرعب والأسى يأخذان منهم كل مأخذ، ليس في بلادنا وحدها، بل في شتى أقطار الأرض. فلا حديث للأذاعات والصحف غير هذه القنبلة، وآثارها الناجمة عنها، حاضراً ومستقبلاً. والتبرير الذي عمد إليه أصحاب الفعلة الشنعاء، هو أنهم أرادوا إنهاء الحرب مرة واحدة. لكن آخرين قالوا أنهم قاموا بذلك انتقاماً من اليابانيين لغاراتهم من قبل على ميناء (بيرل هاربر). وكان ذلك بتوصية لرئيس أمريكا (ترومان) من قائد الجيوش الأمريكية في الشرق الأقصى، وهو الجنرال (ماك آرثر). انتهت الحرب في ذلك الركن القصي من هذا العالم المتعب،

باستسلام اليابان دونما قيد أو شرط .بعد أن ألقواقنبلة مماثلة على مدينة أخرى اسمها نجازاكي. شلت الحياة في يبنا الأيام، فالناس جميعاً يهيمن عليهم الذهول والقنوط لهول ماسمعوا.

حملت لوحة التعليمات المعلقة عند بوابة المعسكر إعلاناً للعمال العرب بعلمهم بأمر الاستغناء عن عديد منهم في الحال، بينما يحتفظ ببعضهم حتى إشعار آخر. وما هي إلا أيام قليلة حتى كنا نقبع في قريتنا دون عمل. لم يدعوا لنا وقتاً نتدبر فيه أمرنا. نتلفت عند مغادرتنا بوابة المعسكر، للمرة الأخيرة في أسى وحسرة، على الأيام التي أمضيناها من أعمارنا هناك، نقدم لهم خدماتنا في وقت حاجتهم إلينا.. وخدمة لمجهودهم الحربي .

في يبنا عند العصر، نتمشى على الطريق بين المقاهي والدكاكين. أجهزة الراديو ترسل خليطها المعتاد من الأصوات، إذ يبث كل منها إذاعة مختلفة. الصبايا يحملن الجرار غاديات رائحات، ويسرق النظر إليهن خلسة رواد المقاهي من الشبان، يناديني الحلاق أحمد الجمل، يعرض عليَّ العمل في دكانه حيث أنال الحسنيين معاً – كما قال – الأجر ومواصلة تعلمُ الحلاقة ..! أما الأجر فمبلغ يتفق عليه، وكمية من الحبوب، التي هي أجور عمله، التي يتقاضاها سنوياً عن حلاقة الرؤس والذقون ..!

اجتمع شملنا (رفاق المدرسة)، بعد أن تعطل معظمنا عن عمله. والآخرون عادوا من مدارس يافا والقدس، لقضاء العطلة. نتحدث عن المستقبل الذي ينتظرنا، فلا نرى في الأفق بادرة تضيء لنا طريقاً، أو تمهد لنا سبيلاً. على أية حال، وما دامت الحرب قد انتهت فلسوف تتغير أشياء كثيرة .

نتناول عشاءنا في المساء، في صمت مطبق. أمي مستغرقة كل الوقت في تفكيرها حول أخي الغائب. أمينة كعادتها تسارقني النظرات، محاولة ألا يلحظ أحد ذلك، فيما يمعن والدها في صمته الأزلي. وهو قلما ينطق إلا إذا رأى ضرورة قصوى لذلك تستدعيها الحاجة. أمينة هي التي تقوم أيضاً بإعداد الطعام، في هذه الأيام .

حلم رأته أمي الليلة الفائتة. رجل يقرع الباب.. تفتحه للطارق، فيبشرها بأن كيساً من الدقيق في طريقه إليها، غداة ذلك اليوم. أيقنت أمي بأن (سعيد) عائد اليوم إليها، فأحلامها تتحقق بحذافيرها دائماً. ولن يكون كيس الدقيق سوى أخي سعيد..! لم يحدث مرة واحدة أن كانت أحلامها مجرد أضغاث. حتى يوم مقتل زوج خالتي نعمة الأول ،(أبو فوزي) رأت ذلك في منامها – كما حدثتنا فيما بعد

وأمّنت الخالة على أقوالها - رأتها في ثياب سوداء تبكي وتلطم خديها. وفي عصر ذلك اليوم، قتل الانكليز زوجها أمام دكانه. وحين ذهبت أمي إليها، إثر سماعها النبأ المفجع، وعقب انصراف الجناة، لم تفاجأ بما رأت.. كانت خالتي، تماماً كما شهدتها في حلمها.

عند العصر من ذلك النهار، طرق الباب، وكان أمامها سعيد ..! لم تفاجأ بقدومه. كانت في انتظاره، واثقة وعلى يقين. بدا سعيد أكبر بكثير من مدى شهور غيابه. كما بدا أكثر اتزاناً وهدوءاً، لكأن الغربة تركت فيه آثارها. نسيت كلمات التأنيب التي كان تعدها له، كل الوقت، في غمرة فرحها. احتضنته، فيما تساقطت الدموع على وجنتيها، وهي تقول بصوت مبحوح :

- الحمد لله على سلامتك يمه.. برضاي عليك لا تعيدها ...

غمغم سعيد بكلمات يعدها فيها بما طلبت إليه، فيما أرنو إليه منتظراً دوري كي أعانقه. قلبي يخفق بهجة وحبوراً، فيما تندت عيناي بدموع الفرح بعودة الغائب .

على الرغم من كل شيء، أحس الناس بشيء من الأمن والأمان، ما دامت الحرب قد انتهت، فلا تحسُّب لغارات جوية على الموانئ والشواطئ، ولا أضواء زرقاء ولا تعتيم. كبتُ الرغائب والأهواء، على مدى سنوات الحرب الماضية، بحاجة الآن إلى ضرب من الأنفراج. تذكّروا المواسم التي طالما تاقوا إليها.. النبي صالح في الرملة. ولكن هذا الموسم فات أوانه الآن.. النبي روبين شمالي يبنا وجنوبي يافا. تلك البقعة من أرض فلسطين، كانت في يوم من الأيام، قبل الحرب موسماً للاصطياف وقضاء أجمل الأيام. لماذا لا يحيونه الآن؟ وهذا هو أوانه المعتاد على مر السنين، وما بين منتصف شهر تموز ونهاية شهر آب. على سلسلة من التلال الرملية، يتوسطها مسجد له مأذنة، شاهقة الارتفاع، تبدو وحيدة فريدة في المكان. في صحن المسجد بناء متواضع، هو مقام النبي روبين. لا تتجاوز مساحته بضعة كيلومترات من الرمال، تحتضنها من الشرق والجنوب بيارات البرتقال والليمون، ومن الشمال نهر روبين، يحاذي بمروره بداية التلال الرملية. ومن الجهة الغربية البحر، تضرب أمواجه رمال الشاطئ في رفق حيناً، وفي صخب أكثر الأحيان. لوحة نادرة في جمالها وتناسق ألوانها. هنا تقام احتفالات تمتد طوال زمن الموسم، يقضيها على رماله أبناء البلدان المجاورة، الذين يتقاطرون من كل صوب، فتتقلب هذه الرقعة إلى جنة صغيرة وارفة. حيث ينطلق رواد المكان على سجاياهم في حياة موارة حافلة بالبهجة والفرح. يفدون من يافا واللد والرملة، والقرى التابعة لها، يا زور وبيت دجن وصرفند ويبنا والقبيبة، على ظهور الجمال. تستأجر العائلة ثلاثة جمال أو أربعة. يمتطيها أفرادها ويحملون على ظهورها ما يحتاجونه من أدوات الرحلة. والمأكل والمشرب، فضلاً عن الخيام، إذ لا يوجد في أرض روبين أيّ بناء، بل هي أرض خلاء. وتسير القافلة على رنين الأجراس المعلقة، في سلاسل تحيط برقاب الجمال. لكل من الأجراس نغم مختلف، فتصدر عنها، من ثم، موسيقى ذات إيقاع رائع. حتى ركوب الجمال له تقاليد مرعية، منها (الهودج) الذي تجلس فيه فتاة أو فتيات الأسرة اليافعات. وفي مقدمة القافلة غلام يركب حماراً يشد

لجامه إلى عنق الجمل الأول. يمضي الركب (على بركة الله) بين الأغاني والأهازيج ورنين الأجراس. وغالباً ما يكون المسير عند المساء، في الليالي المقمرة، تداعب وجوههم وأجسادهم أنسام الصيف الرخية، قادمة فوق مياه البحر من الغرب. طريقهم عبر بيارات البرتقال، وأشجار الكينا والزيتون والكروم، يعطر الأجواء شذى أوراقها وأشجارها ..

تتخذ القافلة لنفسها موقعاً على الرمال، تحط عليه رحالها. يأخذ الرجال والغلمان في بناء الخيام، وإعداد أدوات المعيشة. ويهب الجوار، الذين سبقوهم إلى المكان، لمدِّيد العون لهم متطوعين، من تلقاء أنفسهم. ولا يرتدي أحد ما ألف ارتداءه. فلا قمصان ولا رباط عنق لأهل المدن.. لا كوفية ولا عقال لأهل القرى. الثياب الطويلة والجلاليب وحدها. يمشون حفاة بلا أحذية ولا نعال، فالرمال هشة ناعمة صافية كذرات الذهب، وفي نعومة الحرير. ينسون همومهم أو يتناسونها إلى حين، على مدى شهر أو يزيد. أكبر همهم ما يأكلون وما يشربون.. أين يسمرون.. وإلى متى يسهرون.. بل إن بعضهم يمضي الليل حتى مطلع الفجر، ساهراً مع الرفاق، فوق الرمال، والبحر عن كثب يرسل أنسامه الحانية .

عند العصر تجلس النساء، لاسيما القادمات من المدن على السفح، ومن تحت أقدامهن، على مبعدة أمتار ينساب النهر، متجهاً إلى مصبه، ومن ورائه تنبسط موجات من بيارات البرتقال الخضراء على مدى البصر. الرجال ينتشرون على المقاهي، أو في مجموعات متفرقة، أمام الخيام أو بعيداً عنها. وغالباً لا بسط و لا كراسي أو مقاعد. على الرمال يجلسون.. ناعمة رقيقة كحرير دمشقي .

أوغل الليل، حتى أوشك على الانتصاف، عند بلوغنا مشارف روبين. يسطع ضوء القمر على الرمال، التي بدت كأنها تستحم ضاحكة في نوره الملائكي. هذه تجمعات الخيام.. نمر بينها.. هذا مخيم (أهل يافا)، كما بدا من مظهر النساء ولهجة ساكنيه. وهذا مخيم (أهل اللد أو أهل الرملة). وهذا مخيم(اليبانوة).. هنا نحط الرحال. حلقات من الرجال هنا.. حلقات من النساء هناك.. بعض الحلقات تنهمك في أحاديث، وبعضها تنطلق منها أغنيات. أو عزف على العود أو الربابة.. وطبول تضبط إيقاع راقص من الشباب.. وأرغول.. وشبابة. في مكان غير بعيد إحداهن ترقص داخل خيمة، ونساء يغنين. ذكريات طفولتي تتجسد أمامي نابضة بالحياة.. أعيشها ها أنذا من جديد..

كما لو كانت بالأمس. كنا مع أبي، ولي من العمر ما لا يزيد عن ستٍّ من السنين.. أجري وراء سعيد متشبثاً بجلابيته.. وقدماي تغوصان في الرمال حتى تكاد أن تبلغ ركبتي. يشتري لي (كلاجاً أو عوّامة) من قروشه القليلة، التي نقده إياها أبي، موصياً إياه بي رغم أنه لا يركن إليه، فهو لا يكبرني بأكثر من خمس سنين. والآن أمي توصيني بأحمد وعلياء ...فآه يا أبي ...!

أقمنا خيمتنا. ثم انطلقت نحو السوق، تغوص في الرمال قدماي. متعة الجسد والقلب والروح السابحة في خيالٍ حالمٍ ساحر.. غير مصدق ما أرى. أضواء المصابيح والفوانيس أمام الدكاكين ترسل فحيحاً و أضواء وظلالاً. باعة الفلافل.. العوّامة.. التمرية.. الكلاج.. تجمع الشبان أمامهم.. بعض يتناول قرطاساً في يده.. وبعض ينتظر دوره. رائحة الزيت، والحلوى تقلى، تثير الشهية.. أتقدم بدوري، وإذا بي وجهاً لوجه أمام محمد يوسف النجار، وفي يدد (صحن) عوامة، تتلألأ حباتها العائمة في القطر. أهتف به :

- أنت هنا يا محمد ..؟

ينقض عليَّ وهو يهتف :

- وأنت يا أمين.. متى جئتم ؟

- قبل قليل ...

- اين خيَّمتم ..؟

- عند اليبانوة طبعاً.. عندكم ..

- اراك وحدك .

- قلت لك وصلنا للتو. وأخي سعيد انطلق يبحث عن رفاقه هو الآخر. ألم تر أحداً من الشياطين هنا ؟

- نعيم واسماعيل رأيتهما عصر اليوم .

نمضي معاً في جولة بين الدكاكين والخيام، وحلقات السمر، تحت ضوء القمر، الذي بدأ يضمحل وهو ينحدر نحو المغيب.. إلى أن نبلغ مخيمنا (يبنا). وعند خيمتنا أودع محمد، ونتفق على لقاء في الغداة .

مع نهاية العام وبدايات العام الجديد، أخذت الصحف واذاعة الشرق الأدنى تتحدث عن عمليات الإرهاب اليهودية ضد البريطانيين.عن عصابات (البالماخ) التي نسفت محطة للرادار في حيفا.(الأرغون وشتيرن) تهاجم المطارات في (بتاح هاتكفاه). وتضرم النار في مبان حكومية، في أماكن عديدة من البلاد. وتستولي على الناس الدهشة إذ يسمعون بأن البريطانيين يردون بإطلاق النار في شوارع تل أبيب، فيقتلون ويجرحون عدداً منهم، ثم يعلنون منع التجول الذي يتحداه اليهود، فيقتل آخرون نتيجة لذلك. أكثر من ذلك أصبح اليهود يهاجمون السجون، بغية إطلاق سراح معتقليهم. كما يهاجمون البنوك من أجل السرقة. حتى المطارات تعرضت لهجماتهم، فدمروا أعداداً من طائرات (سبتفاير) و(هاليفاكس)، كما تقول جريدة الدفاع. التي نتداولها فيما بيننا نعيم وسليمان وأنا وفوزي. وفي كل يوم يجيء دور أخذنا لدفع ثمنها.

يبتهج الناس لهذه الأنباء، ويرددون فيما بينهم: لعل الانكليز يدركون الأن حقيقة اليهود، ومن ثم ينصفون العرب، بعد الظلم الطويل الذي أوقعته فيهم بريطانيا لصالح اليهود. كما أنهم لا يخفون سعادتهم لخلاف يقع بين الانكليز واليهود وإذا ما تفاقم ذلك الخلاف، لا بد أنه سيكون في مصلحة العرب.. حتى أن الشيخ محمد أبو العينين راح يدعو (اللهم أوقع العداوة والبغضاء بينهم) (اللهم خذ بنواصيهم فإنهم لا يعجزونك ..) سواء في خطبة الجمعة أو غيرها..!

كان ليبنا نصيب أيضاً من هذه الهجمات. ففي ربيع هذا العام نسفت إحدى عصاباتهم محطة القطار فيها. سمعنا صوت الانفجارات عند الفجر. وقيل إنه في نفس الوقت والساعة نسفت محطة اسدود. جمهور غفير جله من الغلمان واليافعين، ننطلق إلى المحطة، لنرى بأم أعيننا كيف دمر نصف المبنى القائم بين أشجار الكينا الكثيفة. كما صعّد البريطانيون حملتهم على العصابات اليهودية. بصورة خاصة، عندما خطف اليهود عدداً من الانكليز، ولدى عمليات البحث عنهم، وجد شاويشان قد علّقا على جذوع الأشجار، فقاموا بعمليات انتقامية، أسفرت عن مقتل العديد من اليهود، في أماكن متفرقة من البلاد. كما أن الحكومة

لم تحجم هذه المرة عن إصدار أحكام بالإعدام، على قيادات تلك العصابات لأسماء ذكرتها الصحف نحفظ بعضها وننسى بعضاً، لغرابتها وصعوبة النطق بها يدعى أحدهم (اسحاق شامير) الذي يتزعم عصابة (ليحي). وآخر يدعى (مناحيم بيغن) زعيم عصابة(الأرغون) لنسفه فندق الملك داود في القدس، مودياً بحياة نحو مائة من نزلائه. ولفترة ما انتشرت عمليات إرسال الطرود البريدية، لكبار القادة الانكليز، من مدنيين وعسكريين، لاسيما بعد مقتل أكبر زعيم لعصاباتهم، ويدعى (جابوتنسكي). أسماؤهم غريبة لكن الناس يتناقلونها لكثرة ماترددت على أسماعهم .

في الجانب العربي، وإبان هذه الأحداث تألفت الهيئة العربية العليا، بقرار من جامعة الدول العربية، في اجتماع عقد في بلودان، على أن يراسها المفتي الحاج أمين الحسيني .

أثارت هذه الأحداث أيضاً، المخاوف في نفوس الفلسطينين في سائر أرجاء البلاد. إذ ما دام اليهود ينشطون ضد أولياء نعمتهم أنفسهم، على هذا النحو الأجرامي الحاقد، فماذا عساهم يصنعون غداً معنا نحن أعداءهم؟

وتفاقم الخوف أكثر، حينما سمحت الحكومة البريطانية - على الرغم من كل ما يجري حتى ضدها هي - بالهجرة إلي البلاد بأعداد كبيرة. الخطر إذن يقترب. فتوقفت معظم الأعمال ترقباً وانتظاراً لما تسفر عنه الأحداث الجارية. من يبني بيتاً كفَّ عن إنجازه. البيارات التي نشطوا مؤخراً - إثر انتهاء الحرب - في العناية بأمرها لإعادتها إلى سابق عهدها توقفوا الآن عن الاهتمام بها. المزمع على زواج عمد إلى تأجيله. ما يجري يثير القلق. بيد أن الإجماع منعقد على أن اليهود لن يفلحوا في أكثر من إيقاع الأذى، في حدود لا يمكنهم تجاوزها بحال من الأحوال. فهم أقل عدداً.. وهم طارئون دخلاء. وإذا كان هناك من يقف وراءهم من أمريكان وانكليز، فنحن العرب أيضاً وراءنا أمة عربية، (طويلة عريضة) لن تتوانى عن دعمنا، وخوض الصراع إلى جانبنا عند الاقتضاء. من الأقوال التي تتردد :

- الواهمون اليهود هؤلاء يظنون أنه في وسعهم الاستقلال في المستعمرات التي أنشأوها ...

- عند رحيل الانكليز سوف يرحلون معهم ..

ونتساءل دوماً :

- هؤلاء المجانين نحن لا نرضى، حتى عن مجرد وجودهم في بلادنا. ومادامت الحرب انتهت، والمظالم التي ادعوا أنها كانت السبب في لجوئهم إلى هذه البلاد توقفت الآن، فلماذا لا يعودون من حيث أتوا ..؟ بل لماذا يواصلون الهجرة بعد أن هزمت ألمانيا، وانتهى هتلر، وعادت الحياة إلى طبيعتها هناك..؟

أما نصيبنا نحن في هذه الظروف المتفاقمة، فقد ازدادت أوضاعنا سوءاً. فلا عمل لي أو لأخي سعيد. ولولا حصتنا من غلة الأرض، التي زرعت قمحاً هذا العام، ونزر يسير من النقود، هو حصيلة ما باعه العم عبد الغني من محصول الأرض، ولولا الكرْم نحصل منه على تين وعنب، لولا هذا ما كان لنا أن نتدبر أمرنا. فالعم أبو صفية أيضاً تحكمه الظروف السيئة ذاتها. وهو منذ البداية تنصّل من أية مسؤلية نحونا .

هذه الأحداث جميعا، وعلى الرغم من خطورتها، بحيث ينبغي لها أن تشغلهم عن أي أمر محلي آخر في قريتهم، لم يتوقف الخوض، سراً وعلانية، في قضية قتلى آل النجار الثلاثة. بل إن أقوالاً أخذت تتردد في العلن - ولا يدري أحد مصدرها - عن دور لمحمد اليوسف (وجماعته) في الجريمة. أحس المخاتير ووجهاء القرية خطورة الأمر، في هذا الوقت، فجمعوا كبار رجال العائلتين، لكي ينفوا هذه الظنون، وينصرف الجميع إلى التفكير في الشأن العام، والاستعداد لمواجهة الأخطار التي تلوح في الأفق. وقد أكد بعضهم أن في الأمر سراً خفياً، ومن الخير التريث إلى أن تنجلي الحقيقة، وعندها سيكون لكل حادث حديث. لماذا لا يكون اليهود أو الانكليز هم الجناة، من أجل خلق البلبلة في صفوفنا، في هذا الوقت بالذات؟ وهم قد عودونا القيام بمثل هذا في شتى أرجاء البلاد. من المستفيد (ياجماعة) من مثل هذا الأمر.. أفلا تعقلون ..!؟.

العبارة الأثيرة هذه، التي يطلقها الشيخ محمد عند نهاية اجتماع من هذا القبيل ..!

جاءني نعيم عصر ذلك اليوم القائظ من شهر آب. رحّبت به أمي. استفسرت منه عن والدته وجدّته وأخواته. كما أبدت عتبها عليهن حيث انقطعن عنها زمناً. ثم مضت لتعدّ لنا شاياً .

ضحك نعيم، وهو يضرب بكفه الثقيلة على كتفي قائلاً :

- والله كبرنا ياولد وأصبحنا (نتضيّف). قل لها لا أريد شاياً بل قهوة مثل الكبار ..!

دفعته في صدره مردداً :

- كثر الله خيرها عملت لك واجب..!

ثم لم يلبث أن فاجأني بسبب زيارته المباغته هذه، حين أخبرني عن مجيء رفيقنا أحمد المصري إلى قريتنا، لكي يقيم فيها، صحت به :

- ماذا تقول؟ أنت تمزح كعادتك.. أحمد المصري يقيم هنا ؟

- بل هو أيضاً قد استأجر الدكان الملاصق لدكان (معلمك) أحمد الجمل. وهو ينوي أن يجعل منه مكتبة لبيع الكتب والمجلات والجرائد. هل لديك مانع..!؟

هرعنا معاً الى أحمد المصري. وبقدر ماكانت المفاجأة، كان سروري لمجيء أحمد المصري للاقامة بين ظهرانينا. ماإن رآنا أحمد حتى انقض علينا معانقاً، واحداً إثر الآخر، وفي عينيه ترقرقت دموع الود والمحبة .شرع يحدثنا عن مشروعه العتيد. لاسيما وأنه الأول والوحيد في بلدتنا .

لم تمض سوى أيام قليلة حتى كانت مكتبة المصري - هكذا أسماها - حافلة بالمجلات والجرائد التي نعرف بعضها ولانعرف البعض الآخر. أخذنا نتفحصها. بل نلتهمها التهام جائع نهم .

روز اليوسف.. الهلال.. مسامرات الجيب.. الاثنين.. المصور.. تحمل كل منها على غلافها وبين صفحاتها صوراً ورسوماً مبهرة.. رائحة الحبر النفاذة تفوح منها فتثير فينا البهجة. تمنيت لو أقتنيها جميعاً، ولكن (العين البصيرة واليد قصيرة) كما تقول والدتي. وحين تنبه أحمد الى شرودي وحيرتي، أدرك مابي. اقترب مني. وضع يداً حانية على كتفي، وهو يقول بصوت ودود :

- أنت ياصديقي أمين تستطيع أن تستعير ماشئت من مكتبة (المصري). امتنعت بادىء الأمر معتذراً، بيد أنه أصرَّ علي ألا أغادر مكتبته إلا وقد حملت ما أردت من محتوياتها. كان اختياري عشوائياً، إذ لم أستطع التمييز جيداً بينها. ومن ثم اقتصر ما أخذته على مجلات مسامرات الجيب، والأثنين، والمصور، بسبب الصور التي تحتويها، وجريدة الدفاع. ومن بين الكتب القليلة لديه اختار لي هو (رحلات جليفر). أما نعيم فقد حمل معه مجلة روز اليوسف وجريدة فلسطين وكتاب (روبنسن كروزو) .

ابتهج أهل القرية بالمكتبة الجديدة. ولأن أحمد المصري يتحلى بالدماثة وخفة الظل، والقدرة على اكتساب الأصدقاء، فقد أخذ أهل القرية يؤمُّون مكتبته،

ليس فقط من أجل ابتياع الصحف والمجلات، بل أيضاً لتكليفه بأداء خدمات صغيرة لهم، كقراءة (مكتوب) أو كتابة رسالة لأحدهم، أو توصيته بجلب بعض مايفتقرون إليه في بلدهم من يافا أو الرملة .

أضحت مكتبة المصري مكان لقاءاتنا رفاق الأمس. كان يرشدنا الى كتب، ومجلات، أو كتابات بعينها، أو يسمعنا على الحاكي ذي البوق الضخم، أسطوانة لمحمد عبد الوهاب، أو أم كلثوم، أو أسمهان أو فريد الأطرش، دون غيرهم. أو يفسّر لنا مضمون قصة أو مقالة، أو يبدي رأياً في الأحداث الجارية بين العرب والانكليز واليهود. كنا، وكذلك كان أهل القرية، ندهش لمهاراته المتعددة، وسعة اطلاعه. بل إن الكثير منهم كانوا يدعونه الى غداء أو عشاء في منازلهم، ويحيطونه بالحدب والرعاية. كان هذا دأبهم نحو (الغريب)، فيحظى بعطفهم وعونهم. وهم لايرونه غريباً إلا بمعنى غربته عن بلده وأهله، ولكنه مثلهم ينتمي الى أمتهم ذاتها، من مشرقها الى مغربها. وقد تحمل الظروف أياً منهم على أن يصبح غريباً مثله، من يدري ..؟

وقد آثار دهشتنا ايضاً ماطرأ على أحمد المصري من تغيرٌ. فما أن نذكر (سارة)، أو رخبوت، أو تل أبيب، حتى ينبري للهجوم على اليهود وتحذيرنا منهم. قال لنا ذات يوم عندما مرت بالقرية مجموعة من الفتيان والفتيات اليهود على دراجاتهم، في واحدة من رحلاتهم التي كانوا يقومون بها من حين لآخر، قال لنا هؤلاء هم اليهود. كل مافيهم يدلُّ على أنهم غرباء عن هذه البلاد. ألوانهم.. أزياؤهم.. عريهم الفاضح.. رطانتهم. وحين قال أحد الواقفين وهو ينظر إليهم بأن هؤلاء صغار، لاذنب لهم، فهم ربما جاءوا مع آبائهم من المهاجرين. قال محتدّاً :

- ولكن أياً من هؤلاء (الصغار) قد يكون قاتلك أو قاتلي في يوم من الأيام.

ذكرّه نعيم مازحاً، ذات مرة، برحلتنا معاً إلى رخبوت، فضلاً عن مغامراته هناك. فقال في أسف :

- تلك أيام طيش أندم عليها الآن. ثم هبَّ صائحاً في واحدة من بدواته القديمة المعهودة :

- أنتم (حاتحاسبوني)؟ كفاية ربنا (حيحاسبني) بكرة.. !

العمل في معسكر (ساكية)، (تلتفنسكي) حسب تسمية أصحابه. من هو هذا التلفنسكي، ما من أحد منا يعلم لعلة جابوتنسكي آخر.. !. حتى وقع الاسم كان ثقيلاً وغريباً على أسماعنا. حصلنا على عمل في المطبخ هنا أيضاً، بفضل تلك الشهادات، التي نلناها من معسكر عاقر، مؤكدة حسن سلوكنا من جهة، وبأننا، من جهة أخرى، عملنا فيه (طباخين) على مستوى مُرضٍ (Satisfactory). تلك الكلمة التقليدية المتحفظة التي يتداولها الانكليز في أقوالهم وكتاباتهم .

كان شكلي مضحكاً لشدة نحولي، في رداء الطباخين الأبيض، والقبعة البيضاء على رأسي. كان نظام المعسكر، أن نمضي فيه أربعاً وعشرين ساعة، ومثلها خارجه للراحة. تحملنا إليه سيارة عسكرية، قادمة من اسدود، تقلُّ عمّالاً، وهي تتوقف في يبنا من أجلنا، ثم تمضي بنا إلى يافا، لتتجه بعد ذلك شرقاً إلى قرية (سلمة)، مروراً بمستعمرة يسمونها (بتاح هاتكفاه). اليهود يتجولون في طرقاتها، مشاة أو علىدراجات، أو في سيارات صغيرة، بقبعاتهم وثيابهم الغريبة. يغيظنا مرآهم. يبدو واضحاً أنهم غرباء عن هذه الأرض التي يمشون عليها. لكأنهم يطأون صدري فأوشك أن أختنق. هل مبعث إحساسي هذا وصايا أمي؟ أم هي (ريبا) تلك التي أخرجتني من معسكر قطرة بمكرها وحقدها معاً، بعد أن ألبت عليَّ أسيادها؟ أم هو ما قرأت عنهم، وما علمنا إياه الأساتذة عبد الخالق، وشاكر، وأبو العينين، وشفيق موسى؟ أم هو مقتل أبي على أيدي الانكليز، الذين لم يوجدوا هنا إلا من أجلهم؟

الرفاق في معسكر ساكية يفكرون في اليهوديات بطريقة أخرى. وهم لا يعدمون القدرة على خلق المبررات والمسوّغات. لقد جئن من بولونيا و روسيا و ألمانيا وبريطانيا، وأرجاء العالم كافة..(كل واحدة من بلد ..!). كل ما فيهن يشير إلى غربتهن.. نبت شيطاني غريب في غير مكانه.. كالأعشاب والحشائش الطفيلية ..! هذه التربة لا تصلح لهذا الزرع ..!

في طريق العودة في ذلك المساء، مرت بنا السيارة في شارع يافا - تل أبيب. عند نهايته، وبداية شارع المنشية، فيما كنت أنظر إلى واجهات المحال

المبهرة، واللافتات التي تعلوها، لمحت اسماً على إحداها، هو اسم عائلتنا خليل (أبوجابر). أدهشني مرأى ذلك الاسم بقدر ما أثار سروري أيضاً.

وبعد أن مضت بنا السيارة، تنهب الطريق إلى يبنا، ساورتني أفكار شتى. أهؤلاء أقارب لنا..؟ أم هي مسألة تشابه أسماء، ليس أكثر؟ لقد حدثتنا والدتي، ذات مرة، نقلاً عن المرحوم أبي، بأن لنا أقارب في يافا أيضاً، عدا أولئك الذين في (بيت دراس) و(الفالوجة). هؤلاء الذين في يافا يقطنون حي العجمي وسكنة أبو كبير. بيد أن القدر لم يمهله، كي يوضح لها الأمر أكثر. وهي من جانبها، لم تبذل جهداً للبحث عن أولئك الأقارب. كان (ما فيها يكفيها)، وما يشغلها من شأن الأولاد ينسيها كل ما عداه. وإذ حدثتها بما رأيت، أكدت لي أن هؤلاء هم أقاربنا حقاً. كما أن علينا الآن أن نسعى للاتصال بهم والتعرف إليهم .

في يوم عطلة أسبوعية، مضيت وأمي إلى يافا. الرجل الجالس وراء منضدة عتيقة، عند باب ذلك المخزن الكبير، والذي يضع على عينيه نظارتين كبيرتين، يحدق في أوراق أمامه، دلّنا على منزل عميد تلك العائلة في يافا، واسمه (عبد المجيد أبو جابر)، الرجل يقطن حي العجمي قرب محطة إذاعة الشرق الأدنى .ينادونه (أبو محمد).

وما هي إلا ساعة حتى اهتدينا إلى منزل أقاربنا، الذين استقبلونا بكثير من الترحاب والتكريم، ولاسيما الخالة (أم محمد). لم يكن (العم أبو محمد) ساعتئذ في المنزل. أما محمد الذي هو في مثل سني، فقد أبدى كثيراً من المودة نحوي. وحين أعلمني بأنه في السنة الدراسية الأخيرة في الثانوية العامرية، وأنه يعرف سعيد الجمل (اليبناوي)، إذ هما في الفصل الدراسي ذاته، أثار في نفسي غير قليل من الأسى." ابن عمي هذا في مثل سني.. ولأن له أباً.. كما أنه يعيش ظروفاً مختلفة، ها هو ذا يكمل تعليمه. لا شك أنه لن يشقى في البحث عن عمل. لن يدأب على التنقل من معسكر إلى معسكر.. إلى سقي البيارات في يبنا.. إلى جدّ الزيتون في كروم الرملة.. إلى.. إلى.. بل هو لن يعمل لدى الحلاق أحمد الجمل.. كما لن يحرق زيت الفلافل يده ..!".

قبل أن ننصرف، وعدتنا الخالة بنقل خبر زيارتنا إلى زوجها، لكي يتصرف، بما يقتضيه الواجب. أضافت بأنه هو أيضاً كان يحدثها عن أقارب له في أماكن كثيرة من البلاد، ومنهم أناس في يبنا (الذين لا شك أنهم أنتم. وما عليك إلا أن تتوكلي على الله، يا حبيبتي يا عايشة.. وتطمئني بأن عمهم لن يتأخر عن الحضور إليكم هناك في أقرب وقت ..!)

يبدو أن الخالة أم محمد لم تخلف وعدها. فما هي إلا أيام حتى كان رجل يطرق بابنا، هو العم أبو محمد نفسه. مهيب الطلعة، ضخم الجثة عرضاً وطولاً. عليه سيما باشوات الأفلام المصرية، القليلة التي شهدناها. بزّته البيضاء، وربطة العنق الحمراء، وطربوش قاني اللون، وسلسلة ذهبية لساعة جيب، تتدلى عند وسطه. ضمّنا الرجل إليه واحداً واحداً. صافح والدتي مؤكداً لها أنه كان ينتظر هذه الساعة منذ زمن بعيد، ولكنها ظروف العمل والانشغال في أمور هذه الحياة الدنيا، التي لا تدع للمرء وقتاً يحقق فيه أياً من رغباته، حتى لقاء أحبائه وأعزائه. عرّفنا الرجل بمنشأ أسرتنا الواحدة، التي جاءت في الأصل من مصر، ومن بلدة اسمها (أبو كبير) تحديداً. ولأنها قطنت تلك المنطقة التي نقطنها الآن من يافا، فقد أطلق عليها اسم (سكنة أبو كبير)، المعروفة به اليوم، وان تعداد أفراد العائلة أمسى كبيراً جداً.. فاللهم زد وبارك ..!

انصرف العم أبو محمد. أحست أمي بشيء من الطمأنينة على (الأولاد)، ما دام لهم عم من هذا النوع. بيد أنها، على الرغم من ذلك لم ترتح إليه كثيراً في قرارة نفسها. الرجل من النوع المتباهي بشخصيته، بذاته وبمظهره. أي أنه ربما يكون مدّعياً أكثر منه رجلاً واقعياً، يركن إليه عند الاقتضاء. يدل على ذلك كلامه الكثير، غير المترابط، وتركيزه على العائلة ومفاخرها.. قدراته الخاصة في التجارة والعمل. وحين جاء على ذكر العمل، توسّمت خيراً، فألمحت إلى سعيد وأمين، علّه يجد لهما عملاً لديه، لكنه سرعان ما انسحب بمهارة، متذرعاً بأن عمله من نوع لا يصلحان له..! (على أية حال لماذا لا ننتظر؟ وكل آت قريب. المهم أننا وجدنا أن للأولاد عماً مرموقاً في يافا.. إن هو لم ينفع فهو لن يضر ..و.. اللهم يسّر لهم أمورهم.. وسخر لهم من خلقك من يعينهم.. ويقف إلى جانبهم في قادم أيامهم ..)

التقيت ابن الخالة فوزي واسماعيل العطار أمام دكان (أبو حسنين) أنبأني دون أي مقدمات بأن أستاذنا شفيق موسى توفي البارحة في مشفى الدجاني بيافا. أصابني الذهول. أجل لم اصدق أن مثله يموت وهو في أوج قوته وعنفوان شبابه الذي نعرف. لقد كان ذلك مدهشاً ومفاجئاً بأكثر من قدرتي على التصور .

سرى النبأ في القرية سريعاً، فأثار الحزن والألم لدى أهلها قاطبة. رويت حكايات عديدة عن كيفية موته، والأسباب التي أودت بحياته. تذكرنا أيامنا الخالية معه.. المدرسة.. درس الانشاء.. كرة القدم.. المباريات مع القرى المجاورة.. رحلة البحر والحادث المشؤم.. هو ذا صبحي السيلادي مسجى أمام أنظارنا على الرمال.. الموكب الصامت في رحلة العودة للقرية إلا من صوت هدير البحر وأنسامه تعبث بأشجار الكروم المترامية من حولنا.. جسده منطوياً خلف السنام على جانبي ظهر الجمل الذي مضى يطوي الأرض وئيداً فوق الرمال ..

هل كان موته عاقبة أحداث ذلك اليوم الأليم ؟

بدا في مشيته المتثاقلة يومئذ متحاملاً على نفسه، يعض شفتيه ليكتم ألماً لايرغب أن يظهر عليه أحد. لم ندرك معنى ذلك حينذاك. وإن كنا سمعنا أساتذتنا فيما بعد يلغطون بهذا. يقولون الآن أن تلك الصدمة أورثته مرضاً في القلب، تفاقم مع الأيام الى أن أمسى عضالاً لاشفاء منه. ثم ها هو ذا يودي بحياته في النهاية .

يا إلهي. هل بات أولاده موسى وفيصل وأسمهان ايتاماً مثلنا؟ حسبت أن مثلهم في منجاة من اليتم والفقر، ولهم مثله أباً. آه إن الموت ليأتي إذن عن غير طريق الانكليز واليهود أيضاً ..!

ودَّ العديد من أهل القرية أن يشاركوا في مأتم الرجل الذي كان له الفضل في تعليم أبنائهم ذات يوم ليس ببعيد.. وفدت الى يبنا ثلاث حافلات من يافا صبيحة اليوم التالي. تدافع جمع غفير للصعود إليها في مقدمة هؤلاء المعلمون والمخاتير ووجهاء القرية. لا أدري كيف تسنى لي وبعض رفاقي أن نتسلل

داخل واحدة منها .

ما إن ابتعد الموكب عن القرية موغلاً بين بياراتها في طريقه إلى قرية (العباسية)، مسقط رأسه، حتى انهمك الكبار في الحديث عنه، ذاكرين مناقبه وسجاياه. ثم تفرعت أحاديثهم حول شؤون شتى كالمعتاد، حتى انني حسبت أنهم نسوا ماجاءوا من أجله .

ضباب الدخان يخنق الأنفاس، ويوشك أن يحجب الرؤية عبر زجاج الحافلة. بيد أنهم يخلدون جميعاً إلى الصمت مرة واحدة. كان ذلك عندما أصبحت الحافلة على مشارف رخبوت. ثم مضت تخترق الشارع الرئيسي فيها كما يبدو. ثم مالبثوا أن شرعوا في إطلاق تعليقاتهم ونعوتهم على ماتشهد أعينهم من معالمها وقاطنيها :

.. أرايتم، هؤلاء هم اليهود.. قاتلهم الله أنّى يؤفكون.. !

.. ألم نقل أن الدنيا آخر زمن ..؟

.. ألا ترون النساء كاسيات عاريات، بلا حياء، أليس هذا من علامات الساعة..؟

قال الشيخ علي العطار معقباً :

.. بل هن يباهين بما يعرضن كمن تأخذه العزة بالأثم..! والرجال بلا نخوة أو غيرة عليهن .. خنازير هؤلاء اليهود ..!

ثم مضوا، بعد أن خلفت الحافلة رخبوت وراءها يتحدثون في كل أمر خلا الأستاذ شفيق نفسه، إلى أن بلغنا مشارف العباسية .

في ساحة واسعة الأرجاء، حيث مدرسة البلدة، تحيط بها البيارات، تحت أشجار الكينا السامقة، أقاموا مأتمهم المهيب. الذي غدا فيما بعد حديث أهل قريتنا. حتى أن بعضهم راح يبتهل إلى العلي القدير بأن يمنّ عليه بمثله يوم يلقى وجهه.. !

غصت الساحة بالرجال. خيمٌ صمت حزين، إلا من صوت المقرئ وحركة من يقدمون القهوة. رهبة الموت والمكان وشجن الذكريات ...طفرت من عيني الدموع، أثارها صوت المقرىء مثيراً الحزن والخشوع وصورة الاستاذ شفيق تتراءى لي، كما صورة أبي مسجى، وقد أكبّت أمي على جثمانه تبكيه. توقف المقرىء بغتة عن التلاوة، حين انطلق صوت أجش لرجل يصدح بموال. كان الصوت قوياً جهورياً، بيد أنه كان مبحوحاً متحشرجاً. بدا جلياً أن الحزن قد هدّ

صاحبه هذاً..

أوف.. أوف.. أوف

ياحسرتي على مين راح ومضى

وعلى اللي ودّع احبابه ومضى

أوف.. أوف

شفيق زين الشباب راح ومضى

بس ياريت مايطّول الغياب ..

لم يلتفت نحو صاحب الصوت سوانا (القادمون من بينا).الآخرون يعرفونه، إنه الحاج موسى أبو شفيق. أحنوا رؤسهم مطرقين، خاشعة أبصارهم. نشيج خافت يعلو هنا وهناك.. تأوهات تندُّ عن ألم دفين، وهمهمات لاتكاد تبين :

.. أنا لله وإنا إليه راجعون

.. هذا هو حال الدنيا ..

... الله يلهمك الصبر يا أبو شفيق .

ارتفع صوت المقرىء من جديد يتلو آيات كريمة تحضُ على الصبر والإيمان بقضاء الله وقدره، وتتبىء بأن هذه هي نهاية كل كائن حي على ظهر هذه الأرض. والبقاء لله وحده. هي سنته في هذا الخلق. ألا إن (كل نفس ذائقة الموت..) ألا إن (كل شيء هالك إلا وجهه..) (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور..) .

عقب صلاة العصر، توجهنا إلى حيث تقف الحافلات بعد أن قام الرجال بتقديم العزاء لذوي الفقيد الذين وقفوا صفاً عند طرف الساحة مرددين واحداً إثر الآخر :

عظم الله أجركم ..

يسلم راسكم ..

العوض بالله ياجماعة ..

خلفنا وراءنا الجمع الحاشد، وحافلات كثيرة، متنوعة الأحجام والألوان جاءت من القرى المجاورة. مابرحت واقفة هناك، وغلمان يتقاذفون الكرة وحبات البرتقال، أو يتعلقون بأذيال الحافلات المنطلقة، متهادية وئيداً قبل أن تزيد من سرعتها، مخلفة وراءها سحباً من الغبار، تلونها خيوط من أشعة الشمس

الغاربة. يختفي المشهد رويداً رويداً إلى أن يتلاشى في البعيد .

بلغنا القرية نحو العشاء. مابرحت الدكاكين والمقاهي مشرعة أبوابها. أضواء المصابيح تشع فيها ومن حولها، مرسلة نشيس أصواتها المبحوحة. أحمد المصري يتلقانا بالوجوم أول الأمر. لكنه لايلبث أن يشرع في إلقاء طرائفه، كعادته، لأضحاكنا وإذ رآنا لانستجيب له كما ينبغي، أو كما عُودناه، صاح في وجوهنا : (الله.. أنتم حتقلبوها حزايني يا أولاد..؟ ماكلنا حنموت.. !)

قبل أن ننصرف من لدن أحمد المصري، أعارني كتاب (عودة الروح) لمؤلفه توفيق الحكيم .أما نعيم فقد حمل معه مجلة المصور، وكتاباً من تأليف ابراهيم المازني .

حدثت أمي و(سعيد) عن أحداث ذلك اليوم مما أثار شجونها. بكت والدتي بكاءً مرّاً وكأنما هو (أبي) قد مات بالأمس .

تمتمت بصوت هامس، تخنقه العبرات :

- الله يعين زوجته وأولاده.. لكن الموت حق على كل حي يا بني.. الله يحرسكم ويرضى عليكم.. يارب مالي غيرك.. أنت أدرى بحالنا ياعليم يارحيم .

أقنع (كامل دعسان) أخي سعيد بالالتحاق بسلك (البوليس الأضافي)، الذي سبق له أن التحق به هو. البزّة الكاكي الأنيقة، ذات الأزرار اللامعة، والقبعة ذات الشعار اللامع في مقدمتها، كل ذلك كان مدعاة لأغرائه، إضافة إلى الجنيهات السبعة التي سوف يتقاضاها عند نهاية كل شهر.

(.. هذه الجنيهات يا أمي لن آخذ لنفسي منها شيئاً.. والله العظيم.. وهي كافية لتسديد مصاريفنا.. ثم هي وظيفة حكومية جيدة.. انظري إلى كامل دعسان.. الكل يهابه أيضاً.. بوليس يمّه.. بوليس .. ! يعني أهم من محمد يوسف..!)

لم يثنها ذلك عن عزمها. أصرت على موقفها الرافض، لأن الناس وإن هم أظهروا شيئاً من المهابة لكامل وأمثاله، لكنهم لا يحترمونهم، فيما بينهم وبين أنفسهم. إنهم يعتقدون بأن هذا أيضاً تعاون مع الانكليز. وهؤلاء ربما يأتي يوم يدفعونهم فيه إلى محاربة إخوانهم من الثوار أيضاً، وليس الألمان وحدهم .

عبثاً حاول سعيد، بل كامل دعسان نفسه، إقناعها بأن الحرب مع الألمان انتهت، وأنه لا ثورة في البلاد الآن أيضاً. قالت له وقد نفذ صبرها :

(.. يا ابني الله يرضى عليك، ما حيلتي غير هالولدين ثلاثة.. انت عاجبك البوليس الاضافي.. ولا غراب البين.. انت حر في نفسك.. الله يسّهل عليك.. وخلينا في حالنا ..!).

مضت شهور على زيارة عمنا أبو محمد لنا. أوعزت إليَّ والدتي بأن أزورهم، في طريق عودتي من المعسكر، كيلا (نقطع حبل المودة) بيننا وبينهم. وإذ فعلت رحّبوا بي جميعاً، بل أصرّوا على أن أبيت لديهم تلك الليلة .

أخذت أتردد عليهم من حين لحين. وفي الأمسيات أنفرد بمحمد لنتحدث عن الدراسة.. العمل في المعسكر.. البنات مريم ومي وأمينة. يحدثني هو عن ابنة الجيران (عطاف الشامية). تحبه هي، وتختلق شتى المعاذير لكي تأتي إلى دارهم، ولا سيما أن بين أخواته من تماثلها سناً. فوداد وسهام في الرابعة

والخامسة عشرة. أمها لا تمانع في ذلك، فهي أيضاً صديقة حميمة للخالة أم محمد. ينادونها (أم عطاف) إذ هي لا أبناء ذكور لها. وهي تجد فيها أختاً، تأنس إليها في غربتها عن ديار الشام. لزوجها بقالية في (العجمي)، وليس لها سوى عطاف وهدايت.

نمضي أحياناً إلى ساحة المدينة. دوّار الساعة، ثم شارع اسكندر عوض. نقف أمام الواجهات، نتأمل معروضاتها، من ملابس وأحذية وعطور. وقد نتابع إلى المنشية، أو نعود إلى الساحة، حيث تنتشر دكاكين الحلوى أيضاً : المهلبية بالجوز والقرفة والمازهر ترش على سطحها ،. والتمرية الناصعة البياض، تثير الشهية وقد غمر سطحها بالسكر.. العوامة.. تغرينا براعة صانعها، وهو يقطع العجين ثم يلقي به في المقلاة. وجمع غفير من الشبان يتناولون العوامة أو ينتظرون.. فالمشهد جميل مؤنس. ثم العودة إلى المنزل.. نسير صعداً إلى العجمي، مروراً بالمستشفى (الطلياني).

كانت عطاف في منزل العم أبو محمد عند وصولنا تجلس إلى شقيقاته، كفّت الفتيات عن الحديث. تضاحكن بصوت خافت، قبل أن تسرع عطاف نحو باب الدار، متحاشية النظر إلينا، وهي تحدق إلى موقع قدميها.

قالت أم محمد، وهي تضحك، بلهجة تنمُّ عن معرفة وثيقة بما يجري بين محمد وعطاف:

- (متى نزوجكم يا أولاد ..؟ والله كبرتوا يا حبايبي ..!)

أصابتنا الدهشة والخوف معاً، فلم نحر جواباً. بل تجاهلنا ما قالت تماماً. بيد أنها أردفت :

- (انت يا محمد نأخذ لك عطاف.. وأمين نأخذ له فتحية بنت خالتك أم ابراهيم..!)

مرَّت تلك الأمسية على خير. مضيت من جانبي أفكر في الأيام التالية فيما قالته العمة، متسائلاً عما إذا كنا قد بلغنا من العمر حقاً ما يؤهلنا للزواج، دون أن ندري ..! وزاد الأمر غرابة أن أمي أيضاً، راحت في الأيام التالية تحثني على أن (أتشاطر لكي تجدلي ابنة الحلال ..)، بل ان ابنة الحلال هذه موجودة، لا يفصلنا عنها سوى الجدار.. زكية بنت أبو عامر ..(وإذا لم تعجبك زكية فلتكن وفيقة بنت خالتك الحاجة خضرة.. ولكن لماذا لا تعجبك زكية ..؟ بنت حلوة وشاطرة.. تطبخ وتعجن وتغسل، مثل أمها تمام. وفيقة لا تقل عنها شطارة

أيضاً.. ما عليك إلا أن تشد حيلك يا حبيبي، والباقي عليَّ وعلى الله سبحانه وتعالى ..!)

إذن لم يكن عبثاً تلميح الخالة أم محمد. بل هي كانت تعني ما تقول. أتزوج..؟ كيف ولماذا وأنا لم أبلغ سن الزواج.. وإذا كان هناك زواج لأحد فلماذا لا يكون أخي سعيد ..؟

من جديد شاع في القرية أن قتلى آل النجار الثلاثة إنما قتلوا على أيدي (جماعة) محمد اليوسف. حاول هؤلاء نفي ما نسب إليهم أول الأمر. لكن محمد يوسف ما لبث أن أقرَّ بأنه قتل واحداً فقط من هؤلاء، أخذاً بثأر أخيه عبد المجيد. أما الآخران فقد قتلهما (حسن بهلول)، الذي سبق أن تلقى تهديداً منهما بالقتل، بسبب ما تناقلته الألسن عن علاقة له بشقيقة أحدهما. اعترافه هذا أثار عاصفة هوجاء من الأقاويل والتكهنات في القرية. أجل فآل النجار لن يسكتوا، ولن يدعوا دم أبنائهم يضيع هدراً. ناهيك عما في ذلك من مهانة لهم، لو أنهم لم يلجأوا، بدورهم إلى الأخذ بثأرهم من الجناة، حتى لو كانوا.. بل لأنهم كانوا محمد اليوسف وحاشيته. لا سيما ذلك (البهلول) المستظل بحمايته وشريكه في الجريمة .

انتشرت هذه الأنباء سريعاً في سائر أنحاء القرى المجاورة. ولأن أهل تلك القرى، كما هو حال أهل بيننا أنفسهم، ودّوا لو يقف خلاف العائلتين عند هذا الحد. ذلك أن ظروف البلاد، لا تسمح بمزيد من الخلاف و الاقتتال بين أبناء البلدة الواحدة، من أجل قضايا خاصة، ونعرات عائلية، في هذا الوقت الذي يتطلب تضافر القوى، لمناهضة الانكليز واليهود. ذلك أن الأمور آخذة في التفاقم، يوماً بعد يوم. والهجرة اليهودية قائمة على قدم وساق، مما كشف حقيقة النوايا المبيتة بعد أن وضعت الحرب أوزارها. أهذا وقت التناحر والاقتتال بين الأخوة، ورئيس أمريكا (ترومان) يعلن عن هجرة مائة ألف يهودي إلى فلسطين على الفور؟ والانكليز من جانبهم يعلنون إحالة القضية برمتها إلى تلك الهيئة التي أسموها (هيئة الأمم المتحدة)؟ أليس حرياً بنا أن نوفر قوانا وجهودنا لمواجهة الأخطار المحدقة..؟ أم تراه ليس كافياً ما يحل بنا على أيدي الأعداء؟ تساؤلات دفعت عقلاء القرية وما جاورها للسعي من أجل إصلاح ذات البين. وعلى الرغم من صعوبة المهمة، إلا أن هؤلاء نجحوا، في نهاية الأمر، من تحقيق مصالحة جديدة بين العائلتين، مما أراح النفوس، وأثلج الصدور .

الحيرة تأخذ بألباب الناس جميعاً. تصرفات الانكليز هؤلاء مامن أحد يعرف مراميها. يقولون أن حزب العمال البريطاني، بزعامة وزير خارجية بريطانيا، المسمى (آرنست بيفن)، أثار انقساماً في الرأي بين أوساط الشعب الفلسطيني، في كافة أرجاء البلاد. حدث ذلك عند نقله القضية إلى هيئة الأمم المتحدة. فريق منهم يرى أن هذا الاجراء لصالح العرب، حتى لو لم يقصد الانكليز ذلك. ومنهم من يرى خلاف هذا. الأوائل يرون أن هذه الهيئة سوف تنصف الفلسطينين، فهي إنما وجدت أصلاً من أجل إنصاف الشعوب، وإزالة الظلم، وتحقيق العدالة. ولابد لها، إذن أن تنصفنا وتقرّ حقوقنا ومطالبنا العادلة. بل يكفينا أنها سوف ترفع عنا تسلط الانكليز على البلاد، وسعيهم الحثيث لإقامة الوطن اليهودي على أرضنا. أجل إن خروج الانكليز، في حد ذاته مكسب عظيم. أما الأخيرون فيرون أن انسحابهم، على هذا النحو، ما هو الا مؤامرة جديدة على الشعب الفلسطيني. بريطانيا تتخلى الآن عن مسؤولياتها، بعد أن مكّنت لليهود في الأرض، وأنجزت ما وعدهم به بلفور. لقد نفذت الشق المحقق لليهود أطماعهم، في حين تجاهلت الشق الآخر القائل (بألا يتعارض وعد بلفور بإنشاء الوطن القومي اليهودي مع مصالح سكان البلاد الأصليين، وألا يؤثر على أوضاعهم). ويبدو الآن جلياً أن هذا النص لم يكن إلا ذراً للرماد في العيون .

الانكليز راحلون عن البلاد على أية حال أيها الناس، ولكن: متى سيحدث ذلك؟ ما من أحد يدري.. فمتى كان هؤلاء يفصحون عن نواياهم؟ أما على صعيد العمل فلن يبقى أحد من العمال العرب، فيما يبدو، في معسكراتهم. ونحن مرغمون الآن على البحث عن عمل من جديد. وماذا عساه أن يكون بعد أن استمرأنا العمل لديهم في تلك المعسكرات. أعمارنا - أنا ورفاقي - لا تؤهلنا لأي عمل نظامي. حتى (معلمين وكلاء) في مدرسة يبنا أو قريباً منها ليس متاحاً لنا، الأمر الذي تحقق لبعض من هم أكبر منا سناً بعامين أو ثلاثة، لقاء أربعة جنيهات، راتباً شهرياً لواحدهم. تلك الوظيفة (عامل إشارة) في السكة الحديد، حبذا لو قبلوني لها. وهي آخر ما تقدمت إليه من بين عديد من الوظائف

المحتملة، كساعي بريد، أو مفتش تذاكر في خطوط المواصلات أمي تشجعني بل تطمئنني بقولها :

– لاتخف يا بني، الرزق على الله. سبحانه وتعالى يقول (وفي السماء رزقكم وما توعدون).

ولكن سعيداً يقترح على أمي قائلاً :

– لماذا لانعمل لنا بسطة في سوق الثلاثاء يعمل معي فيها أمين .؟

– بسطة ماذا ياسعيد ؟

– حلويات نأتي بها من معمل معلمي (أبو درويش). أهالي القرى المجاورة القبيبة وزرنوقة والمغار وحتى اسدود.. كلهم يحبون حلويات أبو درويش التي أصبحت مشهورة عندهم .

– وبقية الأيام ؟

– نقيم بسطة خضار تحت الجميزة .

تمتمت وكأن الأمر كله لايعجبها، نعرف ذلك من نبرة صوتها :

– قوموا ناموا.. وللصباح رباح..!

مضيت برفقة نعيم أبو جلاله، إلى مكتب الدائرة في اللد. قابلنا المسؤلين (الخواجه ليفي) و(منيب افندي الدرهلي). ملأنا ورقتين، حسب الارشادات المعلقة على لوحة في بهو مبنى الدائرة. أجرى لنا السيد الدرهلي فحصاً خطياً، للتأكد من أننا (نقرأ ونكتب)، إضافة إلى بضعة سطور، قراءة وكتابة بالانكليزية. ثم طلب إلينا العودة بعد أسبوع لمعرفة النتيجة، مصطحبين شهادة ميلاد لكل منا. أسقط عندئذ في يدي. ذلك أن شرط السن يشكل، مرة أخرى، عقبة أمامي. أما فيما يتعلق بصديقي نعيم فالأمر مختلف وسنه مناسبة. أيقنت أن هذا الباب مغلق دوني أيضاً. سمعت أم عدنان تتحدث إلى أمي بصوت خفيض، في ذلك العصر، حينما كنت خارج الغرفة مع أمينة، التي سرها أنني لن أقبل في هذا العمل، الذي سوف يبعدني عن المنزل لفترات طويلة. أم عدنان تقول :

– الولد صغير ياحبيبتي.. حرام تحميله كل هذه الهموم ..!

ولكن أمي تقول لها وفي صوتها نبرة الحيرة والألم، والرد على ما بدا وكأنه انتقاد لها :

– وهل أنا راضية يا أم عدنان عن تحميله هذه الهموم. هوّ، الله يرضى

عليه (محمّل حاله لباله.. وأنا ما بيدي أعمل شي ..!)

قالت أمينة وقد انفرجت أساريرها، وعلى شفتيها ابتسامتها العذبة الحانية :

- سامع يا ابن خالتي؟ انت قدّ السكة والشغل في المحطات ؟

كنت أفكر في أمور أخرى، منها ما تناهى إليّ من حديث أمي وأم عدنان، ومنها احتمال التحاق سعيد بالبوليس الاضافي، ومنها إحساسي المتنامي بأن كل ما يجري في هذا العالم ليس صحيحاً.. وأن الدنيا تسير مقلوبة على رأسها .. ! لا شيء فيها منتظم أو منطقي أو مريح.. لكنها مع ذلك.. جميلة.. فيها مريم ومي وأمينة. حتى وإن بعدت الثقة بالأوليين، وفيها نعيم واسماعيل وسليمان.. ومحمد ابن العم في يافا ..هؤلاء الأشقياء.. !

إلى المجدل نذهب أنا وسعيد، للحصول على شهادة ميلاد من الدائرة هناك. الطريق إلى المجدل في (باص بامية) مروراً بقرية اسدود.. وقرى أخرى كثيرة. بيارات وحقول وأراض شاسعة، وبيوت تناثرت هنا وهناك بين المزارع والحقول.. أبقار، وأغنام، ورعاة، وقوافل جمال، تحمل البضائع بين قرية وقرية، تحدوها مواويل الرعاة وأصحاب القوافل، في هدأة السهول المترامية الاطراف بلا نهاية حتى الأفق..

عدنا عصراً، والشهادة التي حصلنا عليها، بعد الجهد، وخسارة أجرة الباص، والطوابع على الطلب، لم تقدم لنا حلاً. بل نحن لا نستطيع إبرازها، فهي لا تثبت شيئاً سوى صغر سني عن المطلوب. لجأت أمي، من ثم، إلى خالها المختار فحصلت منه على ورقة حمّلها خاتمه - إذ هو لا يحسن الكتابة ولا القراءة - تؤكد على أنني قد بلغت الثامنة عشرة.. والله على ما يقول شهيد ..!

في مكتب اللد كان طلبي هو الذي حظي بالقبول، في حين لم يقبل طلب نعيم.. لماذا؟ لم يفسّر لنا أحد سبب ذلك.

في البداية اعترض (الخواجه ليفي) على شهادة المختار، مصرًّا على ضرورة تقديم شهادة ميلاد. لكن السيد الدرهلي أخذ على عاتقه مراجعة المدير الانكليزي، في غرفة تقع عند نهاية ذلك الممر الطويل. بدا لي وكأن الرجل أدرك حاجتي للعمل، أو أن شيئاً ما في مظهري أو وجهي أثار لديه مشاعر عطف دفعته إلى مساعدتي.. بدا لي ذلك لطول تحديقه في وجهي، بين الفينة والأخرى، فيما هو يتصفح أوراقاً بين يديه، كما في أسئلته التي لا يفتأ يطرحها حول بلدي.. نشأتي.. أسرتي.. وقد عرف من إحدى إجاباتي قصة يتمي

ومصرع أبي في ذلك الزمن البعيد.

محطة (كفر جنس) للسكة الحديد.. شمالي مدينة اللد.. يا إلهي أأذهب بعيداً إلى الشمال كل هذا المدى ..؟ و وحدي أيضاً، بلا صديق ولا رفيق ..؟ كيف أصل إلى المكان؟ وكيف أمضي أسبوعاً بطوله هناك، أعود في نهايته يوماً واحداً للاجازة؟ هذا هو نظام العمل لديهم.

قالت في وجل :

- وأين تنام يا ولدي ..؟

- هناك أسرتان مصريتان يا أمي : ناظر المحطة، وعامل التلفون مع أسرتيهما. وقد علمت أن غرفة خصّصت لي بينهم .

قالت وفي عينيها، وعلى محياها تضطرب شتى الانفعالات والتساؤلات :

- أكلك وشربك.. وغسيلك يمّه .؟ وبعدين كيف تروح لكفر جنس في آخر الدنيا ..لا لا.. إن الله الغني.. صدق من قال (اللي ماله بخت لا يتعب ولا يشقى)..!

- ولكن دعيني أجرّب يا أمي لأسبوعٍ أو أثنين ..

كنت حريصاً على ألا أفعل شيئاً ليست راضية عنه، أو مقتنعة به. من ثم كان عليَّ الاستنجاد بمن يعينني على إقناعها. كيلا أضيف إلى همومها جديداً. في أعماقي دائماً مثال سعيد. لا أريد أن أصنع شيئاً يمكن أن يخيّب آمالها فيَّ أنا الآخر. بل إني لأذكر تلك الحادثة التي جرت منذ زمن، حين أقنعتها الحاجة (أم سايحة) بضرورة إعطائها لسعيد (شربة زيت خروع) إثر إصابته بنوبة برد. اشتريت شربة الخروع بناء على طلبها من بقالية أبو العبد الرملاوي، وعدت فرحاً لأن (سعيد) هو الذي سوف يتجرعها، ولكنه أبى. دعت له بالنجاح والفلاح، رجته، توسلت إليه.. لكن ذلك كله لم يثن سعيداً عن موقفه الرافض. لم تجد بدّاً من تهديده.. بل ضربه كي يفعل، ولكن دون جدوى أيضاً، وكنت إبّان ذلك، طوال الوقت أحثه على تجرع (الشربة) لأنها سوف تشفيه ..! بل أعلنت في غمرة حماس بأنني لو كنت مريضاً وطلبت إليَّ والدتي أن أشرب (الخروع) أو غيره فلن أتوانى عن ذلك. تقول له أمي عندئذ، منددة :

- أرأيت ..؟ أخوك الصغير مستعد لشرب الزيت.. أيكون أشجع منك ..؟ الله يرضى عليك يمّه يا أمين ويحبّب فيك جميع خلقه ..!

وكلما ازداد سعيد تشبثاً بالرفض، ازددت أنا مماحكة وادعاء باستعدادي

لتناول (الشربة) بدلاً منه. أثناء ذلك كان يختلس النظر إلي، وفي نظراته تهديد ووعيد.ولكني أواصل ادعائي غير آبه..! وإذا بأمي وقد أصابها اليأس من فرض الأمر على سعيد.. تلتفت إليَّ قائلة بتودد واضح :

- خذ يمَّه اشربها انت الله يرضى عليك ياأمين.. أصلاً خسارة فيه يشربها هوَّ.. ماله في (الكويِّس) نصيب ..!

دارت بي الأرض دورتين.. أأشرب زيت الخروع؟ هذا آخر ما كنت أتوقع ..؟ أأرفض طلب أمي ؟.. هذا أيضاً لا يصدر عني أبداً، أنا الحريص على مرضاتها على الدوام .

تلكأت قليلاً. اكفهرَّ وجهها.. مدَّت إليَّ الكوب الكريه بيدها قائلة بحزم :

- أمين ..؟ اشرب ..!

وهكذا كان.. تجرعت كأس (الخروع)، ورحت ألوم نفسي على ادعائي الذي جرَّ عليَّ هذا الوبال. أما سعيد فقد رمقني بنظرة ماكرة.. كتم ضحكه وهرول بعيداً إلى خارج الدار.. !

في (كفر جنس) الغربة حقيقية. المسافة بعيدة.. الوحدة الموحشة.. لا سعيد ولا أحمد أو علياء.. لا نعيم ولا أمينة.. وأسبوع أمضيه بأكمله بعيداً عنهم. كيف تراه يمضي هذا الاسبوع. بيني وبين نهايته أيام ستة بلياليها. بل بساعاتها ودقائقها.. وما من أحد حولي سوى هذه الأشجار والخط الحديدي والمبنى العتيق.. بحجارته السوداء.. والقطارات العابرة من حين لحين. يعُم بعد إقلاعها السكون، تزيده النسمات الباردة وحشة وكآبة .

الناظر (عبد المنعم البديوي) اعتاد الدقة والصرامة بحكم عمله ناظراً، على مدى سنين طويلة. حركة القطارات، ومواعيدها التي يفضي الاخلال بها إلى كوارث محققة. وهو على الرغم من تقدمه في العمر، الذي بدا واضحاً في لون شعره، وغضون جبينه، وتجاعيد وجهه شديد السمرة، إلا أنه كان يملك قواماً ممشوقاً يسعفه في الحركة السريعة الدؤوب، في أرجاء المحطة كشاب في مقتبل العمر. يعيش هنا منذ عديد من السنين، مع زوجته وابنته الوحيدة (فريدة) .

أما (عبد الله إمام) عامل التلفونات فشاب لم يتجاوز الثلاثينات من عمره. ذو عينين نفاذتين، وأنف دقيق، وبشرة سمراء، له زوجة وولدان. تلتقي العائلتان في الأمسيات، في البهو الواقع أمام المبنى، خلف المحطة، ذي الواجهة الزجاجية المغلقة اتقاء البرد في الشتاء. إلا أنها لا تخفي مشهداً بديعاً أمامها، يمتد على

مدى البصر، حيث السهول والبيارات، وأشجار الكينا القريبة، والورود ذات الألوان البهيجة، يتضوع أريجها عطراً في ذلك الخلاء الساحر. صحبة إجبارية أو اختيارية بين الأسرتين.. تشابه الظروف، والعيش معاً في ذات المكان .

انطويت على نفسي، في الأيام الأولى، لا سيما في أعقاب انتهاء فترة عملي. أمكث في غرفتي وحيداً، أتأمل سقفها المرتفع، وجدرانها العالية، ذات اللون الرمادي، أنظر إلى الأفق البعيد، أو أقرأ في كتاب (العبرات) أو (الأيام)، اللذين أعارني إياهما عبد الله إمام، أو أتصفح مجلة (المصور) أو مجلة (الاثنين)، وفيهما من الصور والأخبار والقصص والنوادر، ما يشغل بعض وقتي. وإذا ما أصابني الملل، خرجت للتمشي على خط السكة الحديد عصراً، ربما حتى يعمّ الظلام. أضيق [illegible]ي حيناً، وأحس بالانطلاق حيناً، ويظل بعد ذلك، وقت كثير لا أعرف كيف أنفقه. أعود إلى غرفتي ذات الباب الخشبي العتيق، بصريره الحاد المثير كلما فتح أو أغلق.

حاول الرجلان، وزوجتاهما – والحق يقال – منذ اليوم الأول إخراجي من عزلتي، وضمّي إلى أمسياتهما. عزوا امتناعي إلى خجل ينتابني، أو تهيُّب للرجلين اللذين يكبرانني عمراً و وظيفة. تقدم لي إحداهما شيئاً، وتقدم الأخرى شيئاً آخر، كوباً من الشاي أو عصير الليمون، فطيرة مما صنعت ذلك اليوم، فنجاناً من القهوة ممزوجاً بالحليب. أحصل على طعامي من المقصف (الكانتين) الملحق بالمحطة، علبة سردين، أو قطعة من جبن (القشقوان). أما الأشياء الكثيرة الأخرى والمغرية المعروضة في واجهته، والمرصوصة على الرفوف، فلا قبل لي بشرائها، ومن ثم لا يعنيني التفكير فيها .

(الست عطيات) زوجة الناظر، مرحة، ذات شخصية جذابة، وإن بدا أنها متعسفة. تحسن الحديث.. صاحبة سطوة من نوع محبّب إلى النفس، تقدم لي كعكاً، وهي تقول بلهجة آمرة، ترافقها ضحكة رنانة، صادرة من قلبها :

– تفضل كل يا سي أمين.. بقول لك كل أحسن لك ..!

ولدى بادرة تردد أو تمنع من جانبي تصيح بي :

– قلت لك إيه ..؟ يا لله اسمع كلامي.. أنا زي أمك ..!

أبتهج لحديثها، وأحس حقاً بأن لي أماً عطوفاً هنا أيضاً. أبتسم لها. قائلاً بين الأحجام والإقدام:

– حاضر يا ستي.. حاضر ..

- أيوه قول كده ..!

- وهل يستطيع أحد أن يعصي لك أمراً يا ست عطيات..؟

- تقصد أيه يا افندي ..؟

- أبداً.. و الله ..

(الست فريال) امرأة في العشرينات، سمراء واسعة العينين، ذات وجه مستدير دقيق الملامح، شعرها الفاحم الناعم يترامى على كتفيها وحتى منتصف ظهرها. تتأود في مشيتها لامتلاء في جسدها. صوت (قبقابها) يرن موقعاً على الأرض الحجرية الظليلة، مع حركتها الدائبة معظم الوقت .

كانت أكثر حرصاً في حديثها إليّ من السيدة عطيات. ربما كان مردُّ ذلك إلى توصية أو تنبيه من قبل زوجها عبد الله.. أو أن التحفظ سمة من سماتها.. من يدريني ..؟

ما إن حلَّ اليوم الأخير من الأسبوع الأول، الذي طال واستطال حتى حسبته شهوراً، أو قل عاماً، بفصوله الأربعة، حتى هرعت إلى القطار المتوجه إلى الجنوب، في طريقه إلى رفح، مروراً بيبنا نحو العصر. بدا لي الطريق طويلاً، لاسيما وإن القطار يتوقف، من حين لحين، عند واحدة من المحطات في طريقه. أنظر من النافذة إلى السهول والقرى والمزارع والحقول المترامية على مدى البصر حتى الأفق في كل اتجاه. أعمدة البرق والهاتف المنصوبة على امتداد السكة.. وأشجار الكينا الكثيفة، تكرُّ سريعاً إلى الوراء. يبطئ القطار فتبطئ معه، وتزداد سرعتها كلما زادت سرعته. أتلهّى بها، أحاول عدَّها.. أخطئ فأعود من جديد.. تلك هي محطة يبنا الحبيبة تلوح من بعيد.. تقترب.. جرس المحطة.. يدق.. الاشارة (السمافور) الحمراء تهبط، لتحل محلها الاشارة الخضراء، فيعبرها القطار متهادياً، وقد تغيرت نغمة نفثه للبخار، واحتكاك عجلاته بالسكة الحديد.. ها هو ذا يتوقف أخيراً لاهثاً مرسلاً فحيحاً متعباً ..!

أقفز سريعاً خشية استئناف سيره وأنا على متنه.. أتأمل المكان لحظات من حولي.. كأنما أتأكد من أني حقاً في أرض يبناي، وأن هذه هي محطتي.. بغتة أجدني أعدو، ملوّحاً بالحقيبة الصغيرة في يدي.. أختصر المسافة والزمن معاً للوصول إليها ..

فوجئت لدى عودتي من (كفرجنّس) بأن أمينة قد خطبت لابن عمتها خالد. ألمّ بي الضيق، واعتراني إحساس غريب، كما لو كنت أفقد عزيزاً. ذلك على الرغم من أني لم أفكر يوماً، على محمل الجد، بما كان يردده أهلنا على مسمع منا، حول مسألة الزواج السخيفة هذه. حتى الاسم كان موضع تندر ودعابة (أمينة لأمين وأمين لأمينة)، حتى أوشك الأمر أن يبدو حقيقة لمن حولنا. والآن ها هي ذي أمينة ليست لأمين ..! حين نظرت إليها، كي أبارك لها خطبتها إلى ابن عمتها، أشاحت بوجهها عني، دون أن تقول شيئاً.. ولكن حزناً دفيناً بدا في عينيها الذابلتين :

- ما بك يا أمينة ..؟ ألا يفرح الانسان في مثل هذه المناسبة؟ مبروك يا أمينة ..!

لم تحر جواباً، أطرقت برأسها، و ترقرت دموع في عينيها، ثم أجهشت باكية، بصوت خافت. حاولت إخفاء دموعها وكبت انفعالها، لكن نشيجها انفجر بغتة رغماً عنها. راعني ذلك بقدر ما أثار في نفسي من الحيرة والحزن معاً. ماذا أستطيع أن أصنع كي أوقف دموعها. كان واضحاً أنها لا تريد هذا الزواج.. لكنه من السخف بمكان أيضاً أن يخطر لي أولها إن زواجاً يمكن أن يتم بيننا. بل إنه الجنون بعينه أن يفكر من هو في مثل سني في شأن كهذا. صحيح أن زيجات تمت في القرية لمن هم دون سن الزواج بكثير، لاسيما بين أبناء العائلة الواحدة المنذورين منذ الولادة.. فلان لفلانة.. وما أن يبلغا السادسة عشرة، دونها إتمام ذلك الزواج القسري المبكر..! حدث مثل

تراك تذكرين؟ .(ميّ) في أي الديار أنت الآن؟ هل غدوت شابة يوم بيتها خطـاًب وطلاًب ..؟ أم تراك أنت أيضاً أمسيت امرأة في بيت هنـاك، رهينـة الواجبـات المنزليـة.. والعم والحمـاة؟ إشـراقة محيـاك، والبسـمة الطـروب علـى شـفتيك، والنظرة الساحرة اللعوب في زرقة عينيك.. وشعرك الذي لا يهدأ، كشلال من حرير، تحركه لفتات جيدك الناصع الجميل، الذي لا يستقر على حـال أبـداً.. أو لست يا مي فوق ذلك العادي المألوف ..؟ آه يا مي.. يا حبيبـة الطفولـة.. وأليفـة الأيام الخالية ..! لماذا يحدث هذا، نفقد أحباءنا لهذا السبب أو ذاك. ولكننا نفقدهـم دائماً.. موتاً أو فراقاً، أو حتى زواجاً.. !

تنقضي الاجازة القصيرة. أعود إلى (كفر جنّس) حاملاً أحزانـي.. أمسـيات الغربـة.. وصحبـة الجـدران.. وأشـجار الكينـا.. والريـاح العاصفـة.. ضجيـج القطـارات.. وأجراس المحطـة.. الاشـارات الخضـراء والحمـراء.. ومصبـاح الاشارة.. الرفاق وأخوتي.. وأمي والحاجة خضرة.. وروبين في موسمه الأخـير الذي مضى.. لم تقم فيه الأعراس كسابقه، ولم تتدفق على شلالات رماله الأفراح والحكايا.. لكأنهم في العام الذي سبق، قد ودّعوه وداعاً أخيراً.. يا تلـك الرمـال.. يا تلالاً من ذهب يتلألأ في ضوء القمـر.. يـا ضحكـات الصبايـا فـي العشـيات.. وفي السحر.. لماذا ..؟ لماذا ..؟ لماذا ..؟

لأمضينّ في أول إجازة قادمة إلى يافا. أرى محمد، لأسمع مزيداً من حكايته مع عطاف ..! سوف أبيت عندهم تلك الليلة. لقد دعاني مراراً إلى ذلك فلمـاذا لا أفعل ..؟

المطر المتدفق غزيراً يغسل الشوارع والأرصفة والأشجار. يهتف (العم أبو محمد):

اللهم استر.. المطر يكاد يغرق الدنيا.. الرعد والبرق لا يكفّان.. سـنة خـير ان شاء الله ..

ثم موجهاً حديثه إليَّ بين الجد والدعابة :

... يا ولد يا أمين.. لقينا لك عروسة بنت حلال.. تعالي يا أم محمد.. تعالي احكي له على بنت أم ابراهيم ..!

ترد أم محمد بأنها تعد العشاء. بدا من صوتهـا أيضـاً أن لديهـا شـيئاً سـوف تفضي به. قدمت أم محمد العشاء، الذي لم نكد نفرغ منه إلا وكانا قد أقنعاني بأن نذهب لزيارة أقارب لهم في المنشية، لكي أرى ابنتهم التـي (لـم يخلـق مثلهـا فـي

البلاد ..!). قالت أم محمد بصوتها الرقيق :

.. ماذا نخسر يا خالتي ..؟ نسهر عندهم، تتعرف على ناس محترمين، وعلى البنتِ أيضاً، ثم نعود. إن شئت خطبناها لك وإن شئت سكتنا، وكان الله بالسر عليماً..!

قلت في نفسي: حقاً ماذا سأخسر؟ بل دعني (أضحك عليهم) أيضاً، ما داموا مصرّين على ذلك ..! أما محمد فكأنه أدرك ما يدور في خلدي. ضرب بكفه الثقيلة على ظهري، ليؤكد لي بأنه فهم بأني (آخذهم على قدّ عقلهم) فيما نحن نسير خلف أبويه، لنستقل باص العجمي، ومنها نستقل (حنطوراً). يأمر العم أبو محمد سائقه بالتوجه إلى (شارع العالم) في المنشية .

المنزل غير بعيد عن الشاطئ، مبنيٌّ على الطراز العربي، جدرانه الحجرية وبوابته من الخشب القديم المتآكل، بسبب رطوبة البحر على الأغلب. هدير الأمواج يصخب عالياً بعد أن كفَّ المطر. أضواء الشارع الواهنة تتراقص على المياه، التي تجمعت فغطّته حتى بلغت الأرصفة. قطط تموء.. وكلاب شاردة، خرجت بعد أن حبستها الأمطار تبحث عن رزق ساقه الله إليها .

غاصت أقدامنا في مياه الأمطار التي غمرت باحة الدار، قبل أن نجد أنفسنا في غرفة واسعة، عالية السقف والجدران تكاد تتفجر دفئاً. طفق الرجل (العم أبو ابراهيم) يرحب بنا، وهو يفرك يديه ثم يبسطهما فوق جمر الموقد. يصرُّ عينيه الضيقتي الحدقتين إلى حدٍّ كبير. وجهه الطافح بشراً وعافية، وابتسامته الودود تدخل الطمأنينة إلى القلب. قدمت بعد لحظات سيدة البيت (ام ابراهيم). تدفقت كالسيل عبارات ترحيبها الرقيقة، فأضفت على المكان جوًّا حانياً رؤوماً. أم ابراهيم في عقدها الرابع، نحيلة القوام سمراء، عيناها واسعتان تشعان بريقاً ينبئ عن ذكاء حاد. لحظتئذ فقط عرفت أن أم محمد تدعى (رشيدة). حين اختصتها صاحبة البيت بالمزيد من الترحيب، وهي تناديها باسمها.

محمد إلى جانبي لايني عن تحذيري بحركة من يده، أو مرفقه أو قدمه، كي أظل صامتاً ودونما حركة أمام الجمع المهيب، لا سيما حين أقبلت من الغرفة المجاورة فتاة في نحو الخامسة عشرة من عمرها. ما إن لمحتها حتى تعلقت نظراتي إليها، كانت أقل سمرة من والدتها، حنطية اللون، استدارة وجهها الرائعة، عيناها كعيني أمها، لكنهما تشعان طيبة وبراءة، شعرها الكستنائي الغزير مرسل على كتفيها وظهرها. ممتلئة الجسم قليلاً، وإن كانت نحيلة الخصر. فستانها الأحمر المنقط بدوائر بيضاء صغيرة، يموج مع حركتها، فيما

هي تقدم القهوة. وإذ أحدّق في وجهها مبهوراً، فيما يدي تمتد إلى فنجان القهوة، دون أن أنظر إلى حيث امتدت يدي، فاندلق فنجان القهوة. ذعرت الفتاة للحظة، إلا أنها ابتسمت، كما فعل أبواها وهما يرددان : (خير ان شا لله.. انكب الشر..)، في حين مال عليَّ محمد ليهمس في أذني ،إثر هدوء الجلبة التي كنت سبباً لها (فضحتنا يا شيخ..!). العم أبو محمد، والخالة رشيدة أيضاً لم يقصّرا في التخفيف من وقع (الحادث) بغمغمات غير مفهومة.

جلست الفتاة بجوار الخالة رشيدة التي ما فتئت ترحب بها، مطرية جمالها و(حلاوتها)، ناظرة إليَّ بين الفينة والأخرى، كأنها تقول لي (.. انظر إليها أيها الأبله.. ما أجملها ..!). يبدو أن أصحاب المنزل أدركوا الغاية من وراء مجيئنا، في هذه الليلة الممطرة. لا أنكر أني سعدت بهذه الزيارة كثيراً. الدفء يشع من الجمر المتقد في (المنقل) النحاسي اللامع، وعلى ناره يغلي إبريق الشاي النحاسي، يتصاعد بخاره ينشر رائحة القرفة والزنجبيل. الكنبات الوردية النظيفة، والستائر خمرية اللون على النافذة المواجهة. الدفء في الوجوه والعيون.. وفتحية، هذه الفتاة الرائعة، ذات النظرة الوديعة الساحرة، والبسمة الثابتة على الشفتين، لا تفارقهما أبداً. عيناها تضحكان قبل شفتيها، بعفوية إليفة تلامس شغاف القلب، وتستقر في أحنائه .(آه.. لعلهم يقصدون هذه الفتاة.. ما أظنهم كذلك.. فهذه لن يستطيع " قروي" مثلي أن ينالها ..). أهل يافا عرفوا بتعاليهم على القرويين، وكأن هؤلاء أدنى منهم درجة. بل هم يعيبون على من يزوج ابنته إلى (فلاح) ...! إن هم لم يعيروه بذلك أيضاً. لا بد أنهم يتحدثون عن غيرها. المسألة إذن محض مصادفة ليس إلا. قلت في نفسي (اسكت يا ولد.. وخليك على قدّك.. والزم حدودك.. فما أنت إلا فلاح وابن فلاح أيضاً ..!).

ما فتئت (فتحية) غادية رائحة. تغيب قليلاً في الغرفة المجاورة، لتعود حاملة حيناً أطباق الفاكهة، من برتقال وتفاح وموز، وحيناً كعكاً ومعمولاً، وحيناً ثالثاً صحون المهلبية، وقد رشَّ على سطحها مالا أعرف من مشهيات، ذات رائحة زكية. تسمّرت عيناي على حركاتها الرشيقة، لا سيما (فستانها) الهفهاف، المتماوج عند أطرافه، وصدرها الناهد بكبرياء، فيما كان القوم منهمكين بوصف مزايا البرتقال اليافاوي والموز الريحاوي ..! أو تبادل الهمسات بين أبو ابراهيم والعم أبو محمد، من جهة، وأم ابراهيم والعمة رشيدة من جهة ثانية. بدا لي أن محمد شاركني الاعجاب بالفتاة، حين انتهز فرصة انشغال (الكبار) بأحاديثهم الهامسة، لكي يهمس بدوره في أذني قائلاً :

- هاه.. ما رأيك ؟

- رأيي في ماذا يا محمد ؟

كانت ضربته أشد في خاصرتي هذه المرة وهو يقول بغيظ :

- علينا؟ قل لي أعجبتك يا ملعون ..!

لم يخل حديثهم من التطرق إلى الأوضاع العامة القائمة في البلاد. أذهلني من بين ما سمعت أن البيوت المواجهة لبيت (أبو ابراهيم) هذا، وعلى الرصيف المقابل تماماً يقطنها يهود. وأن الشارع في ذلك الطرف له اسم يهودي (شارع شابزي).. وعلى مبعدة عشرات من الأمتار، (الكرمل) اليافاوي، وبعده مباشرة نهايات أو بدايات مدينة تل أبيب من هذا الاتجاه .

غادرنا منزل العم أبو ابراهيم، مودعين بحفاوة تفوق ما استقبلنا به منها. وقفنا على الرصيف ننتظر (حنطوراً) يقلنا إلى حي العجمي، أو إلى وسط البلد على الأقل. كان المطر قد توقف. هدير الأمواج في ذلك الوقت من الليل يوحي بالرهبة. نستقل الحنطور.. يخفت صوت الأمواج المتكسّرة على الصخور، وجدران المنازل المحاذية للماء كلما أوغلنا بعيداً، إلى أن تخفيها طرقات حوافر الخيل، على حجارة شارع المنشية المبتلة بماء المطر، الذي كفَّ للتو عن انهماره، وأصوات الحاكي والراديو تنبعث وانية ضعيفة من المقاهي المغلقة الأبواب، أو الدور المقفلة النوافذ، وقد بدت أنوارها الشاحبة من وراء الستائر التي تخفي وراءها أصحابها المتحلقين حول المواقد .

لم تبرح خيالي صورة فتحية، وأهلها، ومنزلها في شارع العالم. حتى إبان انهماكي في عملي بفتح الاشارات وإغلاقها أمام القطارات. لم تغب عني ابتسامتها العذبة، ونظرتها الساحرة. تذكرت تفاصيل الدقائق والثواني، التي مرت في تلك السهرة. حتى الأشياء الصغيرة، والكلمات العابرة، التي ربما لم تكن تعني شيئاً رحت أختلق لها تفسيرات شتى : لماذا تسألني عن المدرسة وأيّ صفٌ أنهيت ..؟ عما إذا كان لي إخوة وأخوات ..؟ عن عملي ويوم عطلتي الاسبوعية.. أمي.. أبي ..

تساءلت عما إذا كان لديها انطباع ما عني؟ ما هو؟ هل ارتاحت إليَّ، على الأقل؟ يكفيني هذا.. والقناعة كنز لا يفنى، كما تردد أمي دوماً. هل تذكرني الآن كما أذكرها وأفكر فيها، أم أنها كانت سهرة عابرة وحسب بالنسبة إليها ..؟ نجم اهتمامي بفتحية على هذا النحو، بعد أن أنبأني العم أبو محمد وحرمه، بأن فتحية هي الفتاة ذاتها موضوع حديثهما لي قبل أن نقوم بزيارتهم تلك الليلة. وهما الآن بانتظار رأيِ والدتي، قبل رأيي، وقبل أن يفاتحوا (الجماعة) في الأمر. وها أنذا أعود إلى (كفر جنس) من لدنهم مباشرة، وليس إلى والدتي لانقضاء يوم إجازتي. والدتي تريد لزواجي واحدة من بنات جيراننا اللواتي حدثتني عنهن. ولاشك أن لها رأياً، هي الأخرى، في بنات يافا. ألم أسمعها وصديقاتها أكثر من مرة، يتحدثن عن اليافاويات والشاميات اللواتي تزوجن في يبنا.. وأنه خير للشاب أن يتزوج ابنة بلده التي (تصبر معاه على الحلوه والمرَّه).

السيدتان عطيات وفريال، لحظتا شرودي، في الأيام الأخيرة. تغامزتا فيما بينهما، قبل أن تسألني الست عطيات عما بي. وحين أجبتَ بما لا يقنعها، قالت وهي تضع كلتا يديها على خاصرتِها، وتهز رأسها يميناً وشمالاً، محدقة في وجهي بنظرة عابثة، وبصوت منغم :

- (تكونش بتحب يا شاطر ..!؟)

أطلقت فريال الواقفة عن كثب ضحكة رنانة، وهي تقصع ظهرها إلى

الوراء، ثم تعتدل، لتقول وهي تسند ذقنها بين سبابتها وإبهامها :

- (وفيها إيه لما يحب يا ست عطيات ..؟ بس يا ترى مين هي صاحبة الحظ دي اللي بيحبها سي أمين ..!؟)

فضلاً عما أصابني من الغيظ، أعتراني ارتباك شديد فلم أستطع أن أحري جواباً، مما حدا بهما إلى أن تؤكد واحدتهما للأخرى صحة استنتاجها، لأنها (تفهمها وهي طايرة ..!). تفادياً لمزيد من سخريتهما لم أفصح بشيء عما حدث. كما أنني لم أنبئ أمي بشيء في عطلتي الأسبوعية التالية، خشية أن أفتح أمامها باباً للحديث عن واحدة من بنات الجيران ..زكية.. هدى.. جميلة ..!

أخذت أتردد على منزل العم أبو ابراهيم من حين لآخر، بصحبة العم أبو محمد وحرمه حيناً، وبرفقة ابن العم محمد حيناً، فأيقنوا جميعاً - دون أن يقول لي أحد ذلك - بأنني شغفت حباً بفتحية. وأن الأمور تسير في الاتجاه الذي رسموا منذ البداية. إلا أنني كنت، في كل مرة، أختلق المعاذير لأقاربي، سعياً للتريث بعض الوقت، ريثما أتمكن من مفاتحة والدتي بالأمر. إبان ذلك تخطر لي أفكار مثبطة للعزيمة، منها : كيف أفاتحها؟ ماذا أقول لها وهي التي عودتنا عدم الخوض في مثل هذه الشؤون ذات الحساسية البالغة؟ وأخي سعيد، كيف أفكر في الزواج قبله وهو الأكبر، رغم ماقالته أمي آنفاً؟ ثم من أين لنا - المهر وتكاليف العرس، لا سيما وأن العروس (يافاوية)، فعرسها لن يكون عادياً، كذلك مهرها سوف يكون عالياً. صحيح أن والدتي (وفّرت)، كما تقول، مبلغاً من حصيلة عملي هنا وهناك، لمثل هذا اليوم الأبيض، دون أن يتناقض هذا مع شعارها (القرش الأبيض لليوم الأسود). إلا أن هذا المبلغ لن يكون كافياً أبداً. نجزّئ المشكلة إذن.. الخطبة أولاً، تعقبها شهور.. سنة.. سنتان.. إلى أن يتوفر المبلغ المطلوب. ونحن أيضاً ما زلنا صغيرين علىالزواج فلماذا العجلة ..!

تجرأت ذات يوم،'فزرتهم بمفردي، زاعماً لهم أنني كنت قريباً من المكان، ومن ثم لا يليق بي (المرور) دون زيارتهم. أدركت أم ابراهيم، على الفور، الباعث الحقيقي لزيارتي. تبدّى ذلك في ابتسامتها ذات المعنى الواضح، فيما هي تحدق إلى وجهي. لكني حمدت لها أن أتاحت لي أكثر من فرصة للتحدث على انفراد - وإن يكن لماماً - مع فتحية. كان واضحاً تماماً أن فتحية مهتمة بي أيضاً، إن لم أقل إنها متلهفة على رؤيتي، وأنها استطالت غيبتي، وهي لهذا عاتبة عليّ. نظراتها، وكلماتها المقتضبة تشي بما في قلبها. لا شك أن هذه النظرات المدققة، تعني أكثر من مجرد استلطاف.

ولكن هل هذا معقول يا أمين؟ أن تحبك بنات يبنا القرويات مثلك.. ربما.. أما هذه (الفتحية) اليافاوية فأمر بعيد الاحتمال.. من قال أن الحياة ليست جميلة رغم كل ما فيها من ويلات ..!؟

هذا الرداء الكحلي ذوالياقة البيضاء.. أمصادفة كانت ترتديه..؟ والشعر المرسل على الكتفين. هذه السمرة الصافية، مشربة بحمرة وردية شفيفة.. جميلة دائماً.. بل فاتنة.. أود لو أضمها إلى صدري.. لو أحتضنها إلى الأبد.. أقبّل هذا الثغر الباسم.. كيف تراودني هذه الأحاسيس منذ الآن، إنها أسمى من أن تمسّ..!

- فيم تفكر يا أمين ..؟

- من غيرك يا فتحية ..؟

عضت شفتها السفلى، وهي تبتسم، ثم تطرق خجلاً. تضرّج وجهها بالحمرة القانية، فيما هي تشدُّ طرف ثوبها، أو تعبث بأزراره، تداري ارتباكها. أدركت أيضاً أن ردي كان مباشراً يفتقر إلى التمهيد. انفجرنا بغتة معاً في ضحكة عالية. أسرعنا إلى كبتها قبل أن يسمعها الآخرون. غير أن والدتها سرعان ما أقبلت، وقد بدا عليها أنها لا تريد للقائنا المنفرد أن يمتد أكثر، فقالت بلهجة حانية، لكنها حازمة :

- إمي.. قومي ساعديني في المطبخ.. يرضى عليكي ..

نهضت فتحية.. ومعها قلبي الذي ازداد خفقاناً حتى أوشكت أن أسمع وجيبه بأذنيّ. تبعتها نظراتي المتلهفة إلى أن أختفت .

عقب الغداء، صارحتني العمة أم ابراهيم بأن أناساً تقدموا لطلب يد ابنتها مؤخراً. ثم صمتت، كأنها تنتظر مني تعقيباً على قولها. وجدتني أقول، عندئذ، مرتبكاً و دون تدبر :

- خالتي أم ابراهيم، سوف أخبر عمي أبو محمد ووالدتي بالأمر. وسوف نزوركم قريباً، إن شاء الله .

بدا عليها الارتياح، ولم تضف شيئاً. أما فتحية فقد تألق وجهها، ولاح بريق في عينيها، مما أدخل مزيداً من السعادة إلى قلبي. ودّعتني، مع والدتها عند باب الدار. نظرت إليها ملياً، والأسى يلمُّ بي لفراقها.. وفرحة غامرة، لذلك الوعد في عينيها تسري في كياني .

في شارع جمال باشا، أسير متلكأ، أستعرض ما مرَّ بي قبل قليل صوت فتحية وصورتها لاتبرحان خيالي. أتوقف أمام سينما فاروق. صور ساحرة مثيرة

للممثلين في فيلم (رصاصة في القلب).. سينما الحمراء صور أخرى لفيلم اسمه (سلامة القس).. على الرصيف المقابل سينما نبيل.. سينما الرشيد ..مكتبة الطاهر ذات الواجهة العريضة حافلة بالكتب والمجلدات. على امتداد الشارع الطويل، تتوسطه أشجار النخيل العالية، على جانبيه قامت الفنادق والدكاكين ذات الواجهات الزجاجية الجميلة، حافلة بما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين.. آه يا(يبناي).. نحن هناك نعاني الأمرَّيْن.. وأنتم هنا يا (أهل يافا) ترتعون في هذا النعيم المقيم.. اقسم لأقيمنّ هنا معها في مقبل الأيام ..! .

تتحرك الحافلة في بطء، في طريق الرحلة عبر الشوارع المكتظة بالسابلة والباعة والسيارات. انقباض يتدفق إلى صدري كنسمات خريفية كئيبة وحزن يغشى قلبي، فتوشك أن تترقرق في عيني الدموع.. لا.. لا أريد أن أمضي بعيداً عنها .

ألفتُ، مداعبات السيدتين عطيات وفريال. كما غدوت أقضي سهرة المساء حين لا يكون لدينا عمل، مع الأسرتين. يتحدثون عن بلادهم وغربتهم وذكرياتهم. الحنين إلى مصر يطغى على أحاديثهم، فأحس بأنني، على الرغم من غربتي هنا في كفر جنس، إلا أنني أحسن حالاً من أصحابي هؤلاء. بل إني أكاد أحسد نفسي على هذه النعمة، إذ أنا في رحاب وطني، على أية حال. ويبنا لم تبعد بي الشقة عنها بمقدار ابتعادهم عن أوطانهم. وذات يوم ستكون لي فتحية، كما هي الآن عطيات لعبد المنعم افندي، وفريال لعبد الله إمام. ولكن في دارنا هناك، أو في يافا.. أجل لن نغادر وطننا بحال، وأياً كانت الأسباب. تجربة هؤلاء الذين أمامي تؤلمني حقاً. الحزن في أعينهم، والأسى يظلل وجوههم. أرثي لهم.. أحزن من أجلهم. أتساءل : لماذا هم هنا إذن؟ ما الذي يجبرهم على ذلك؟ إذا كان العمل هو السبب، أفلا يجدون عملاً كهذا، أو غير هذا هناك؟

يتحدثون أيضاً، عن اليهود والانكليز في فلسطين. إلا أن معلوماتهم في هذا الشأن ضئيلة. يبدون مشاعرهم وعواطفهم نحو إخوتهم عرب فلسطين. يعرفون أن هناك مشكلة. ما هي هذه المشكلة ..؟ أصلها ..؟.. خباياها ..؟ هذا كله لا يعرفون عنه إلا القليل. لهذا سرعان ما كانوا يستأنفون حديث الذكريات، بعيداً عن هذه العقدة الشائكة، أو حديث الفن كالسينما والمسرح. حينئذ تطول السهرة وتطول. يمضي واحدهم في التحدث عن فيلم شاهده، أو مسرحية حضر عرضها، ساعة أوزهاءها، فيروي الحكاية من ألفها إلى يائها.. وربما مع إضافات من عنده، كالشرح والتفسير والتعقيب. أستمع إليهم بشغف، إذ إن ذلك جديد عليَّ تماماً. و إذا ما فرغوا من هذه تحدثوا عن أدباء مصر وكتّابها الأثيرين لديهم. وقد تحتدم معركة فيما بينهم، إذ لكل منهم كاتبه المفضل، فهذا يطري طه حسين، وذاك يمجّد محمود تيمور. والسيدة عطيات تهوى كتابات توفيق الحكيم.. وقبل هؤلاء جميعاً يؤثر الناظر البديوي كتابات المنفلوطي.. ومجدولين بصورة خاصة ..!

يتخلل ذلك تناول الطعام، والشاي، والمكسَّرات، والكعك الذي تتفنَّن السيدة عطيات في صنعه، وتباهي بمهاراتها المختلفة في هذا المضمار. يضفي على السهرة سحراً حضور السيدتين عطيات وفريال، وقد تزينت كل منهما وارتدت ثياباً هفهافة جميلة، تضيف إليها قفشات السيدة عطيات جوّاً أليفاً من المرح. لا تخفي السيدتان عطفهما وحنانهما عليَّ، لبعدي عن ذويَّ في مثل سنّي هذه. لكنها - عطيات - لا تنفك عن تشجيعي والتخفيف عني بأقوال من قبيل :

..(حتى تكون راجل يا أمين الغربة هي اللي تعلمك ..!) يؤمّن الحضور على قولها. بيد أنهم يعودون إلى صبّ جام غضبهم على الغربة و(يوم الغربة)، معلنين بأنها غير مستساغة في كل الأحوال، رغم ما يزعم من حسنات لها.. إن كان ثمة لها أية حسنات ..!

ذات ليلة، وكانت ورديتي فيها تمتد حتى منتصف الليل، اتجهت إلى غرفة الاشارة، البعيدة زهاء تسعمائة متر عن المحطة، يضيء لي ظلمة الطريق ضوء المصباح الأحمر الذي أحمله. جلست على المقعد الخشبي فيها، أحصي الدقائق الباقية على وصول القطار من الشمال. أفكر في الوقت ذاته، في فتحية، متمنياً لو كنت الآن إلى جوارها، بدلاً من هذا المكان الموحش. أشرد بعيداً، إخالني أتحدث إليها، لكنني لا ألبث أن أعود إلى حيث أنا، أتذكر الساعة والقطار والدقائق الباقية على وصوله .

في ذلك الدغل الواقع شرقي غرفة الاشارة، يتناهى إليَّ صوت غير مألوف. لم يكن ذلك حفيف الأشجار، ولا هي تموجات الأغصان التي أعهدها. لكأن أحداً يمشي وسط الدغل الكثيف، مثيراً هسيساً رتيباً، بطيئاً أول الأمر، ثم لا يلبث أن يتسارع شيئاً فشيئاً، إلى أن يصبح عدْواً. أصيخ السمع للتيقن من أن سمعي لم يخني.. حقيقي هذا الذي أسمع وليس وهماً. الحركة تأتي من الجنوب، وحين تصبح قبالة الغرفة تتوقف قليلاً.. يسود صمت أعلق معه أنفاسي.. قبل أن تتابع إلى الشمال. لكنها لا تلبث أن تعيد الكرة على نحو مماثل. عندما سكنت الحركة، للمرة الأخيرة في مواجهة النافذة، سمعت لهاثاً خافتاً متسارعاً.. صحت لحظتئذ مرتاعاً (من هناك ..؟). وفي تلك اللحظة تماماً، وقبل أن أسمع جديداً كانت أضواء القطار القادم من الشمال تطلُّ عن كثب. وحين خرجت من الغرفة أحمل مصباح الاشارة، سمعت الصوت ،من جديد، ولكن عدْواً، هذه المرة، في اتجاه الجنوب. أدرت الزجاجة الخضراء، لأرفع المصباح في مواجهة القطار القادم، ملوّحاً بحركات الاشارة المعينة. وقفت قريباً من الخط انتظاراً لوصوله. وحين

مرّت بي العربات بضجيجها فوق السكة الحديد، تقفزت إلى واحدة منها كما كنت أفعل في كل مرة.

في المحطة رويت ما حدث لعبد الله إمام، الذي أكد لي، بغير اكتراث، أن ذلك لم يكن إلا ضبعاً ..! لم تبد عليه علامات الدهشة التي كنت أتوقعها لمثل هذا الاستنتاج. لكن الرجل أكّد لي أنه لا غرابة في الأمر. مضيفاً أيضاً بأن ضباعاً تتواجد في أدغال الأشجار في تلك المنطقة، وأنها كثيراً ما تحاول افتراس من تجده في طريقها. لكنها لم تلتهم أحداً بعد ..!

كان ذلك مثار ضحك ودعابة إبان السهرة في الليلة التالية. الست عطيات وحدها، ظلت واجمة، معظم الوقت، لا تشارك في الحديث إلا لماماً. لكنها هبّت بغتة لتقول، موجهة كلامها للرجلين معاً، بلهجة لا تخلو من اللوم :

..(حرام عليكم.. قولوا للولد على اللي حصل.. ابن الناس أمانة في رقابنا.. على الأقل يدير باله من نفسه ..!).

أطبق الصمت، وساد الوجوم. لكن أحداً لم يحر جواباً. أخذت مني الدهشة مأخذها، وبانت أمامهم في عينيّ التساؤلات.. والرعب معاً.. عندئذ بادرت (الست عطيات) إلى القول، مصوبة نظراتها إليّ:

- (.. اسمع يا أمين يا ابني.. الله الله عالجد، والجد الله الله عليه.. من مدة الضبع ده هاجم عامل اشارة زيك كده.. لحقوه في آخر لحظة.. خدوه المستشفى. صحيح أنقذوه من الموت، لكن المسكين فقد عقله.. يعني اتجنن ..! لازم اقول لك الكلام ده حتى تاخذ بالك.. ورزقي على الله ..!)

تصادف أن كان اليوم التالي، يوم إجازتي الأسبوعية، حيث مضيت إلى يبنا، في قطار الظهيرة، فبلغتها عند الأصيل. أفكر في الطريق فيما كان يمكن أن يقع لي .(لوأن القطار تأخر قليلاً.؟ أو لو أنني بكرت أكثر قليلاً في ذهابي إلى غرفة الاشارة ..؟ وهؤلاء الأصدقاء لماذا أخفوا عني هذه الحقيقة..؟ ألأنهم لا يريدون إثارة الخوف لدى من يقومون بهذا العمل؟ هكذا تقضي التعليمات (من الجهات العليا)..؟ أم هي الاستهانة بأرواح أمثالنا من الكادحين ..؟ تأكلهم الضباع، تلدغهم الثعابين.. لايهم ..!

نقلت الحكاية إلى والدتي التي طار صوابها، حتى قبل أن تستمع إلى بقيتها. دقت على صدرها.. لطمت خدها.. أقسمت (بالله العظيم.. بالأنبياء جميعاً لا نبياً واحداً.. والأولياء كافة.. في كل زمان ومكان، ألا أعود إلى كفر جنس أبداً ..!

حتى لو أصبحنا على الحميد المجيد يا ابني.. إن الله هو الغني.. ما كل مرّة تسلم الجرّة ..!).

أبلغتهم عزمي على ترك العمل. وإذ لم أوافق على إتمام المدة القانونية - طبقاً لتعليمات والدتي الصارمة - أنذرت بأني سأفقد راتب ذلك الشهر. عدت أدراجي إلى يبنا، متوكلاً على الله، حامداً إياه على النجاة من موت محقق بين أنياب ضبع كاسر ..!

أحزنني فراق السيدتين، عطيات وفريال وزوجيهما، على الرغم من عذاب الغربة، والأخطار المحدقة بعملي هناك، سواء كانت الضباع أو القطارات ذاتها. بل إني سرعان ما انتابني الحنين إلى (كفر جنس) من أجلهم. هم أيضاً لم يخفوا تأثرهم في يومي الأخير هناك. بكت السيدتان، لاسيما عطيات التي قبلتني في جبيني، وهي تدعو لي بالنجاح والفلاح، في مقبل أيامي. ثم محمّلة إياي (الأمانة) بألا أنقطع عنهم، وألا أتوانى عن زيارتهم في المحطة، كلما أتاحت لي الظروف ذلك .

كانت كفر جنّس محطتي الملائمة. إلى يافا. فمن حين إلى آخر، اقتنص ساعات من وقت الفراغ أو الراحة في المحطة، أقصد الأحباب فيها. أصبح ذلك جزءاً من حياتي. ورغم عناء الرحلة، لتنقلي بين وسائل المواصلات المختلفة، خلال القرى العربية والمستعمرات اليهودية، الواقعة بين كفر جنّس ويافا، إلا أن ذلك لم يثنني عن مواصلة زياراتي لهم هناك، فأنسى عند اللقاء، مشقة الطريق وعناء الرحلة. أما الآن فقد بعدت الشقة بيني وبينها، رغم أن المسافة أضحت أقصر إليها، غير أني لن أتمكن من التوجه إليها، بتلك السهولة، وكلما شئت كما كنت أفعل من قبل. بلى إنني لنادم على ذلك اليوم، الذي قصصت فيه على والدتي حكاية الضبع، الذي تربص بي في كفر جنس، مما أسفر عن التطورات اللاحقة التي أفضت بي إلى ماأنا فيه الآن، سواء كان ذلك بطالة عن العمل، أو كان حرماني من يافا ومن فيها ..(هل كان الضبع سيأكلني فعلاً..؟ ألم أكن متسرعاً وغبياً أيضاً إذ فعلت، فجنيت على نفسي بحماقتي ..؟ وحين قصصت عليها ذلك، هل كان الخوف هو دافعي، أم كانت المباهاة بشجاعتي في مواجهة الضباع ..!؟ الأمر سيان على أية حال، والنتيجة واحدة). كان في وسعي أن أحتاط للأمر، عن طريق الضوء، بمصباح أكثر سطوعاً، أو حتى علبة ثقاب. ألا يقولون أن الضباع تولي هاربة أمام الأضواء، تماماً كالخفافيش ..!؟ أما وقد حدث هذا، فلا بد من وسيلة أو حيلة. أجل لماذا لا أحتال على الوالدة بطريقة ما للذهاب إلى يافا؟ بعد تدبر وإعمال للفكر، وجدتني أزعم لها بأن هناك من أنبأني

بأن ابن العم محمد طريح الفراش. لكنها فاجأتني بسؤال أدخل الفزع إلى نفسي، حين تساءلت :(من أنبأك هذا..؟). بادرت إلى الرد بأنه سعيد الجمل القادم للتو من يافا هو من أنبأني ،(أفلا ترين يا أمي أن الواجب يقضي أن أعوده ..؟).

أكبَرت فيَّ والدتي، هذه الأريحية، بل أضافت بأنها هي أيضاً سوف ترافقني إلى يافا قائلة :

- الواجب واجب يا بني ..(اللي يشوفك بعين شوفه بعينتين ..!)

لابأس من ذهابها معي. أما محمد فلسوف أتدبر الأمر معه فور وصولي، لتغطية (كذبتي البيضاء)، التي لم يكن دافعي إليها سوى رغبتي الجارفة، لرؤيتها. أجل لم أعد أطيق البعد عنها زمناً كهذا، أنا الذي يحلم برؤيتها كل يوم. وحتى هذه الزيارة - التي لا بد أنها ستكون سريعة خاطفة - لن تطفئ ضرام الشوق إليها. وإذا كنت في هذه المرة استطعت أن أحقق رغبتي بأكذوبة اختلقتها، وصدقتها أمي لحسن نيتها، ولثقتها بي التي لا تشوبها شائبة، فمن لي برؤيتها بعد ذلك كلما اجتاحني الحنين إليها ..؟

.. هل أحدث أمي في أمر خطبتها؟ خطبة وحسب. هناك من هم أصغر مني سناً يفعلون ذلك، والأمثلة أكثر من أن تحصى في قريتنا هذه. أم تراني نسيت بأن (خطاباً) تقدموا إليها، كما أخبرتني العمة أم ابراهيم ..؟ هل أظل صامتاً إلى أن (تطير) من يدي ..؟ سأقنعها بأنها سوف تكون (كنة يافاوية) جميلة تفاخر بها نساء بيننا عن بكرة أبيهن ..!

بعد أن توصلت إلى هذا القرار، تذكرت أن الظروف التي نعيش، غير ملائمة للخوض في شأن كهذا. الأجواء التي توترت أخيراً في سائر أرجاء البلاد، قمينة بأن تصرف الناس عن كل ما عداها. هل أضرب عرض الحائط بكل ما يقال ويذاع، لكي أتحدث في خطبة فتحية ..!؟ إنهم يتحدثون، وكذلك الصحف والأذاعات جميعاً، عن تطورات لم تكن في الحسبان. فبعد أن تخلت بريطانيا عن مسؤلياتها تجاه القضية، وألقت بها على عاتق تلك الهيئة، التي أنشئت في أعقاب الحرب العالمية الأخيرة، بات واضحاً أن الأمور سوف تأخذ منحى مختلفاً. ولا يدري أحد ماذا تخفي الأيام القادمة، وإن كانوا واثقين من قدرتهم على التصدي لليهود، إذا ما خلي بيننا وبينهم، بعد رحيل حماتهم الانكليز عن البلاد. وفضلاً عن تدفق أمواج الهجرة اليهودية، من جديد، بتمويل ودعم من أمريكا وبريطانيا معاً، هناك لجان وافدة على البلاد، تحت أسماء وعناوين مختلفة، منها ما هو (لتقصي الحقائق)، وما هو (للتوفيق). هذه اللجان يؤلفونها

هم، ويوجهونها هم. غاياتها جميعاً واحدة، ومحدّدة سلفاً. يتساءلون : أي (حقائق) هذه التي يتقصونها؟ و(التوفيق) بين من ومن؟ هل يجهل هؤلاء ما هي (الحقيقة) وهي حقيقة واحدة، واضحة، ساطعة كنور الشمس في رابعة النهار؟ يتساءلون :

ما شأن هذه الدول الاحدى عشرة، التي تتألف منها لجنة (أنسكوب) هذه بنا؟ وهل لأحد غيرنا الحق في أن يقرر مصيرنا نحن؟ أليست هذه دولاً غريبة عنا وعن القضية؟ وهي أيضاً ضالعة مع اليهود متواطئة مع الانكليز، منذ البداية. ألا يكون هذا كله تمثيلاً ورياء و(ضحكاً على الذقون)، من أجل تمرير مخططاتهم وحيلهم؟ لا بد أن الأمر كذلك، وإلا فلماذا تقاطعها الهيئة العربية العليا ؟

لا تنفك الصحف عن نشر الأنباء حول اللجان، والمؤتمرات.. عن المقترحات والردود.. حول الغضب العربي، والتعنت اليهودي في المطالبة بما ليس لهم. بل والجرأة على إبداء المطامع والتصورات بما لا يقبله عقل ولا عدل، ولا تقره شريعة في الأرض ولا في السماء .

... من الحكمة ألا أثير أمر الخطوبة معها كي لا أضع العوائق في طريق الرحلة الموعودة ..!

الطريق إلى يافا، طويل هذه المرة. (أبو دياب النمروطي) يبطئ السير أكثر مما ينبغي.. يثرثر كعادته.. يصف المستعمرات ويلعن اليهود.. يبشرنا بالخلاص منهم طال الزمن أو قصر. يعلن ذلك بصوت مرتفع، ولهجة تحفل بالتفاؤل. ثم يتساه عند المنعطف التالي، أو ما بين ريشون ورخبوت (عيون قارة ووادي حنين)، ليعلن النقيض تماماً، فكل ما يجري يدعو إلى الخوف والتوجس. الركاب يوافقون على كل ما يقول، في كل الأحوال ..! أمي لا تفتأ تدعو الله أن يهيء لنا (ما فيه الخير). تسألني أحياناً عن مضمون أقوال النمروطي، وماذا فهمت منها. أعيد عليها أقواله مزيدة أو منقوصة، حيث اني لم أعرها اهتماماً منذ البداية. وحين يفوتني الكثير، أختلق لها من لدني ما يشبع فضولها. عقلي وقلبي معاً هناك، في ذلك المنزل.. في تلك الغرفة الأليفة.. فتحية هناك تغدو وتروح بين هذه الغرفة وتلك.. يموج فستانها الأحمر ذي الدوائر البيضاء.. أو هي تستلقي على الكنبة الوردية.. تشرد بعيداً.. ربما كنت موضوع شرودها.. تتخيلني قادماً إليها.. سوف يصدق حدسها، عندئذ. قد يفاجئها مجيئي غير المتوقع في هذا الوقت. تدهشهم جميعاً صحبة أمي أيضاً، هكذا بغير مقدمات.

ليافا نكهتها الخاصة، وسحرها الفريد، تأخذ بمجامع القلب. شوارعها ومبانيها تثير في النفس الشوق. تناغم أمواج بحرها.. أصوات الباعة في

أسواقها.. ناسها الذين يعمرون طرقاتها ومقاهيها. صوت مؤذن ينطلق من هناك.. أغاني وموسيقى تصدر عن الحوانيت والمقاهي. في كل مرة أرى فيها سحراً جديداً، وفتنة آسرة. يكفي أنها تضمها بين جوانحها.. فتحية تستنشق عبير أجوائها ونسيم بحرها ..!

سنمضي إلى منزل العم أبو محمد أولاً، ولن يعدم الرجل وزوجته وسيلة للذهاب بنا إلى دار العم أبو ابراهيم. قد أحتاج إلى معونة محمد، ولو أنه سوف يردد على مسمعي تلك الجملة التي أصبحت تلازمه مؤخراً (ما أنا عارف أنت جاي لمين يا أستاذ ..!)

لم يكن المبيت ممكناً في يافا، فأمي لا بد أن تعود إلى بيتها، وليس مألوفاً أيضاً أن تتزاور العائلات في النهار.،وأنا لا أستطيع أن أقترح شيئاً.. لكن العمة أم محمد كانت على قدر من الكياسة والمقدرة على التصرف، وحل العقد الشائكة. لقد استطاعت دعوة أم ابراهيم وفتحية إلى دارها لمشاركة ضيوفها الغداء. بل هي أيضاً استطاعت أن تجعل الأمر يبدو طبيعياً، وكأنه محض مصادفة.

إبّان تناول الغداء، الذي أعدّته أم محمد على عجل، تبادلن أحاديث شتى كالطهي، والغسيل، وتنظيف المنزل، والطريق ما بين يبنا ويافا. أحسست في لحظة صمت أطبقت أن هناك أموراً يرغبن الحديث فيها، لكنهن يحجمن عن ذلك لوجودنا أنا ومحمد بينهن. تنحينا جانباً، لننصرف نحن أيضاً إلى حكايانا. قال لي محمد، وهو يغمز بعينه مبتسماً :

- يبدو أن المسألة دخلت الجدّ يا ولد ..!

- من ناحيتي لم أحدث أمي بشيء. وما أظنها توافق على خطبة فتحية لي بسهولة. بنات يبنا، يا سيدي، يعجبنها أكثر .

- لكن أمي شاطرة.. وأم ابراهيم أشطر ..! ولا تنس تأثير فتحية عليها أيضاً.. بنت حلوة ومؤدبة.. المهم سنعرف كل شيء بعد قليل.. لو كان أبي هنا لاختلف الأمر.. قال محمد.

أسفت فعلاً لغياب العم أبو محمد، في هذا الوقت بالذات.. لا شك أن لوجوده أبلغ الأثر على والدتي.. حبذا لو كان حاضراً ذلك العم.. وإلا فما جدوى أن يكون (عماً) !؟ ربما نحتاج إذن إلى جولة أخرى.. يا إلهي.. ومتى يكون ذلك..؟

حين خلعت فتحية (الكاب) الأسود، لدى دخولها - أسوة بما فعلت أمها - ورفعت المنديل الشفيف عن وجهها، بانت فاتنة إلى حدٍّ لم أتصوره من قبل. لم تكن في أي يوم مضى أجمل مما هي اليوم. كل ما فيها ساحر مبهر. سمرتها الصافية.. وحمرة وجهها الخفيفة تزيده نضارة وإشراقاً.. بسمتها إياها التي لاتفارق شفتيها.. ذلك البريق الساحر يطل من عينيها. هذا الثوب البرتقالي الذي بدا فاتناً بعد أن خلعت (الملاءة)، وهذه الأشياء المضافة إليه هنا وهناك ..!

لم تكن حساباتنا صحيحة، أنا ومحمد، إذ سرعان ما تبين لنا أنهن قد توصلن بسهولة ويسر، بل وبسرعة غير عادية، إلى ماكنا نحسبه عسيراً بعيد المنال. بل إن والدتي هي التي كانت صاحبة المبادرة. لقد أبدت لهن إعجابها بفتحية، وأنها تتمنى على الله أن يمنَّ عليها (بكنّة) مثلها. بل حبذا لو تكون هي ..! شاركتها العمة رشيدة أمنيتها، وتقدمت إلى أم ابراهيم تطلب مباركتها، أو (إعطاءها كلمة) على الأقل، ريثما تفاتح زوجها. عندئذ (نتقدم لطلب يدها حسب الأصول ..) أما الزواج فلا بأس من إرجائه بعض الوقت .(عندما يأتي أبو محمد أخبره بما جرى ونرتب الأمور معه.. والباقي على الله.. شفتي يا أم ابراهيم.. كل صدفة خير من ألف ميعاد ..! حضوركم مع حضور أختي أم سعيد من بلدها.. مصادفة عجيبة.. لكنها القسمة والنصيب..!)

(.. أمي حبيبتي تقرئين ما في قلبي.. تصنعين دوماً ما أتمناه حتى دون أن أفصح عنه.. تحسّين بي.. تعرفين تماماً ما أريد.. أيُّ أمٍّ أنت ..؟ لم أحلم من قبل بأن يتم الأمر هكذا بهذه السهولة، وعلى هذا النحو.. تصورت أن أمامي شوطاً بعيداً، بل طريقاً شائكاً، قبل أن أستطيع حتى مجرد مفاتحتك بشأن فتحية، وإذا بك تصنعين ما بدا لي مستحيلاً.. ألا إنك لتدركين مني ما أدرك وما لا أدرك ..!)

لم أتمكن من الانفراد بفتحية، لأستمتع برؤيتها والاستماع إليها، ومعرفة ردة فعلها. لا ريب أنها سعدت أيضاً بما أسفرت عنه هذه الزيارة الميمونة. لعلها تحسب الآن أني أنا الذي سعيت إلى ذلك. وما اصطحابي لوالدتي إلى يافا إلا من أجل مفاتحة أهلها بشأنها حسناً، وليكن ذلك .

طريق يافا إلى يبنا أيضاً لم يكن في يوم من الأيام أكثر جمالاً مما هو عليه اليوم. الشمس توشك على المغيب بعد أن تجاوزنا (رخبوت)، وشرعنا نقترب من محطة يبنا. ظلال الأشجار طويلة جداً.. أشجار الكينا تطاول السماء.. بيارات البرتقال خضراء نضرة تبهج القلب والعين، تغرق في صمت مهيب، إلاّ

من حفيف الأوراق والأغصان، تحركها نسمات خريفية باردة.. وأبو ديب يطلق العنان، بصوت أجش لكنه دافق بالحنان والشجن مغنياً :

أحبابنا يا عين كانوا معانا..

رحنا وراحوا عنا.. ما حد منا اتهنى..

عيني يا عيني ...

لا حديث لأمي في المنزل و مع الجارات إلا عن فتحية وذويها. حاول سعيد أن يصرفها عن الفكرة، في هذا الوقت، وفي هذه السن المبكرة لأخيه، لا لأنه هو يريد الزواج، ولكن لأن هذه العجلة لا داعي لها، والدنيا (قايمة قاعدة). بل هو يرى أن يستأنف أخوه تعليمه في يافا ما دام لديها المال الذي تريد إنفاقه على زواجه. أبو صفية أيضاً كان له رأي مماثل، مع تأكيده بأنه لا يعارض، وإنما هو يبدي رأياً وحسب. أحمدَ وعلياء، فرحا عندما علما أن هذا يعني عرساً يقام في دارنا. أمينة تصمت وتشرد بعيداً، والحزن بادٍ على محياها وفي عينيها. وهي سوف تزف إلى ابن عمتها وشيكاً. الجارات اللواتي يتدخلن في كل شيء، أبدين آراء مختلفة، وإن كان اعتراض بعضهن ينصب على فكرة الزواج من (يافاوية)، فهذه (لن يعجبها العجب ولا الصيام في رجب)..! حياتنا الخشنة لا تلائمها. وأخذن يضربن الأمثال بالذين تزوجوا من (غريبات) عن القرية .

حمدت العلي القدير على أن ذلك كله لم يثن أمي عن عزمها، فلقد ملكت عليها تلك الزيارة لبَّها. من ثم فقد شرعت تعُد لما هو قادم. لا بد من طلاء المنزل أولاً. وما هي إلا أيام قليلة حتى كنا أنا وسعيد وفوزي منهمكين في طلاء الجدران باللون الأزرق، والأبواب والنوافذ باللونين الأصفر والأخضر. رائحة الدهان المنعشة عمت البيت، والرفاق سليمان ومحمد النجار ونعيم يمدون يد العون لساعة أو اثنتين قبل أن ينصرفوا وقد تلونت ثيابهم بالدهان المختلف الألوان.

تؤكد والدتي لمن يسألها بأنها لا تنوي إتمام الزواج قبل مضي سنة أو اثنتين، لكنها لا بد لها من الأعداد لذلك منذ الآن، لاسيما وأن الأنسباء والأقارب في يافا قد يقومون بزيارة مفاجئة لنا في أي وقت، وعلينا من ثم أن نبدو في أعينهم بالمظهر اللائق .

بدا المنزل مضيئاً مشرقاً، وجميلاً أيضاً كما لم نره من قبل. حتى الحاكورة زرعت ونسقت، والكهف (الكفري) طلي من خارجه بالجير.. آه لو ينشق هذا الكهف عن ذلك الكنز المرصود بداخله..!

أمهات الفتيات اللواتي رشحتهن أمي سابقاً ممتعضات. الحاجة أم سايحة وابنتها الحاجة خضرة تتحينان الفرصة، لعل أمي توافق، هذه المرة، على بيع الحاكورة، لاسيما وأنها سوف تحتاج الآن إلى المال. خالتي نعمة تسأل أمي عما إذا كان لدى أنسبائها هؤلاء ابنة تناسب ولدها فوزي، ما داموا على الصورة التي تصفها. جدي وخالي رمضان أبديا عدم الرضى لأسباب أسهبا في شرحها، لكن أمي لم تأخذ برأيهما، بل دفعها ذلك إلى مزيد من التشبث بما عزمت عليه. وقفت إلى جانبها زوجة جدي (ستّي رقية) .

في هذه الأثناء حظي كل من نعيم أبو جلالة ومحمد النجار بوظيفة (معلم وكيل) في مدرسة القرية، براتب شهري جيد قدره خمسة جنيهات.

أيام قليلة انقضت قبل أن نقوم بزيارة أخرى إلى يافا، رافقنا فيها أخي سعيد والحاج مصطفى أبو عون، وخالتي نعمة وزوجها، وخالي رمضان. توجهنا إلى منزل العم أبو محمد الذي قادنا، من ثم والخالة أم محمد إلى دار العم أبو ابراهيم. بعد مفاوضات عسيرة حول المهر والشروط الأخرى التي ينبغي توفرها، تمت الخطوبة وقرئت الفاتحة. مائة جنيه مقدم المهر، ومثلها مؤخر الصداق.. غرفة نوم وكنبات.. وو.. فلم أكن من ناحيتي أعير انتباهاً، في تلك الأثناء، لمداولاتهم. كنت أفكر في فتحية وحدها. كأني غير مصدق أن هذا يحدث حقاً، وأن الأمور تسير بهذا اليسر، على الرغم من تشدد ذويها في حكاية المهر والشروط. وقد أجمعت الأطراف المعنية على أن العروسين ما برحا أصغر من سنّ الزواج.

وحين سألت أمي، إثر عودتنا إلى القرية :

- كيف لنا أن نتدبر نفقات العرس الذي سوف يكلف الكثير.. ؟

ردت في ثقة :

- الله يدبرنا يا ابني ..

ثم أردفت بعد لحظة صمت :

- مع أن اليافاوية مطالبهم كثيرة. أثاث جديد، وثياب، كسوة، وزينة..

- إذن ماذا نصنع ؟

رمقتني بتلك النظرة التي أعرفها جيداً، تتدفق حناناً وتنمُّ عن أسى من عينيها العسليتين الذابلتين، ومسحة الحزن لاتفارق محياها. لكنها مالبثت أن انفرجت أساريرها وهي تقول باسمة :

- ألا تعرف أني وفرت لك مبغاً من أجور عملك يكفينا لنفقات العرس إن شاء الله..؟ وكلها لله يا ولدي .. ومن توكل على الله كفاه .

ولكني عدت أسألها، من قبيل الفضول رغم الاحساس بالارتياح الذي اعتراني :

- وهل عملت أنا بما يكفي لهذا كله ؟

أومأت برأسها أن نعم .

- ولكن لماذا لم نعمد إلى تزويج أخي سعيد الأكبر مني؟

أجابت :

- هذه نقودك أنت الذي تعبت في جنيها .

قطع علينا حديثنا دخول أم مريم والحاجة خضرة إلى دارنا فانصرفت أبحث عن الرفاق لأزف لهم البشرى .

في منزل العم ابو ابراهيم أقيم الاحتفال الذي قيل انه سوف يكون بسيطاً، قاصراً على الأهل والأقارب. ولكن ماحدث لم يكن كذلك. فقد غصّ المنزل بالنساء اللواتي شرعن، منذ عصر ذلك النهار، يتدفقن تباعاً، اسراباً أسراباً. رافلات بالحلى والثياب، ذات الألوان البهيجة التي تخطف البصر كلما انحسرت الملاءة السوداء بفعل الهواء العاصف من ذلك اليوم الخريفي. كما بدت نضارة الوجوه في أبهى زينة، وذؤابات الشعر هفهافة تحت المناديل الشفيفة التي يرفعنها إلى أعلى الجبين، فور دخولهن فناء الدار. أصوات الغناء وإيقاعات الطبل والدفوف ترقص على نغماتها واحدة أو أكثر، تتناهى إلى مسامعنا (نحن الرجال) حيث احتوتنا غرفة الضيوف الفسيحة. إحداهن تقلد أسمهان :

(يا للي هواك شاغل بالي

في غرامك أنا ياما قاسيت ..

ضحيت لك حبي الغالي

وفي حبك يوم ماتهنيت ..)

وأخرى تصدح بأغنية ليلى مراد :

(ياما أرق النسيم.. لما يهب عليل..)

وثالثة تردد بصوت أعلى من سابقتيها يعلو ويشتد معه إيقاع الطبل والدفوف:

(يام العبايا.. حلوه عباتك ..

جمالك آيه.. زينة صفاتك..)

أمي هناك معهن. لاشك أنها مأخوذة الآن بكل ماترى وتسمع. لسوف تبهرها زينة (اليافاويات) وبهرجتهن. بل إن ذلك سوف يخيفها أيضاً. جرأتهن هذه التي لاتعرفها مثيرة حقاً. لابد أنها ترهب الموقف، على الرغم من سعادتها. ولاريب أن الخالتين ظريفة ورشيدة تحيطانها بالرعاية، ولا تقصران أيضاً بمرافقات والدتي : خالتي نعمة وبناتها فاطمة وفوزية وندى، وخالتي بديعة، وعدد من بنات جيراننا. هنّ لابد حانقات، كدأب نساء يبنا كلما تزوج أحد أبنائها من يافاوية أو شامية أو مصرية..! أعرف هذا مذ كنت أرافق أمي إلى المصاطب أمام الدور في الأمسيات الغابرة .

يقطع عليَّ شرودي وتصوراتي أصوات من حولي، أقارب العم أبو ابراهيم والعم أبو محمد، ومن رافقنا من يبنا، حيث انهمك هؤلاء في أحاديث شتى لم أتابعها معظم الوقت، إلى أن قال أحدهم :

- هل رأيتم عروض النجُّادة في (البصّة) اليوم؟

ردَّ آخر :

- كان عرضاً جميلاً يرفع الرؤوس. (الهوّاري) قائد النجادة هذا أتى بعمل عظيم .

يعقب على ذلك العم أبو محمد قائلاً :

- إن شاء الله سيكون هؤلاء الشباب جيش فلسطين في المستقبل ..

قال العم أبو ابراهيم :

- الله يكتب لنا مافيه الخير ياجماعة ..

قال يافاوي آخر :

- آمين آمين يا أبو ابراهيم. سمعتم أيضاً.. (يوسف بك هيكل) نجح في انتخابات بلدية يافا.. هذا رجل وطني ومتعلم في أوروبا..!

العم أبو محمد أكثر الحضور استئثاراً بالحديث. أما العم ابو ابراهيم فلا ينفك عن ترديد عبارات الترحيب، التي تكررت هي ذاتها مئات المرات، فيما هو يوالي تقديم القهوة، يصبها من إبريق (بكرج) نحاسي عتيق، ثم يعيده ليستقر فوق الجمر المتوقد:

.. عقبى الجميع ..

.. يجعل دياركم عامرة وافراحكم دايمة ..

يرد أحدهم

.. عقبال الاستقلال وراحة البال ..

غمغمات تأتي من هنا وهناك.. أو مايشبه الهتاف أحياناً يطلقه أحدهم معبراً عن مشاركته القلبية، فيما هو يصحح وضع الطربوش على رأسه، أو يشدُّ (الشملة) على خصره. أما العم أبو محمد فلا يني عن إخراج ساعة الجيب المعلقة بسلسلة ذهبية من جيب بنطاله الأبيض الفضفاض. يحدق فيها بإمعان قبل أن يعيدها بتؤدة ومهابة إلى مكانها، تتراقص مع حركته حزمة الخيوط السوداء المتدلية على الجانب الأيمن لطربوشه القاني الحمرة .

انخلع قلبي رعباً حين احتوت قبضة العم أبو ابراهيم الضخمة يدي النحيلة. راح يضغط بقوة كأنما يخشى أن تفلت من يده، لكي يردد واحدنا إثر الآخر وراء المأذون، الذي بدا مهيباً بعمامته الناصعة البياض، وجبَّته السوداء. ذلك بعد أن قرأ آيات من القرآن الكريم. قال الله تعالى { وخلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها.. } صدق الله العظيم : قل يا أبا ابراهيم :

– زوجتك ابنتي فتحية على سنة الله ورسوله بمهر معجله عشرون جنيهاً ومؤجله مائة جنيه فلسطيني ..

قل أيها العريس المبارك :

– قبلت منك زواج ابنتك فتحية موكلتك على المهر الذي ذكر وعلى سنة الله ورسوله..

ها هي ذي أمامي.. سمحة المحيا.. تضيء وجهها الصبوح بسمتها الآسرة، تطلُّ من عينيها بسوادهما وبريقهما الساحر.. يتراقص ثوبها الأحمر ذي الدوائر البيضاء.. شلالات شعرها الكستنائي اللامع تتماوج على كتفيها .

تنبهت على صمت يطبق، أدركت أنهم ينتظرون أن أقول شيئاً.. نظراتهم تحدق في وجهي، لاسيما الخال رمضان وابن العم محمد، مما زادني ارتباكاً :

يعلن الشيخ المأذون :

.. الفاتحة يا إخوان.. وعلى بركة الله ..

بسط الرجال أكفّهم يقرؤون الفاتحة بصوت خفيض، وإن بدت همهماتهم كدوي خلية نحل. مسحوا براحات أكفهم على وجوههم :

.. آمين.. اللهم آمين

.. مبروك.. مبروك للجميع..

وإذ هممنا بالانصراف عقب صلاة المغرب، دعا للجميع الحاج مصطفى أبو عون بتمام الأفراح على خير، ضارعاً إلى المولى عز وجل بأن يديم علينا (هدوء الأحوال وراحة البال بعد دحر اليهود ونيل الاستقلال).. !

أيام قليلة انقضت قبل أن نقيم عرسنا في يبنا. تجمعُ الرجال في دارنا، والنساء في دار الحاجة (أم سايحة)، التي تطوعت من تلقاء نفسها بإعداده لهذه المناسبة. معلنة أن هذا ماينبغي أن تفعله لمن كان لها الفضل في إخراجه إلى هذه الدنيا. وهي اليوم -كما تقول - أسعد خلق الله، إذ تراه فتى يافعاً وعريساً أيضاً.. (ياصلاة النبي.. وعين الحسود فيها عود.. ومن خلّف ما مات يا اختي ياعايشة رحمة الله عليك يا أبو سعيد ..!) .

رفاقي يملأون الدار حركة وصخباً. يقومون على خدمة المهنئين والمشاركين. يقدمون الشاي والقهوة، وينثرون السكاكر على الحصر والبسط الممدودة. سعيد كان بادي الفرح، كذلك كان ابن الخالة فوزي، والخال شعبان .

إحدى غرف الدار تكتظ بأكياس السكر والأرز والقهوة. أما الحاكورة وحول الكهف (الكفري) فقد تجمع هناك عدد من الخراف تملأ المكان ثغاء وروثاً وحركة..!.

تكاثر الرجال والغلمان الذين تقاطروا من شتى أرجاء القرية. قام جمع منهم عقب العشاء، فعقدوا حلقات الدبكة والسامر، على إيقاع الطبل والأرغول. ثم الميجنا والدلعونا، وظريف الطول.. والعتابا ...

وحين انطلق صوت شاب يردد أغنية لأم كلثوم :

غني لي شوي شوي...

غني لي وخد عيني ..

انطلق الجميع يرددون وراءه، يصفقون ويرقصون وقد أخذ منهم الحماس والطرب مأخذه .

يمور المكان بحياة زاخرة. تغشى فنـاء الـدار سـحب الدخـان، تتصـاعد مـن المواقد، والسجائر، يختلط معها عطر القرفة وشذى الزنـجبيل، تنشره قدور الشاي الكبيرة والأقداح، التي يطوف بها عليهم غلمـان وشـبان مـن الأقـارب والرفـاق. الزغاريد وأصوات النساء يتضاحكن أو يغنين تتناهى إلينا من الدار المجاورة ... وآه ... يـاحبيبتي ... فتحيـة ... أيـن أنــت الآن.. حبـذا لـو كنــت بيننـا تريـن وتسمعين ..

ويمضي السمار في سمرهم، مفعمين بهجة وحبوراً، تحت أضواء المصابيح التي ترسل نشيشاً خافتاً لاينقطع. وعند الأفق يطل القمر، سابحاً في سماء صافية الأديم. يرافقهم حتى مطلع الفجر، ينشـر ضيـاءه صافيـاً رقراقـاً، كأنمـا يشـاركهم أفراحهم، إلى أن يتفرقوا في طرقات القرية، وخلال حاراتهـا وأزقتهـا الحجريـة، منصرفين إلى دورهم، كي يخلدوا إلى الراحة بعد عناء ليلة عامرة.. عرس أمين على (البنت اليافاوية).. !

عندما أمسينا وحدنا تذكرت أبي.. أمي أيضاً تصورتـه مـاثلاً بيننـا يشـاركنا افراحنا المشوبة بالحزن والأسى.. خيمٌ علينا وجوم صامت قبل أن نمضـي إلـى النوم ..

تـتراقص ذبالـة السـراج ... والهـواء يرسـل فحيحـاً بيـن أغصـان الأشـجار المتماوجة في الخارج.

الدّيكة تبدأ صياحها.. وحي على الصلاح.. حي على الفـلاح تحملهـا الريـح من الأعالي.. وأمضي إلى حيث لاأدري.. بعيداً.. بعيداً..

تتفاقم الأحداث يوماً بعد يوم، وينصرف الناس إلى الاهتمام بما يجري في تلك الهيئة التي أسموها (الأمم المتحدة). لاسيما تلك التوصيات التي قدمتها اليها اللجنة الأخيرة، فما أكثر اللجان والمؤتمرات منذ بداية الانتداب البريطاني على البلاد. لا حديث للناس إلا هذا. أما تقرير هذه اللجنة (انسكوب) ذات الأسم الغريب، فقد وضع الزيت على النار، فزاد المسألة تعقيداً، وأثار لدى أهل فلسطين السخط والغضب. فلقد جاء مجحفاً، بل جائراً عليهم، ولكنه كان ممالئاً ومنحازاً لليهود على نحو سافر. حتى لقد بدا وكأن اليهود أنفسهم هم واضعوه. فبمقتضاه وعلى هديه تصدر هيئة الأمم هذه قرارها، الذي لاسابقة له ولا مثيل في تاريخ الأمم الشعوب، اذ هي تقرر تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ..!

أصيب الناس بالذهول في كل مكان. لم تصدق عقولهم مايجري. تساءلوا غاضبين مستنكرين: ما شأن هذه الهيئة بنا وببلادنا. ومن أعطاها الحق في تقسيم بلادنا ومنحها لليهود الدخلاء..؟ أم تراها قامت (هذه الهيئة) من أجل تثبيت المظالم، وضياع الحقوق، بل ومحو الشعوب والأوطان بجرة قلم، ضاربة عرض الحائط برأي اصحابها ومصائر أهلها..؟ أم لعل هذه الأمم (اتحدت) علينا من أجل سلب أوطاننا الموروثة عن أجدادنا الأولين منذ آلاف السنين ؟.. أيّ جدوى إذن كانت لتلك الحرب الضروس، التي طحنت العالم.. ولم ينج من ويلاتها أحد..؟ وهل انتظر أهل فلسطين، وغيرهم من العرب، سنوات الحرب، بعد أن هادنوا الانكليز، وأوقفوا ثورتهم بناء على تلك العهود التي قطعها أولئك على أنفسهم لكي يكون هذا جزاؤهم ..؟

تساؤلات وتساؤلات نسمعها في المقاهي، وعند أبواب الدكاكين، في مضافات المخاتير وتجمعات الوجهاء في دار الجمل وأبو عون والعطار، على المصاطب وفي الطرقات والبيوت. بعضهم أيضاً رأى أن الأمر على قدر من السخف والتفاهة بحيث لايستحق عناء التفكير فيه.. (قال تقسيم قال..!)

استجاب الناس لدعوة الهيئة العربية العليا للأضراب العام لثلاثة أيام، في أرجاء البلاد كافة، احتجاجاً واستنكاراً. تجمّعوا هنا وهناك يتسقطون الأخبار من

الراديو والصحف، وسؤال السيارات العابرة، قادمة من يافا إلى قرى الجنوب ومدنه أو قادمة من غزة في طريقها إلى مدن الشمال وقراه. وسرعان ماتجمعت مظاهرة غصّت بها الطرقات المفضية إلى ساحة السوق والجميزة. شرعوا يهتفون ضد التقسيم وصانعيه، وينددون بالانكليز واليهود معاً، وأمريكا (رأس الحية)، بل والعالم الضالع المتواطىء على الظلم والباطل ..

تعم الاضطرابات الدموية سائر البلاد. لكنها الآن بين العرب واليهود. (ما العمل الآن أيها الناس؟ ولمن نلجأ بعد أن تواطأ الجميع علينا. الانكليز يطعنوننا في الظهر من جديد. كدأبهم على الدوام، فهاهم يعودون سيرتهم الأولى. الأمريكان أيضاً لم يقصروا في إيقاع الأذى بنا. ترومان رئيسهم هذا اليهودي أكثر من اليهود، هاهو ذا يعلن اعتراف بلاده بالتقسيم فور صدوره، ومفاخراً بأن أمريكا، بنفوذها وسطوتها معاً كانت وراءه. بل مضيفاً بأن دولته سوف تموّل هجرة الآلاف المؤلفة من اليهود من شتى أقطار الأرض (للعودة) إلى (دولتهم) الجديدة.. أرض الميعاد..! ولكن أليس ترومان هذا هو الذي أمر بالقاء تلك القنبلة الذرية على اليابان لكي تفني مائة ألف من البشر في لحظات ..؟هل نلجأ إلى الاتحاد السوفياتي! ولكنه ضالع أيضاً مع الضالعين فيما حدث، وقد كان العرب يحسبونه نصيراً لقضاياهم..! وهو قد سار على منوال الولايات المتحدة فبادر للاعتراف بتقسيم فلسطين، وبدولة لليهود تقوم فيها أسموها (اسرائيل)..!

في غمرة هذه الثورة التي انتشرت في سائر أرجاء البلاد، رأوا أنه لاسبيل أمامهم سوى حمل السلاح، دفاعاً عن الأرض والنفس، وحماية للحقوق (أما إخواننا العرب فلا ريب أنهم، والمسلمون أيضاً في كل مكان، سوف يهبّون لنصرتنا، والقتال إلى جانبنا. أجل لن يدعونا وحدنا، فالأرض الفلسطينية المقدسة، والمسجد الأقصى ثالث الحرمين، والبراق، ومهد عيسى بن مريم، ليست للفلسطينيين وحدهم بل هي تراث العرب والمسلمين معاً ..)

وها هي ذي أوليات بشائر الخير. (اللجنة العربية العليا) تنشىء جيش الانقاذ بقيادة فوزي القاوقجي. (الهيئة العربية العليا) أيضاً تشكل قوات (الجهاد المقدس) بقيادة عبد القادر الحسيني. بل إن هناك ماهو أعظم – أيها الناس – أرأيتم؟ فهاهي الجامعة العربية تعلن عن قرار خطير عظيم، هو دخول الجيوش العربية إلى فلسطين فور جلاء الانكليز عنها في التاريخ الذي حددوه لانسحابهم الخامس عشر من أيار من العام القادم. وتسمي الملك عبد الله بن الحسين قائداً لتلك الجيوش .

يندلع القتال في كل مكان من فلسطين. تحركات محمومة، وأحداث جسام تتوالى بغزارة الأمطار. صدامات ومعارك مع اليهود في سائر أنحاء البلاد. والانكليز يتظاهرون بالحياد، لكنهم يسارعون إلى إنقاذهم في أي موقع يوشك أن تحيق بهم فيه الهزيمة. (على أية حال سنرفض أن تكون لهم ذرة واحدة في تراب هذا الوطن. أي تقسيم هذا الذي يتحدثون عنه؟ وأي (أمم ومتحدة) هذه التي تريد فرضه علينا؟ أرضنا هذه يقسمونها بيننا وبين الدخلاء؟ كيف؟ هل سمع أحد قبل الآن عن بلاد قسّمت بين أصحابها وأفاقين قدموا اليها من مجاهل الأرض ؟

عمد كثير من الناس إلى بيع حلي نسائهم، حين عجزوا عن توفير المال من سبيل آخر، من أجل شراء بندقية وذخيرة. شرعوا يحفرون الخنادق، ويقيمون المتاريس، ونقاط المراقبة. توزعوا نوبات الحراسة على مدار اليوم. تألفت لجان في القرى والمدن للأشراف على الإعداد والمتابعة والدفاع.

ترد الأنباء تباعاً عن معارك في صفد وسمخ وحيفا، واللطرون وباب الواد واللد والرملة، يافا وبيت دجن، رامات جان وبتاح هاتكفاه، اسدود وعاقر والمغار، القدس ورام الله وماحولها. لم يبق مكان لم ينشب فيه قتال. النجدات التلقائية تهب منطلقة من هذه القرية إلى شقيقتها المجاورة حين تتعرض لهجوم. يستشهد شبان في الطرق على أيدي عناصر الكمائن اليهودية.. يستشهد آخرون ممن يصلون إلى مواقع القتال. كما أن الهجمات العربية على المستعمرات اليهودية وقوافل التموين العاملة بينها، لاتتوقف. أعداد قتلاهم والجرحى تتصاعد، فيزداد الناس حماساً .

أنباء من جهة ما تبعث على التفاؤل، وأخرى ترد من جبهة غيرها تثير القلق. يتجمع الناس في الطرقات، يتسقطون الأخبار. يبعث بعضهم الحماس في بعضهم الآخر .

في غمرة هذا الفيض الزاخر من الأنباء المتضاربة، والأحداث المفجعة تأتي البشائر بدخول قوات جيش الانقاذ القادمة من الشقيقة العربية سوريا. فوج منها يتوجه لحماية صفد في الجليل الأعلى. وفوج يتّجه نحو نابلس. فوجان بقيادة القاوقجي نفسه يعسكران في جنين. متطوعون من مصر وسوريا ولبنان والعراق والسودان، يتوافدون على مناطق القتال بداعي الجهاد، يتوزعون المواقع في سائر ربوع فلسطين .

من هذه البشائر أيضاً أن قوات الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني أوشكت أن ترغم العدو على الاستسلام في القدس .

الأهالي في كافة الأماكن التي وصلتها هذه القوات أو جماعات المتطوعين ينحرون الخراف، ويقيمون الأفراح - هكذا تنقل الأنباء - يستقبلونها بالهتاف والزغاريد. يحلونها في قلوبهم فضلاً عن أرضهم (إخوة لنا هؤلاء جاءوا من أجل فلسطيننا جميعاً مخلفين وراءهم أهلهم وذويهم) بل راح الناس يحملون اليهم في مواقعهم الطعام، تحمله النساء على رؤسهن، والمؤن على ظهور الدواب والسيارات العابرة ينقلها اليهم الرجال. غمر الفرح النفوس واكتست الوجوه بتباشير الأمل بالحفاظ على أرض الوطن .

رفع من معنوياتهم كذلك قدوم أعداد كبيرة من المتطوعين من بلدان إسلامية شتى، غير عربية، معلنين بأنهم لايبتغون سوى مرضاة ربهم. نيل إحدى الحسنيين، بنصرة أشقائهم والدفاع عن الديار المقدسة، أو الشهادة في سبيل الله .

غير أن هذه الأنباء السعيدة لم تدم طويلاً، فلقد حاقت ببعض المناطق انتكاسات غير منتظرة. ووقع الكثير من الضحايا في أماكن عديدة من البلاد، فيما كان الانكليز يتفرجون أو يدعمون اليهود يمدُونهم بالسلاح والعتاد .

نبأ منها قصم الظهور، فوقع عليهم وقع الصاعقة .

ففي الثامن من شهر نيسان أعلن عن استشهاد القائد عبد القادر الحسيني في معركة القسطل. كان هذا أخطر الأنباء في مواقع القتال حتى الآن، مما كان له أكبر الأثر على المعنويات، في سائر أرجاء البلاد. عمَّ الحزن وأعلن الحداد في كل مكان. أحسّ الناس بأنه نذير شؤم، وبداية لاتبشر بالخير لما يمكن وقوعه في قادم الأيام. ولأن ذلك حدث بعد عمليات ناجحة قامت بها قواته في القدس وما حولها، فقد جاءت الصدمة مروّعة. إذ سبق لقوات الجهاد المقدس بقيادته أن دمّرت مقر الوكالة اليهودية، وشارع هاسوليل وهو من أهم شوارع القدس. كما قامت بعمليات تدميرية وقتالية في داخل الأحياء اليهودية، بعد أن قطعت الطرق على النجدات المتجهة اليها من عصابات البالماخ والأرجون وشيترن حتى تهاوى القسم اليهودي في المدينة وأوشك على الاستسلام، لولا أن هذه العصابات فتحت جبهات عديدة في القسطل وفي دير ياسين، لفك الحصار عن القدس. مشاعر الأحباط والأسى هذه تعم البلاد، كسحابة سوداء تجثم فوق الصدور منذرة بشر مستطير .يتخاطفون جريدة الدفاع أو جريدة فلسطين ليقرأوا التفاصيل. يتحلقون في المقاهي جماعات جماعات يتحدثون، ويعقبون، ويدبرون، وماأن يعلن عن نشرة الأخبار حتى يهرعوا إليه. يكفون عما كانوا فيه. يطبق الصمت وتصيخ الأسماع.

قبل أن يستعيد الناس شيئاً من الطمأنينة، وردت أنباء مفزعة عن سقوط قرية (دير ياسين) في أيدي العصابات اليهودية. ليس سقوطها وحسب، بل عن مجزرة وقعت فيها على أبشع صورة سمع بها بشر. لم يصدقوا أول الأمر، لكن الاذاعات من مصر والقدس والشرق الأدنى مضت في وصف ما حدث، بتفاصيله الرهيبة على نحومفزع، وغير مسبوق في مراحل الصراع كلها. كذلك صحف الدفاع وفلسطين تتحدث عن المجزرة، وقد صدرت مكللة بالسواد وبعناوين مثيرة ومخيفة. أثار ذلك موجه من الهلع مصحوبة بضرام من الغضب والثورة على الجناة .

(.. دير ياسين.. ذبح اليهود أهلها.. النساء قبل الرجال.. الأطفال قبل الشيوخ.. نسفوا البيوت فوق أصحابها.. بقروا بطون الحوامل.. ذبحوا الأجنة والأطفال في حجور أمهاتهم.. ألقوا بالجرحى أحياء في آبار القرية.. عرضوا النساء عرايا في الطرقات قبل أن يجهزوا عليهن.. ربطوا الشبان بمصفحاتهم يجرّونهم على الأرض جراً حتى تتحطم أجسادهم ويلقوا نحبهم.. ثلاثمائة أو أربعمائة أفنوا عن بكرة أبيهم، بعد أن نكلوا بهم تنكيلاً يعزُّ على الوصف، ويفوق احتمال البشر.. .

عززت حادثة دير ياسين، وقبلها استشهاد الحسيني، الأحساس بأن الأخطار التي لم تكن سوى تكهنات واحتمالات واهية حتى الأمس القريب أمست اليوم حقيقة واقعة، لامفر من الإقرار بها. من ثم شرعوا في البحث عن الوسائل الكفيلة بحمايتهم من مثل هذا الغدر، فقد أمسى الأمر جداً لا هوادة فيه. أخذوا يعملون للحصول على السلاح بأي وسيلة. كذلك تعزيز الحماية والحراسة لقراهم، بحفر الخنادق حولها، وحراسة مداخلها ومشارفها ليلاً ونهاراً، آملين أن تتحقق لهم القدرة على الصمود إلى أن يحين موعد دخول الجيوش العربية الموعودة في الوقت المحدد .

لكن المقاتلين انتقموا لدير ياسين بكمائن نصبوها لقوافل التموين في باب الواد وأماكن أخرى. وفي الهجوم على المستعمرات اليهودية في منطقة القدس وحول يافا وتل أبيب. كادوا أن يسيطروا على الموقف في أماكن كثيرة من البلاد. ولكن الانكليز كانوا يهبُّون لنجدة اليهود، والتصدي للهجمات العربية عليهم، كلما أوشك هؤلاء تحقيق نصر حاسم أو النجاح في احتلال مستعمرة .

تتالت بعد ذلك الأنباء السيئة. فهذه مدينة طبريا تسقط بعد دير ياسين. يقتل خلق كثير من أهلها، ويشرد الباقون، فيهيمون على وجوههم في الأودية

والبراري، باحثين عن ملاذ يؤويهم يأمنون فيه على أطفالهم وأعراضهم، تفادياً لأن يصيبهم ما اصاب أهل دير ياسين. ثم تتلوها حيفا عروس شمال فلسطين. تصف الأنباء ماحدث في حيفا. غصَّ البحر بالقوارب المحمَّلة بالراحلين. قصف مدافع (الهاون) و(المورتر) والرشاشات (البرن جن) و (الستن جن) يقصف فوق الرؤوس، تصيب من تصيب وينجو من ينجو. قوارب تغرق في لجة البحر وتنتشر الجثث فوق الأمواج التي باتت حمراء قانية. القوارب الناجية تتجه شمالاً إلى السواحل اللبنانية ..

يتساءل المتسائلون في كل مكان : (من أين جاء اليهود بكل هذه الأسلحة..؟ بل كيف واتتهم الجرأة دون أن يخشوا عواقب إجرامهم، وهم المعروفون بجبنهم، يخشون المواجهة يرهبون الموت ويحرصون على الحياة ..؟ ألم نقل أن الانكليز كانوا على الدوام وراء المصائب التي تحيق بنا على الدوام.. ؟)

في الأمسيات تنتشر دوريات للحراسة حول القرية. والناس يسهرون في قلق وتوجّس آناء الليل وأطراف النهار. أمي وجاراتها في دار إحداهن. الرجال يتجمعون من داخل الدور وخارجها يتناقلون مايصل إلى أسماعهم. ويتبادلون الخوف حيناً، والثورة على مايجري حيناً. يسهر لدينا الخالان رمضان وشعبان مع العم أبو صفية. أمي تقدم لنا الشاي تلو الشاي تلو القهوة، فيما هي لا تكف عن التضرع الى الله العلي القدير بأن يحمي البلاد والعباد من غدر الانكليز واليهود الغادرين الأوغاد..!

هذا الذي يجري لم يكن في الحسبان قط. حتى الذين توقعوا أسوأ مايمكن أن يحدث، لم يبلغ بهم الشطط أن يتصوروا أموراً تقع كالتي وقعت فعلاً. استغل اليهود نتائج جرائمهم المروّعة فعمدوا للترويج لها، كي ينشروا مزيداً من الهلع والذعر في صفوف الشعب الفلسطيني. ومن ثم دفعه إلى الهجرة والنزوح عن البلاد. القتل والتمثيل بالضحايا كانت وسيلتهم لحمل الناس على الرحيل عن ديارهم .

أخذ أهالي القرى الصغيرة يرحلون بالفعل، ملتجئين إلى القرى الأكبر المجاورة لهم مثل قريتنا، يلتمسون الأمن فيها، حيث القدرة على الدفاع أكبر بتجمع القوى وتكاثر العدد، عتاداً وبشراً .

قدمت إلى يبنا جموع من قرى زرنوقة والقبيبة والمغار. قوافل الراحلين أرتالاً أرتالاً على الطرقات، تثير الغبار حتى يكاد يحجب المرئيات. على ظهور الدواب وفوق السيارات المتعبَة يأتون من كل صوب. تكتسي وجوههم بمعالم الحزن والألم والدهشة معاً. كأنهم في حلم، غير مصدقين ماحلَّ بهم. غصَّت القرية بالناس. ازدحمت طرقاتها بمشاهد الضنك والبؤس والرحيل، والوجوه الحزينة الواجمة. تقاسم أهلها بيوتهم وعيشهم مع الوافدين. حتى أن بعضهم ذكّر البعض الآخر بقصة المهاجرين والأنصار في صدر الأسلام .

أمام دكان أبو العبد الرملاوي تجمع جمهور غفير في ظل السدرة العتيقة. راحوا يستمعون الى حكاية قريبه الراحل عن مدينة الرملة مع أسرته إثر احتلالها وشقيقتها اللد منذ فترة وجيزة .

خيمٌ الصمت على الرؤوس. ألجم الفزع ألسنتهم، ولاح القلق في عيونهم. كادوا ألا يصدقوا مايسمعون. أجل فلربما كان الرجل مبالغاً في روايته. بل لعله يبرر هجرته ومن معه إليهم عوضاً عن بقائهم في ديارهم حتى النهاية. بيد أنه مضى يروي ماشهدته عيناه من الفظائع والويلات التي حاقت بأهالي المدينتين. يصمت بين الفينة والأخرى ليبلع ريقه، ويمسح عرقه أو يتناول جرعة ماء من

إبريق الفخار القرميدي الذي يقدمه له أبو العبد الرملاوي. ولكنه سرعان مايأتي على محتوياته :

(.. صدقوني يا إخواني

(.. عندما دخلت الدبابات رافعة فوقها الأعلام العربية، وعلى هامات الجنود خوذات الجيش العربي الأردني، ذات الحربة المعدنية تبدو في أعلاها.. أنتم تعرفونها.. والحطات والعقال على رؤوس جنود آخرين.. وحتى شارات الصدور والأكتاف.. نعم إنه الجيش الأردني ياشباب جاء لنصرتنا.. هرع الناس إلى الساحات العامة، لاسيما وسط المدينة، مهللين مكبّرين.. مصفقين وهاتفين بحياة الجيش العربي، وسقوط بلفور وبن غوريون.. ووايزمن. وفيما الناس كذلك، في هرجهم ومرجهم وذروة حماسهم وبهجتهم، بغتة عصفت الرشاشات والبنادق، تحصد الجموع المحتشدة حصداً. تساقط العشرات والمئات في لحظات. ولى الآخرون الأدبار في كل اتجاه، يدوسون فوق الجثث والجرحى، بل فوق الأحياء.. كان يوماً مشهوداً أيها الأخوة.. لم يكن أولئك سوى اليهود استطاعوا خداعنا فكان الثمن فادحاً .

صمت قليلاً، ثم أضاف:

(لم نلبث أن سمعنا أصوات المكبرات تطلب إلى أهل المدينة مغادرتها من ناحية الشرق تحديداً، خلال ساعات حدّدوها، متوعدين ومنذرين من يتوانى أو يتخلف، كائناً ما كانت الأسباب باسوأ مصير. ولم ينسوا توجيه النصيحة بعدم حمل متاع، قلّ أو كثُر ..!

وعلى الرغم من مبادرة الناس للاستجابة لتعليماتهم، وإلى حمل أنفسهم ونسائهم وأطفالهم على الرحيل الفوري، طفق الرصاص يعصف في كل مكان في جنبات المدينة وبين بيوتها. حتى أن من تخلف بسبب مرض أو عجز حصدوه برشاشاتهم، بلا هوادة. يصمت الرجل لالتقاط أنفاسه. يمسح عرقه ..يتجرع مزيداً من الماء.. والجمع من حوله صامت، الى أن يستأنف روايته المروعة :

(آه يا أخواني.. لا أراكم الله مارأينا.. ولاأصابكم ما أصابنا.. اللهم امحق اليهود وأنصار اليهود يارب العالمين ..

عند أطراف المدينة. وقف جنودهم هناك، يفتشون الراحلين، رغم أنهم لايحملون معهم شيئاً. ينقضّون عليهم ضرباً بأعقاب البنادق والهراوات. يحثونهم

على الاسراع في الرحيل.. كأن مدينتهم هذه لاتحتمل بقاءهم فيها ساعة أخرى. ينتزعون من الرجل ساعته، ومن المرأة حليها، حتى لو كانت مجرد خاتم خطوبة أو زواج. لايدعون لأحد شيئاً. ورصاصة في الرأس أو الصدر أو حيثما اتفق لأي بادرة تندُّ عن أحدهم احتجاجاً أو تذمراً. حتى التنهيدة أو النظرة الغاضبة، يا أخواني، كلفت صاحبها حياته ..!

(انطلق الناس في الفلاة بين سفوح الجبال الوعرة، وجنبات الأودية السحيقة. بعضهم قضى نحبه عطشاً، وبعض إعياء وألماً وغيظاً. نساء أجهضن، وأخريات قتلهن النزيف. أو جاءهن المخاض فلم يجدن المعونة وقضين نحبهن ومن أنجبن.

(هل تصدقون أن بين الناس من لجأ الى امتصاص الطين إذا رآه رطباً، أو قشور البطيخ الملقاة على قارعة الطريق، كيما يبقي على حياته دون الموت عطشاً ...

انصرف الناس أخيراً، واحداً إثر الآخر، عندما أو شك الرجل على السقوط إعياء .

قصص وحكايا تروى في كل مكان في القرية على ألسنة القادمين والمقيمين. وهم لاينفكون يتساءلون : لماذا لا تدخل هذه الجيوش العربية الآن..؟ وماذا هي تنتظر بربكم ..؟ إلى أن يقضى علينا جميعاً أم ماذا؟ ألا يسمعون في البلاد العربية والاسلامية عما حلّ بأهليهم وأخوتهم، في الديار المقدسة..؟! وما الذي يمكن أن يحل بهم في انتظار حلول موعد دخولهم.. الخامس عشر من آيار ..؟ أهو مقدّس هذا الموعد فلا يستطيعون استباقه رغم أن الانكليز راحلون..؟

قيل إن امرأة غادرت الرملة تحمل وليدها على صدرها.. خطفته من فوق سريره عندما سقطت قنبلة في باحة دارها واشعلت النيران في أرجائها. وبعد أن خلفت المدينة وراءها وأصبحت بعيدة في العراء، تبين لها أنها تحتضن وسادة..! ظل الطفل هناك ..! فقدت على الفور المرأة عقلها.. وهي تجوب الآن شوارع رام الله محتضنه وسادة إلى صدرها.. تهدهدها وتناغيها ..!

انطلق صوت من محطة إذاعة القدس، محذراً الأمة العربية بأنها أمام أندلس ثانية :

(أيها العرب مسيحيون ومسلمون. أيها المسلمون في كل مكان. لقد تفاقم الخطر على إخوانكم في فلسطين. وباتت مقدساتكم فيها مهددة على أيدي اليهود، أعداء الله والانسانية إن أنتم لم تبادروا إلى إنقاذها ...

(أيها العرب.. أيها المسلمون، إذا كنتم مؤمنين بوحدة أمتكم، ووحدة المصير المشترك، فإنا نعلنها صرخة مدوية من هنا، من أرض الرسل والأنبياء، من مهد عيسى عليه السلام، ورحاب الأقصى الذي بارك الله حوله، أرض فلسطين المقدسة، نعلنها صادقين مخلصين فنقول لكم أننا الآن على مفترق طرق فإما النفير الى الجهاد وإما أندلس ثانية تنتظركم ..). تحدث إليكم أديب العامري مدير محطة الاذاعة هنا في القدس .

انفضَّ المتجمهرون من حول المذياع، في المقاهي والدكاكين، في حال لا توصف، هي مزيج من القنوط والحزن والغضب. بعض يضرب كفاً بكف، منذراً (بالدمار وخراب الديار).. وبعضٌ يتحوقل مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم بعض يهتف غاضباً معلناً أن الموت أهون من الهزيمة على أيدي اليهود، وأن (أندلس ثانية) في بلادنا لن تكون حتى لو فنينا عن بكرة أبينا. أو لم تقرأوا قوله تعالى عن اليهود بأنهم { باءوا بغضب من الله.. }؟ وقوله بأنهم : {ضربت عليهم الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة ..}؟ فكيف يتفق النقيضان..؟ يعلن آخر (ماجدوى أن نبقى على قيد الحياة بعد ذلك ؟)

أما الخال أبو داوود فيحرك مؤشر الراديو إلى محطة الشرق الأدنى، وهو يردد لتهدئة روع من في مقهاه :

اسمعوا يا شباب لن يستطيع اليهود أن يحققوا شيئاً من هذا. بل من هم هؤلاء اليهود أولاد الميتة لكي يخرجونا من ديارنا ..؟ هل تصدقون هذه الخرافة..؟

المخاتير والوجهاء في مضافاتهم وتجمُّعاتهم في ذلك المساء، يعملون على تهدئة الخواطر، وبث الطمأنينة في النفوس المضطربة، مبشرين بدخول الجيوش العربية وشيكاً (لانقاذ البلاد والعباد ..!). ولكن الشباب من الحضور يتساءلون في غضب عما إذا كان عليهم أن ينتظروا حتى تسقط البلاد، وتنتهك الأعراض، وتداس الكرامات كما حدث في دير ياسين، وحيفا، واللد والرملة قبل أن يحل هذا الموعد الرسمي المتسم بالبرودة وعدم الاكتراث.. (إذا لم يتحركوا الآن فمتى يتحركون إذن.. ؟)

تواصل القرى الصغيرة رحيلها، بعض يأتي خالي الوفاض ليقينه بالعودة في غضون أيام قليلة، فور دخول الجيوش العربية، وبعض تحمله الدواب من حمير وبغال وجمال وعربات تجرُّها الدواب. بل إن منهم من جاء بقطيع أغنامه. أناس يحضّون على الرحيل عن يبنا أيضاً.. وآخرون يتصدّوْن لهم، يخوِّنون من يفكر فيه ويدعو له. بل إن هؤلاء يتهمون من يظنون أن ينتصر اليهود، وتقوم لهم دولة في فلسطين، حتى على تلك الرقعة التي خصُّهم بها مشروع التقسيم، هؤلاء يتهمون أولئك بسوء التقدير، وسفه الرأي، إن لم يكن الجنون المطلق..! زاد الطين بلّة أن قريتهم (يبنا) ذاتها تقع ضمن دولة اليهود المقترحة، حسب الخريطة التي نشرتها الأمم إياها. أي أن (يبناهم) لن تكون لهم عندئذ..!

(.. دورنا هذه.. كرومنا.. بياراتنا.. هذا البرتقال لمن..؟ ثماره.. أزهاره.. بحرنا برماله الذهبية وأمواجه الصاخبة.. هذه الطرقات لن نمشي فيها إذا ماتحقق لهم ذلك.. أيمشي فيها الغرباء القادمون من بولونيا وبريطانيا وبلاد واق الواق..؟ وهذه المصاطب التي شهدت أمسياتنا ولياليها المقمرة تغدو مهجورة قفراء.. لن تمر الصبايا حاملات الجرار عصر كل يوم من أيامنا القادمة.. لمن يقرع جرس المدرسة غداً..؟ حتى المقبرة والمقام حيث يثوي آباؤنا.. أنتركهم وحدهم هنا.. وأي وحشة سوف يعانون ..؟ هل نخون تراثهم ورفاتهم والتراب الذي يؤويهم ..؟.)

أمي تتلمس الجدران والحزن يغشى محياها.. تتشمم رائحة الأبواب والفراش والطبلية العتيقة.. تهمس محدثة نفسها.. رفضت بيع الحاكورة للحاجة خضرة طول الزمن، حفاظاً على عهدك يا أبا سعيد.. والآن نرحل عنها.. بل عن الدار ..بل عن البلد.. لا لا.. نموت هنا أحسن يا أولاد.. !.

نلتفت إليها أنا وإخوتي الواجمين جميعاً، فاذا الدموع تترقرق في مآقيها.. والشحوب الحزين يكسو وجهها.. مع ارتعاشة شفتيها.. ثم تنخرط في بكاء

صامت..

أياً كان الأمر فلقد بات هذا شأن الناس جميعاً، فأمسى الخوف سيد الموقف. وغدت مشاعر القلق والحيرة عذاباً يومياً يقضُّ المضاجع ويأخذ بالألباب .

كان محمد الشريف من بين أولئك الذين يحضُّون على الرحيل وبحماس واضح أيضاً، بدعوى الحفاظ على الأرواح والأعراض (فاليهود، كما ترون، لايرحمون). الوجهاء والأثرياء، كآل الجمل والعطار وأبو سالم، ومع هؤلاء محمد يوسف، يقولون نخرج اليوم ثم نعود غداً في ركاب الجيوش العربية الزاحفة..! فلماذا نمكث ها هنا الأيام القليلة الباقية، معرضين أنفسنا لضروب شتى من المخاطر، مادام هؤلاء قادمون في النهاية ..؟

(اللجنة الوطنية) للدفاع عن القرية، تقرر الصمود وعدم السماح لأحد بالمغادرة. على الجميع أن يشارك في الدفاع عنها حتى النهاية. وإذ هم يبحثون عن مصادر للسلاح، في كل مكان، يأتيهم محمد الشريف، بعد غياب يومين اثنين بصناديق من الذخيرة للبنادق الانكليزية، زعم أنه حصل عليها من سيارة للجيش البريطاني بثمن زهيد. يفرحون بها، إذ تدخل إلى قلوبهم الوجلة شيئاً من الشعور بالثقة والأمن. وفي أول معركة تقع على أطراف يبنا، بعد أن احتل اليهود (زرنوقة) في الشرق و (القبيبة) في الشمال، تبين أن تلك الذخيرة لا تنطلق من البنادق، وإن فعلت فهي تفجّر البندقية وتصيب حاملها. ولولا أن في حوزتهم كميات من أنواع أخرى من الذخيرة للبنادق العثمانية والفرنسية والألمانية لسقطت القرية في تلك الليلة .

أصيب عدد من المدافعين. من بينهم اسماعيل العطار. رصاصة اخترقت كتفه الأيمن أصيب كذلك حسين أبو موافي وممدوح الجمل وحامد عوض الله. ليس في القرية طبيب الآن، فقد سبق أن غادرها (الخواجه اسحاق) قبل بدء الأحداث (لابد أنه كان على علم مسبق بما يبيتون)، والطرق إلى الشمال مقطوعة. من ثم كان على صبري الحكيم والممرض اليافاوي فيصل أن يقوما بعمل الطبيب فيستخرجا الرصاص ويضمّدا الجراح.

يبنا هي المستهدفة الآن بعد أن غصّت بهذا الخلق الكثير، وبقيت وحدها صامدة. فكروا في أمور كثيرة، من بينها أمر الذخيرة الفاسدة، التي لم يتنبهوا إلى مصدرها في البداية، إلى أن جاء عبد الكريم الهندي، عصر ذلك اليوم، إلى حيث تجتمع اللجنة الوطنية، ليصيح في القوم :

لماذا لا تسألون محمد الشريف عن هذه الذخيرة ..؟

نظر القوم بعضهم إلى بعض، وكأنهم نسوا أمراً من البداهة بمكان، نعم لماذا لايسألون الرجل الذي جاءهم بها ؟

اتجهت مجموعة من الرجال لاستدعاء محمد الشريف، كي يمثل أمام اللجنة لتقديم تفسير لما حدث. لكنهم فوجئوا بأن وجدوه قد رحل عن القرية سرّاً، مصطحباً ربيبته (وداد)، ابنة زوجته المتوفاة (حفيظة)، تاركاً لهم في دكانه رسالة تميط اللثام عن سرّه الدفين كله. يقول فيها :

(.. يا أهالي يبنا الأعزاء. عشت بينكم زمناً. زعمت لكم أنني مسيحي من الناصرة، وأني اعتنقت الاسلام ولجأت إلى بلدكم، أنشد الاستقرار بينكم. رحبتم بي، واطمأننتم اليّ. أعترف بأني خدعتكم. أعتذر لكم عن ذلك. ولكن للضرورة أحكام، كما تقولون أنتم. وقد كلفت بالمهمة في قريتكم، بعد أن تعذر إيجاد موقع للماسونية عندكم، أو أعضاء يوظفون بها للقيام بالمهام المطلوبة. اسمي، أيها الأعزاء على قلبي، شلومو مزراحي. من ريشون. أما لماذا ادّعيت المسيحية مُعتَقداً سابقاً لي، فلكي تثقوا بي أكثر مما لو عرفتم أنني يهودي اعتنق الاسلام. كنتم في تلك الحالة ستأخذون جانب الحذر والحيطة، ولن تطمئنوا إليَّ تماماً. نعم نعم استطعت أن أخدعكم كل الوقت. ولكن كاد أن يكشفني، ذات مرة ذلك الهندي اللحام. ولكنكم ضربتم عرض الحائط بشكوكه. كان هذا لحسن حظي وسوء حظكم. على أية حال لايسعني إلا أن أشيد بحسن معاملتكم لي، وعطفكم عليَّ، في الصورة التي كنت أمامكم فيها. أسدي لكم، أخيراً نصيحتي المخلصة، ردّاً لبعض جميلكم، هي عدم المقاومة لأن (العين لاتقاوم المخرز)، كما تقولون في واحد من أمثالكم أيضاً. ولأن الانكليز والأمريكان وغير هؤلاء، معنا ضدكم. فليس وراءكم غير عرب لن يستطيعوا أن يصنعوا لكم شيئا أكثر من الوعود والبيانات. أما أنتم.. المهم أنني أنصحكم بمغادرة (يبنانا) العزيزة وستجدون بلاداً عربية واسعة جداً في انتظاركم.. تؤويكم عندما تلجأون إليها ..!

ملحوظة : لا أذيع سراً الآن إذ أقول لكم أن الخواجة اسحاق الطبيب كان يقوم بدور مماثل، وإن يكن على نحو آخر ينسجم مع مهنته. فعندنا لايدعون فرداً دون أن يوظفوه في الشأن اليهودي العام سرّاً،وراء مهنته الخاصة التي يُعرف بها في الظاهر والعلن..!)

المخلص لكم

شلومو بن مزراحي

كان وقع الحادث، كما الرسالة، على أهل القرية كوقع الصاعقة. انتشر الخبر في ساعات بينهم جميعاً. اعتراهم الذهول بادىء الأمر. ثم مالبثوا أن شرعوا في لوم أنفسهم. كيف لم يكتشفوا الرجل قبل أن يكشف لهم هو عن نفسه؟ بل كيف استطاع أن ينجح في خداعهم طوال هذا الزمن ؟

مضوا يتذكرون تصرفاته، والمؤشرات التي كان يمكنهم، لو تنبهوا لها في حينها، وأولوها حقها من العناية، لبيّنت لهم حقيقته منذ حين. تذكروا رواية عبد الكريم الهندي عنه، حينما شاهده في شارع المنشية بيافا. كما تذكروا غيابه المتكرر عن القرية من وقت لآخر. لكي يعود في كل مرة، وفي جعبته، أو في أعقابه شاحنة محملة بالبضائع. لم يتساءلوا، مرة واحدة، عن مصدرها، أو كيفية تمويلها. وزوجته حفيظة، وموتها الغامض بغير مقدمات، وهي التي كانت موفورة الصحة والعافية على الدوام. بل هم أوشكوا، في غمرة التفكير بهذا كله، أن ينسوا جريمته الجديدة النكراء نحو ربيبته وداد التي اصطحبها معه. فهي محرمة عليه من أكثر من ناحية. أهمها يهوديته. ولكنه وقد تجاوز الحدود والمحرمات كافة، فما الذي سوف يردعه عن اقتراف هذه الجريمة أيضاً..؟

هؤلاء اليهود الذين ابتلينا بهم، من دون خلق الله جميعاً على ظهر البسيطة، واختصنا الله تحديداً لتكون بلادنا موضع أطماعهم ومحط أنظارهم.. هؤلاء الذين لايقيمون وزناً لحقّ أو خلق، مذ وجدوا..! لاريب أن لله سبحانه حكمه في ذلك. كان هذا الرأي الأخير للشيخ علي العطار .

بيد أن الرجل لم يعدم من يعجب به بين أولئك الناقمين عليه. كان مبعث إعجابهم الخفي، هو كيف يرضى إنسان ما، الانسلاخ عن قومه ومجتمعه وبيئته، ليعيش ردحاً من الزمن في وسط غريب عنه تماماً. عاملاً على التكيّف مع الظروف الصعبة المحيطة به، مضحياً بالسنين الطويلة من عمره التي قد تمتد عقوداً، من أجل المصلحة العامة لشعبه وقضيته، على الرغم من أنها قضية باطلة، وأن شعبه معتدٍ أثيم، مغتصب لحقوق الآخرين، هذا فضلاً عن قدرته الخارقة على التخفي والتنكر كل هذا الوقت .لكنه كان إعجاباً مشوباً بالمقت

والاستهجان.

كان نصيبي، في تلك الليلة، السهر للحراسة على (الطابية) المقامة على خط السكة الحديدية، في منتصف المسافة بين شمالي يبنا والمحطة، فوق الجسر المقام على أحد الأودية التي تشكل واحداً من روافد نهر روبين. لم تكن هذه سوى واحدة من عشرات مثلها على طول الخط الحديدي، من أقصى شمال البلاد، إلى جنوبها. كان هذا خط دفاع الانكليز عن الطرق والسكك الحديدية، تحسباً لغزو الألمان للبلاد إبان الحرب، على غرار خط (ماجينو) بين فرنسا وألمانيا، وقد أسماه الانكليز خط (إيدن).

قررت اللجنة الوطنية أن تشمل الدوريات ونقاط الحراسة الشبان فوق سن السادسة عشرة. كنا ثلاثة : محمد يوسف النجار، وأنا، وعبد القادر موافي الذي يناهز الأربعين، وهو بمثابة القائد لنا. تسلّمت بندقية انكليزية. أفرحني كثيراً أنها جديدة، ليست كتلك العثمانية الصدئة التي تدربت عليها، في الأيام الأخيرة، مع الرفاق بإشراف كامل دعسان المتطوع سابقاً مع الانكليز .

في الساعات الأخيرة من الليل. عصفت الرشاشات فجأة، في أكثر من اتجاه. أيقنا أن هجوماً يقوم به اليهود الليلة من أجل احتلال يبنا، هذه المرة. ننظر بين الكوى الضيقة في جدران الطابية، في كل اتجاه، نترقب قدومهم من إحدى ضفتي الوادي .يشتد إطلاق النار من البنادق والرشاشات بغزارة لم نعرفها من قبل، إلا في تلك الأيام التي كان الانكليز يطوقون فيها القرية أيام الثورة. وحين لمحنا أشباحاً في الظلمة، أو هكذا تراءى لنا، شرعنا نحن في اطلاق نيران بنادقنا في اتجاهها. ثم لم تلبث أن خفت حدّة إطلاق الرصاص، إلى أن خفتت أخيراً ثم تلاشت، وأطبق صمت يسوده الترقب والخوف. نفتح عيوننا على سعتها.. نحدق في الظلام، ولكننا لا نرى شيئاً فقد اختفت الأشباح .

في الصباح الباكر، خرج الناس متلهفين، يستطلعون ماجرى في الليلة الفائتة. لم يطل بهم الوقت قبل أن يعرفوا أن ثلاثة قد استشهدوا من بين الرجال الذين تصدّوا للقوة التي حاولت التسلل إلى القرية من ناحية الجنوب. صديقنا (أحمد المصري) كان واحداً منهم. كان الآخران (يوسف أبو لبده)و(عوني الجمّال). كما أصيب آخرون بجراح، من بينهم الخال رمضان .ربّاه.. أحمد المصري بالذات..؟ أحمد المصري أيضاً..؟

لم يخفف من وقع النبأ المفجع مقتل سبعة من اليهود، رأوهم رأي العين وهم يسحبون جثثهم بالحبال، عدا جثة واحد منهم جيء بها إلى القرية. تجمهر الناس

ينظرون إليها حيث وضعت في الساحة قرب الجميزة .

أحمد المصري ..؟ ياصديقنا الحبيب.. هل كنتَ تحسب أنك سوف تموت هنا في هذه الديار، في ريعان شبابك، بعيداً عن أهلك وذويك ..؟ نحن أهلك وذووك أيضاً يا أحمد، ولسوف تحتضنك أرضنا التي استشهدت دفاعاً عنها.. وسقيتها بدمك الطاهر .يحنو عليك ثراها، كما على أبي وشهدائها الأخرين.

حزن الناس من أجل أحمد، مكبرين شجاعته وتضحيته. كحزنهم على الشهيدين الآخرين. ووري ثلاثتهم التراب عند العصر في صمت حزين مهيب. وقد شارك أهل القرية جميعاً في تشييعهم .

المكتبة مقفلة.. بدت حزينة هي الأخرى.. التقينا جميعاً أمامها، رفاقه ورواد المكتبة. تراءى لنا أحمد يقف عند بابها، يرنو إلينا وعلى شفتيه تلك الابتسامه الوديعة التي نعرف. هذا قدرك يا أحمد.. من معسكر عاقر.. إلى حيرتك بين العودة لمصر والبقاء في يبنا. واخترتها دون غيرها من بلاد الله ليكون بها مثواك .

الجمع مغرق في الصمت.. الوجوه متجهمة وحزينة.. العيون دامعة.. يتبدى فيها القلق وتغشاها الحيرة.. الغضب.. والألم.. الحنق والثورة .

نمضي بصحبة أمي إلى منزل جدي حسين، لكي نعود خالي رمضان. كانت هناك خالتي نعمة وزوجها الهندي وبناتها وفوزي. استقبلنا الأخوال جميعاً والجدة رقية والخالة بديعة. رغم تأثرهم لما أصابهم بدا عليهم الارتياح لنجاته.. الخال رمضان على فراشه، وقد علا وجهه الشحوب. حدثنا عن المعركة التي خاضها بالأمس عند المشارف الجنوبية للقرية. حيث جاءوا من قرية (بشيت) التي احتلوها منذ أيام .وعلى الرغم من جراحه يتحدث في حماسة واستبشار :

(أوقعنا بهم العديد من القتلى.. ودمرنا لهم ثلاث مصفحات، وغنمنا واحدة أحضرها الشباب إلى البلدة. جبناء هؤلاء اليهود ...

(والله لو كان معنا مثل سلاحهم لما أبقينا على أحد منهم .

(ولو أنهم لايحتمون بالمصفحات التي وهبهم إياها الانكليز لما استطاعوا مواجهتنا في أي مكان. ولو أنهم يقاتلوننا مواجهة، حتى بسلاحنا البسيط لكان لنا معهم شأن آخر لكنهم لايقاتلون إلا من وراء جدر.. مباني أو مصفحات..!. رفيقك أحمد المصري.. رحمة الله عليه. كان إلى جانبي.. يطلق الرصاص.. يقفز من وراء هذه الشجرة.. إلى تلك التي تليها، من هذا المكان في الخندق..

إلى مكان آخر.. غير آبه بعصف (الهشكوس). وعندما رآهم يفرّون.. آه يـا ابـن اختي. تهوّر أحمد عندئذ، اقول لك الحق.. قفز إلى خارج الخندق، يعدو مكشـوفاً في اثرهم، غير آبه لصيحات تحذيرنا له ..

.. يا أحمد.. يا أحمد.. عد يا أحمد ..

لكنه يصيح وهو يواصل اطلاق الرصاص .

.. الله أكـبر.. اللـه أكـبر.. وراكم يـا أولاد الميتـة.. يـامفترين..! وبغتـة.. رأيناه يتدحرج أرضاً على السفح.. آه يا أحمد.. أيضاً ابن ابو لبده وابن الجمّال.. سقطا أيضاً وهما يلاحقان اليهود عند فرارهم ..

قال جدي في تأثر :

.. هنيئـاً لهـم يـابني.. هـم شـهداء أحيـاء عنـد ربهـم يرزقـون يحشـرون مـع الصديقين يوم القيامة .

ثم يرفع يديه ضارعاً إلى السماء :

.. اللهم اكتب لنا الشهادة مثلهم ..

واست أمي والدها في مصاب أخيها. داعية له بالشفاء كذلك فعل سعيد. بـل محمود وعلياء أيضاً بكلمات خجولة. احتضن جدي علياء، قبلها في وجنتيها وهو يقول :

- صـرت عروسة يا علياء.. ماشاء الله ماشاء الله، وأنت يا أحمـد فـي أي صف أنت اليوم ياجدي..؟

ثم وهو ينظر اليّ والى سعيد :

- ديروا بالكم على أمكم يا أولاد.. الأيام القادمة صعبة، والله يستر ..

وحين أخبرته مباهيـاً، بأننـا أنـا وسـعيد شـاركنا فـي معركـة الليلـة الماضيـة ..سرّه ذلك، ودعا لنا بالتوفيق والسلامة. ثم مضى يحدثنا عن أيامه في الجنديـة، مع الأتراك في (السفر برلك)، فيما هولا يفتأ ينقّل عصاه من الجانب الأيمن إلـى الجانب الأيسر تباعاً لساقه الممـدودة علـى الـدوام، والتـي بقيـت شـاهداً علـى مـا أصابه في تلك الحرب. ثم ترحمّ على تلك الأيام علـى الرغـم مـن قسـوتها، فهـي على كل حال خير مما وصلنا اليه على أيـدي الإنكلـيز واليهـود، وعصبـة الأمـم التي جاءتنا بالانكيز واليهود وهيئة الأمم التي مكنّت لهم في أرضنا. تفرّست فـي وجه جدي. لقد كبر كثيراً. لم تبـق شـعرة واحـدة سـوداء، علـى رأسـه. غضـون

كالأخاديد حفرتها على وجهه آلة الزمن و تعاقب الليل والنهار. لكنه لم يغير من عاداته شيئاً. يلف سيجارته (العربي) يبللها بلسانه قبل أن يدق أحد طرفيها على علبته القديمة ذات النقاط المرقطة الصدئة. مازالت رفيقته على مدى الأعوام الماضية .

جدتنا الحاجة رقية قدمت غداءً من (البيصارة) والزيتون وخبز الطابون ثم أتبعت ذلك بأكواب من الشاي، وهي لاتكف عن ترديد عبارات الترحيب، والدعاء لنا بالنجاح والفلاح.. موصية إيانا بأمنا (المسكينة) المكافحة.. التي أفنت عمرها من أجلنا، بعد وفاة أبينا إلى أن أصبحنا الآن على مانحن عليه، ماشاء الله. كما أنها لم تنس أن تخصّ عليا بالكثير من التدليل والملاطفة إذ هي الآن (عروس.. والشبان سوف يقفون بالدور لطلب يدها ...!). ثم أهدتها قلادة من الخرز .

تضرجت وجنتا عليا بحمرة خفيفة محببة، فطأطأت رأسها وهي تعبث بَطرف ثوبها. تبادلت أمي والجدة رقية نظرات مشفوعة بالابتسام .

قبيل انصرافنا سألني الخال رمضان عن أنسبائنا في يافا :

- هل من أخبار عنهم يا خال.. ؟
- والله ياخال لانعلم عنهم شيئاً .
- ربما رحلوا هنا أو هناك عن يافا قبل سقوطها .

أحسست بقلبي يتمزق من أجلهم. ترى أين هم الآن؟ وماذا حلّ بهم؟ هل غادروا المدينة.. ؟والى أين إن كانوا قد فعلوا؟ وفتحية ماذا اصابها، وكيف واجهت مع ذويها هذه الأيام العصيبة، والأهوال التي تعرّضوا لها ..؟

كم كان مفاجئاً لنا عند عودتنا إلى دارنا أن نجدهم هناك قد وصلوا لتوهم. فتحية وأسرتها.. العم ابو محمد وأسرته.. أم عطاف وزوجها وابنتاها .

الدنيا لاتسعني فرحاً. ها هي ذي أمامي أخيراً. حمداً لك يا رب. سعادة غامرة ألمت بنا جميعاً، وإن شابها الأسى لما بدا عليهم من آثار ما مرّ بهم من معاناة. وجوههم شاحبة، أعينهم يطل منها الألم والأسى والأعياء بدا الرجال مهزومين تماماً، والنساء منكسرات.. وفتحية.. أهذه فتحية ..؟ نضارة الوجه وإشراقة المحيا.. والبسمة الآسرة في عينيك.. كأنك لم تعرفي الابتسام في يوم من الأيام.. لولا هؤلاء لضممتك إلى صدري يا حبيبتي الغالية.. عيناي لاتذرفان دموعاً لكنه قلبي يتنزى دماً ..

قصُّوا علينا حكاية رحيلهم عن يافا : لبثوا فيها أياماً بعد سقوطها إلى أن استتب الأمر للغزاة. واطمأنوا لسيطرتهم على المدينة. تمكنوا عندئذ من التسلل في جنح الظلام، متخذين طريقاً على الشاطىء بين البيارات والكروم، متحاشين المستعمرات اليهودية ريشون ورخبوت والقرى العربية التي احتلت مؤخراً. رحلوا عن يافا مخلفين وراءهم كل ماملكوا في حياتهم. ديارهم ومرابع طفولتهم.. حتى ثيابهم ومقتنياتهم العزيزة على قلوبهم، اثاثاً، رسوماً، ولوحات، مرايا شاهدوا فيها وجوههم على مدى عمر طويل من حياتهم الخالية .لم تكن لهم أمنية عندئذ أكثر من النجاة بأرواحهم وشرفهم. تحدثوا عن معاناتهم في رحلتهم البائسة، والأخطار التي تعرضوا لها .كان ممكناً ألا يصلوا الينا ابداً. ولقد حدث هذا لكثيرين غيرهم على الطرق فيما كانوا يسعون للنجاة بأنفسهم. تحدثوا عن معارك قوات المدافعين عن يافا مع الهاجاناه، والتي كان أهمها قوات جيش الانقاذ بقيادة المقدم (ميشيل العيسى). إنهم يعرفون التفاصيل أيضاً حول ماجرى في الأيام الأخيرة هناك. سبق للمقدم العيسى أن أوقع الهزيمة قبل ذلك بقوات يهود الهاجاناه، التي حاولت الاستيلاء على قريتي (يدّو وبيت سوريك)، للسيطرة على طريق القدس - تل أبيب، فانسحبوا مخلفين وراءهم ماينوف على مائة وعشرين قتيلاً، فضلاً عن مصفحات انكليزية، وأسلحة وذخائر. لكن اليهود بعد

أن عزّزوا قواتهم بدعم من الانكليز، تمكنوا من الحصول على موطىء قدم في الأحياء الشمالية من المدينة، في المنشية حيث منزلهم. أما مستعمرة رامات غان جنوب المدينة، وبتاح ها تكفاه شرقيها، فقد أسهمتا في تطويق المدينة. سلّمهم الانكليز معسكر تلتفنسكي عند إخلائه، وبهذا إضافة إلى تل أبيب في الشمال تم إحكام الطوق على يافا، فاستطاعوا، من ثم، قطع الطرق جميعاً على النجدات القادمة إليها .ولم يستطع الشيخ حسن سلامة وقواته الوصول بقواته إليها أيضاً. لاسيما وأن سلاحه لايكافيء سلاحهم.

أما حديثهم عن المدينة وأهلها، فقد كان أليماً ومفزعاً. القتلى في الشوارع والبيوت لايجدون من يقوم بدفنهم. الجرحى لايتسنى إسعافهم فيقضون نحبهم نزفاً وجوعاً وعطشاً، تحت وابل من النيران وبين الأنقاض. أقسمت أم ابراهيم أنها شاهدت رجلاً تشطره قذيفة سقطت في شارع الدرهلي إلى نصفين ..! أما ساحة الساعة ومنطقة السراي التي سبق لهم أن نسفوها قبل ذلك بزمن وجيز، فقد غصّت بجثث القتلى، كما اشتعلت فيها الحرائق وعمّها الدّمار .

يتحدث الناجون، بعد رحيلهم عن مدنهم وقراهم، عن جرائم اليهود وماتبدى من حقدهم على العرب، ووحشيتهم التي لانظير لها. لقد فاقت جرائمهم مايزعمون بأن النازية قامت به نحوهم عشية الحرب العالمية. إنهم لايقتلون الناس وحسب، بل هم يتفنون في القتل والتعذيب والتمثيل، لكأنهم يستمتعون بذلك. ينتزعون الرجال والفتية انتزاعاً من بيوتهم وذويهم، من بين أمهاتهم وأخواتهم، زوجاتهم وأطفالهم.. وعلى مشهد منهم، بين صراخهم وعويلهم، وهلعهم الذي ألزمهم الصمت فخنق الصرخة في حلوقهم، يوقفونهم أمام أي جدار، ثم يحصدونهم بالرشاشات، حتى دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الطلب إليهم أن يديروا ظهورهم، حتى لايشهدوا موتهم بأعينهم. يسقط العشرات.. بل المئات ..وتتكون بحيرة من الدماء تتخبط فيها الأجساد المحتضرة، ثم تحملهم الشاحنات أكداساً بعضها فوق بعض. حتى الجرحى الذين لم يقض الرصاص عليهم للتو، لايستثنون، فيما أنينهم وصرخات آلامهم تذيب الحجارة لا القلوب. وفي مقبرة جماعية، حفرت بأيدي رعيل آخر منهم، قبل أن تحصدهم الرشاشات حصداً بعد قيامهم بتلك الهمة، يلقى بهم في جوفها. يهال التراب على الأحياء والأموات معاً، فيختفي الأنين وتكتم الأصوات إلى الأبد. ثم يمضي الجناة كأن شيئاً لم يكن .

وفي حالات أخرى، ينتقون الأفراد من بين التجمعات المحاصرة في ساحة القرية، أو فناء مدرسة أو جامع، بالقرعة أو بالرقم. يعدون أربعة يستبعدونهم –

ربما إلى حين – والخامس.. سوء حظه أنه كان الخامس يفرز على حدّة، إلى أن يتجمع العدد (المناسب) ..!، عشرة في أغلب الأحيان. ثم، وعلى مرأى من أمهات وآباء وأبناء وأقارب وجيران لهؤلاء تعصف بهم الرشاشات عصفاً، ليأتي بعد ذلك دور مجموعة أخرى. بل هم لايتورعون عن نسف بيوت على ساكينها. لايشفع لهم أن بينهم نساء وأطفال ورضّع. واذا حاول هؤلاء إخلاء منازلهم بالخروج منها أرغموهم على البقاء فيها ليقضوا نحبهم تحت أنقاضها، أو بقروا بطونهم بالحراب فيما هم يحاولون النجاة. يبدو أنهم استمرأوا فعلتهم في دير ياسين. فكم من الناس أحرقوا أحياء. وهم ينظرون إليهم، يستعذبون مرأى النيران وهي تلتهم أجسادهم. وكم دفنوا من الشبان أحياء أيضاً بعد أن أجبروهم على حفر قبورهم بأيديهم. بل قيل إن عجوزاً في قرية (وادي حنين) سقطت أرضاً في غمرة ما اصابها من هلع. صاحت مستغيثة، خائفة غاضبة (الله يقطع اليهود ويوم اليهود). سمعها أحدهم الذي يبدو أنه فهم ماقالت. اقترب منها فحسبته يسعفها. مدّت إليه يدها ليعينها على النهوض لكن هذا ركلها بقدمه، فانطرحت أرضاً.بهدوء وأعصاب باردة تماماً، وضع حذاءه الضخم على عنقها ظل يضغط ويضغط حتى أسلمت الروح وهمدت حركتها نظر الى الجثة. ركلها ثانية. أدار ظهره ومضى .

أختلس النظر اليها، ثم إليهم واحداً واحداً، فلا أرى إلا معالم الحزن والألم والأعياء، ولكنني أكاد لا أصدق هذا الذي أرى. ابن العم محمد، أين مرحه وضحكته المجلجلة التي أعرفها. هوذا منكّس الرأس في استكانة مريعة.. العم أبو محمد، الرجل الذي كان حضوره يضفي على المكان حيوية وهيبة، يبدو الآن كسيراً منهزماً.. ابو ابراهيم.. أم محمد.. أم ابراهيم.. أم عطاف.. يطبق الصمت.. ويغشى الحزن الوجوه. وعيون قرّحها البكاء الطويل. السهر والأرق يتواصلان بلا انقطاع إزاء رعب قصف لايهادن، وأهوال انفجارات لاتتوقف. ثم التخفي أياماً بطول الدهر كله، مع شحٍّ في الطعام، يتقاسمونه بينهم في حرص وتقتير حتى لاح لهم شبح الجوع وشيك الحلول.

عندما وصلوا إلى يبنا لم يصدقوا أنهم نجوا من الموت حقاً. لكأن النجاة التي كتبت لهم أخيراً كانت معجزة من السماء أنعم الله بها عليهم. لكنهم وإذ استقر بهم المقام أحسوا بالحنين المضني إلى يافا وتمنوا العودة اليها، حتى لو تعرضوا للموت الذي سعوا للفرار منه .

عجزت أمي، بدورها، عن مواسياتهم حين حاولت ذلك، ورغم كل مابذلت

من جهد للتخفيف عنهم لاسيما السيدات من بينهم. وإذ لم تجد الكلمات لزمت الصمت ..

وإذ كانت دارنا لاتتسع لكل من قدموا الينا، وفي نفس الوقت لامناص من تدبر الأمر على نحو أو آخر، كان الحرج بادياً على والدتي قبل أن تهتدي إلى فكرة خطرت لها. وسرعان ما أفضت بها لمن حولها. هبَّ الرجال جميعاً، لكي يتجهوا إلي الحاكورة، ثم ينهمكون جميعاً في تنظيفها من الحجارة والأعشاب الجافة أولاً، ثم لينشؤوا عريشاً من الخشب وجذوع الأشجار، ومن فوقه ألواح (الزينكو). ولم تتوان النساء أيضاً عن الاسهام في ورشة العمل هذه على مدى اليومين التاليين. كما أنهن شاركن جميعاً في إعداد ماتيسر من الطعام.. فمن بنقع الحمص والفول لصنع أقراص الفلافل. .البرغل.. الأرز.. البيضارة من الملوخية الجافة.. الرمّانية مع العدس.. البيض المسلوق.. والبطاطا المشوية.. أما الشاي والقهوة فلم تنقطع طول الوقت. أنا وابن العم محمد وسعيد وأحمد أسهمنا بقسط وافر من العمل، كذلك بالذهاب، أحدنا أو الآخر، إلى دكاكين أبو العبد الرملاوي أو عثمان أبو حسنين، لشراء المسامير والأسلاك وأدوات النجارة والحدادة. حتى علياء كانت تغدو وتروح بابريق الفخار مملوء اً بالماء أو فارغاً منه، فرحة مبتهجة كأنها تشهد عرساً. أحاول معظم الوقت الاقتراب من فتحية.. وحين أفلح في اختلاس نظرة أو قول كلمة لها يخفف ذلك الكثير ممابي، بل ويدخل المسرة إلى نفسي القلقة. حتى الجيران لم يتأخروا عن الدخول إلي دارنا، كالحاجة ووالدتها وأم مريم، وعدلة الشامية تطل من أعلى جدار منزلها الملاصق للحاكورة، مرددات دعواتهن بأن يصلح الله الأحوال، وأن تمر هذه المحن على خير ..!

تنفست والدتي الصعداء عندما أنجز العمل واستقر بالضيوف المقام .

أما كيف تدبرت والدتي أمر إطعام الوافدين الأعزاء فكان ذلك من مهاراتها الخاصة بها التي كانت تدهشنا على الدوام. منها الاستدانة ولأول مرة من دكان جارنا الرملاوي.. ومنها ما كانت تحتفظ به مؤونة الشتاء. ولكن الجيران لم يقصروا أيضاً في تقديم العون، طعاماً حيناً، شاياً حيناً وفرشاً وألحفة ووسائد حيناً .

كأن الناس لاتكفيهم هذه الهموم والأخطار المحدقة بهم من كل جانب. النار تطلق ذات ليلة على (محمد اليوسف) مجدداً، فيقتل أحد الذين معه وينجو هو. يتهامسون (أهذا وقته ياناس.. ؟) كان محمد اليوسف في الأيام الأخيرة أكثر المتحمسين، بل المروّجين للرحيل عن البلدة، ثم العودة عند دخول القوات المصرية إليها. من ثم ذهب بعضهم إلى تفسير الحادث على أنه ردع لمن تسوّل له نفسه الرحيل، وتأديب لمن يحضتون عليه .

في مقهى (ابو داوود) تشاجر كامل دعسان مع رفيقه عامر البهنساوي. الأول يريد الاستماع إلى أغنية عبد الوهاب الجديدة (انشودة الفن)، فيما يريد الآخر متابعة الأغنية التي كانت تذاع في تلك اللحظة (الكرنك). هذا يزيح المؤشر يميناً وهذا يعيده يساراً. غضب أحدهما.. ثار الآخر.. دفعه في صدره.. استل البهنساوي من حزامه خنجراً أغمده في صدر كامل. أصابت الطعنة مقتلاً فخر هذا صريعاً على الفور. وإذ لم تكن هناك سلطة فقد فرّ الجاني. قفز من فوق سياج البيارة المواجهة للمقهى. ثم اختفى لايعلم عنه بعد ذلك أحد شيئاً .

ضجّ الناس لما يجري في بلدتهم. بل أخذ الغضب منهم مأخذه، فلقد أصبحوا الآن موزعي النفوس والعقول بين مايقع عندهم، من يوم لآخر، وبين الأخطار المحدقة بهم من كل جانب. حتى اللجنة الوطنية لم تصنع شيئاً ازاء هذه الحوادث، متذرعة بأنها تكرس وقتها وجهدها كله في الإعداد لمواجهة العدو المرتقبة. محمد اليوسف نفسه التزم الصمت. كما التزم داره، فالانكليز ليسوا هنا الآن. خسرت القرية كامل دعسان، مدرب شبانها النشط في وقت هي في أمسّ الحاجة اليه .

فاجعة أخرى حلّت بالقرية، وعلى وجه التحديد بآل الجمل. لقد قتل (بشير) ابن يوسف الجمل على الشاطىء، وجيء بجثمانه عند الغروب. ذلك أن آل الجمل هؤلاء ارتأوا الرحيل خفية عن أعين الناس، على أن يتم ذلك على مراحل

تشمل كلاً منها عدداً من أفراد العائلة. كان بشير ضمن المجموعة الأولى التي اتجهت الى البحر. استقلّت قارباً كي ينقلها إلى (اسدود) أولاً، ثم منها إلى (المجدل)، حيث يلتقون جميعاً، ويلتئم شمل العائلة في نهاية المطاف. لكن الذي حدث هو أن زورقاً يهودياً جوّالاً في المنطقة أحدق بهم قبل أن يوغلوا بعيداً. أطلق عليهم نيرانه، فانكفأوا على أعقابهم لكي يعودوا أدراجهم. لكن (بشير) أصيب فنزفت جراحه على طريق العودة، وفارق الحياة قبل بلوغهم القرية.

بقدر ما حزن الناس من أجل الفتى بشير، وبقدر ما آلمهم مصاب ذويه. كان أسفهم على تصرف آل الجمل المثير للاستهجان والازدراء .

خطبة الجمعة هذا الاسبوع كانت حافلة. فقد أمّ الجامع في أعالي القرية خلق كثير من أهل يبنا واللاجئون اليها. غصّ بهم الجامع، وحين لم يتسّع لهم فناؤه الواسع، اتخذوا من الطريق المترب خارجه مصلّى. لكن حظيّ كان جيداً إذ كنت داخل المسجد، ومعي فوزي الذي التزم أداء الصلاة منذ أسابيع. فقد كان الجو ماطراً، والسماء ملبدة بالغيوم، وريح باردة تهب من الشمال .

اعتلى المنبر العتيق الشيخ (محمد أبو العينين). حمد الله وأثنى على رسوله الكريم. ثم شرع يتحدث عن الأوضاع القائمة في البلاد، وعما ينتظر وقوعه في الأيام المقبلة. تحدث أيضاً عما يجري في يبنا ذاتها وكانت لهجته تشي بالاستياء. كان منفعلاً، بل غاضباً، وهو يدعو المصلين بنبرة حادة عالية إلى التآلف والاتحاد والتكاتف في مواجهة الأعداء، وإلا فكيف يواجهونهم متفرقين متخاصمين، يضمر العداء بعضهم لبعض. ذكرّهم بالأندلس وملوك الطوائف وأبي عبدالله الصغير، ومآآلت إليه تلك البلاد نتيجة لتخاصم كبرائها وإلا لبقيت الأندلس عربية صميمة حتى يوم الناس هذا. مصوّراً لهم كيف يكون حال عالمنا الراهن لو أن هذا كان هو الواقع اليوم أي لو بقيت الاندلس عربية. ثم أخذ يحثهم على البقاء فوق أرضهم في ديارهم الموروثه، مهما كانت الظروف، متسائلاً :

إذا كانوا هم - هؤلاء الكفرة الفَجرَة - يصرون على قتالنا غزاة مبطلين ومعتدين، فهل نتقاعس نحن عن القتال، ونحن أصحاب حق نبتغي الحفاظ عليه. ونحن أيها الأخوة حتى في حال استشهادنا نرجو من الله مالا يرجون .

أيها الناس :

إن أولئك الذين يرجفون بأنهم سوف يضمنون لأنفسهم النجاة إذا ماخرجوا اليوم ليعودوا غداً، فإني أقول لهم : من أدراكم أن الموت لايتربص بكم في محاولتكم الخروج نفسها؟ والمثل شهدتموه بأنفسكم فيما حدث للفتى بشير، الذي

دفعه ذووه الى الرحيل، فإذا بهم دون أن يعلموا، إنما كانوا يدفعونه لملاقاة حتفه. هذا الذي تصنعون اسمه الصريح دون مواربة (الفرار)، وهو أمر مشين بغيض وعاقبته وخيمة دنيا وآخرة، لايرضى عنه الله ورسوله، ولا حتى القيم الاخلاقية. استمعوا الى قوله تعالى :

{ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل، وإذاً لاتُمتعُّون إلا قليلاً}

ويقول سبحانه وتعالى :

{قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون }.

ويقول جلّ شأنه :

{ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو في بروج مشيَّدة }

كأني بهذه الآيات تصف حالتكم الراهنة تماماً، فاتقوا الله في أنفسكم وفي عيالكم وأرضكم الطاهرة المقدسة. وماذا في الموت أيها الناس إذا كان شهادة؟ أجل إنها لاحدى الحسينين، والعاقبة هي الجنة، حيث يحشر الشهداء مع الصديقين والأنبياء أحياء عند ربهم يرزقون .

أعلنها لكم أيضاً صريحة صادقة لكي تتبُينوا أمركم :

إن هجرتكم هذه لن تفضي إلا لضياع البلاد والعباد .

ثم يرفع يديه إلى السماء قائلاً بصوت متهدج :

اللهم اشهد أني قد بلغت.. اللهم اشهد أني قد بلغت ...

عقب أداء الصلاة التف أناس حول الشيخ يتحدثون إليه ويسائلونه. تجمع آخرون هنا وهناك في داخل المسجد وفي باحته غير أن ريحاً عاصفة هبَّت بغتة، وانهمر المطر غزيراً، ثم سرعان ماتحوّل إلى برد كحبات الأرز. عدوت مع فوزي نزولاً باتجاه دارنا، لكن البرد كبرت حباته حتى أصبحت كحبات البندق. انحرفنا تلقائياً في الزقاق عن يميننا المؤدي إلى منزل جدي حسين. صعدنا إلى أعلى الزقاق، عند قمة التلة. كان الباب مفتوحاً. دخلناه مهرولين. التقتنا الجدة رقية على الشرفة بلهفة واضحة :

- (ادخلوا.. ادخلوا يا أولاد.. يا مساكين أغرقكم المطر ..) قرّبتنا من الموقد، حيث يجلس أمامه جدي ممسكاً (المحماص) بيده يقلب حبات البن على

الجمر. والجمر يتلألأ تحت طبقة رقيقة بيضاء من الرماد، يقلّبه بملقاط حديدي أسود. رائحة القهوة والهيل الفواحة لذيذة شهية. رحب جدي بنا، ولم يفته أن يندد بتعريضنا أنفسنا للبلل أما هو فكان قد تخلف عن صلاة الجمعة بسبب مرض المفاصل الذي ألمّ به مؤخراً. البرد يرشق باحة الدار، ويعزف على ألواح التوتياء التي تغطي الشرفة الأمامية، والريح تعصف بالأشجار، وتصفق نافذة مفتوحة هنا وهناك للجوار. أخوالي كانوا خارج الدار، عدا خالتي بديعة التي شرعت في مناكفتي ومماحكتي كعادتها، مُمارسة هوايتها الأثيرة هذه كلما لقيتها. وهي ما انفكت تصرّ على أن أبدي لها التوقير المطلوب للخالات، فيما أصر من ناحيتي على عدم الاعتراف لها بهذه المكانة، وهي التي تماثلني عمراً، وإن كانت تبدو الآن شابة مكتملة الصبا. قدمت لنا شاياً وفطيرة بالسمن والسكر قبل أن يكف المطر وننصرف .

كان المطر قد غسل حجارة الطريق التي كنا نحاذر الانزلاق عليها، فنلتصق بالجدران الطينية اللزجة، لاسيما وأن القناة المتعرجة التي حفرتها الأمطار على مرّ السنين، يتدفق فيها الماء بلون الطمي الأحمر، مرسلاً هديره الذي عهدنا كلما هطلت الأمطار في كل شتاء .

ألفينا في دارنا العم عبد الغني، يجلس إلى العم أبو صافية. هو الآخر احتمى بدارنا إثر خروجه من المسجد. أمي في الداخل تعدُّ غداء. محمود وعلياء يقرآن ويكتبان، بعد أن أمضيا وقتاً مع البرد المنهمر من السماء. لاحت معالم الشيخوخة على العم عبد الغني أيضاً. لاسيما وأنه أرخى للحيته العنان فطال شعرها الأبيض، وضاقت حدقتا عينيه. وبدت التجاعيد على جانبي فمه والغضون على جبينه. يتدثر بفروة سميكة ذات صوف خراف أبيض من باطنها. يتدفأ على المنقل، فيما هو يرشف فنجان القهوة بتريث. يتحدثان عن الأحوال.. الصيرورة والمآل.. الأخطار المحدقة.. الحوادث الأخيرة في القرية.. كان الأحساس بالخطر مشتركاً بينهما ومدار حديثهما.

أبدى العم عبد الغني عجبه من غدر الزمان، وإن هذه الدنيا لاتصفو لأحد أبداً. ففي هذا الوقت بالذات أو في هذا العام تحديداً غزرت الأمطار، وفاضت الأودية، وتدفقت الأنهار، والمواسم خصبة على نحو لم يعهد من قبل. وأن الخير سوف يكون هذا العام وفيراً وعميماً .وها نحن لا ندري ماذا تخبيء لنا الأيام القادمة.

صمت الرجل. لم ينبس أبو صافية بكلمة. لبثا مطرقين زمناً، يرمقان الجمر المتقد والعم أبو صافية ينقلها بملقاط في يده، بتؤده وأناة، كأنه يرسم لوحة، أو يرصف حجارة بناء، ومع تموجات الريح يتناهى إلينا صوت الشيخ محمد رفعت يتلو آيات من القرآن الكريم تضفي على الجلسة حزناً يسري في النفس وخشوعاً. والرعد يقصف في أعقاب وميض البرق المتتابع في الأفق، والغيوم الداكنة الكثيفة تحجب عنا صفحة السماء.

أما وقد دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين في الموعد المضروب لدخولها، الخامس عشر من أيار، فقد اطمأنت القلوب الوجلة، وهجعت النفوس المضطربة. أقام الناس الأفراح، وطيَّروا الهتافات، فهاهم أولاء اخوتهم يقتحمون البلاد من كافة جهاتها، ولن تتحقق لليهود أحلامهم المريضة. أيام قليلة ويستتب الأمر للقوات الزاحفة، إذ لاقبل للعصابات اليهودية - بطبيعة الحال -- بمواجهة هذه القوات المؤلفة من جيوش سبع دول عربية. بل إن مشروع التقسيم سوف يصبح في خبر كان، و(أثراً بعد عين) كما يقول الشيخ محمد ابو العينين مباهياً، في جمع غفير من الناس.. !

انقضت أيام، ولا شغل لهم سوى الالتصاق بأجهزة الراديو، في المقاهي والمضافات، وفي منازل (السعداء) ممن يملكونه من أهل القرية. أخبار القوات المصرية والسودانية تجذب انتباههم بصورة خاصة لأن قريتهم وهذه المنطقة ميدان عملياتهم. من ثم راحوا يتابعون أخبار الجبهة الجنوبية باهتمام أكبر وتركيز أشد. في الأيام الثلاثة الأولى استطاعت تلك القوات أن تبلغ مدينة غزة، ثم المجدل. تريثت هناك لأن المستعمرات على التلال المشرفة على الطريق شمالاً كانت تقصف القوات الزاحفة، فكان عليها إذن تصفيتها أولاً بغية تأمين الطريق. وعندما أُسكِتَتْ نيران المستعمرات في غضون أيام قليلة، تابعت القوات زحفها حتى وصلت قرية أسدود، انطلق الناس يهنيء بعضهم بعضاً. يتعانقون في الطرقات والساحات العامة والمقاهي والدكاكين ... موجة من الفرح الغامر عصفت بهم. هم يعيشون الآن حقيقة الحلم الذي راود عقولهم في صحوهم ومنامهم في الحقبة الأخيرة .

صاح قائل منهم للجمهور الغفير في الساحة :

إنهم في اسدود الآن ياشباب. اسدود جارتنا الجنوبية. ولن يمضي يوم أو يومان حتى نراهم هنا بيننا بمصفحاتهم ودباباتهم ومدافعهم. أبشروا - أبشروا .

صاح آخر :

وهذه (البواريد) العتيقة لن تنفعنا بعد الآن. إخواننا القادمون سوف يبدلونها لنا برشاشات وبنادق انكليزية جديدة صالحة للقتال. أما الذخيرة فسوف تتوفر لكم بل تنثر أمامكم كالأرز..!

أعلن ثان:

لأننا سوف نرفض أن نلبث متفرجين وهم يقاتلون. إن علينا أيضاً دوراً نقوم به علينا أن نشاركهم القتال. ونحن الذين سوف نرشدهم إلى الطرق والمداخل المؤدية إلى المستعمرات اليهودية، ثم نمضي معهم إلى تل أبيب بإذن الله .

ثم يهتف ثالث :

ويلك يا تل أبيب.. جاءت أيامك.. (ثم بصوت منغّم):

..يا تل أبيب جينا لك.. يا فلسطين هنيًا لك ..

يرددون الأهزوجة وراءه جميعاً فتنشق أصواتهم أجواز الفضاء. ثم يعلو الهتاف والصياح، ويسود هرج ومرج. وتعلو الوجوه علائم البشر والبهجة. هم الآن يأمنون على أرضهم وأرواحهم، وأعراضهم. وموسم الخير القادم والاستثنائي هذا، سوف يكون لهم بعون الله. فلقد اقترب موسم الحصاد ..! اللاجئون في القرية أيضاً سوف يعودون إلى بلدانهم .

لكن الأيام تمضي تباعاً ولايصل الجيش المصري .

".. أين هم أيها الأخوة.. لماذا لا نرسل وفداً منا يستطلع الأمر. اليهود أيضاً بدأوا من جديد تحرشاتهم من حولنا بالقصف، عن بعد حيناً، والهجمات المباشرة على الأطراف والمشارف حيناً آخر .

تشكل وفد ضمّ عدداً من الوجهاء والمخاتير، من بينهم الشيخان أبو العينين والعطار، لمقابلة القيادة المصرية في اسدود حملتهم إليها المصفحة التي كسبوها في آخر معركة مع اليهود .

قابل الوفد ضباطاً مصريين. تعرف إليهم بأسمائهم ورتبهم. تحدث أعضاء الوفد إليهم مسهبين في الشرح والتوضيح. لكن هؤلاء أجابوا، بعد الرجوع إلى قائدهم العام (اللواء المواوي) بأن الجيش يتقدم حسب خطة مرسومة، لا تتضمن الزحف الآن إلى يبنا. وأن خطة دخول يبنا هذه سوف يتم تنفيذها في وقتها المناسب والمحدد من القيادة العليا. وهذا سرٌ عسكري لا ينبغي البوح به.

كانت هذه الاجابة مفاجئة وغير شافية، مما اضطرهم إلى إعادة شرح

الموقف برمته. بيّن لهم هؤلاء أن الطريق مابين يبنا واسدود شبه خالية من العقبات والعوائق، ليس هناك سوى مستعمرة (غان يبنا) الصغيرة والتي لاتعني شيئاً أمام هذه القوات، وأن ليس عليهم سوى أن يتحركوا باتجاه الشمال، لكي يكسبوا موقعها المتميز، إذ هي تطل من ارتفاعها الشاهق على كافة السهول المحيطة بها. وعلى مرمى القذائف تقع رخبوت المستعمرة الكبيرة والخطيرة معاً. يكفي أن تسقط (رخبوت)، وبعدها (ريشون) ليصبح الطريق إلى يافا وتل أبيب مفتوحاً أمام القوات الزاحفة. هذا الموقع المسيطر على المنطقة يعينهم التمركز فيه على إنجاز مهمتهم على نحو مثالي، بغير خسائر مادية أو بشرية. أبدى الضباط عواطفهم الأخوية الفياضة. بل هم أبدوا الكثير من الحماس، والرغبة في التحرك فوراً لو كان الأمر بأيديهم. لكنهم بعد أن رجعوا إلى قيادتهم، عادوا للقاء الوفد آسفين. ذلك أن القيادة العليا في القاهرة، المؤتمرة بأمر القائد الأعلى الملك فاروق لاتوافق على ذلك. كان تأثر الضباط واضحاً. عرف الوفد أسماء بعضهم. البكباشي جمال عبد الناصر، الصاغ صلاح سالم.. اليوزباشي أنور السادات. ولم يكن هؤلاء أقل استياءً لجواب القيادة من أعضاء الوفد أنفسهم. إذ هم يرون أنهم، على الرغم من قناعتهم بسلامة ما طرح عليهم وجدواه الفائقة عسكرياً، لايستطيعون أن يصنعوا شيئاً حيال تلك التعليمات الحازمة الصارمة لقيادتهم، ورغم ضعف حججها وهزال ذرائعها .

أحسّ أعضاء الوفد بالاحباط. وبأن مهمتهم باءت بالفشل. عندئذ أعلنوا أمام إخوانهم المصريين، ربما لكي يبرئوا ذمتهم، أو تعبيراً عن غيظهم. ".. إن قريتنا تسقط إذن. وحدنا لن نقدر على صد القوات اليهودية المدجَّجة بالسلاح. نحن أيها الأخوة لاينقصنا الرجال ولاتعوزنا العزيمة.. السلاح وحده هو ما نفتقر اليه.. والسلاح تملكونه أنتم ."

كان رد الضباط الأخير المتسم بالمرارة .

- تقول قيادتنا، أيها السادة، ليحتلها اليهود اليوم، لنخرجهم نحن منها غداً..!

دهش القوم.. بل صعقوا، فقال قائلهم :

- هل رأي القيادة هذا، أيها الأخوة، يتسم بالمسؤولية.. ؟

قال آخر :

- ولماذا يجب أن ندعهم يحتلونها أولاً.. ؟

قال الشيخ محمد وهو يضرب كفاً بكف، وبصوت ملتاع :

- هل أدخلتم في حسابكم كم سوف يكلف ذلك من الضحايا، سواء جنودكم أو أهل القرية واللائذون بها. ماذا يحدث لهؤلاء؟ ولماذا تخسرون موقعاً هو في يدكم الآن مجاناً.. بل كأننا نقدمه هدية منا للعدو..؟ أجل لماذا يجب أن تخسروا الرجال والسلاح أولاً، في حين أنتم مدعوون لتسلمها بغير قتال ودونما تضحيات؟.. أليس عجيباً هذا أيها الأخوة ..؟

أضاف الشيخ علي العطار وهو يهز رأسه في أسف وألم :

- تصوروا أي ثمن سوف ندفعه نحن وتدفعونه أنتم اذا لم تستجب قيادتكم لندائنا .

أطبق صمت ثقيل. تتماهى عواطف الجانبين، كما يتماثل الاحساس بالعجز. يتشابه الموقف رغم اختلاف المواقع ..

وانتهت اللقاءات التي لم تسفر عن النتيجة المرجوّة. ودّع الرجالُ الرجالَ في جوٍّ يتسم بالحرج والكآبة .

عاد الوفد خائباً، كسيراً، مهموماً، لايدري ماذا ينقل لتلك الآلاف المؤلفة المنتظرة هناك بقلوب مفعمة بالرجاء والأمل .

أصوات القذائف تهدر من بعيد. نصيخ السمع علّنا نتبين مصدر القصف. لكنه يتناهى إلينا من شتى الأنحاء. تسهر الأعين الذابلة.. يحدق الجميع في الجميع.. لايدري أحد ماذا يحل بأحد الآن وفي الغد.. من يمضي ومن يبقى.. نمكث في ديارنا أم نهجرها إلى المنافي البعيدة.. نحيا أم نموت.. يوشك أن يتساوى كل أولئك.. !

فتحية ومن معها، وسائر من في دارنا اخلدوا للنوم رغم أصوات القصف التي لاتتوقف. أعياني الترقب، وأرهقني السهر.

أمضي بعيداً.. بعيداً إلى الماضي السحيق.. يلوح لي وجه أبي مشرق المحيا.. ممسكاً بيدي. وقبل أن نجتاز الطريق إلى طرفه الآخر. تنطلق رصاصات غادرة هوجاء. يتداعى.. يترنح.. يسقط مضرجاً بدمائه. أنكبّ على صدره باكياً، ضارعاً، مستجدياً أن يبقى.. أن يعود.. جرس المدرسة يدق من بعيد، رتيباً حزيناً.. والمرثيات ضباب رقيق.. ولكن.. ولكن هاهو ذا يعود.. إنه هناك على الضفة الأخرى للنهر. أشجار خضراء باسقة، تطاول السماء ارتفاعاً.. ظلالها مفروشة بلا نهاية فوق أرض حمراء كالحنّاء. نحن، جموع الناس هنا على الجانب الآخر، يفصل النهر العظيم بيننا بأمواجه المتدفقة.. حمراء اللون.. عجيبة هذه المياه بلونها القاني. عواصف هوجاء توشك أن تقتلعنا من فوق الأرض.. أعاصير عاتية تمزق الستائر وتطيح بالشرفات.. تحطم النوافذ والأبواب.. تقصف الأشجار وتبعثر الورود والأزهار.. تتطاير أوراقها في شتى الأنحاء فتحجب وجه الشمس، ويحل من بعد الظلام. أمطار قانية اللون تنهمر في غزارة وسخاء، لم يعهد مثلها من قبل، تحيل الأرض إلى بحيرات. وحوش كاسرة تنقض مشهرة أنيابها على حملان بيضاء وديعة. تحمل على ظهورها أطفالاً يرسلون ضحكات جذلى يتجاوب صداها مابين الأرض والسماء.

أبي مابرح قائماً هناك على الضفة الأخرى من النهر. شاخصة أبصارنا إليه. تظلل وجهه سحابة حزن، ويطلُّ من عينيه أسى وغيظ كظيم. ألوّح له بيدي مناشداً إياه أن يمدّ لنا جسراً نعبره اليه. ولكنه يشير بيده إليّ وللآخرين وقد امتدت سبّابته نحونا، حتى أوشكت أن تلج في أحداق عيوننا وهو يقول بصوت ضخم هادر :

" ابقوا حيث أنتم. لاتبرحوا دياركم، فذلك خير لكم ولأجيالكم القادمة. لقد صمدتم أحقاباً وأحقاباً على مرّ الزمن فما بالكم اليوم تتخاذلون.. إن تصبروا فالنصر آتٍ لامحالة. أفلا تصبرون وأنتم الأعلوْن؟ أناشدكم ألاّ تبرحوا أرضكم الغالية تحت أي ظروف. إن لم تفعلوا فأمامكم يا أحبتي أهوال وأهوال، مما تعلمون ومما لاتعلمون، ومما لايخطر لكم على بال. لعلكم الآن لاتقدّرون قيمة الأرض التي تربضون فوقها حق قدرها، ذلك أنها في متناولكم وتحت أقدامكم ثابتة لاتميد، بيد أنكم ستعرفون معنى ذلك في قادم الأيام اذا ما قدّر لكم أن تفقدوها وإني لأرى ذلك رأي العين. وما أنا إلا ناصح لكم وأمين .

ثم اقترب مني وئيد الخطا، وحزيناً أيضاً. ضمني إلى صدره. ربت على ظهري، ومسح رأسي بيده التي بدت أضخم مما أعرفها. أمعن النظر في وجهي.. قبلني.. ثم استدار ليمضي، فأصيح بصوت لايبرح حنجرتي، ضارعاً إليه أن يعود.. لكنه لايعيرني التفاتاً.. يمضي بعيداً وئيد الخطا كما جاء، يختفي بين أدغال كثيفة ذات أشجار خضراء.. شديدة الاخضرار ..

تتلفت حولي.. لم أر أحداً.. أين ذهبت تلك الجموع ..؟

يتوالى القصف، وتندلع الحرائق في كل مكان.. عصف الرشاشات الهادر يرج الأرض رجاً.زخات الرصاص مطر ينهمر كالسيل في يوم شتائي عاصف.. شتاء الشظايا والقنابل ودوي الانفجارات يتدفق بلا هوادة ..

يهرع الناس أفواجاً أفواجاً يعتزمون الرحيل.. فأجدني بين الجموع أهيب بهم أن يستمعوا إلي لأنقل إليهم رسالة أبي..

بعضهم يصيخ السمع، متظاهراً بالاستماع لما أقول،. وبعض يلقي إليّ بنظرات ساخرة، مرددين بأصوات مختلفة، متباينه قوة وضعفاً علوّاً وخفوتاً :

.. لقد أصيب (المسكين) في عقله نتيجة للقصف بالجنون ..!

.. ألا تسمعون : إنه يحدثنا عن أبيه الـذي قضـى نحبه منذ سنوات عديدة خلت ..!

.. لن نستمع إلى هذيانه ..لقد أصابه مسٌ من الجنون.

.. إذا كنا نرحل اليوم فلكي نعود غداً مع القوات الزاحفة القادمة من الجنوب..

ويضيع صوتي في الزحام بين زخّات الرصاص وهدير المدافع.

(هناك جزء ثانٍ)

المؤلف

- مواليد : يبنا – فلسطين
- دراسة : الادب الانكليزي -جامعة دمشق
- عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق
- عضو اتحاد الكتّاب الفلسطينين
- عضو رابطة الأدب الحديث بالقاهرة
- عضو رابطة الكتاب الاردنيين بعمان
- أمين سر جمعية القصة والرواية باتحاد الكتاب العرب حتى عام ١٩٩٦
- رئيس تحرير مجلة صوت فلسطين ١٩٧٠
- شارك في عديد من مؤتمرات الأدباء العرب والفلسطينين
- أسهم بالعديد من الأعمال والنشاطات في الاذاعات العربية
- يكتب في الصحافة العربية منذ أواسط الخمسينات
- ترجمت بعض أعماله للانكليزية والفارسية.

□

صدر للمؤلف

أشرقت الشمس - قصص - دار ممفيس - القاهرة ١٩٦١

النافذة المغلقة - قصص - دار طربين - دمشق ١٩٦٥ طبعة أولى
دار الجليل - دمشق ١٩٩١ طبعة ثانية

أضواء على المؤامرة الكبرى - بحث سياسي - منظمة التحرير الفلسطينية - دمشق ١٩٦٥

المصير - مسرحية - دار أطلس - دمشق ١٩٦٧ طبعة أولى
- دار الانجلو - القاهرة ١٩٧٢ طبعة ثانية
- دار الطفولة والشباب - بيروت -١٩٨٣ طبعة ثالثة

سنلتقي ذات يوم - قصص - وزارة الثقافة - القاهرة ١٩٦٩

قادم غداً - قصص - اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينين - دمشق ١٩٨٠

الطريق إليها - قصص - دار الجليل - دمشق ١٩٩٠

الأرض ترفض الجثث - قصص - دار الجليل - دمشق ١٩٩٤

وأقبل الخريف - قصص وزارة الثقافة - دمشق ١٩٩٧

قبل الرحيل - رواية - اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٩٧

المحاكمة - مسرحية (تصدر قريباً)

حتى وداعاً لم تقولي - شعر (تصدر قريباً)

□



رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية :

قبل الرحيل : رواية / يوسف جاد الحق - دمشق : اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٩٧ - ٣١١ ص؛ ٢٥ سم.

١- ٨١٣,٠٣ ج ا د ق *٢- ٨١٣,٠٠٩٥٦٤ ج ا د ق*

٣- العنوان *٤- جاد الحق*

ع ١٦٢٢/١٠/١٩٩٧ *مكتبة الأسد*



هذا الكتاب

رواية تتناول الأحداث والوقائع التي سبقت النزوح الأول للشعب العربي الفلسطيني وعملية التسلل الصهيوني إلى فلسطين في ظل الانتداب البريطاني الداعم لعصابات القتل والتدمير والمساند لها، ويصور لنا الكاتب بأسلوب فني ولغة جميلة، نماذج حية من نضال أبناء فلسطين وقوافل الشهداء، ومنطلقاً من واقعية الحدث وأمانته للأبعاد والظروف التي سبقت ورافقت اغتصاب فلسطين بروح موضوعية وحس قومي أصيل.

مطبعة إتحاد الكتاب العرب
دمشق

السعر داخل القطر ٢٥٠ ل.س
السعر خارج القطر ٣٥٠ ل.س